وزارة المعارف العمومية

الفاطميون في مصر

وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص

وضعه بالانجليزية وترجمه الى العربية

الدكتور حسن ابراهيم حسن

دبلوم المعلمين العليا

وليسانسيه فى العلوم التاريخية والجغرافية ، ودكتور فى الآداب (الجامعة المصرية)

ودكتور فى الفلسفة (Ph. D.) ، ودكتور فى الآداب (D. Lit.) (فى التاريخ الاسلامى) جامعة لندن

وعضو الجمعية الاسيوية الملكية بانجلترا (M. R. A. S.)

وأستاذ التاريخ المساعد بكلية الآداب بالجامعة المصرية

اعتمدت جامعة لندن هذه الرسالة لدرجة الدكتوراه فى الآداب

راجع الترجمة

حضرتا محمد أحمد حسونة افندى وزكى محمد المهندس افندى

المفتشان بوزارة المعارف

المطبعة الأميرية بالقاهرة

١٩٣٢

وزارة المعارف العمومية

الفاطميون في مصر

وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص

وضعه بالانجليزية وترجمه الى العربية

الدكتور حسن ابراهيم حسن

دبلوم المعلمين العليا

وليسانسيه فى العلوم التاريخية والجغرافية ، ودكتور فى الآداب (الجامعة المصرية)

ودكتور فى الفلسفة (Ph. D.) ، ودكتور فى الآداب (D. Lit.) (فى التاريخ الاسلامى) جامعة لندن

وعضو الجمعية الاسيوية الملكية بانجلترا (M. R. A. S.)

وأستاذ التاريخ ~~المساعد~~ بكلية الآداب بالجامعة المصرية

اعتمدت جامعة لندن هذه الرسالة لدرجة الدكتوراه فى الآداب

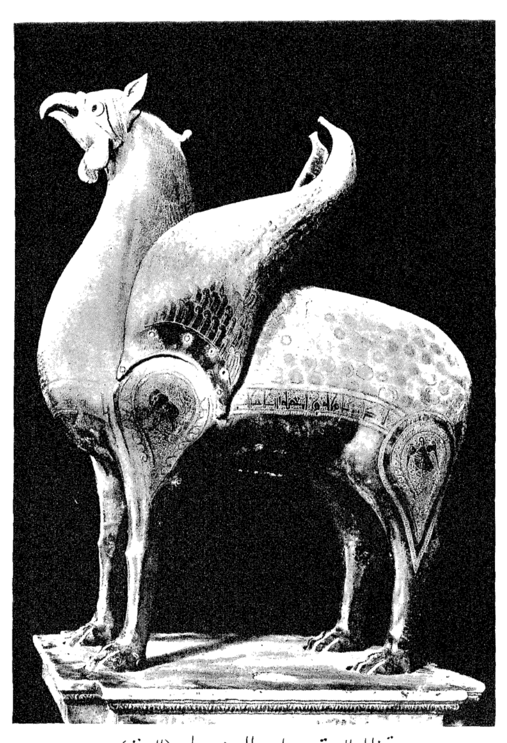
راجع الترجمة

حضرتا محمد أحمد حسونة افندى وزكى محمد المهندس افندى

المفتشان بوزارة المعارف

المطبعة الأميرية بالقاهرة

١٩٣٢



تمثال للعنقاء من الشبهان (البرونز)

SURVEY OF EGYPT

تصدير الكتاب

من كلمة للمرحوم السير توماس أرنولد

ان الرسالة التى تقدم بها الدكتور حسن ابراهيم حسن لامتحان درجة الدكتوراه فى الآداب (D. Lit.) بجامعة لندن ، أكسبته أقصى ما يمكن من إطراء الممتحنين المعينين من قبل الجامعة ، الذين عدوها مجهودا نادر النظير . وقد اشتملت هذه الرسالة على بحث تام مفصل عن الدولة الفاطمية ، وأسباب قيامها وسقوطها ، وأعمالها السياسية والدينية ، وكذا نظام الحكومة والادارة ، ومواردها المالية ، وحكامها ، وساستها وشعرائها . وقد اعتمد على دراسة عميقة للمصادر الأصلية الكثيرة التى لا توجد أحيانا إلا مخطوطة . ولتحقيق الغاية المنشودة من جمع مصادر هذه الرسالة ، كان لزاما على الدكتور حسن أن يطلع على المخطوطات بمكاتب برلين ، والقاهرة ، وليدن ، ولندن ، واكسفورد ، وباريس . ولا يكاد يخلو أى باب من أبواب هـذا الكتاب من إضافة مباحث علمية طريفة ، تضىء الطريق للباحثين فى آثار الدولة الفاطمية . ولا ريب فى أن الكتاب يُعتبر أعظم وثيقة ظهرت فى هذا الموضوع إلى الآن . وتجلى فيه قدرة المؤلف العلمية ومنزلته الأدبية اللتان امتاز بهما فى كل كتابه ، كما تظهر أحكامه السديدة بأجلى بيان فى كشف كثير من المسائل الخفية المعقدة .

لندن فى ١٤ مارس سنة ١٩٢٨

كلمة شكر

إنى لمدين بالشكر الجزيل لأستاذى الجليل المرحوم السير توماس أرنولد (Sir Thomas W. Arnold) ، طيّب الله ثراه . فقد حظيت بالانتماء اليه والسير وراء إرشاداته العملية أثناء وجودى بانجلترا . وكان غفر الله له عمدة المستشرقين الانجليز فى التاريخ الاسلامى . فلا غرو إذا أحدث موته الفجائى فى شهر يونيه سنة ١٩٣٠ خسارة فادحة للعلم والمشتغلين باللغة العربية والتاريخ الاسلامى بوجه خاص .

كذلك أوجه خالص شكرى لحضرة صاحب السعادة عبد الفتاح صبرى باشا وكيل وزارة المعارف الذى يرجع اليه الفضل فى نشر هذا الكتاب ، والى حضرة الأستاذ الدكتور أحمد ضيف وحضرة الأستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار لتفضلهما بقراءته ، وحضرة الأستاذ حسن الهوارى أمين دار الآثار العربية لما قدمه من المساعدة فى اختيار ووصف صور الكتاب .

القاهرة فى ٢٩ نوفبر سنة ١٩٣١

محتويات الكتاب

صفحة

الباب الثانى

وصول الفاطميين الى مصر

الباب الثالث

تنظيم الدعوة الفاطمية فى مصر : الدعاية العلمية

الباب الرابع

الدعاية الأدبية

الباب الخامس

الدعاية السياسية

الباب السادس

سياسة الفاطميين للمصريين

الباب السابع

ثروة مصر . صـــلات الخلفاء

صفحة

الباب الثامن

مظاهر الأبهة والجلال للخليفة فى صلاة الجمعة والأعياد والولائم

الباب التاسع

سقوط الفاطميين وأسبابه

صفحة

الباب العاشر

الخاتمة

فهارس الكتاب

الفاطميون في مصر
وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص

تحليل الكتاب

الباب الاول :

بحث فى تاريخ الدعوة الشيعية إلى قيام الدولة الفاطمية فى شمال إفريقية : إبتداء الدعوة الشيعية فى خلافة عثمان بن عفان ، ومتابعة انتشارها أيام الدولة الأموية ، وتحويل حق الإمامة من العلويين إلى العباسيين ، وما كان هنالك من العداء المشترك بين هؤلاء وأولئك بعد قيام الدولة العباسية . فشل الدعوة الشيعية وعجزها عن تأسيس إمبراطورية مستقلة للعلويين فى الشرق . إنتقال هذه الدعوة إلى الغرب (شمال إفريقية) ، والأسباب التى أدت إلى نجاحها فى هذه البلاد . كلمة موجزة عن الفتوح التى قام بها أبو عبد الله الشيعى فى شمال إفريقية حتى تأسيس الخلافة الفاطمية .

الباب الثانى :

بحث فى نسب الفاطميين ، أهمية مصر للفاطميين باعتبارها ميدانا لنشر عقائد المذهب الفاطمى ، متوخين فى ذلك الكلام على النقط الآتية :

(أ) مركز مصر الجغرافى بين الشرق الذى فشلت فيه الدعوة الشيعية ، والغرب الذى نجحت فيه هذه الدعوة فى تكوين إمبراطورية مستقلة .

(ب) ثروة مصر وهدوء الأمر فيها ، مع فقر غيرها من الولايات الاسلامية فى الشرق واضطراب أمورها .

(ج) الأحوال التى ساعدت على استقرار سلطان الفاطميين فى مصر وفى الشرق عقب غزوهم لمصر .

(د) ولأجل هذا عنى الفاطميون عناية خاصة بجعل مصر موطن الدعوة الشيعية بدلا من إفريقية الشمالية .

الباب الثالث :

الدعاية العلمية : الفاطميون وتنظيم الدعوة الشيعية — الدينية والسياسية — فى المساجد والمكاتب ، حتى أصبح قصر الخليفة الفاطمى مركزا لهذه الدعوة التى قامت تحت إشراف داعى الدعاة وتابعيه من الدعاة ، يؤيدهم فى ذلك الخلفاء الفاطميون أنفسهم .

الباب الرابع :

الدعاية الأدبية : الدور الذى لعبه الشعراء والكتاب والعلماء فى نشر الدعوة الفاطمية ، وتأثير العطايا التى كان يجزلها الخلفاء الفاطميون ووزراؤهم وغيرهم من رجالات دولتهم فى نفوس العلماء وبخاصة الشعراء . وسنفرد لكل عصر من عصور الخلفاء الفاطميين بابا خاصا ، ثم نتناول الكلام على كل باب من هذه الأبواب تفصيلا .

الباب الخامس :

الدعاية السياسية : قصر أمور الولاية على المتشيعين ، الطرق التى سار عليها الفاطميون لتحويل المصريين الى المذهب الفاطمى ، فشل هذه الدعوة المحتوم ، وعلى الأخص فى بداية حكم الفاطميين ، زوال معالم المذهب السنى وتقاليده تدريجيا . قانون الوراثة فى عهد الفاطميين .

الباب السادس :

سياسة الفاطميين للمصريين :

(أ) سياسة الفاطميين مع النصارى واليهود .

(ب) سياسة الفاطميين مع أهل السنة ، تحول طائفة الموظفين المصريين الى المذهب الفاطمى ، حتى لقد أدت رغبة الناس فى الحصول على المناصب وخوفهم من القوانين الجائرة التى سنها الفاطميون ضد غير الشيعيين الى تحول بعض أهل السنة وجماعة من غير المسلمين الى المذهب الفاطمى .

(ج) سياسة الفاطميين مع الأهلين عامة .

البـاب السابع :

ثروة مصر ، صلات الخلفاء : مصادر ثروة مصر ، سرير الخلفـاء الفاطميين ، هدية جوهر للخليفة المعز ، كسوة الكعبة ، وصف قصر الوزير ابن كِلِّس ومقدار الثروة التى خلفها (باعتبـارها مثلا من أمثلة الوزراء فى الصدر الأول من أيام الفاطميين) . الدور الذى لعبه الوزراء فى الأعمـال السياسية والدينية زمن الفاطميين . وصف الثروة التى خلفها الوزير الأفضل بن بدر الجمالى (باعتبارها مثلا من أمثلة الوزراء فى العهد الأخير من أيام الفاطميين) . وصف ثروة الخلفاء الفاطميين وما تمتعت به البلاد فى عهدهم من يسر ورخاء : مسجد القرافة ، الثروة التى خلفها الخليفة الحاكم ، ناصرى خُسرو ووصفه رخاء مصر فى عهد الفاطميين ، ناصرى خسرو ووصف الاحتفال بوفاء النيل فى عهد الخليفة المستنصر ، ممتلكات الخلفاء الفاطميين ، ممتلكات المستنصر ، ممتلكات العاضد آخر الخلفاء الفاطميين ، هبات الخلفاء للمساجد ودور الكتب ، عطاياهم لكبار رجال الدولة .

البـاب الثـامن :

مظاهر الأبهة والجلال للخليفة الفاطمى فى صـلاة الجمعة والأعياد والولائم . علامات الإكبار نحو الخلفاء ، ما كان يحاط به شخص الخليفة من مظاهر العظمة والإكبار اذا ما تصدّر مجلس الدولة أو جلس فى منظرته . عقائد المذهب الفاطمى ، وما كان من ادعاء الخلفاء الإحاطة ببعض صفات الله ، أو بأن الطبيعة الإلهية قد حلت فيهم . صلاة الجمعة . كلمة عن مظاهر الجلال التى كانت تحيط بالخلفـاء وميلهم الى الجود والكرم رغبة فى جذب النـاس الى اعتنـاق مذهبهم . الاحتفال بأعياد الدولة والاشادة بذكرها باقامة الولائم الفـاخرة ، وإجزال العطايا من الملابس والمـال والطعام .

البـاب التـاسع :

سقوط الدولة الفاطمية وأسبابه : وصف مجمل لمركز مصر فى عهد الخليفتين الأخيرين من خلفاء الفاطميين ، بحث فى الأحوال التى أدت الى تدخل نور الدين والصليبيين فى أمور مصر الداخليـة ، وما تبع ذلك من تأسيس الدولة الأيوبية .

البـاب العـاشر :

مقدار نجاح الدعوة الفاطمية — السياسية والدينية — فى مصر والشرق . كيف أدت هـذه السياسة الى اقامة الخطبة للخليفة الفاطمى فى بغداد .

مقــدمة الكتاب

بســم الله الرحمن الرحيم

لقد تناولت فى بحثى هذا وعنوانه :

الفاطميون فى مصر، وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص

The Fatimids in Egypt, considered chiefly
in connection with their Politico-Religious Activities

الأعمال التى قامت بها هذه الأسرة لنشر نفوذ الشيعة من هذه النواحى وهى : تنظيم الطقوس الدينية ، و إمداد دور الكتب الشيعية بوسائل التشجيع والتعضيد ، ونشر تعاليم الفاطميين ، ونُصرة مَن فى جانبهم من الشعراء والعلماء ، وما أدخلوه من الأنظمة فى دور الحكومة ، والقوانين الشرعية ، وكذلك الأموال التى بذلوها للمساجد ودور الكتب ، ومدّ الأسمطة ، بصورة تنطوى على شىء غير قليل من الإسراف والتبذير .

وليس هنـاك — فيما أعلم — تاريخ خاص بتعاليم الشيعة — هـذه التعاليم التى قامت على يد الفاطميين فى مصر — لا فى العربية ، ولا فى غيرها من اللغات . ومع أن هناك شواهد لذلك فى كتب التاريخ العام ، فلم يحاول أحد من المؤرخين أن يبين لنا الأمور الآتية :

أولا — كيف قام الفاطميون بتأسيس دعوتهـم وتنظيمها ، وتعهد نشرها فى المساجد ودور الكتب وفى القصور ؟

ثانيا — كيف ساعدوا على نشر هـذه الدعوة بتشجيعهم الشعراء والعلمـاء والكتّاب ، باسناد مناصب الدولة إليهم وإجزال العطايا لهم ؟

ثالثا — كيف كانت إدارة الشؤون العامة يعهد بهـا للتشيعين خاصـة ، ويُفصـل فى جميع القضايا طبقا لأحكام مذهب الشيعة ؟

رابعا — كيف ساعدت ثروة مصر الخلفـاء الفاطميين على اكتساب عاطفة الأهلين ، بفضل هـذه الصلات والعطايا التى كانوا يغدقونها عليهم : من ملبس ومطعم وأموال توزع عليهم ، على ما جرت به العادة فى ذلك العصر .

كل هذه مسائل لم يتناولها أحد بالبحث ، ولم تجمع فى كتاب واحد .

قال رينى ديسو (René Dussaud) فى كتابه " تاريخ النصيرية ومذهبهم الدينى " (Histoire et Religion des Nosairis)[1] : " كان عهد الفاطميين عهد رخاء لمصر ، كما كان عهد تسامح دينى لم ير مثله الا فى القليل من عصور التاريخ الاسلامى " .

ولقد اخترت هذا العصر من عصور تاريخ مصر ، لأثبت بالدليل القاطع ما تمتاز به مظاهر العهد الفاطمى فى مصر . ولتحقيق الغاية المرجوة من هذا البحث ، أجهدت نفسى فى مراجعة المواد المتعددة التى بها استطعت أن أوضح بعض المسائل الغامضة ، بفضل هذه المادة الغزيرة التى اهتديت اليها ، ولم تتناولها يد الطباعة بعد . يضاف الى ذلك ما وصلت اليه من المعلومات التى استقيتها من المصادر الأصلية الأخرى : تلك المصادر التى ظهرت فى عالم الكتابة منذ عهد قريب .

البـاب الأول :

ويتناول الكلام على تاريخ الدعوة الشيعية الى قيام الخلافة الفاطمية وتأسيسها فى شمال إفريقية . وقد استعنت على بحثه بشىء غير قليل من الكتب التى لم تطبع بعد ، والتى توجد فى تآليف ابنا لمرتضى لدين الله أحمد بن يحيى المتوفى سنة ٣٢٥ هـ (٩٣٦ — ٩٣٧ م) ، ويحيى بن الحسين المتوفى سنة ٣٦٠ هـ (٩٧١ م) ، وشرف الدين الهدوى المتوفى سنة ٦٦٥ هـ (١٢٦٧ م) ، وفى كتاب " المقفى الكبير " لتقى الدين المقريزى المتوفى سنة ٨٤٥ هـ (١٤٤١ م) . هذا عدا المصادر الأخرى المطبوعة .

البـاب الثـانى :

ويبحث عن نسب الفاطميين ، وعن أهمية مصر لهم لنشر عقائد مذهبهم . وقد عالجت هذا الموضوع ، مستعينا بالمعلومات التى أوردها تقى الدين المقريزى فى كتابيه " اتعاظ الحنفا بأخبار الخلفا " ، وفى " التاريخ الكبير المقفى " . كما أننى حصلت على فوائد تذكر من غير هذين المصدرين من كثير من المصادر الهامة ، من أمثال ما كتبه أوتيخا (أو يحيى بن البطريق المتوفى سنة ٣٢٨ هـ (٩٤٠ م) ، وأبى عمر الكندى المتوفى سنة ٣٥٠ هـ (٩٦١ م) ، وعريب بن سعد القرطبى المتوفى سنة ٣٦٦ هـ (٩٧٦ — ٩٧٧ م) ، ومسكويه المتوفى سنة ٤٢١ هـ (١٠٣١ م) ، وابن سعيد المتوفى سنة ٦٧٣ هـ (١٢٧٥ م) .

---

[1] (Paris, 1900, p. 49.)

البـاب الثـالث :

ويبحث عن تاريخ الدعوة الفاطمية – السياسية والدينية – فى المساجد والمكاتب وفى القصر. ولهذه الرسائل التى يطلق عليها "رسائل الحاكم بأمر الله والقائمين بأمر دعوته" أهمية خاصة فى بحث هذا الموضوع . هذا، وإن تلك المعلومات التى أمدنا بها المقريزى ودى ساسى (De Sacy) لا تقل أهمية عما جاء فى " رسائل الحاكم بأمر الله ... الخ" .

البـاب الرابع :

ويتنـاول الكلام على أثر الشعراء والكتاب والعلمـاء فى نشر الدعوة الفاطمية ، والعطايا التى كان يبذلهـا الخلفاء فى نفوس هؤلاء الكتاب . وقد استعنت ببعض المباحث التى لم تنشر بعـد عن شعراء مصر فى عهد الفاطميين ، والتى وردت فى كتاب "خريدة القصر" لعماد الدين الأصفهانى المتوفى سنة ٥٩٧ هـ (١٢٠١ م) . بيد أن ما كتبه الثعالبى المتوفى سـنة ٤٢٩ هـ (١٠٣٧ م) ، وأبو العلاء المعرى المتوفى سنة ٤٤٩ هـ (١٠٥٧ م) ، وعمارة اليمنى المتوفى سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٤ م) ، وياقوت الحموى المتوفى سنة ٦٢٦ هـ (١٢٢١ م) ، وابن خلكان المتوفى سنة ٦٨١ هـ (١٢٨١ م) ؛ ليس أقل شأنا ممـا كتبه عماد الدين الأصفهانى فى هذا الموضوع .

البـاب الخـامس :

وفيه نوضح بالدليـل كيف كانت أمور الدولة تُقصر على المتشيعين . وانتفعت فى بحثه بشىء كثير من المبـاحث التى فى مخطوطات ابن زولاق المتوفى سـنة ٣٨٧ هـ (٩٩٧م) ، والقُضاعى المتوفى سنة ٤٥٤ هـ (١٠٦٢ م) ، والمقريزى المتوفى سنة ٨٤٥ هـ (١٤٤١ م) ، وابن حَجَر العسقلانى المتوفى سنة ٨٥٣ هـ (١٤٤٩ م) . ولقد استطعت بفضـل هذه المباحث أن أُوضِّح بعض المسائل ، كحالة أهل السنة بالنسبة الى المتشيعين ، والفصـل فى القضايا وما يتعلق منهـا بقانون الوراثة فى العهد الفاطمى وفق نظام مذهب الشيعة .

البـاب السـادس :

وقد تصديت فيه للكلام على " سياسة الفاطميين للمصريين " . وحصلت فى استقصائه على آراء جديدة مستمدة من مؤلفات ابن زولاق ، والذهبى المتوفى سنة ٧٤٨ هـ (١٣٤٧ – ١٣٤٨ م) ؛ ولاسيما ما يتعلق بهذا الباب من الاحتفال بعيد " الغطاس " ، وما كان من لعن الصحابة على المنابر فى أيام الجمع ، وما أحـلّه الفاطميون بمن يذكر اسم صحـابى من الصحابة ، وما حدث فى عهد الحاكم من تحريم الخروج على النساء .

الباب السابع :

وفيه بحث عن ثروة مصر ، تلك الثروة التى أعانت الخلفاء الفاطميين على أن يعطوا عطاء من لا يخشى فقرا ، لاكتساب عاطفة الناس ومودتهم . ولقد أمدتنى هذه المعلومات التى دوّنها الذهبى ولم تظهر فى عالم النشر بعد ، بصحيفة دوّن فيها شوارد الأشياء التى اشتملت عليها هدية صلاح الدين الأيوبى لمتبوعه نور الدين . ومن هذه الصحيفة نتبين مقدار الثروة التى خلفها العاضد آخر الخلفاء الفاطميين . وهى بهذا الاعتبار أشبه بهاتين الصحيفتين اللتين دوّنهما ابن ميسّر والمقريزى عن الثروة التى خلفها اثنان من الخلفاء الفاطميين غير العاضد .

الباب الثامن :

وموضوعه " مظاهر الأبهة والجلال للخليفة فى صلاة الجمعة والأعياد والولائم " . وقد أمدّتنى الكتب التى ألفها ابن زولاق ، والرسائل المسماة " رسائل الحاكم بأمر الله " ، وكذا ما كتبه القضاعى وابن الجوزى والذهبى بمادة جديدة استعنت بها فيما كتبته عن عقائد مذهب الفاطميين . وإننا نتبين من استقصاء هذه المصادر ، كيف أن الشعراء المتشيعين نسبوا الى الخلفاء الفاطميين منذ تأسيس دولتهم القوى التى فوق الطبيعة ، تلك القوى التى لاتكون الا لله جلت قدرته . وقد بقى هذا الاعتقاد الى عهد الخليفة المعز . ثم جاء حفيده الحاكم فاشتط فيه . وقد أمدنا المقريزى فى كتابه " المقفى الكبير " بمعلومات طريفة عن السماط الذى كان يقام فى عيد الفطر وعيد الأضحى .

الباب التاسع :

وفيه بحث مستفيض للأحوال التى حدت بنور الدين والصليبيين الى التدخل فى أمور مصر الداخلية ، وللأسباب التى أدت الى سقوط الدولة الفاطمية . ولقد استعنت فى هذا البحث بما كتبه ابن الجوزى والذهبى ؛ كما أننى استعنت بما جاء فى هذه المصادر الهامة ، من أمثال المؤلفات التى خلفها لنا عمارة اليمنى المتوفى سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٤ م) ، وأسامة بن منقذ المتوفى سنة ٥٨٤ هـ (١١٨٨ م) ، وأبو صالح الأرمنى المتوفى سنة ٦٠٥ هـ (١٢٠٨ م) ، وابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠ هـ (١٢٣٢م) وابن شداد المتوفى سنة ٦٣٢ هـ ، وأبو شامة المتوفى سنة ٦٦٥ هـ (١٢٦٦ — ١٢٦٧ م) .

الباب العاشر :

وعنوانه " مقدار نجاح أعمال الفاطميين السياسية والدينية " . وهو بيان موجز للنتائج التى اهتديت اليها فى هذا البحث . والغرض منه الوقوف على ما كان يرمى اليه الفاطميون من أعمالهم السياسية والدينية .

ولكى تكون هذه الرسالة طريفة فى الموضوع الذى نحن بصدد الكلام عليه ، قمت ببحوث جمة بغية الاهتداء الى كشف حقائق طريفة فى مادة التاريخ ، متوخيا فى ذلك طريقة النقد البعيد عن الأغراض . فدرست كثيرا من مخطوطات المتحف البريطانى بلندن ، والمكتبة الأهلية بباريس ، والمكتبة الملكية بالقاهرة ، والمكاتب الملحقة بجامعات برلين وليدن (فى هولنده) وأكسفورد .

وكان من أثر هذا البحث والاستقراء ، أن أتيح نقل مقدار غير قليل من مسائل التاريخ أدمجته فى هذه الرسالة . على أن هذا القدر ليس إلا قليلا من كثير مما نسخته من المخطوطات الكثيرة ؛ لأن بعض هذه المخطوطات لم يمدنى إلا بالنزر اليسير الذى يمكن أن نسميه جديدا .

هذا ما قمت به من بحث واستقصاء للمصادر الأصلية التى لا توجد إلا مخطوطة . أما عن غير هذه من المصادر المطبوعة ، فيحسن بى أن أشير الى ما طبع منها حديثا ، ولم ينل بعد كل عناية المؤرخين . أذكر من هذه " ديوان ابن هانئ الأندلسى " المتوفى سنة ٣٦٢ هـ (٩٧٣ م) ، وكتاب "الاشارة الى من نال الوزارة " (طبع سنة ١٩١٩) لابن منجب الصيرفى المتوفى سنة ٥٤٢ هـ (١١٤٧ م) ، و" تاريخ مصر" (طبع سنة ١٩٢٣) لابن ميسّر المتوفى سنة ٦٧٧ هـ (١٢٧٨م) ، و" اتعاظ الحنفا بأخبار الخلفا " (طبع سنة ١٩٠٨) لتقى الدين المقريزى المتوفى سنة ٨٤٥ هـ (١٤٤١ م) .

أما مؤلفا الكتابين الأول والثانى فكانا ، على ما سنوضحه بعد ، من الكتاب المعاصرين للدولة الفاطمية . ولقد كان كل من ابن ميسر الذى مات بعد سقوط الفاطميين سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١م) بمائة وعشر سنين ، والمقريزى الذى مات بعد ابن ميسر بنحو قرن ونصف قرن حجة دامغة فى هذا الموضوع . يضاف الى ما تقدم أن المقريزى نفسه كان شيعيا متحمسا لمذهب الشيعة ، كما أنه كان ينتسب الى الفاطميين ؛ وقد وصل الى يده عدد غير قليل من كتب ألفها بعض الكتاب المعاصرين للفاطميين أنفسهم .

أما عن الكتّاب المحدثين الذين كتبوا عن العصر الفاطمى ، فيجب أن نذكر كتب دى ساسى (De Sacy) وكترمير (Quatremère) ووستنفلد (Wüstenfeld) ودى غويه (De Goeje) وستانلى لين پول (Stanley Lane-Poole) وأوليرى (O'Leary) .

ولقد أمدّنى دى ساسى فى كتابه المسمى "استعراض لديانة الدروز" (Exposé de la Religion des Druzes) الذى صدّره بمقدمة عن حياة الخليفة الحاكم ، وكتابه المسمى "مذكرات لغوية عن العرب" (Chrestomathie Arabe) بشروح مستوفاة للنصوص الخاصة بمذهب الدروز ، سهلت علىّ الموضوع الذى قمت ببحثه عن القصر واتخاذه مركزا للأعمال السياسية والدينية التى قامت على يد الفاطميين ، ذلك الموضوع الذى بنيته على أساس كتاب "رسائل الحاكم بأمر الله" .

أما كتاب وستنفلد المسمى " تاريخ الخلفاء الفاطميين " (Geschichte der Fatimiden – Chalifen) ، وهو أول ما كتب من المؤلفات الحديثة عن الفاطميين ، وما كتبه كترمير فى المجلة الأسيوية الفرنسية فى أغسطس سنة ١٨٣٦ (Journal Asiatique, Août, 1836) ، تحت عنوان "مذكرات تاريخية عن أسرة الخلفاء الفاطميين" (Mémoires historiques sur la dynastie des Khalifes Fatimites) ، حيث تناول هذا الكاتب الكلام على أصل الفاطميين ، وكذا كتاب دى غويه المسمى "مذكرات عن قرامطة البحرين والفاطميين" (Mémoire sur les Carmathes du Bahraïn et les Fatimides) ، وقد اعتمد مؤلفه على مصادر عديدة ، وان كان قد اقتصر فى كلامه على الأسرة التى نشأ عنها الفاطميون من حيث اتصالهم فى النسب بالقرامطة — كل هذه الكتب مصادر تاريخية لاشك فى أنها تسهل على الباحثين البحث فى تاريخ الفاطميين .

والآن نأخذ فى الكلام على ما كتب بالانجليزية عن تاريخ الفاطميين فأقول : إن هذه العبارات التى أوردها ستانلى لين پول فى كتبه " تاريخ مصر فى العصور الوسطى " (A History of Egypt in the Middle Ages) و " سيرة القاهرة " (The Story of Cairo) و "صلاح الدين وسقوط مملكة بيت المقدس " (Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem) ، وإن كانت قد كتبت بأسلوب مؤثر رائع ، فانه مما يجب ملاحظته أن هذا المؤرخ قد استقى معلوماته من مصادر قليل عددها ، من أمثال ما كتبه أبو صالح الأرمنى ، وابن الأثير والمقريزى فى " الخطط " .

هــذا فضلا عن أن بعض ما فى كتب لين پول ذكر فى بعض الكتب الأخرى . ومع ذلك ، فان ما كتبه هذا المؤرخ لا يتعرض الا لعدد قليل من المسائل التى تناولتها بالبحث ، وليس له صلة بغير البابين السابع والتاسع . وقد أتيحت لى الفرصة فأدمجت معلومات أكثر تفصيلا استقيتها من مصادر يلوح لى أن ستانلى لين پول لم يكن له بها علم .

ولا يفوتنى أن أذكر كتاب " مختصر تاريخ الدولة الفاطمية " (A Short History of the Fatimid Khalifate) للدكتور دى ليسى أوليرى (De Lacy O'Leary) . طبع هذا الكتاب فى سنة ١٩٢٣ ؛ ولم يزد فيه مؤلفه شيئا جديدا على ما كتبه من سبقه من الباحثين فى تاريخ الشرق فى العصــور الوسطى . ذلك أن عدم معرفة الدكتور أوليرى العربيــة معرفة صحيحة قد وقف عقبة فى سبيل دراسته للمصادر العربيــة دراسة وافيــة ، ممــا جرّه إلى الوقوع فى أغلاط لا تدخل تحت حصر . يضاف إلى ذلك أنه لم يقف على ما كتبه بعض المعاصرين للفاطميين ، من أمثال ابن مُنجب الصَّيرفى ، وعماد الدين الأصفهانى ، وابن ميسر ، ولا على ما خلفه لنا المقريزى فى كتاب " اتعاظ الحنفا " .

وعلى الجملة ، فان بحث هذا الكتاب الذى يتناول فيه مؤلفه الكلام على تاريخ الفاطميين بحثا دقيقا ، يوصلنا الى غاية واحدة : هى أنه يحتوى على الحوادث التاريخية الخاصة بالخلفاء الفاطميين فى شمــال إفريقية ومصر ، تلك الحوادث التى أخذها إما عمــا تُرجم من الكتب العربية ، أو عن المصادر العربية التى اعتمد عليها دى ساسى وستانلى لين پول وغيرهما ، أو مباشرة عن بعض الكتب العربية التى لم يوفق إلى بحثها بحثا كاملا .

وقد قدمت رسالة تشــتمل على الأبواب الأربعة الأولى من هــذا الكتاب لامتحان درجة الدكتوراه فى الفلسفة قسم التاريخ الاسلامى (Doctor of Philosophy in History) بجامعة لندن ؛ وقدمت هذا الكتاب ، بمــا فيه هذه الرسالة ، بعد أن قمت بتهذيب بعض موضوعاتها وأدمجت فيها معلومات أخذتهــا عن كتب الخَوارزمى (أو الخُوارَزمى) والتَّنُوخى والهَمَذانى ومسكويه ، وكتاب " المقفى الكبير " ، وكذا عن الكتب الخطية التى ألفها الشابُشتى والذهبى وابن الجوزى ، فى مكاتب برلين وأكسفورد ، وقدمته لدرجة الدكتوراه فى الآداب قسم التــاريخ الاسلامى (Doctor of Literature) بالجامعة المذكورة .

لندن فى ٩ نوفبرسنة ١٩٢٧

الخلفاء الفاطميون

مرتبة أسماؤهم حسب مدد حكمهم

---

(١) المهدى : عبيد الله أبو محمد ، (٢٩٧—٣٢٢ هـ و ٩٠٩ — ٩٣٤ م)

(٢) القائم : محمد أبو القاسم ، (٣٢٢—٣٣٤ هـ و ٩٣٤ — ٩٤٥ م)

(٣) المنصور : اسماعيل أبو طاهر ، (٣٣٤—٣٤١ هـ و ٩٤٥ — ٩٥٢ م)

(٤) المعز : مَعَدّ أبو تميم ، (٣٤١—٣٦٥ هـ و ٩٥٢ — ٩٧٥ م)

(٥) العزيز : نزار أبو منصور ، (٣٦٥—٣٨٦ هـ و ٩٧٥ — ٩٩٦ م)

(٦) الحاكم : المنصور أبو علىّ ، (٣٨٦—٤١١ هـ و ٩٩٦ — ١٠٢٠ م)

(٧) الظاهر : علىّ أبو الحسن ، (٤١١—٤٢٧ هـ و ١٠٢٠—١٠٣٥ م)

(٨) المستنصر : معدّ أبو تميم ، (٤٢٧—٤٨٧ هـ و ١٠٣٥—١٠٩٤ م)

(٩) المستعلى : أحمد أبو القاسم ، (٤٨٧—٤٩٥ هـ و ١٠٩٤—١١٠١ م)

(١٠) الآمر : المنصور أبو علىّ ، (٤٩٥—٥٢٤ هـ و ١١٠١—١١٣٠ م)

(١١) الحافظ : عبد المجيد أبو الميمون ، (٥٢٤—٥٤٤ هـ و ١١٣٠—١١٤٩ م)

(١٢) الظافر : اسماعيل أبو المنصور ، (٥٤٤—٥٤٩ هـ و ١١٤٩—١١٥٤ م)

(١٣) الفائز : عيسى أبو القاسم ، (٥٤٩—٥٥٥ هـ و ١١٥٤—١١٦٠ م)

(١٤) العاضد : عبد الله أبو محمد ، (٥٥٥—٥٦٧ هـ و ١١٦٠—١١٧١ م)

بحث فى مصادر الكتاب

أرى من الواجب أن ندرس أولا عند بحث تاريخ الفاطميين ، ابتداء الدعوة الشيعية وتطورها قبل أن يظهر الفاطميون فى عالم التاريخ .

وقد بنى القسم التمهيدى من رسالتى الذى يبحث فى الدعوة الشيعية حتى قيام الحكم الفاطمى فى القيروان على المصادر الآتية : إبن هشام المتوفى سنة ٢١٨ ﻫ (٨٣٣ م)[١] ، الذى أخذ عن ابن اسحق المتوفى سنة ١٥١ ﻫ (٧٦٨م)[٢] ، وابن سعد المتوفى سنة ٢٣٠ ﻫ (٨٤٤م) فى "الطبقات الكبير" ، واليعقوبى المتوفى سنة ٢٨٢ ﻫ (٨٩٥م) فى تاريخه المسمى "تاريخ اليعقوبى" وفى "كتاب البلدان" ، والدينورى المتوفى سنة ٢٨٢ ﻫ أو ٢٩٠ ﻫ (٨٩٥ أو ٩٠٣ م)[٣] فى كتابه " الأخبار الطوال " ، والطبرى المتوفى سنة ٣١٠ ﻫ (٩٢٢ م)[٤] فى " تاريخ الأمم والملوك " ، والمسعودى المتوفى سنة ٣٤٦ ﻫ (٩٥٧ م)[٥] فى كتابيه "مروج الذهب" و"التنبيه والإشراف" . ومؤلفات الطبرى والمسعودى من أقدم وأنفس المصادر التى تكلمت عن تاريخ العالم باللغة العربية[٦] .

" والمُنْيَة والأمل "مكتبة المتحف البريطانى ، القسم الشرقى ٣٧٧٢ ، لأحمد بن يحيى (بن المرتضى المتوفى سنة ٣٢٥ ﻫ ، ٩٣٦ — ٩٣٧ م) ؛ والقسم الأول من هذا الكتاب المسمى " غايات الأفكار" (مكتبة المتحف البريطانى ، القسم الشرقى ٣٩٣٧) تاريخ مفصل لمذهب الزيدية . وهو شرح ممتع

---

(١) ابن خلكان (ج ١ ص ٣٦٥) ، وحاجى خليفة رقم ٧٣٠٨ ، ووستنفلد (Wüstenfeld : Die Geschichtschreiber der Araber und ihre Werke, No. 48)

(٢) هذا التاريخ ذكره حاجى خليفة تحت رقم ٧٣٠٨ ، ووستنفلد (Gesch. der Araber, No. 28) . ولكن ابن النديم فى "الفهرست" (ج ١ ص ٩٢) قد ذكر سنة ١٥٠ ﻫ ، فى حين أن ياقوت فى كتابه "إرشاد الأديب" (ج ٦ ص ٣٩٩) قد أتى بهذه السنين ١٥٠ و ١٥١ و ١٥٢ ﻫ .

(٣) ابن النديم فى "الفهرست" (ج ١ ص ٧٨) ، ووستنفلد (Gesch, der Araber, No. 79) .

(٤) أورد ابن النديم فى "الفهرست" (ج ١ ص ٢٣) أن الطبرى توفى فى شوال سنة ٣١٠ ، وذكر ياقوت فى "الإرشاد" (ج ١ ص ٥٧٨) أن هذه الوفاة كانت فى ٢٦ شوال . وقد أورد ياقوت فى أماكن أخرى (ج ٦ ص ٤٢٧ ، ص ٤٦٢) تواريخ عدة : ٢٦ شوال سنة ٣١٠ ، وسنى ٣١١ و ٣١٢ و ٣١٦ ﻫ . بيد أنه يأخذ بالتاريخ الأول على ما يظهر . انظر وستنفلد (Gesch. der Araber, No. 94) .

(٥) ذكر أبو المحاسن نقلا عن المسبِّحى (طبعة Juynboll) (ج ٢ ص ٣٤٢) ، جمادى الثانية سنة ٣٤٥ ﻫ . على أن الكتبى (ج ٢ ص ٥٧) ذكر أنه توفى سنة ٣٤٦ ﻫ .

(٦) انظر (Nicholson : Literary History of the Arabs, p. 472) .

لتاريخ المذهب الشيعي، وخاصة لما ورد فى هذا الكتاب عن الأحاديث التى نسبت إلى النبيّ عن إمامة عليّ بعده . ولسوء الحظ أن أحمد بن يحيي وغيره من كتاب تاريخ الشيعة على المذهب الزيدى ، وغيرهم ممن عاش فى عصرهم أو جاء بعد زوال دولتهم ، لم يُعْنوا بذكر شيء عن الطائفة الاسماعيلية ، اللهم إلا أخو محسن الذى عاش فى القرن الرابع للهجرة ، والذى تعرض لنفى صحة نسب الفاطميين إلى عليّ وفاطمة . على أننا لا نجد الآن من كتابه شيئا إلا هذه الشذرات التى نقلها النويرى المتوفى سنة ٧٣٢ هـ (١٣٣٢ م) والمقريزى المتوفى سنة ٨٤٥ هـ (١٤٤١ م) .

١ — المصادر التاريخية التى ألفت فى عصر الفاطميين

تنقسم هذه المصادر التى وصلت إلى أيدينا إلى قسمين بالنسبة إلى العصر الفاطمى الذى كتبت فيه :

(ا) فى الصدر الأول من أيام الفاطميين فى مصر : أعنى من سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩ م) الى نحو سنة ٤٦٦ هـ (١٠٧٣ م) .

(ب) فى أواخر أيام الفاطميين : أى من سنة ٤٦٦ هـ (١٠٧٣ م) الى نحو سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) .

(ا) العصر الأول

من الكتب التى كتبها مؤلفوها فى العصر الفاطمى كتاب "الإفادة فى تاريخ الأئمة السادة" ليحيي بن الحسين المتوفى سنة ٣٦٠ هـ (٩٧١ م) ، من سلالة زيد بن عليّ ، الذى أتى فيه يبحث مسهب عن مذهب الزيدية (مكتبة الجامعة بليدن ، مخطوط ١٩٤٧) .

ومن المصادر الأخرى التى تناولت الكلام على تاريخ المذاهب الدينية كتاب "الفَرْق بين الفرق" لأبى منصور عبد القاهر البغدادى المتوفى سنة ٤٢٩ هـ (١٠٣٧ م)[١] ، وكتاب "الفِصَل فى الملل والأهواء والنحل" لابن حزم المتوفى سنة ٤٥٦ هـ (١٠٦٤ م)[٢] ، وكتاب "الملل والنحل"

---

[١] انظر تاريخ حياة البغدادى فى "وفيات الأعيان" لابن خلكان (ج ١ ص ٣٧٥) .

[٢] انظر ياقوت "إرشاد الأديب" (ج ٥ ص ٨٦ – ٩٧) ، وابن خلكان (ج ١ ص ٤٢٨ – ٤٣١) ، و"نفح الطيب" للمقرى (طبعة بولاق سنة ١٨٦٢ م — ج ١ ص ٣٦٤ – ٣٦٨) ، ووستنفلد (Wüstenfeld, Gesch. der Araber No. 202)

للشهرستانى[1] المتوفى سنة ٥٤٨ هـ (١١٥٣ م) ؛ وهى ذات قيمة خاصة بالنسبة إلى تاريخ الشيعيين فى مبدأ أمرهم وطوائفهم الدينية . وهناك مصادر أخرى ليست بأقل أهمية وإمتاعا مما سبق الكلام عليها ، نخص بالذكر منها كتاب "بحث عن سيادة العرب وعن الشيعة والمعتقدات المسيحية فى عهد خلافة بنى أمية" (Recherches sur la Domination Arabe, le Chiitisme et les croyances messianiques sous le Khalifat des Omayades).
لمؤلفه فان فلوتن (Van Vloten) الذى اعتمد فيه على تاريخ الطبرى ، و"شنع الشيعة" على ماجاء فى كتاب "الملل والنحل" لابن حزم ، لاسرائيل فريد لينذر ("The Heterodoxies of the Shi'ites in the Presentation of Ibn Hazm," Israel Friedlaender, Journal of the American Oriental Society, vols. XXVIII & XXIX.) وكتاب "الشريعة الإسلامية" للأستاذ جولد زيهر I. Goldziher الذى ترجمه إلى الفرنسية المسيو فليكس أران (Félix Arin) بعنوان (Le Dogme et la Loi de l'Islam.).

على أن هناك كتابا آخر كتبه رجل تقدم البغدادى وابن حزم والشهرستانى ، لا يخامرنا شك فى صحة المعلومات التى أوردها فيه عن تاريخ الشيعة : وهو كتاب "البدء والتاريخ" الذى نسب فى وقت ما إلى أبى زيد البلخى ، والذى كشف البحث الآن أن مؤلف هذا الكتاب هو مطهر بن طاهر المقدسى الذى لا يعرف عن حياته إلا شىء قليل ، غير أنه عاش حول منتصف القرن الرابع الهجرى[2].

ولسوء الحظ لم يطبع المسيو هوار (Huart) من هذا الكتاب إلا النص العربى للأبواب الأحد عشر الأولى من مجموع أبواب هذا الكتاب — وعددها اثنان وعشرون — التى ترجمها إلى الفرنسية . ولم يطبع بعد كل أجزاء هذا المخطوط الموجود الآن بمكتبة القسطنطينية ، والذى يتناول الباب التاسع عشر منه الكلام على تاريخ الفرق الدينية ، ومن بينها فرقة الشيعة ؛ ولهذا لم تصل إليه يدى بعد .

ومن بين الكتب الأخرى التى تعرضت للكلام عن هذا العصر كتاب "العقد الفريد" لابن عبد ربه[3] المتوفى سنة ٣٢٨ هـ (٩٤٠ م) ، وكتاب "الأغانى" لأبى الفرج الأصفهانى[4]

---

(١) ابن خلكان (ج ١ ص ٦١٠ — ٦١١) ، ووستنفلد (Gesch. der Araber No. 247) ؛ انظر لفظ شهرستان فى "معجم البلدان" لياقوت .

(٢) J. R. A. S., vol. XXXVI, 1904, p. 571 — ولا بد أن تكون وفاته قد وقعت فى سنة ٣٥٥ هـ ، وهى السنة التى ألف فيها كتابه ، أو بعد هذه السنة .

(٣) ياقوت "إرشاد الأديب" (ج ٢ ص ٦٧ — ٧٢) ، وابن خلكان (ج ٢ ص ٣٩ — ٤١) ، وحاجى خليفة رقم ٨٢٠٠ ، ووستنفلد (Gesch. der Araber No. 107) .

(٤) ياقوت : إرشاد الأديب (ج ٥ ص ١٤٩ — ١٦٨) .

المتوفى سنة ٣٥٦ ﻫ (٩٦٧ م)، و "رسائل" الخوارزمى[١] المتوفى سنة ٣٨٣ ﻫ (٩٩٣ م)، و "رسائل" بديع الزمان الهمذانى[٢] المتوفى سنة ٣٩٨ ﻫ (١٠٠٧—١٠٠٨ م) — وهذه الرسائل تصف لنا العداء بين السنيين والشيعيين — وكتاب "الفهرست" لابن النديم[٣] المتوفى سنة ٣٨٣ ﻫ (٩٩٣ م)، "ونِشْوار المحاضرة"[٤] للتنوخى[٥] المتوفى سنة ٣٨٤ ﻫ (٩٩٤ م).

وبالرغم مما لكتاب الفهرست من مكانة عظيمة، فان مؤلفه لم يتحرّ دقة البحث فى بعض مسائله، بدليل ما كان من نسبته عبارة الشريف أخى محسن إلى ابن رزّام. وهذه النسبة خطأ واضح سيتبين للقارئ فيما بعد، بدليل ما أورده النويرى والمقريزى الذى وصل الى يده كتاب أخى محسن ونقل عنه.

ويجدر بنا أن نذكر أيضا كتاب "صلة تاريخ الطبرى" لعَرِيب بن سعد[٦] المتوفى سنة ٣٦٦ ﻫ ؟ (٩٧٦ — ٩٧٧ م ؟)؛ وقيمة هذا الكتاب فى أن عريب بن سعد قد أضاف كثيرا إلى تاريخ الأندلس وشمال إفريقية (بلاد المغرب). ولم يمدنا الطبرى بشىء يستحق الذكر عن الفاطميين، مع أنه تقدّم عريب بن سعد، لأن كلامه عنهم يحوطه شىء من الغموض والابهام غير قليل.

أما عن العلاقات التى كانت بين الفاطميين فى شمال إفريقية ومصر إلى أن تم فتح مصر على يد جوهر الصقلى قائد الفاطميين (سنة ٣٥٨ ﻫ)، فاننا نذكر من بين المؤرخين الذين اعتمدنا عليهم فى بحثنا لتاريخ مصر فى هذا العصر وعاشوا فى الصدر الأول من أيام الفاطميين،

---

(١) ابن خلكان (ج ١ ص ٤٧ — ٤٨).

(٢) الثعالبى، "يتيمة الدهر" (ج ٣ ص ١١٤ و ١٢٥ و ١٢٦) والسمعانى "كتاب الأنساب" ورقة ٢٠٩ ب، وابن خلكان (ج ١ ص ٦٢٢ — ٦٢٣).

(٣) ياقوت "ارشاد الأديب" (ج ٦ ص ٤٠٨)، وابن خلكان (ج ١ ص ١٠ — ١١).

(٤) ياقوت "ارشاد الأديب" (ج ١ ص ١٤٦). قال الأستاذ مرجوليوث فى مقدّمته لكتاب "تجارب الأمم" لمسكويه (ص ٨) إنه لم يكشف للآن الا جزء واحد من أجزاء هذا الكتاب الأحد عشر.

(٥) الثعالبى (ج ٢ ص ١٠٥ و ١١٥)، ياقوت "ارشاد الأديب" (ج ٦ ص ٢٥١ — ٢٦٧)، وابن خلكان (ج ١ ص ٥٦٣ — ٥٦٥).

(٦) لا يعلم عنه شىء، غير أنه شغل منصب الكتابة فى بلاط الحكم الثانى ٣٥٠ — ٣٦٦ ﻫ (٩٦١ — ٩٧٦ م) فى قرطبة؛ وفى حكمه ألف عريب هذا مختصرا لتاريخ الطبرى. انظر ما ذكره دوزى (Dozy) عن عريب فى كتاب "البيان المُغرب" لابن عَذارى (ص ٤٣ — ٦٣) و Brockelmann, Geschichte der Arabischen Litteratur, I, 134, 236, and note; Wüstenfeld, Gesch. der Arab., No. 136; Encyclopædia of Islam, s.v.

وكتبوا عن تاريخ هذه البلاد فى هذا العهد : ابن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ھ (٩٢٢م) ، وأوتيخا[١] (سعيد بن البطريق) المتوفى سنة ٣٢٨ ھ (٩٤٠ م) ، وأبا عمر الكندى[٢] المتوفى سنة ٣٥٠ ھ (٩٦١ م) ، وعريب بن سعد المتوفى سنة ٣٦٦ ھ ؟ (٩٧٦ — ٩٧٧ م ؟) ، وأبا على مسكويه المتوفى سنة ٤٢١ ھ (١٠٣١ م) . وقد اقتصر الطبرى فى تاريخه الذى ينتهى فى عام ٣٠٢ ھ ، على ذكر المجهودات الأولى التى بذلها المهدى فى سبيل غزو مصر . أما عريب بن سعد ومسكويه فقد تناولا الكلام على هذه الغزوات بشىء من الإسهاب . وقد أمدنا أوتيخا والكندى ، وهما مصريا المولد والدار وأقدم هؤلاء المؤرخين بعد الطبرى ، بمعلومات أكثر تفصيلا واسهابا فى هذا الموضوع . وكتاب "المُغْرب فى حلى المَغْرب" لابن سعيد المتوفى سنة ٦٧٣ ھ (١٢٧٥ م)[٣] قد تضمن جزءا من كتاب ابن زولاق[٤] المتوفى سنة ٣٨٧ ھ (٩٩٧ م) ، المسمى "كتاب العيون الدُّعج فى حلى دولة بنى طغج"[٥] . وهذا الكتاب يتناول سيرة الأخشيد ، كتبه مؤلفه فى سنة ٣٥٠ ھ بأمر أبى الحسن علىّ بن الأخشيد ، ثم أتم ابن زولاق أيضا كتاب الكندى الذى يتناول الكلام على ولاة مصر الى سنة ٣٣٤ ھ ، وهى السنة التى مات فيها الأخشيد . أضف إلى ما تقدّم ، أن ابن زولاق ذيَّل كتاب الكندى [٦] منذ وفاة الأخشيد إلى أن وصل المعز الفاطمى إلى مصر وأسس الخلافة الفاطمية باسمه سنة ٣٦٢ ھ[٧] .

وفضلا عما تقدم فان ابن هانىء[٨] الأندلسى المتوفى سنة ٣٦٢ ھ (سنة ٩٧٣ م) يشير فى ديوانه الى الدعوة الفاطمية فى أيام الخليفة المعز (٣٤١ — ٣٦٥ ھ) (٩٥٢—٩٧٥ م) ، ويشيد بمآثر

---

(١) Wüstenfeld, Gesch. der Arab. No. 108

(٢) Ibid. No. 124

(٣) ورد هذا التاريخ فى كتاب "فوات الوفيات" للكتبى (ج ١ ص ١١٢) ؛ أما السيوطى فقد ذكر فى كتابه "حسن المحاضرة" طبعة القاهرة سنة ١٢٩٩ ھ (ج ١ ص ٣٢٠) أنه توفى سنة ٦٨٥ ھ

(٤) ذكر ياقوت : ارشاد الأديب (ج ٣ ص ٧) أنه توفى فى يوم الأربعاء ٢٦ ذى القعدة سنة ٣٨٧ ھ ، وذكر ابن خلكان (ج ١ ص ١٦٧) أن وفاته وقعت فى يوم الثلاثاء ٢٥ من الشهر نفسه ، وذكر السيوطى (حسن المحاضرة ج ١ ص ٣١٩) أنه توفى شهر ذى القعدة من هذه السنة .

(٥) ابن سعيد : كتاب المغرب (ص ٤ — ٤٥) .

(٦) الكندى : كتاب الولاة والقضاة (ص ٢٩٣ — ٢٩٨) .

(٧) ابن سعيد : كتاب المغرب (ص ٥) .

(٨) ياقوت : ارشاد الأديب (ج ٧ ص ١٢٦ — ١٢٧) ، ابن خلكان (ج ٢ ص ٦) والمقّرى (ج ٢ ص ٣٦٤)

هـذا الخليفة ويمجد أعمـاله ، حتى وصل به هذا إلى الغـلو فنسب إلى مولاه بعض صفات النبوة والالوهية ؛ وبهذا مهد ابن هانئ طريق الالحاد لمن أتى بعده من الشعراء .

ومن الكتب المعاصرة للدولة الفاطمية تاريخ ابن زولاق المتوفى سنة ٣٨٧ ه (٩٩٧ م) ، المسمى "فضائل مصر وأخبارها وخواصها" ؛ أتى فيه مؤلفه على تاريخ مصر منذ عصورها الأولى . وابن زولاق حجة لا يستهان به فى تاريخ الصدر الأول من أيام الفاطميين : أولًا لأنه كان مصرى الجنس ومن أهلها ، وثانيا لأن شهرته قـد ذاعت لسـعة اطلاعه فى مادة التاريخ . وقد ألف ابن زولاق سلسلة من الكتب الأصلية عن تاريخ مصر ، من أمثال كتاب "فضائل مصر" ، وهو عبارة عن خطط أو وصف "طبوغرافى" لمصر القديمة ، تناول فيه مؤلفه — على ما ذكر ابن خلكان[١] — الكلام على هـذا الموضوع من جميع نواحيه ، وكذا كتاب "قضـاة مصر" الذى جعله مؤلفه ذيلا لكتاب القضـاة لأبى عمر الكندى إلى سـنة ٢٤٦ ه ، وأتمه فيما بعـد ابن حجر العسقلانى المتوفى سنة ٨٥٣ ه (١٤٤٩ م) .

وعدا هذه الكتب التى ألفها ابن زولاق فى تاريخ مصر[٢] سِـيَر كافور وجوهر والمعز والعزيز . بيد أنه لسوء الحظ قد تلاشت معظم تصانيف ابن زولاق ؛ ولا يعرف عنها شىء الآن إلا ما أخذه منها غيره من الكتّاب الذين جاءوا بعده . هذا ، وتصانيف ابن زولاق التى بقيت إلى اليوم هى[١] تاريخ قضاة مصر[٢] وسيرة الأخشيد المسماة "العيون الدعج ... الخ" التى نقلها ابن سعيد فى كتاب "المُغرب"[٣] وكتاب فضائل مصر ، وهو مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ١٨١٧ ، ومختصر لهذا السفر الكبير الذى ألفه صاحبه عن تاريخ مصر . أما هذا المخطوط فقد أمدنا بمعلومات صحيحة عن تاريخ الصـدر الأول من أيام الفاطميين إلى عام ٣٨٦ ه . ولقد أتم هـذا المؤلَّف الذى وضع أساسه ابن زولاق رجل من الأتراك ، يلوح لنا أنه أدخل عليه معلومات استقاها ممـا كتبه بعض المؤرخين الذين جاءوا بعـد ابن زولاق ، من أمثال أبى الفرج بن الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧ ه (١٢٠١ م) ، الذى عرف حفيده باسم سبط بن الجوزى المتوفى سنة ٦٥٤ ه (١٢٥٧ م) ، وكذا الذهبى المتوفى سنة ٧٤٨ ه (١٣٤٨ م) .

---

(١) (ج ١ ص ١٦٧)

(٢) أتى ياقوت فى كتابه ارشاد الأديب (ج ٣ ص ٧) على أسماء الكتب التى صنفها ابن زولاق .

وينبغى أن نذكر فضلا عما تقدم من المصادر المعاصرة للفاطميين كتاب "أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم" للقدّسى (أو المقْدِسى على الأصح) المتوفى سنة ٣٨٧ هـ (٩٩٧ م) ؛ وهو كتاب قيم من الناحيتين الجغرافية والتاريخية، وكتاب "الديارات" لأبى الحسن على الشابُشتى[١] المتوفى سنة ٣٨٨هـ (٩٩٨ م)[٢] (برلين مخطوط ڤيار ١١٠٠) . وقد اتصل الشابشتى بخدمة العزيز ، فولاه خزانة كتبه واتخذه جليسا له ونديما ؛ وذكر فى كتاب "الديارات" أخبارا عن الأديرة فى العراق والموصل وسورية والجزيرة ومصر ، وما قيل عن كل منها من الأشعار ، وما جرى فيه من حوادث وأمور . على أن هذا الكتاب على نفاسته لم يمدنا بمعلومات كافية عن العصر الفاطمى ، اللهم إلا ما يتعلق بحفلة زواج الخليفة المأمون العباسى بابنة وزيره الحسن بن سهل ، على ما سيأتى بيانه فى الباب السابع .

وهناك كتاب آخر هو كتاب "كنائس وأديرة مصر" لأبى صالح الأرمنى المتوفى سنة ٦٠٥ — ٦٠٦هـ (١٢٠٨ م) ، وقد ألفه عقب غزو الأكراد والغز هذه البلاد تحت قيادة شيركوه . كتب أبو صالح جزءا لا يستهان به من مؤلفه ، اعتمد فيه على ما سمعه ورآه هو بنفسه فى زياراته للكنائس والأديرة فى القاهرة وضواحيها . والكتاب مملوء بأمثلة كثيرة عن الخيرات التى أغدقها الخلفاء الفاطميون والموظفون الكبار من المسلمين على القبط[٣] . وكان لهذه المعلومات فوائد عظيمة فى الباب الذى أفردته لبحث سياسة الفاطميين للنصارى واليهود .

وهناك أيضا كتابان من الكتب التى ألفت فى عهد الفاطميين : وهما "ديوان الشريف الرضى" المتوفى سنة ٤٠٦ هـ (١٠١٥ م) ، والرسائل التى يطلق عليها "رسائل الحاكم بأمر الله والقائمين بأمر دعوته ؛ "كتبها فى سنة ٤٠٨ هـ (١٠١٧ — ١٠١٨ م) كثيرون من الدعاة تحت إشراف الخليفة الحاكم ٣٨٦ — ٤١١ هـ (٩٩٦ — ١٠٢١م) .

(١) ذكر ابن خلكان نقلا عن كتاب (التاجى) لأبى اسحاق الصابىء المتوفى سنة ٣٨٠ هـ أن الشابشتى حاجب وشمكير بن زيار الديلمى ، قتل فى سنة ٣٢٦هـ (٩٣٧ — ٩٣٨ م) بالقرب من أصبهان . وزاد ابن خلكان على ما تقدم فقال : يظهر أن الشابشتى اسم ديلمى يشبه النسبة ، ويحتمل أن يكون أبو الحسن على الشابشتى من أبناء هذا الرجل فنسب إليه وبقى النسب فى أولاده . ابن خلكان (ج ١ ص ٤٢٦ — ٤٢٧) .

(٢) ذكر ابن خلكان (ج ١ ص ٤٢٦) ثلاثة تواريخ لوفاة الشابشتى ، وهى سنة ٣٩٠ هـ وصفر سنة ٣٨٨هـ و ١٥ صفر سنة ٣٨٨ هـ ، وذكر هو التاريخ الأول . أما الثانى فقد نقله عن المسبحى ، وذكر الثالث نقلا عن شخص لم يذكر اسمه .

(٣) زعم إيفتس (B. T. A. Evetts) فى مقدمته لكتاب أبى صالح أن كتاب الديارات للشابشتى قد ضاع ، ولا يعرف لدينا الا عن طريق العبارات التى اقتبسها منه غيره من الكتاب .

ويعتبر المؤرخون قصيدة الشريف الرضى ذات شأن فى هـذا الموضوع [(١)] . وبالرغم من انها لم تظهر فى ديوانه بادئ بدء ، فقد أجمع كثير منهم على صحة نسبتها اليه — على ما سيظهر بعد — بدليل إسنادها اليه فى كثير من المصادر التى عاش كاتبوها بعد الشريف الرضى .

أما كتاب رسـائل الحـاكم بأمر الله .... الخ فهو من مخطوطات المكتبة الملكية فى القاهرة (رقم ٢٠ مخطوطات الشيعة) ، ويشتمل على عشرين رسالة كتبها كثيرون من الدعاة . وهذا الكتاب يصف لنا الأساليب التى بها نشر الخلفاء الفاطميون وأنصارهم دعوتهم السياسية والدينية ، ويمد القارئ ببيان مسهب لدعوى الخليفة الحاكم الألوهية[(٢)] .

وهنـاك مؤرخ آخر هو الأمير المختار عز الملك محمد بن أبى القاسم المعروف بالمسبِّحى[(٣)] المتوفى سنة ٤٢٠هـ (١٠٢٩ م) ، الذى كتب عن مصر كتابا مسهبا هو "تاريخ مصر" ؛ يقع فى ستة وعشرين ألف صفحة[(٤)] ؛ ولا يوجد منه إلا الجزء الأربعون بمكتبة الأسكوريال بالأندلس ، وهو واحد من جملة تصانيفه التى بلغت الثلاثين ولم يعد لها الآن وجود ، اللهم الا فى هذه المقتبسات التى نجدها فى المصادر الأخرى .

وقد كان المسبحى رجل فضل وعلم ؛ وكان على زى الأجناد . اتصل بخدمة الخليفة الفاطمى الحاكم ٣٨٦ — ٤١١ هـ (٩٩٦ — ١٠٢١م) ، وتقلد فى أيامه القيس والبهنسا من أعمال الصعيد ، ثم تقلد "ديوان الترتيب"[(٥)] . ولا غرو فان المسبحى حجة دامغـة فى تاريخ مصر فى الصدر الأول من أيام الفاطميين [(٦)] .

---

(١) ص ٩٧٢ — ٩٧٣

(٢) أنظر كتب الأمان التى أعطاها الحاكم لأهل مصر فى كتاب يحيى بن سعيد (ص ٢٣٠ — ٢٣٣) .

(٣) ابن خلكان (ج ١ ص ٦٥٣ و ٦٥٤) والسيوطى طبعة القاهرة سنة ١٢٩٩ هـ (ج ١ ص ٣١٩) .

(٤) يقول ابن خلكان (ج ١ ص ٦٥٣) انها وقعت فى ثلاثة عشر ألف ورقة .

(٥) زعم دى سلين (De Slane) فى ترجمة كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان (ج ٣ ص ٩٠ حاشـية رقم ١) أن هـذا الديوان كان فى نفس المكان الذى يوجد فيه ديوان الرواتب ، وهو المحل الذى تنظم فيـه الرواتب وتدفع لمستحقيها .

(٦) ذكر تصانيف المسبحى من جاء بعده من المؤرخين ، كابن منجب ، وابن ميسر ، وابن خلكان ، والمقريزى ، وأبى المحاسن ، والسـيوطى .

هذا ، ويجب ألا ننسى أيضا ما كتبه ثلاثة من الكتاب المعاصرين للفاطميين ، وهم مسكويه[١] المتوفى سنة ٤٢١ هـ (١٠٣١ م) ، وهلال الصابئ[٢] المتوفى سنة ٤٤٨ هـ (١٠٥٦ م) ، وأبو شجاع المتوفى سنة ٤٨٨ هـ (١٠٩٥ م)[٣] .

أما تاريخ مسكويه المسمى "تجارب الأمم" فهو "على وجه العموم من أهم الكتب العلمية فى اللغة العربية"[٤] . ويتناول جزء من هـذا الكتاب الكلام على الحوادث التى أعقبت ما دونه الطبرى فى تاريخه (وينتهى فى سنة ٣٦٩ هـ)[٥] . وقد استطرد أبو شجاع فى سرد الحوادث (وتنتهى فى سـنة ٣٨٩ هـ) ؛ وتلاه هـلال الصابئ فى تاريخـه الذى ذيل به أمدروز (Amedroz) كتاب الوزراء ونقله عنه الأستاذ مرجوليوث (Prof. Margoliouth) .

ولقد استمد مسكويه معلوماته التاريخية شفويا ممن تولوا الزعامة فى هـذه الحوادث ؛ نخص بالذكر منهـم الوزير المهلّبى فى بغداد المتوفى سـنة ٣٥٢ هـ (٩٦٣ م) ، وأمين خزانته[٦] ، وهو أبو الفضل بن العميد المتوفى سنة ٣٦٠ هـ (٩٧٠ — ٩٧١ م) فى الرى . وكان لمسكويه ضلع فى كثير من الحوادث الهامة ، كما كان لعمارة اليمنى وأسامة بن منقذ من بعـده . "وهذا من الأهمية بمكان لمؤرخ مثله ، وعلى الأخص لأن المناصب التى تقلدها كانت تلق على عاتقه كثيرا من المسـئولية ؛ كما أنه كان فى استطاعته الوقوف على أسرار الدولة من غير أن تكون له بها علاقة شخصية ذات شأن عظيم"[٧] .

---

(١) اختلف الكتاب فى صحة ثبـوت اللقب له أو لأبيـه ؛ فبعضهم كالتنوخى (نشوار المحاضرة ص ١٧٣) وحاجى خليفة (رقم ٢٤٣٠) يزعم أن اللقب متصل بأبيه ، فى حين يقول غيرهم من أمثال بديع الزمان الهمذانى (ص ١٥٧ ، وقد سماه مشكويه) وياقوت (إرشاد الأديب ج ٢ ص ٨٨) وابن خلكان (ج ٢ ص ٩٢) والقفطى (ص ٣٣١) وابن أبى أصيبعة (ج ١ ص ٢٤٥) بأن اللقب متصل به هو .

انظر المناقشة التى أوردها الأسـتاذ مرجوليوث (Prof. Margoliouth) عن هذا اللقب فى مقدمته لكتاب مسكويه (ص ١١) ووستنفلد فى كتابه (Gesch. der Ar. No. 182) .

(٢) نشر مستر أمدروز (Mr. Amedroz) ترجمة حياة هلال الصابئ عن تاريخ سبط بن الجوزى ، وتتناول فى جملتها الكلام بوجه التفصيل عن اعتناق هلال الاسلام .

أنظر أيضا ياقوت (إرشاد الأديب ج ٧ ص ٢٥٥) وابن خلكان (ج ٢ ص ٢٦٧) ووستنفلد (Wüstenfeld : Gesch. der Ar. No. 198)

(٣) ابن خلكان (ج ٢ ص ٩١ — ٩٢)

(٤) Prof. Margoliouth : Preface to Miskawaih, p. VI

(٥) يقول القفطى (ص ٣٣١) إن تاريخ مسكويه ينتهى الى سنة ٣٧٢ هـ .

(٦) ياقوت : ارشاد الأديب (ج ٢ ص ٩٥)

(٧) Prof. Margoliouth : Preface to Miskawaih, p VI

وقد أسهب مسكويه فى تاريخ الصـدر الأوّل من أيام بنى بويه ؛ ولكنه لم يغفل ايضا أن يمدنا بتاريخ للأحوال الخارجية للعباسيين ، ممـا له صلة بالجهود التى قام بها الفاطميون لفتح مصر ، وكذلك العلاقات التى كانت بين العباسيين والبيزنطيين فى ذلك الوقت .

وقد أعقب ظهير الدين محمد بن الحسين الروذراوَرى وزير الخليفة العباسى المقتـدى ٤٧٦ — ٤٨٧ هـ (١٠٨٢ — ١٠٩٣ م) المعروف بأبى شجاع ، تاريخ مسكويه بتاريخه الذى تناول فيه الكلام على المدة التى بين سنتى ٣٦٩ و ٣٨٩ هـ .

ولقد وقع أبو شجـاع عنـد كلامه على حوادث سـنة ٣٨١ هـ فى أغلاط لم يشر اليهـا الأستاذ مرجوليوث عند نشره تاريخ مسكويه ؛ ذلك أن أبا شجاع قد دوّن فى هذه السنة حوادث وقعت بعدها بخمس سنين أو عشر سنين . ومن الأمثلة التى تؤيد صحة هذا القول مسألة موت الخليفة الفاطمى العزيز وتولية ابنـه الحـاكم[١] التى حدثت فى سـنة ٣٨٦ هـ ، وما يتعلق أيضا بقتـل برجوان وإسناد منصبه[٢] إلى الحسين بن جوهر فى شهر ربيع الثانى سنة ٣٩٠ هـ[٣] .

هذا ، ولم يظهر للآن من تاريخ هلال إلا جزء واحد ذيل به مستر أمدروز "كتاب الوزراء" ، ونقله عنه الأسـتاذ مرجوليوث . وقد أمدنى كتاب الوزراء بفوائد عظيمة عن التعـديلات التى أدخلت على قانون الوراثة فى عهد الفاطميين منذ ابتـداء عهدهم[٤] . كما أمدنى كتاب "يتيمة الدهر" لأبى منصور الثعالبى[٥] المتوفى سـنة ٤٢٩ هـ (١٠٣٧ م)[٦] ، وكتاب "سقط الزند" و"اللزوميات" لأبى العلاء المعرى المتوفى سنة ٤٤٩ هـ (١٠٥٧ م) بمثل هذه الفوائد . أما تصانيف أبى العلاء ، و"معجم البلدان" لياقوت ، فهى ذات قيمة خاصـة فيما يتعلق بالعبارة التى كتبتها عن الفقيه الشاعر عبد الوهاب بن نصر المـالكى .

---

(١) (ج ٣ ص ٢٢١)

(٢) (ج ٣ ص ٢٣٠ — ٢٣٢)

(٣) أنظر الحاشية التى كتبتها فى الباب السادس .

(٤) أنظر البـاب الخامس .

(٥) ذكر السمعانى (كتاب الأنساب ورقة ١١٥ أ) أن الثعالبى كان يخيط جلد الثعالب ، فاشتق اسمه من هـذا اللفظ . أنظر أيضا ابن خلكان (ج ١ ص ٣٦٥ — ٣٦٦) وأبا الفدا (ج ٢ ص ١٧٠) .

(٦) وردت هذه السنة فى ابن خلكان (ج ١ ص ٣٦٦) وأبى الفدا (ج ٢ ص ١٧٠) . وذكر وستنفلد فى كتابه (Gesch der Ar.) رقم ١٩١ : سنة ٤٢٩ أو ٤٣٠ هـ .

وكتاب " الآثار الباقية " للبيرونى[1] المتوفى سنة ٤٤٠ ﻫ (١٠٤٨م)[2] يتناول الكلام عن نظم الطوائف والجماعات المختلفة . وهو حجة اعتمدت عليه فى البحث عن الاحتفال بالأعياد القومية والدينية فى عهد الفاطميين .

أما عن النظم الإدارية ، فقد اعتمدت على ما كتبه الماوردى[3] المتوفى سنة ٤٥٠ ﻫ (١٠٥٨م) فى كتاب " الأحكام السلطانية " . وهو أول ما كتب بالعربية عن هذه النظم فى الاسلام ؛ ويعد من أعظم المصادر لما كتبته عن ادارة الشؤون العامة فى أيام الفاطميين . على أن الغموض الذى يحيط بأسلوب الماوردى ، مما يزيد فى قيمة ما كتبه المتأخرون عن هذا الموضوع ، من أمثال ابن طباطبا الذى ألف كتاب " الفخرى فى الآداب السلطانية "[4] سنة ٧٠١ ﻫ (١٣٠٢ م) ، والقلقشندى المتوفى سنة ٨٢١ ﻫ (١٤١٨ م) ، بل وما كتبه ابن خلدون والمقريزى ، بالرغم مما يعيب أسلوب هذين فى كثير من الأحيان من ركاكة وغموض .

---

(١) " من أهالى خُوارَزْم أو خُوارَزْميا وهى كيفا الحالية ؛ وبعبارة أدق ، أحد مواطنى حى (Bērūn) من أحياء عاصمة هذه البلاد . وكان يطلق على كل منهما (الحى والحاضرة) اسم خوارزم ، أو أحد مواطنى أحد أعمال الحاضرة ، ويسمى (Bērūn) أيضاً " (Sachau's Preface to Bērūnī's Chronology of Ancient Nations, English Translation, p. vii)

ومن أراد التوسع فليرجع الى ما جاء فى مقدمة النسخة العربية (ص ١٧ و ١٨) ، وكتاب الأنساب للسمعانى ورقة ٩٨ ب (طبعة Gibb Memorial) حيث نقلت النسخة الأصلية "Bīrūnī" خطأ .

(٢) يقول حاجى خليفة (رقم ٩٣٥٩) ان وفاته وقعت فى سنة ٤٣٠ ، بخلاف ابن أبى أصيبعة (ج ٢ ص ٢٢) فانه ذكر أن ذلك كان فى سنة ٤٤٠ ﻫ .

(٣) كان الماوردى على ما ذكر السمعانى (كتاب الأنساب ورقة ٥٠٤ أ) يبيع ماء الورد ، ومنه عرف بهذا اللقب . انظر أيضا ارشاد الأديب لياقوت (ج ٥ ص ٤٠٧ — ٤٠٩) وابن خلكان (ج ١ ص ٤١٠ — ٤١١) وأبا الفدا (ج ٢ ص ١٨٨) .

(٤) وصف الأستاذ نيكلسون فى كتابه " تاريخ العرب الأدبى " (ص ٤٥٤) حاشية (١) (Prof. Nicholson : Literary History of the Arabs. p. 454, No. 1) كتاب ابن طباطبا فى العبارة الآتية : " وهو كتاب ممتع عن السياسة الاسلامية . وان ما يمتاز به أسلوبه من سهولة ، وعباراته على اختلافها من تشويق وإمتاع ، كل ذلك يجعله جديرا بما يستحقه من إعجاب واستحسان . واذا صرفنا النظر عن القرآن ، فانى لا أعرف كتابا غير هذا يصلح لأن يكون مقدمة للأدب العربى " .

"...... a delightful manual of Muhammadan politics. The simplicity of its style and the varied interest of its contents have made it deservedly popular. Leaving the Qoran out of account, I do not know any book that is better fitted to serve as an introduction to Arabic literature."

ومما نأسف له أشد الأسف ما كان من ضياع مؤلفات القضاعى المتوفى سنة ٤٥٤ هـ ١٠٦٢م) ؛ ومن بينها كتاب "عيون المعارف وفنون أخبار الخلايف" ؛ وهو مختصر كتاب "الإنباء عن الأنبياء وتواريخ الخلفاء الأمويين والعباسيين والفاطميين" . وهذا الكتاب مخطوط فى المكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ١٤٩١ ؛ وهو عبارة عن خلاصة الكتاب الأصلى الذى لعبت به يد الضياع . ومع ذلك فقد خلف لنا من جاء بعد القضاعى من الكتاب ، من أمثال القلقشندى والمقريزى وأبى المحاسن ، بعض شذرات نقلوها من هذا الكتاب . وجاء رجل من الأتراك — مجهول الاسم — فاختصر كتاب القضاعى الذى أخذ عنه مؤلف المخطوط الموجود بالمكتبة الأهلية بباريس ؛ واستمر يسرد لنا الحوادث حتى عام ٩٢٦ هـ (١٥١٩ — ١٥٢٠ م) . وهذا المختصر يوجد بالمكتبة الأهلية بباريس ؛ ويحتوى الجزء الذى ينحصر بين ورقتى ١١٥ و ١٢٦ من هذا الكتاب المنسوب الى القضاعى ، والموجود الآن بباريس ، على معلومات ذات غناء عن الخليفة الحاكم الفاطمى . أما مؤلفات القضاعى فقد عدّدها ابن خلكان[1] ؛ فذكر منها كتاب "مناقب الامام الشافعى" ، وكتاب "تواريخ الخلفاء" ، وكتاب "خطط مصر" . ويظهر أن المقريزى نقل هذا الكتاب برمته وأودعه كتابه الذى يعرف أيضا بهذا الاسم .

والقضاعى ثقة فى تاريخ الصدر الأول من أيام الفاطميين . وكان من النابغين فى الكتابة ، حتى صار من كتاب البلاط ، مما جعل الوزير أبا القاسم الجرجرائى (تقلد الوزارة فى سنة ٤١٨ هـ وتوفى سنة ٤٣٦ هـ)[2] يعهد إليه فى أن يكتب العلامة [3] .

ولا يفوتنا أيضا أن نذكر صلة كتاب أوتيخا المسمى "التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق" ، الذى كتبه يحيى بن سعيد المتوفى سنة ٤٥٨ هـ (١٠٦٦ م) ؛ فقد تصدى للكلام عن المدة التى بين سنتى ٣٢٦ و ٤١٧ هـ (٩٣٨—١٠٢٦ م) . ولما كان من المحتمل أن يحيى بن سعيد مصرى المولد ، وأنه قضى من حياته فى هذه البلاد مدة تتراوح بين خمسة وثلاثين وأربعين عاما — كان ذلك كله مما يجعل لكتابه فائدة خاصة بالنسبة الى الزمان الذى عاش فيه والمكان الذى قضى فيه هذه الحقبة من عمره ، وهو مصر[4] .

---

(١) ج ١ ص ٥٨٥

(٢) ابن منجب : كتاب "الإشارة إلى من نال الوزارة" (ص ٣٥ و ٣٧) .

(٣) كانت العلامة أو الاشارة التى يذيل بها القضاعى الأوراق الرسمية لإعطائها الصفة الرسمية تشمل هذه الكلمات : "الحمد لله شكرا لنعمته" .

(٤) أنظر لفظ أنطاكى (Antaki) فى دائرة المعارف الاسلامية

Brockelmann, Gesch. der Arab. Litter, 1, 148.

(ب) العصر الأخير

الآن نتحدث إلى القارئ عن قيمة المصادر التى عاش مؤلفوها فى الأيام الأخيرة من عهد الفاطميين ؛ فنذكر منها كتاب سفرنامه (Safar Nâmah) [(١)] لناصرى خسرو المتوفى سنة ٤٨١ هـ (١٠٠٨ م) . وهو كتاب ذو أهمية فى تاريخ الفاطميين ؛ لأنه فضلا عن أن ناصرى خسرو كان إسماعيليا يتصر للمذهب الاسماعيلى ، فان هذا الوصف المسهب الذى كتبه عن زيارته لمصر (٤٣٩ — ٤٤١ هـ) فى عهد الخليفة المستنصر ٤٢٧ — ٤٨٧ هـ (١٠٣٥ — ١٠٩٤ م) يمدنا بمعلومات صحيحة عن مصر ومبلغ رخائها ووفرة ثروتها فى العصر الفاطمى[(٢)] .

ولا يخفى ما لكتاب "المُغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب"[(٣)] لأبى عُبَيْد البكرى المتوفى سنة ٤٨٧ هـ (١٠٩٤ م) ، وكتاب "الاشارة الى[(٤)] من نال الوزارة" لابن منجب الصيرفى المتوفى سنة ٥٤٢ هـ (١١٤٧ م)[(٥)] ، و"ذيل تاريخ دمشق" لابن القلانسى المتوفى سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٠ م) — وهو بمثابة ذيل لتاريخ هلال الصابئ — وكتاب "الأنساب" للسمعانى المتوفى سنة ٥٦٢ هـ (١١٦٦ — ١١٦٧ م) — وهو كتاب جليل أيضا من ناحيتى النسب والجغرافيا — وتاريخ ابن عساكر المتوفى سنة ٥٧١ هـ (١١٧٥ م) — لا يخفى ما لكل هذه الكتب من أهمية خاصة لاستقصاء بحث تاريخ الفاطميين .

ويظهر أن ابن القلانسى قد نقل كتاب أبى شجاع وكتاب هلال الصابئ ، اذا جاز لنا أن نقول إن تاريخ أبى شجاع قد بنى على تاريخ هلال . ويلوح لنا أن كتاب ابن القلانسى مما يمكن عده من المصادر الأصلية منذ ابتداء القرن السادس من الهجرة ، كما يظهر من وصفه للأحوال التى أدت الى قتل الوزير الأفضل بن بدر الجمالى . أما كتاب "الاشارة" لابن منجب ، فقد أمدنا بمادة لا يستهان بها عن تاريخ الفاطميين ؛ لأن ابن منجب كان من أعيان زمانه ، وقد تقلد ديوان الرسائل

---

(١) طبع المسيو شيفير (Schefer) متنه بالفارسية وترجمته الفرنسية مع الحواشى والتعليقات

(٢) استفاد ستانلى لين پول Stanley Lane-Poole وأوليرى O'Leary من وصف ناصرى خسرو لمصر فى كتابيه عن الدولة الفاطمية فى مصر .

(٣) هذا الكتاب جزء من أجزاء الكتاب المعروف "المسالك والممالك" .

(٤) ذكر ياقوت (ارشاد الأديب) هذا اللفظ "فى" .

(٥) أورد ياقوت سيرة ابن منجب فى كتابه "ارشاد الأديب" (ج ٥ ص ٤٢٢) ، حيث ذكر أنه توفى سنة ٥٥٩ هـ ، وأفرد له أيضا ابن ميسر (ص ٨٧) وغيره ترجمة خاصة به .

سنة ٤٩٥ هـ (١١٠١ م) فى عهد الخليفة الآمر ، وظل فيه الى سنة ٥٣٦ هـ (١١٤١ م) ؛ وكان من البارزين فى طبقة البلاط والمؤرخين[١]

هذا ، ويجب أن نشير فى هذا المقام الى ما كتبه عمارة اليمنى المتوفى سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٤م) ، وأسامة بن منقذ المتوفى سنة ٥٨٤ هـ (١١٨٨ م) . فقد شاهد كل منهما بنفسه ما وقع فى مصر من الحوادث فى أواخر أيام الفاطميين . ذلك أن عمارة كان شاعرا نابه الذكر بين شعراء البلاط فى عهد الخليفة الفائز والخليفة العاضد ، وهما آخر من تولى عرش مصر من الفاطميين ؛ وقد أمدنا فى ديوانه وكتابه المسمى " النكت العصرية " بفوائد عظيمة عن هذين الخليفتين والوزراء ، وغيرهم من علية القوم الذين رتع عمارة فى بحبوحة كرمهم وفسيح عطفهم . فقد أتحفنا بمعلومات صحيحة عن الدور الذى لعبه الشعراء فى نشر تعاليم الفاطميين ومعتقداتهم ، وكذلك عن سقوط الدولة الفاطمية[٢] .

أما أسامة بن منقذ فكان من أكابر بنى منقذ أصحاب قلعة شيزر وعلمائهم وشجعانهم ، وله تصانيف عدّة فى فنون الأدب . رحل عن بغداد كمعظم شعراء عصره يريد مصر ، فأقام فيها مؤمّرا الى أيام الوزير الصالح بن رُزّيك سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٤ م) ، ثم عاد إلى الشام . وأخبار أسامة جليلة الخطر ، لأنه شاهد بنفسه حال مصر فى زمنه ، وما وقع فيها من حوادث . نخص منها بالذكر المعركة التى دارت بين جند الخليفة الفاطمى وأنصار الوزير رضوان سنة ٥٤٢ هـ ، والموقعة التى دارت رحاها بين أتباع الوزيرين ابن السلار وابن مَصال سنة ٥٤٤ هـ ، والموقعة الفاصلة بين أتباع هذين الوزيرين فى السنة نفسها . كذلك قتل الوزير ابن السلار سنة ٥٤٨ هـ ، والخليفة الحافظ واخوته وبنى عمه سنة ٥٤٩ ، والثورة التى أثارها الأهلون على قتلة الخليفة وبعض أهل بيته : وهما الوزير عباس وابنه نصر اللذان لقيا حتفهما بعد ذلك بقليل — كل هذه المعلومات العظيمة خاصة بما يتعلق بسقوط الخلافة الفاطمية وأسبابه[٣] .

---

(١) يمكن الرجوع الى كتاب " ارشاد الأديب " لياقوت (ج ٥ ص ٤٢٢ و ٤٢٣) لمعرفة حياة ابن منجب .

(٢) أنظر ابن خلكان (ج ١ ص ٤٧٥ و ٤٧٧) .

Derenbourg, tome. II. Notices en Arabe par ʿOumâra et sur ʿOumâra (Paris, 1909).

(٣) أنظر إرشاد الأديب لياقوت (ج ٢ ص ١٧٣ و ١٧٦) ، وابن خلكان (ج ١ ص ٧٨ و ٨٠) .

Derenbourg, Anthologie des textes arabes, inédits par Ousâma et sur Ousâma (Paris, 1893).

٢ — عصر الأيوبيين

أما عن المؤلفات التى كتبت فى عصر الأيوبيين ٥٦٧—٦٤٨ هـ (١١٧١—١٢٥٠م) ، فينبغى ان نذكر من بينها ما كتبه عماد الدين الأصفهانى[١] المتوفى سنة ٥٩٧ هـ (١٢٠١م) ، وأبو الفرج ابن الجوزى[٢] المتوفى سنة ٥٩٧ هـ (١٢٠٠—١٢٠١م) ، وياقوت الحموى[٣] المتوفى سنة ٦٢٦ هـ (١٢٢٩م) ، وابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠هـ (١٢٣٢م) ، وابن شداد المتوفى سنة ٦٣٢هـ (١٢٣٤م) ، والقِفْطى المتوفى سنة ٦٤٦ هـ (١٢٤٧م) ؛ وبكتابه شذرات متفرقة عن الخلفاء الفاطميين ربما لا توجد فى كتب أخرى ؛ وقد أودع هذه الشذرات ثنايا السطور عند كلامه على الأطباء والحكماء والمنجمين والمهندسين .

ومن الكتب التى كتبت فى هذا العصر أيضا "معجم البلدان" و "إرشاد الأديب" و "مراصد الاطلاع"[٤] لياقوت ، "وتاريخ مصر" لعبد اللطيف البغدادى ، وكتاب "الكامل فى التاريخ" لابن الأثير .

وقد اعتمدت أيضا عند بحث موضوع سقوط الدولة الفاطمية على كتاب "النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية" لابن شداد المتوفى سنة ٦٣٢ هـ (١٢٣٤م) ؛ وهو بوجه عام أدق وأنفس ما كتب عن تاريخ حياة صلاح الدين . وقد بنى ابن خلكان الذى سنحت له الفرصة بلقاء ابن شداد الذى كان قد طعن فى السن ، سيرة هذا الرجل على المعلومات التى استمدها من ابن شداد . ومن هذا نعلم أنه اتصل بخدمة صلاح الدين ؛ فكان قاضى العسكر ، ثم تقلد الوزارة وقضاء القضاة معا فى عهد الملك الظاهر بن صلاح الدين حين تقلد ولاية حلب[٥] .

---

(١) انظر ارشاد الأديب لياقوت (ج٧ص ٨١ — ٩٠) ، وابن خلكان (ج٢ص ٩٧ — ١٠٠) .
Wüstenfeld (Gesch. der Arab. No. 284).

(٢) ابن خلكان (ج١ص ٣٥٠ — ٣٥١) . Wüstenfeld (Gesch. der Arab. No. 340).

(٣) "اغريق المولد ؛ أسر صغيرا وبيع لأحد تجار بغداد ، فقام مولاه بتعليمه وبعث به فى تجارته الى الخليج الفارسى وغيره ؛ وجرت بينه وبين مولاه نبوة أوجبت عتقه ، فعاش من بيع الكتب ونسخها" .
"A Greek by birth; he was enslaved in his childhood and sold to a merchant of Baghdad. His master gave him a good education and frequently sent him on trading expeditions to the Persian Gulf and elsewhere. After being enfranchised in consequence of a quarrel with the benefactor, he supported himself by copying and selling manuscripts." (Prof. Nicholson, Literary History of the Arabs, p. 357).
انظر ابن خلكان (ج٢ص ٢٧٧) ، وراجع حاجى خليفة : كشف الظنون ٤٧٢ و ١٢٦٧ و ٤٧ و ٢ و ١٠١١٨ و ١١٣١٥ و ١٢٣٧٣ و ١٢٧٤٠ لمعرفة تصانيف ياقوت .

(٤) اختصر عبد المؤمن بن عبد الحق المتوفى سنة ٧٣٩ هـ (١٣٣٨م) كتاب "معجم البلدان" لياقوت .

(٥) ابن خلكان (ج٢ص ٤٦٦ — ٤٧٥) .

٣ — عصر المماليك

أما كتب الأدب التي دوّنت فى عصر المماليك ٦٤٨ — ٩٢٣ ﻫ (١٢٥٠ — ١٥١٧م) فانها تمدنا بمعلومات نفيسة عن الفاطميين ؛ نخص بالذكر منها ما كتبه حسام الدين المحلى المتوفى سنة ٦٥٢ ﻫ (١٢٥٤ م) ، فى كتابه "الحدائق الوردية" ، وهو مخطوط فى المتحف البريطانى (القسم الشرقى رقم ٣٧٨٦) . و يتناول الكلام بوجه خاص على "الأئمة الزيدية" ، ولكنه يذكر أخبارا عن تاريخ الشيعة بوجه عام ؛ وما كتبه أيضا سبط بن الجوزى المتوفى سنة ٦٥٤ ﻫ (١٢٥٧م)[١] ، فى كتابه "مرآة الزمان" . وقد اطلعت مما كتبه على مخطوطين رقم ١٥٠٥ و ١٥٠٦ بالمكتبة الأهلية بباريس ، ومخطوط رقم ٥٥١ بالمكتبة الملكية بالقاهرة ، ومخطوط رقم ٣٧٠ (القسم الشرقى مجموعة بوكوك .Pocock, Or) بمكتبة بدليان (Bodleian) بأكسفورد .

وكتاب "الروضتين فى أخبار الدولتين" (أو تاريخ عهد نور الدين وصلاح الدين) لأبى شامة[٢] المتوفى سنة ٦٦٥ ﻫ (١٢٦٧م) ، مع أنه يبعد كل البعد عن أن يكون مصدرا أصليا لتاريخ العالم الاسلامى مدة ثمان وأربعين سنة (أى منذ وفاة الأتابك زنكى سنة ٥٤١ الى أواخر سنة ٥٨٩ ﻫ) ، فإنه مجموعة تعد سفرا مطولا ، استقى من الوثائق الرسمية الموجودة فى الكتب التى ألفها القاضى الفاضل المتوفى سنة ٥٩٦ ﻫ (١١٩٩م) وعماد الدين الأصفهانى المتوفى سنة ٥٩٧ ﻫ (١٢٠١م) ؛ فقد تقلد كل منهما منصب الوزارة فى عهد صلاح الدين — كما أخذ أيضا عما كتبه غيرهما من الكتاب المعاصرين ، من أمثال يحيى بن أبى طى[٣] المتوفى سنة ٦٣٠ ﻫ (١٢٣٢ — ١٢٣٣م) ، وابن شدّاد المتوفى سنة ٦٣٢ ﻫ (١٢٣٤ م) ، إذ يظهر غالبا فى كل صحيفة من كتاب أبى شامة ما أورده كل منهما من حقائق تاريخية .

وقد تقلد القاضى الفاضل منصب الوزارة فى عهد صلاح الدين وولديه من بعده ؛ وتاريخه شائق ممتع فى سلامة الأسلوب ووضوحه[٤] .

---

(١) نقل حاجى خليفة عند كلامه على ابن الجوزى (رقم ١١٧٢٦) عن الذهبى ، أن أخبار ابن الجوزى لا يمكن الاعتماد عليها لتحيزه الى الشيعة ؛ وهذا يحملنا على القول بأن الذهبى طعن فى معلومات ابن الجوزى ، لأنه كان من غلاة السنة .

(٢) الكتبى (ج١ ص ٣٢٢ — ٣٢٦) ، حاجى خليفة ٥٤٦ و ٢٢١٨ و ١٠٧٥٣ وانظر .
Wüstenfeld, Gesch. der Arab. No. 439.

(٣) كتاب ابن أبى طى هذا يسمى "كنز الموحدين فى سيرة صلاح الدين"
انظر الحاشية التى كتبتها عن حياة ابن أبى طى فى الباب التاسع من هذا الكتاب (ص ٢٩٩) .

(٤) Recueil des Histoires des Croisades, Historiens orientaux, tome IV. p. 14

وقد استق أبو شامة تاريخه من كتابى " الفتح القُدْسى " و" والبرق الشامى "(١) لعماد الدين الأصفهانى . وقد اختفت معالم الحقائق التاريخية تحت بروق ما فيه من الاستعارات والتشبيهات ، وما يشير اليه ضمنا مما وقع من الحوادث أيام الجاهلية ؛ حتى اذا ما أخذ أبو شامة عن هذا الكتاب وفطن الى ما فيه من نقص وعيوب ، حذف تلك العبارات المجازية التى جعلت أسلوبه محاطا بالغموض والابهام ، وسهل بذلك ما فى هذا الكتاب من حقائق تاريخية .

ومن أمهات الكتب التى يرجع تدوينها الى العصر الذى نحن بصدد الكلام عليه كتاب " طبقات الأطباء "(٢) لابن أبى أُصَيْبِعَة(٣) المتوفى سنة ٦٦٨ هـ (١٢٧٠ م) ، وكتاب "المعجب فى تلخيص أخبار المغرب" لعبد الواحد المرّاكُشى(٤) المتوفى سنة ٦٦٩ هـ (١٢٧٠ — ١٢٧١ م) ، و" كتاب أنوار اليقين " لشرف الدين الهدوى المتوفى سنة ٦٧٠ هـ (١٢٧١ — ١٢٧٢ م) مكتبة المتحف البريطانى ، القسم الشرقى ، مخطوط ٣٨٦٨ (ويتناول الكلام على أئمة الزيدية ، وقد كتبه صاحبه انتصارا لعلىّ وأولاده وتأييدا لدعواهم فى الامامة) وكتاب " المغرب فى حلى المغرب " لابن سعيد المتوفى سنة ٦٧٣ هـ (١٢٧٥ م)(٥) .

وكتاب " وفيات الأعيان " لابن خلكان المتوفى سنة ٦٨١ هـ (١٢٨١ م) لا غنى عنه لطلاب التاريخ الاسلامى . أما ما يتعلق بأواخر الفاطميين وانحلال دولتهم ، وقيام الدولة الأيوبية ، فان ما كتبه ابن خلكان فى تراجم صلاح الدين الأيوبى وأسد الدين شيركوه والعاضد الفاطمى من

---

(١) توجد نبذ عن الحوادث التاريخية التى وقعت بالشام بين سنتى ٥٧٨ و ٥٨٠ هـ (١١٨٢ — ١١٨٤ م) فى مكتبة بودليان بأكسفورد .

(٢) يبحث هذا الكتاب عن الحكماء الذين كانوا بافريقية ومصر ، ويتكلم استطرادا عما يتعلق بالفاطميين .

(٣) حاجى خليفة رقم ٧٨٨٣ و ٨٤٦٠ Wüstenfeld (Gesch. der Arab. No. 350)

(٤) لا نعرف شيئا عن حياة عبد الواحد بن على المراكشى من أهالى بلنسية ، إلا ما ذكره هو عن نفسه فى سياق كتابه من أنه ولد بمراكش سنة ٥٨١ هـ (١١٨٥ م) ، ثم عاش بعد ذلك فى الأندلس ومصر . على أن السنة التى توفى فيها ، والمكان الذى وقعت فيه هذه الوفاة ، أمران يجهلهما التاريخ . هذا ، وقد كتب المراكشى كتابه عن تاريخ "الموحِّدين" ، وهو ما يسمى " المعجب فى تلخيص أخبار المغرب " فى سنة ٦٢١ هـ ؛ ومما نقله لنا المقرى فى نفح الطيب (ج ١ ص ٥٥٠) عن المراكشى حادثة وقعت فى سنة ٦٦٩ هـ ، فلابد أن تكون وفاته فى هذه السنة أو بعدها . انظر لفظ عبد الواحد المراكشى فى دائرة المعارف الاسلامية .

(٥) الكتبى : فوات الوفيات (ج ٢ ص ١١٢)

ذكر السيوطى : حسن المحاضرة ، طبعة القاهرة سنة ١٢٩٩ هـ (ج ١ ص ٣٢٠) أن وفاته كانت فى سنة ٦٨٥ هـ

أحسن ما كتب فى هذا الصدد . وكتاب "مُفرِّج الكروب فى أخبار بنى أيوب" لابن واصل المتوفى سنة ٦٩٧ هـ (١٢٩٧ — ١٢٩٨ م) مخطوط بالمكتبة الأهليــة بباريس تحت رقم ١٧٠٢ ؛ وقد أمدنى بحقائق تاريخيــة جديدة ، وعلى الأخص فى البحث الذى أفردته للأعمال الدينية والسياسية التى قام بها الفاطميون فى القصر ، مركز حركة الشيعة .

هــذا ، وغير خاف ما لغير ما ذكرنا من الكتب من جليل الفائدة لهــذا البحث ، مثل تاريخ أبى الفدا صاحب حمــاه المتوفى سنة ٧٣٢ هـ (١٣٣١ م) ، و " نهــاية الأرب فى فنون الأدب " للنويرى المتوفى ســنة ٧٣٣ هـ (١٣٣٢ م) ، وهو دائرة معــارف جليلة (مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ١٥٧٦) ، ويطبع الآن بدار الكتب الملكية بالقاهرة ، و " تاريخ الاسلام " للذهبى المتوفى سنة ٧٤٨ هـ (١٣٤٨ م) ، و "فوات الوفيات" لابن شاكر الكتبى المتوفى سنة ٧٦٤ هـ (١٣٦٢ — ١٣٦٣ م) ، وهو مجموعة تراجم بمثابة تكملة لكتاب " وفيات الأعيان " لابن خلكان ، وكتاب " المقدمة " لابن خلدون المتوفى ســنة ٨٠٨ هـ (١٤٠٤ — ١٤٠٥ م) ، وتاريخه المسمى " العبر وديوان المبتدا والخبر " ، وكتاب " الانتصار لواسطة عقد الأمصار " [١] لابن دقماق [٢] المتوفى سنة ٨٠٩ هـ (١٤٠٦ — ١٤٠٧ م)[٣] .

أما عن الذهبى ، فقد اطلعت من بين مؤلفــاته على ثلاثة مخطوطات :

(ا) مخطوط ١٥٥١ بالمكتبة الأهليــة بباريس ؛ ويتناول الكلام عن المــدة التى تنحصر بين سنتى ٣٠١ و ٤٠٠ هـ (٩١٣ — ١٠٠٩ م) .

(ب) مخطوط ٤٢ (تاريخ) بالمكتبة الملكية بالقاهرة ؛ يحتوى على معلومات هامة عن الفاطميين فى مصر .

(ج) مخطوط (Laud. Or. 304) بمكتبة بدليان (Bodleian) بأكسفورد ؛ وقد أمدنى بحقائق تاريخية جديدة عن الخلافة الفاطمية فى العصر الأخير ، وعلى الأخص ما يتعلق بمجموعة الهدايا التى قدمها صلاح الدين لنور الدين ، والتى ترسم لنا صورة عن مبلغ ثروة الفاطميين فى عهد انحلال دولتهم .

---

(١) ظهر الجزءان الرابع والخــامس من مجموع أجزاء هــذا الكتاب العشرة ، وهــا يتضمنان معــلومات خاصــة لطبوغرافية مصر والاسكندرية لم يذكرها المقريزى فى خططه .

(٢) هذا اللفظ بالتركية طُقْماق . انظر حاجى خليفة رقم ٢٠٨٩ ، Wüstenfeld (Gesch. der Arab. No. 457)

(٣) ذكر السيوطى : (حسن المحاضرة ، طبعة القاهرة سنة ١٢٩٩ هـ (ج١ ص ٣٢٠ و ٣٢١) أن ابن دقــاق مات ســنة ٧٩٠ هـ ، وله من العمر ثمــانون سنة . وذكر حاجى خليفة (١٣١٦ و ٢٠٨٩ و ٢٨٩٧) نفس هــذه السنة ، ولكنه ذكر فى مكان آخر (٢٣١٢ و ١٣٦٧٦) أنه توفى سنة ٨٠٩ هـ

ومن أهم المصادر وأمتعها فى هذا البحث كتاب "صُبْح الأعشى فى صناعة الانشا" لأبى العباس أحمد القلقشندى المتوفى سنة ٨٢١ هـ (١٤١٨ م) . وفى هذا السفر الطويل ، وخاصة الجزء الثالث ، كلام مسهب عن الفاطميين ، ومواسمهم وأعيادهم ، ومراسمهم وعاداتهم ، ومذهبهم ونظم الحكم عندهم . وفضلا عن أن القلقشندى قد أخذ معلومات عن مصادر عاش مؤلفوها فى عهد الفاطميين أنفسهم ، مما جعل لها قيمة كبيرة من هذه الناحية بحيث تصور لنا مبلغ الثروة والرخاء فى مصر الفاطمية وما أحاط الخلفاء من أبهة وجلال ، فان أسلوبه يمتاز بشىء كثير من الوضوح والدقة والاتقان .

وربما كان تقى الدين المقريزى المتوفى سنة ٨٤٥ هـ (١٤٤١ م) أهم من ذكرنا من المؤرخين ؛ لأنه فضلا عن كونه من أحفاد الفاطميين ، مما حدا به الى الاهتمام العظيم بتاريخهم وأنسابهم وكل ما يتعلق بأحوالهم ، فانه قد وقف نفسه على تاريخ مصر " وطبوغرافيتها " ، وكتب فيه سلسلة من الكتب الفريدة ؛ وأكثرها نفعا كتابه المسمى " الخطط "[١].

ويجب ألا يغيب عن بالنا من كتب المقريزى كتاب " اتعاظ الحنفا بأخبار الخلفا " ؛ وهو مصدر جليل الفائدة فى تاريخ أوائل الفاطميين الى وفاة المعز[٢] . والنسخة الفذّة الموجودة من هذا الكتاب بخط المقريزى نفسه ؛ غير أنه مما يؤسف له أن هذا الجزء ليس إلا جزءا يسيرا من الكتاب الأصلى . وكتاب "المقفى" سفر طويل للتراجم ؛[٣] وله أهمية عظيمة . وهناك أجزاء منه فى مختلف دور الكتب ؛ وقد سنحت لى الفرصة للاطلاع على أحد مجلدات هذا السفر (مخطوط ٢١٤٤) بالمكتبة الأهلية بباريس ؛ وهو الجزء الذى اعتمد عليه كترمير (Quatremère)[٤] فى البحث الذى كتبه عن أصل الفاطميين ، كما اطلعت أيضا على غير هذا من المخطوطات فى مكتبة الجامعة بليدن . ونضيف إلى ما ذكرنا من كتب المقريزى كتاب " السلوك فى معرفة دول الملوك " ، وهو مخطوط موجود بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ٢٠٦٩ ؛ ترجمه إلى الفرنسية كترمير (Quatremère) ،

---

(١) ذكر حاجى خليفة (٢٣١١ و ٢٣١٢) جميع الكتب التى ألفت عن تاريخ مصر وخططها .

(٢) بحث الكتاب الأصلى فى تاريخ العصر الفاطمى بأكمله . على أنه لم يظهر منه الا هذا الجزء ؛ أما الأجزاء الأخرى فيظهر أنه قد عبثت بها يد الدهر .

(٣) مات المقريزى قبل أن يكمل كتابه هذا .

(٤) Journal Asiatique, Août, 1836

وذيله بمذكرات " فيلولوچية " وتاريخية وجغرافية . وهو مما لا يستغنى عنه طلاب البحث فى عصر المماليك خاصة[١] .

وكتاب " الإصابة فى تمييز الصحابة " لابن حجر المتوفى سنة ٨٥٣ هـ (١٤٤٩ م) ، وكتاب "رفع الإصْر عن قضاة مصر" — وهو مخطوط بالمكتبة الملكية بالقاهرة تحت رقم ٢١١٥ — لهما أهمية عظمى فى هذا البحث . والكتاب الأخير أخذ أكثره من مصدرين متقدمين : هما كتاب "القضاة والولاة" لأبى عمر الكندى ، و "تاريخ قضاة مصر" لابن زولاق. أما كتاب "رفع الإصر" الذى أدمج بعضه فى كتاب " القضاة والولاة " للكندى (Gibb Memorial Series, Vol. XIX.) ، فقد أعاننى على معالجة أحد مواضيع هذا البحث وهو "إسناد المناصب الى المتشيعين خاصة"[٢] .

هذا ، وليس " كتاب النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة "[٣] لأبى المحاسن المتوفى سنة ٨٧٤ هـ (١٤٦٩ م) ، وكتاب "حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة" للسيوطى المتوفى سنة ٩١١ هـ (١٥٠٥ م) ، و"نفح الطيب" للمقَّرى المتوفى سنة ١٠٤١ هـ (١٦٣٣ م) بأقل نفعا مما ذكرنا من المصادر .

وغير هذا وذاك من المصادر التى أشرنا اليها كتاب " بدائع الزهور " لابن إياس المتوفى سنة ٩٣٠ هـ (١٥٢٣ — ١٥٢٤م) ، وهو أحد تلاميذ جلال الدين السيوطى . و يظهر أنه نقل تاريخ أستاذه ؛ غير أنه كان عديم الحرص فى بحثه للصادر المتقدمة مما أوقعه فى الخطأ فى غير موضع .

---

(١) ذكر السيوطى : (فى حسن المحاضرة) ، طبعة القاهرة سنة ١٢٩٩ هـ (ج ١ ص ٣٢١) ، وحاجى خليفة (٢٦٢ و ٢٣١٢ و ٤٧٣٥ و ١١٤٥٣ الخ) مؤلفات المقريزى .

(٢) سيأتى الكلام على هذا الموضوع فى الباب الخامس من هذا الكتاب .

(٣) بالرغم من أن أبا المحاسن جاء متأخرا فان كتابه هذا من أمتع الكتب وأقيمها . ولا غرو فقد جمع فى كتابه كل ما وصل الى يده من المصادر التى تشتمل على معلومات خاصة بالفاطميين مما لا توجد فى كتاب أصلا . وعدا هذا فان كتابه فى الترتيب والنظام من أحسن ما كتب فى التاريخ .

الباب الأول

حركة الشيعة إلى قيام الدولة الفاطمية

١ – الدعوة الشيعية فى عهد الخلفاء الراشدين

لما كان من غرضنا الالمام بتاريخ مذهب الشيعة ، وجب علينا هنا أن نتتبع أصل هذه الطائفة التى كان يطلق عليها منذ الصدر الأول للاسلام اسم الشيعة ، أو العلويين ، أو أهل البيت ، وأن نقف على ما قامت به هذه الطائفة فى سبيل نشر دعوتها إلى أن تأسس سلطانهم فى القيروان .

والعلويون — كما نعلم — هم أولاد علىّ من فاطمة بنت النبى صلى الله عليه وسلم . وقد اعتقد أنصار الشيعة أنهم وحدهم أهل للخلافة ، وأن أبا بكر وعمر وعثمان ، وكذا الخلفاء من بنى أمية وبنى العباس ، قد انتزعوا حق الإمامة المقدس من علىّ . وقد صنف العلماء المتشيعون من المؤرخين الأسفار الطوال فى تأييد هذه المقالة ، وذهب بهم الاعتقاد الى القول بأن الخلافة سلخت من بيت علىّ ، أو بعبارة أخرى اغتصبت من بيت النبى .

ولم يقف الحال عند هذا الحد ، فقد اشتط الغلاة من الشيعة فقالوا إن الإمامة فى بيت علىّ ، وإن الأئمة معصومون ، وإن صفات الله سبحانه قد حلت فيهم وتقمصت أجسامهم ، وإن من قال بغير ذلك من الفرق الاسلامية — حتى بعض فرق الشيعة منهم — خارجون على الدين . ودللوا على صحة هذا القول بأن عليا كان أول من اعتنق الاسلام من الرجال ، وأن ما قام به فى سبيل رفع منار هذا الدين لا يستطيع أن يبذه فيه أحد من المسلمين بعد النبى . ولقد أسند هؤلاء الغلاة من الشيعة إلى النبى أحاديث تشهد بما لآل علىّ من حرمة ، وبما لعلىّ من حق فى الإمامة بعد الرسول عليه السلام .

على أن هذه الأحاديث التى وصلت الينا كانت — على ما هو مشهور — موضع جدل عنيف بين فقهاء المسلمين والمحدِّثين ونقدة الحديث . وقد جمع البخارى — على ما نعلم — نحو ستة آلاف حديث ،

اختارها — على ما قيل — من ستمائة ألف . ومع ذلك فان الإمام أبا حنيفة لم يثق الا بستة عشر منها . ومن هنا يتبين لنا ما وصل اليه اختلاق الأحاديث فى هذا الموضوع . فما هو السبب إذاً ؟

ذلك أنه عند وفاة النبى عليه السلام ، لم يكن السواد الأعظم من العرب يعرف القراءة والكتابة ؛ فلم يدوّن تاريخ هذه الأمة الا بعد زمن غير قصير . ولقد تناول العرب الحوادث التاريخية المشهورة والأحاديث النبوية بعضهم عن بعض ؛ فتأثرت هذه الحوادث بشىء غير قليل من التبديل والتحريف ، مما أدى بها إلى الغموض والإبهام فى معانيها والأحوال التى أحاطت بوقوعها .

حتى اذا ماجاء القرن الثانى للهجرة ، أخذ العرب يبحثون تاريخهم ؛ ولم يكن أكثره إلا شذرات مبهمة وحوادث متفرقة أو مدونة بطريقة تتمشى مع ميول الفرق الدينية المختلفة ، وقد آلى كل منها إلا إكبار أنصار مذهبه ولعن أعدائه ، مستندا إلى مايعزونه إلى النبى صلى الله عليه وسلم .

فمن ذلك ما يُعْزى الى النبى أنه قال : "أهل بيتى كسفينة نوح ، من ركبها نجا ، ومن عدل عنها غرق[1]". وقوله أيضا : "من مات على حب آل محمد مات شهيدا ، ألا ومن مات على حب آل محمد مات مؤمنا مستكمل الإيمان ؛ ومن مات على بغض آل محمد مات كافرا ، ومن مات على بغض آل محمد لم يَشَمّ رائحة الجنة"[2] . فهذان حديثان لا شك مطلقا فى أن الشيعة قد اخترعوهما بعد موت النبى ، تأييدا لعقيدتهم التى كان مبناها ممالأة علىّ وخلفائه من بعده .

ونحن نعلم أن النبى قد ترك مسألة الخلافة من غير أن يبت فى أمرها . ولسنا نجهل أيضا أن النبى فى مرضه الأخير ندب أبا بكر ليصلى بالناس بدلا منه[3] ، وأن السبق والإخلاص للدين صفتان بارزتان قد عرفهما النبى لأبى بكر ؛ وقد أشربت نفس الرسول حب هذه الروح الديمقراطية التى سادت لدى العرب منذ أيام الجاهلية . فرأى عليه السلام أن يترك الأمر شورى للعرب ليختاروا من أحبوا .

---

(١) أورد هذا الحديث أبو هاشم الحسن بن عبد الرحمن بن يحيى بن عبد الله بن الحسين بن القاسم بن ابراهيم بن اسماعيل ابن ابراهيم بن الحسن بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب عند استيلائه على صنعاء فى الثالث من رمضان سنة ٤٢٦ هـ (١٠٣٥ م) : مكتبة المتحف البريطانى ، مخطوط ٣٧٨٦ ، ورقة ١٠٠ ب .

(٢) حسام الدين المحلى ، مكتبة المتحف البريطانى ، مخطوط ٣٧٧٢ ، القسم الشرقى ، ورقة ٢٨٠ ب .

(٣) سيرة ابن هشام طبعة وستنفلد (ج ٢ ص ١٠٠٨ — ١٠٠٩) .

على أن إنابة النبي أبا بكر للصلاة ، جلى فى أن النبي كان بعيدا كل البعد عن التحيز والميل لذوى قرباه ، عاملا على تأييد قوله تعالى (إنما المؤمنون إخوة)[١] ، وعلى ما أُثر عنه من قوله عليه السلام " لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى " .

وخلاصة القول إن مسألة الخلافة قد تُركت بدون أن يُبت فى أمرها . فكان من جراء ذلك أن حل الانقسام بين المسلمين فى أول نشأة الاسلام ، ذلك الانقسام الذى انغرست جذوره فى اليوم الذى انتقل فيه الرسول الى جوار ربه .

ومع أن استخلاف أبى بكر قد تم بطريقة ديمقراطية ، على ما كان مألوفا لدى قبائل العرب فى الجاهلية (Patriarchal State) : ذلك النظام الذى يقضى بأن تكون السن والفضائل أساسا لاختيار شيخ القبيلة ، فان امتناع كثيرين من علية العرب ، كالعباس عم النبي ، وطلحة والزبير ، وهم من السابقين الى الاسلام[٢] الذين اتحدوا مع علىّ بن أبى طالب ، ثم ما كان أيضا من عدم إجابة فاطمة الى ما طالبت به من استيلائها على ميراث أبيها[٣] — كل هذه الأمور آذنت بانقسام الأمة العربية الى سنيين وشيعيين .

ولقد أشار أبو بكر الخوارزمى (+ ٣٨٣ هـ ٩٩٣ م) الكاتب المشهور والشيعى المتحمس لهذا المذهب الى هذا الانقسام فى إحدى رسائله (ص ١٣٠ — ١٣٩) ، وقد بعث بها الى أهل نَيْسابور حين جار عليهم عاملها محمد بن ابراهيم وأوقع بهم لاعتناقهم مذهب الشيعة . فأتى لنا فى هذه الرسالة بوصف يثير النفوس لهذه الأعمال التى أوقع لأجلها أهل السنة بالشيعة منذ وفاة النبي عليه السلام[٤] .

على أن هذا الشعور العدائى نحو علىّ قد وُجد — على ما ذكره كاتب آخر من الكتّاب الذين سبقوا الخوارزمى ، وهو يحيى بن الحسين الزيدى (+ ٣٦٠ هـ ٩٧١ م) — حتى فى حياة النبي . فقد عزى اليه صلى الله عليه وسلم أنه قال لعلىّ بن أبى طالب : " أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هرون من موسى ، إلا أنه لا نبى بعدى ؟" . ولهذا الحديث علاقة برحيل النبي الى تبوك[٥] ،

(١) القرآن الكريم سورة ٤٩ آية ١٠ .

(٢) ابن هشام (ج ٢ ص ١٠١٣) .

(٣) شرحه — يشير الخوارزمى (ص ١٣٠) الى ذلك فى احدى رسائله .

(٤) رسائل الخوارزمى (ص ١٣٠ و ١٣١ و ١٣٤) .

(٥) أنظر لفظ تبوك فى معجم البلدان لياقوت .

الواقعة على بعد اثنى عشر فرسخا من المدينة . وقد استخلف عليا على المدينة ؛ فثقُل ذلك على أهلها ؛ فتبع عليّ النبي وشكا اليه ، واعتذر عن العودة الى المدينة ؛ فقال له النبي : " ارجع يا أخى الى مكانك ، فان المدينة لا تصلح إلا بك ، فأنت خليفتى فى أهلى ودار هجرتى (يعنى المدينة) وقومى ؛ أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هرون من موسى ، إلا أنه لا نبى بعدى ؟ "[١]

ولو أراد عليه السلام أن يستخلف عليا ، فأنه لم يكن يرى من الصواب ذلك ، لمنافاته لروح العرب الديمقراطية .

وبينما الخوارزمى يوجه حملاته ضد أعمال العنف الذى حل بأهل مذهبه ، نرى كاتبا سنيا معاصرا ، وهو بديع الزمان الهمذانى صاحب المقامات والرسائل المشهورة (+ ٣٩٨ هـ ١٠٠٧ — ١٠٠٨ م) ، يتلمس المعاذير لما أتاه العمال السنيون الذين قضت سياستهم بالقضاء على ما يعبرون عنه بخروج أهل الشيعة على الدين[٢] .

هذا ، وقد تمت بيعة أبى بكر رغم هذا الخلاف العنيف الذى احتدم بين المهاجرين والأنصار فى سقيفة بنى ساعدة فى المدينة فى أمر الخلافة . بيد أن هذه السياسة الرشيدة التى نهجها أبو بكر وعمر ، قد ساعدت على كبح جماح الأمة العربية .

ثم جاءت بعد ذلك سياسة عثمان ، فى تفضيل أقاربه ومَن بينهم وبينه صلة ؛ فأصبحت هذه السياسة مثارا للسخط فى جميع الولايات الاسلامية ، وأتاحت لأنصار عليّ فرصة لتحويل الخلافة الى أهل البيت .

ولقد أذكى نيران هذه الثورة صحابى قديم ، اشتهر بأنه أول من حيّا النبي بتحية الاسلام[٣] ، وبأنه رابع (أو خامس على رواية أخرى للطبرى) من اعتنق هذا الدين[٤] ، واشتهر بالورع والتقوى ، وكان من كبار أئمة الحديث[٥] ، وهو أبو ذرّ الغفارى .

---

(١) يحيى بن الحسين ، مكتبة الجامعة بليدن ، مخطوط ١٦٤٧ ورقة ٥٥ (أ) و(ب) .

(٢) رسائل بديع الزمان الهمذانى (ص ٤٢١ — ٤٢٧)

(٣) صحيح مسلم (ج ٧ ص ١٥٤)

(٤) الطبرى (١ : ١١٦٨) وأسد الغابة لابن الأثير (ج ٥ ص ١٨٦) .

(٥) الطبرى (١ : ٢٨٥٩)

تحدى أبو ذرّ سياسة عثمان ومعاوية عامله على الشام ، بتحريض رجل من أهل صنعاء ، هو عبد الله بن سبأ (ويسمى أيضا ابن السوداء) . وقد روى لنا الطبرى أن ابن سبأ هذا كان يهوديا فأسلم فى السنة السابعة من خلافة عثمان : أى سنة ٢٩ أو ٣٠ هـ . وسرعان ما ظهر ابن سبأ بعد إسلامه فى ثوب الغيور على الدين ، مما أدخل الشك على المؤرخين ، ولا سيما العرب منهم ، وجعلهم يعتقدون أنه إنما اعتنق الاسلام ليضل المسلمين ويكيد للاسلام ، وأنه كان أقوى العوامل لإثارة الناس على عثمان .

أخذ ابن سبأ بعد اسلامه يتنقل فى البلاد الاسلامية ؛ فبدأ بالحجاز ، ثم بالبصرة ، فالكوفة ، ومنها الى الشام ، فمصر . ولما وفد على الشام لقى أبا ذرّ ؛ فوجد فيه الرجل الذى ينشده ، لما فيه من الغيرة وطيب القلب . فجاءه من ناحية الدين ، وشكا اليه من معاوية وما أتاه فى سياسته ، وقال "يا أبا ذرّ ! ألا تعجب إلى معاوية يقول : المال مال الله ، ألا إن كل شىء لله ، كأنه يريد أن يحتجنه[1] دون المسلمين ، ويمحو اسم المسلمين[2] (من ديوان العطاء) ؟ "

لهذا لا نعجب اذا رأينا أبا ذرّ يشمر عن ساعد الجدّ فى إعلان استيائه من سياسة معاوية ، ووجدناه يحض الأغنياء على الرحمة بالفقراء وعلى الاقلاع عن ادّخار أموالهم وكنزها ، محتجا بقوله تعالى (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ، يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ؛ هذا ما كنزتم لأنفسكم ، فذوقوا ما كنتم تكنزون) . وكذلك لا نعجب اذا ألفينا الفقراء يلتفون حوله ويسيئون الى الأغنياء ، مما أوجب شكايتهم الى معاوية ليرفع الأمر الى عثمان . وقد أيقن الخليفة أن الفتنة قد أخرجت خَطْمها[3] وعينها .

بعث عثمان فى طلب أبى ذر ؛ وقد آلى على نفسه أن يواصل حملاته على هذه السياسة . فلما دخل المدينة ووجد المجتمعات تعقد بها للتآمر على عثمان ، نادى فى المجتمعين : " بَشِّر أهل المدينة بغارة شعواء وحرب مِذْكار" . وكأن أبا ذر تنبأ بتلك الثورة التى ذهب عثمان ضحيتها[4] .

---

(١) احتجن المال أى ضمه واحتواه .

(٢) الطبرى (١ : ٢٨٥٩)

(٣) والخطم معناه مقدم الأنف والفم من الدابة ، والمراد هنا بدأت أوائل الفتنة .

(٤) الطبرى (١ : ٢٨٥٩)

وقد أذن عثمان لأبي ذر بالاقامة فى الرَبَذَة ، وهى قرية صغيرة على مقربة من المدينة — أو نفاه اليها على ما ذهب اليه ابن هشام [١] والخوارزمى[٢] — ولكنه واصل حملاته العنيفة على سياسة عثمان الى أن مات وهو كاره لها سنة ٣١ ﻫ .

هذا ، ولقد وجد ابن سبأ — وهو أول من حرض الناس على كره عثمان على ما تقدم — الطريق ممهدة أمامه لإسقاط عثمان . ولسنا نشك فى حسن نية أبي ذر ، وما كان من أمر استيائه من عثمان ومن سياسته . ولكنا نرى أن مصـدر استيائه الرغبة فى التمسك بالدين وأحكامه ، بخلاف ما كان عليه ابن سبأ . ولقد أصاب المؤرخ الهولاندى فان فلوتن (Van Vloten)[٣] حيث يقول : " إن هذه الطوائف التى نشأت بين العرب فى الولايات التى فتحوها ، وعلى الأخص فى البصرة والكوفة ومصر ، كانت منطوية فى بادئ الأمر على غرض سياسى محض ، رغم ظهورها بهذا المظهر الدينى " .

"ces factions nées parmi les Arabes dans les pays conquis, poursuivent d'abord un but, purement politique, quoique sous une apparence religieuse".

لم يلق ابن سبأ من أهل الشام أذنا صاغية ، اللهم الا من أبي ذر . ولقد قيل إن عبادة بن الصامت — وهو من أكابر الصحابة ، وممن شهد فتح مصر ، ومن ذوى الرأى والجاه فى دمشق — ساق ابن سبأ الى معاوية وقال له : " هذا والله الذى بعث عليك أبا ذر "[٤] .

وإن الاهتداء لرأى قاطع فى هذه المسألة ، وهى ما إذا كان أبو ذر أو ابن سبأ هو المؤسس الحقيق لمذهب الشيعة فى الاسلام ، ليس من الأمور السهلة ؛ لأن هذا الموضوع لم يزل موضع جدل عنيف بين المؤرخين . على أنه وإن استحال هنا معالجة هـذه المسألة بوجه التفصيل ، فلا يمنعنا ذلك من أن ندلى بالرأى الذى نراه : وهو أن ابن سبأ هو أول من وضع عقائد مذهب الشيعة الغالية فى الاسلام ، وأن أعمال أبي ذر لا تنطوى على محاولة ما لتحويل الخلافة إلى علىّ ، وإنما أدت إلى توطيد دعائم هذا المذهب الذى غرس بذوره ابن سبأ .

وقصارى القول ، أنه لم يكن لأبي ذر عمل فى توطيد ذلك المذهب ؛ ولكن نفيه الى الرَبَذَة قد اتخذه خصوم عثمان والشيعة من بعدهم تكأة للعيب فى حق عثمان والتشهير به وبعماله .

---

(١) سيرة ابن هشام (٢ : ٩٧١)

(٢) رسائل الخوارزمى (ص ١٣١)

(٣) La Domination Arabe, le Chîitisme et les Croyances Messianiques, p. 34

(٤) الطبرى (١ : ٢٨٥٩)

استياء الولايات الاسلامية :

لقد تولد الاستياء وفشا السخط فى الولايات الاسلامية بعد أن ولى عثمان الخلافة ، لاشتطاط عماله فى جمع الضرائب : ففى البصرة صادفت دعوة ابن سبأ مرعى خصيبا ؛ بيد أن عبد الله بن عامر والى عثمان طرده من هـذه البلاد ، فرحل الى الكوفة[1] ، حيث تفاقم استياء النـاس من عثمان وواليه ، ومن قريش الذين استولوا على سوادهم واتخذوه بستانا لهم ؛ وواصـل الثائرون الاجتماعات فى منازلهم ، ولُعن عثمان على ملأ من النـاس ، ولج هؤلاء فيما ارتكب من عظائم الأمور[2] .

ثم طرد ابن سبأ من الكوفة أيضا ، فقصد الشام — على ماتقدم — فلم يلق من أهلها ما لقى فى البصرة والكوفة ؛ فرحل إلى مصر . وهنا أخذ ينشر دعوته التى ألبسها لباس الدين ؛ واتصـل بالثائرين فى البصرة والكوفة ، وتبادل معهم الكتب والرسل[3] ؛ وبعث بالدعاة إلى هذه البلاد يدعون لعلىّ ؛ واستطاع أن يؤثر فى نفوس الناس ، فوضع مذهب الرجعة : أى رجعـة محمد صلى الله عليه وسلم ، وقال فى ذلك : " إنى لأعجب ممن يقول برجعة عيسى ولايقول برجعة محمد ، وقد قال الله عزوجل : (إن الذى فرض عليك القرآن لرادك الى معاد)"[4] . وزاد ابن سبأ أن محمدا أحق بالرجوع من عيسى. ومن هنا نشأ فى الاسلام مذهب تناسخ الأرواح ، وهو خروج الروح من جسد وحلولها فى جسد آخر.

ونشر ابن سبأ بعد ذلك مذهب الوصاية الذى أخذه عن اليهودية دينه القديم ، بمعنى أن عليا وصىّ محمد ، وأنه خاتم الأوصياء بعد محمد خاتم النبيين ، واتهم من ناوءوا عليا وتعدوا على حقه فى الإمامة . كما أخذ عن الفرس — الذين كانوا يحتلون فى صـدر الاسلام بلاد اليمن موطنه الأصلى — نظرية الحق الالهى ، بمعنى أن عليا هو الخليفة بعد النبى وأنه يستمد الحكم من الله . وبذلك هيأ العقول إلى الاعتقاد بأن عثمان أخذ الخلافة بغير حق من علىّ وصىّ رسول الله . وبهذا أيضا استطاع ابن سبأ أن يؤلب الناس على عثمان وعلى ولاته فقال لهم : "إن عثمان أخذها بغير حق ، وهذا وصىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانهضوا فى هذا الأمر فحركوه ، وابدءوا بالطعن على أمرائكم ، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تستميلوا الناس ، وادعوهم الى هذا الأمر"[5] .

---

(١) (الطبرى ١ : ٢٩٢٢) ، يقول هذا المؤرخ : ان هذا كان بعد ولاية ابن عامر بثلاث سنين ، وأن توليه كانت سنة ٢٩ هـ (١ : ٢٨٢٨) . وعلى ذلك يكون إبعاد ابن سبأ فى سنة ٣٢ هـ (١ : ٢٩٢٢)

(٢) الطبرى (١ : ٢٩١٦) وما يتبعها من حوادث سنة ٣٢ هـ .

(٣) الطبرى (١ : ٢٩٢٢)

(٤) سورة ٢٧ آية ٨٥

(٥) الطبرى (١ : ٢٩٤٢)

هـذا ، ولم يكن يصعب على ابن سبأ أن يقوم بتنفيذ سياسته فى مصر ، حيث اشتد سخط الناس على عثمان وعلى عبد الله بن سعد بن أبى سرح عامله على مصر ومن ذوى قرباه . ولقد ساعد على إذكاء نيران السخط فى مصر عاملان قويان : هما محمد بن أبى حذيفة ومحمد بن أبى بكر . ولا غرو فقد ساعد انضمامهما لهذه الحركة على نجاح ابن سبأ فى سياسته .

أما السبب فى انضمام محمد بن أبى بكر ، فهو ما كان من صلة النسب بينه وبين علىّ بن أبى طالب وابنه الحسين بن علىّ . فقد تزوج علىّ بأسماء بنت عُمَيس أم محمد بن أبى بكر بعد وفاة أبيه ؛ فكان ابن أبى بكر ربيبا فى بيت علىّ ؛ ولأن الحسين بن علىّ ومحمد بن أبى بكر كانا زوجى ابنتى يزدجرد الثالث آخر ملوك بنى ساسان من الفرس .

وأما مسلك ابن أبى حذيفة العدائى لعثمان ، فقد ظهر أثره فيما شجر بينه وبين ابن أبى سرح فى غزوة السوارى — أو ذات السوارى — التى نشبت بين المسلمين والبيزنطيين سنة ٣١ هـ (٦٥١م) . وانما سميت بهذا الاسم لكثرة سوارى السفن التى اشتبكت فى المعركة ، حتى قيل إنه اشترك فيها ألف سفينة ، منها مائتان للمسلمين . فقد اختلف معه فى هذه الموقعة على التكبير فى الصلاة حين صلى ابن أبى سرح العصر بالناس ؛ فرفع ابن أبى حذيفة صوته بالتكبير ، فنهاه ابن أبى سرح فلم ينته . ولما أقيمت صلاة المغرب رفع صوته بالتكبير ثانية ؛ فنهره ابن أبى سرح وهم بطرده من جيشه . ومن ثم أخذ ابن أبى حذيفة فى إثارة الناس على عثمان وعلى ولاته . ولما وضعت الحرب أوزارها ، رجع هو ومحمد بن أبى بكر الى الفسطاط ، وهنا انضما الى ابن سبأ[1] .

ولقد أدلى لنا المقريزى بالسبب الذى حدا بابن أبى حذيفة أن يسلك هذا المسلك العدائى نحو عثمان ، فقال إن ابن أبى حذيفة تربى فى كنف عثمان بعد وفاة أبيه ؛ فلما ولى عثمان الخلافة ، طلب اليه أن يوليه بعض أمور المسلمين ، فأبى ذلك عليه ، إذ نمى إليه أنه شرب الخمر[2] ، فقال له : " لو كنتَ رضا لوليتك ، ولكنك لست هناك " .

ولقد وافانا المقريزى[3] بشىء عن سيرة ابن أبى حذيفة فى مصر ، ننقله للقارئ فيما يلى : "انتبز محمد بن أبى حذيفة فى شوال سنة خمس وثلاثين على عقبة بن نافع خليفة ابن أبى سرح ، وأخرجه

---

(١) الطبرى : طبعة مصر (ج ٥ ص ٧٠ — ٧١) .

(٢) المقفى الكبير للقريزى ، مكتبة الجامعة بليدن ، مخطوط ١٣٦٦ ، المجلد الأول ، ورقة ٢٠٦ (أ) .

(٣) خطط (ج ٢ ص ٣٣٥) . وقد وردت هذه العبارة أيضا بتصرف فى كتاب المقفى الكبير الموجود بمكتبة الجامعة بليدن ، مخطوط ١٣٦٦ ، المجلد الأول ، ورقة ٢٠٥ (ب) .

من الفسطاط ، ودعا إلى خلع عثمان من البلاد ، وأسعر البلاد . فكان يكتب الكتب على لسان أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم يأخذ الرواحل فيضمرها ، والرجال فيجعلهم على ظهور البيوت ، فيستقبلون بوجوههم الشمس لتلوحهم تلويح المسافر ، ثم يأمرهم أن يخرجوا إلى طريق المدينة ومصر ، ثم يرسلون رسلا يخبرون الناس ليلقوهم ، وقد أمرهم إذا لقيهم الناس أن يقولوا : ليس عندنا خبر ، الخبر فى الكتب ، ثم يتلقاهم ابن أبى حذيفة فيقرأ عليهم كتب أزواج النبى " .

وقد حاول عثمان أن يصلح بينه وبين ابن أبى حذيفة ، ولكن هذا آلى على نفسه أن يواصل سياسة العنف والشدة . وقد بعث إليه عثمان بثلاثين ألف درهم وكسوة ، فانتهز ابن أبى حذيفة وصول هدية عثمان فرصة سانحة ليظهر للناس أن هذه الحركة التى قام بها حركة دينية ، بعيدة البعد كله عن كل غرض دنيوى . فأظهر الهدية للناس فى المسجد وقال : " يامعشر المسلمين ! ألا ترون أن عثمان يخادعنى عن دينى ويرشونى (يرشينى فى الأصل) عليه ؟ "

وكان لهذه الدعوة أغراض ومرام خبيثة ، فقد زادنا المقريزى أن أهل مصر ازدادوا تعظيما لابن أبى حذيفة وطعنا على عثمان ، وبايعوه على رياستهم .[1]

ولا شك فى أن الحالة فى البصرة والكوفة ومصر أصبحت من الحرج ، بحيث لم تعد تدعو إلى شىء من الطمأنينة . ولهذا ندب عثمان أربعة من رجاله ليبحثوا عن أسباب هذه القلاقل ويقفوا على حقيقة الحال فى الولايات . فأرسل محمد بن مسلمة إلى الكوفة ، وأسامة بن زيد إلى البصرة ، وعبد الله بن عمر إلى الشام ، وعمار بن ياسر إلى مصر ، وهو أحد أصحاب رسول الله ، ومن السابقين إلى الاسلام ، وممن عرف لهم النبى صدق الايمان[2] .

عاد الذين ندبهم الخليفة إلا عمار بن ياسر ، فقد استماله الثائرون فى مصر[3] . وساعد على ذلك ما كان من عثمان لعمار ، حيث أدبه لقذف حصل بينه وبين عباس بن عتبة بن أبى لهب . وإن انضمام صحابى جليل كعمار ، يبين مبلغ السخط الذى أثارته سياسة الضعف واللين التى سار عليها عثمان بن عفان .

---

(١) المقفى الكبير للمقريزى ، ليدن ، المجلد الأول ، ورقة ٢٠٦ (أ) .

(٢) ذكر ابن حجر فى كتابه "الإصابة فى تمييز الصحابة" (ج ٤ ص ١٢٢٠) أن النبى قال : " اقتدوا باللذين من بعدى : أبى بكر وعمر ، واهتدوا بهدى عمار (بن ياسر) .

(٣) الطبرى (١ : ٢٩٤٣ و ٢٩٤٤)

ولا شك فى أن ابن سبأ قد حقق ما كان يرمى اليه من بذر بذور الاستياء والسخط نحو عثمان وولاته ، وكانوا من ذوى قرباه ، وأن دعوته قد آتت أكُلَها . وليس أدل على صحة هذا القول من انضمام كثيرين من أصحاب النفوذ والجاه إلى صفوفه ، من أمثال محمد بن أبى حذيفة ، ومحمد بن أبى بكر وعمار بن ياسر .

ولا غرو فقد قام ابن أبى حذيفة بتنفيذ الخطة التى رسمها ابن سبأ ؛ فكاتب أهل مصر أشياعهم من أهل البصرة والكوفة ، واتفقوا على الشخوص إلى المدينة[1] ؛ وهو ما يمكن تسميته بدور العمل . وخرج كل منهم فى ستمائة رجل ، وتوافوا خارج المدينة ؛ وهنا اختلفوا فيمن يولونه الخلافة بعد عثمان . فمال أهل البصرة إلى طلحة ، وأهل الكوفة الى الزبير ، ورغب أهل مصر وعلى رأسهم ابن سبأ إلى علىّ بن أبى طالب ؛ وعمل كل فريق على أن يتم الأمر له ولمن وقع اختياره عليه دون غيره[2] .

لم يمض زمن طويل حتى فاز المصريون أنصار ابن سبأ ؛ فقتل عثمان فى الثامن عشر من ذى الحجة سنة ٣٥ هـ (٦٥٥م) ، وتولى علىّ بن أبى طالب الخلافة (فى الخامس والعشرين من هذا الشهر) . فكان ذلك أول فصول هذه المأساة ، وما أعقبها من تحزب المسلمين وانقسامهم الى سنيين وشيعيين .

عقيدة ابن سبأ الشيعية وألوهية علىّ :

والآن نعود الى الكلام على حياة ابن سبأ من حيث تطور عقيدته الشيعية فى خلافة علىّ وبعدها :

ذكر ابن حزم أن قوما من أصحاب عبدالله بن سبأ أتوا عليا وقالوا له : «أنت هو !» فقال لهم : «ومن هو ؟» فقالوا : «أنت الله !» فغضب علىّ وأظهر الجد ؛ وأمر بنار فأوقدت ، وأمر مولاه قنبر بأن يلقى بهؤلاء الرجال فيها ؛ فجعلوا يقولون وهم يلقون فى النار : «الآن صح عندنا أنه الله ، لأنه لا يعذب بالنار إلا الله» .

---

(١) الطبرى (١ : ٢٩٥٠)

(٢) شرحه (١ : ٢٩٥٥)

وقد زادنا ابن حزم أن عليا أشار الى هذه الحادثة فى هذا البيت :

لما رأيتُ الأمر أمرا منكرا أجّجتُ نارا ودعوت قُنْبَرا[١]

فكان من أثر هذا الغلو فى العقائد الدينية أن أمر علىّ بابن سبأ فنفى إلى المدائن [٢] . بيد أن هذا لم يكن ليثنى ابن سبأ عن مواصلة الدعوة لعلىّ ، حتى إذا ما مات علىّ قالت الطائفة السبئية برجعته وتوقفه[٣] ، أى انتظار رجوعه ، وبحلول الجزء الإلهى فيه . ولقد ذهبوا أيضا الى القول بأنه يجىء فى السحاب ، وأن الرعد صوته والبرق سوطه (أو تبسمه أو نوره على ما ذهب البعض) ، وأنه سينزل بعد ذلك الى الأرض فيملؤها عدلا بعد أن ملئت جورا وظلما[٤]

---

٢ — الدعوة السرية للهاشميين أيام بنى أمية

لقد نال معاوية الخلافة بحد السيف طورا ، وبالمكيدة والسياسة طورا آخر ، لا بإجماع من المسلمين ورضى منهم : ذلك أن العرب دعوا الى الحسن بن علىّ بعد موت أبيه ؛ إلا أن خلافته لم يطل أمدها[٥] ، لما أشيع من انهزام جيوشه أمام جند الشام ، وتخلى أهل العراق عنه ؛ فلم يجد بدا من النزول عن الخلافة ، ناظرا الى صلاح الأمة وحقن الدماء[٦] .

على أن الدافع الحقيقى الذى دفع بالحسن إلى النزول عنها إنما يرجع — على ما ذهب إليه اليعقوبى[٧] — إلى أنه لم يعد بحيث يستطيع مناوأة معاوية . ولقد انتهى هذا النزول بإبرام معاهدة الصلح

---

(١) قنبر مولى علىّ بن أبى طالب الذى رمى هؤلاء الرجال فى النار (ابن حزم : الملل والنحل ج ٤ ص ١٨٦)

(٢) الشهرستانى (ج ٢ ص ١١) والعقد الفريد (ج ١ ص ٢٦٩)

(٣) قال ابن سبأ لما بلغه قتل علىّ "لو أتيتمونا بدماغه سبعين مرة ، ماصدقنا موته ، ولا يموت حتى يملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا — ابن حزم (ج ٤ ص ١٨٠)

(٤) الشهرستانى (ج ٢ ص ١١)

(٥) ذكر المسعودى ، مروج الذهب (ج ٢ ص ٣١) أن عليا مات فى العشرين من رمضان سنة ٤٠ ﻫ (٦٦٠ م) ، واستخلف بعده ابنه الحسن فى الخامس والعشرين من هذا الشهر ، فظل فى الخلافة الى أن نزل عنها فى مستهل ربيع الأول (ليست عبارة المسعودى صريحة فى أن هذا النزول تم فى شهر ربيع الأول أو ربيع الثانى) .

(٦) النسيبى ، ليدن ، مخطوط ١٩٧٩ ، ورقة ٩٣ (ب) .

(٧) (ج ٢ ص ٢٥٥)

بين الحسن ومعاوية ، تلك المعاهدة التى جعلت معاوية صاحب السلطان المطلق فى كافة الولايات الاسلامية . وفى الخامس والعشرين من ربيع الثانى سنة ٤١[١] دخل معاوية الكوفة[٢] .

وفى خلافة يزيد وصلت إلى الحسين كتب[٣] أهل الكوفة يحرضونه فيها على الرحيل اليهم ؛ فلم يعتبر الحسين بما فعله أهل الكوفة مع أبيه وأخيه من قبل ، بل ولم يع قول الفرزدق الشاعر المشهور ، حين سأله الحسين عن أهل الكوفة ، وكان الحسين فى طريقه إليها : " خلَّفتُ قلوب الناس معك وسيوفهم مع بنى أمية عليك "[٤] .

ولقد صدق الفرزدق . فانه فى التاسع من المحرم سنة ٦١ هـ (٦٨٠ م) قاتل الحسين على رأس فئة قليلة لم يبلغ عددها ثمانين رجلا ؛ فأوقع بهم العدو فى كربلاء فى العاشر من المحرم ، وأبادهم عن آخرهم .

ولقد علق الأستاذ براون على موقعة كربلاء بقوله : " إن فريق الشيعة أو حزب علىّ كان — على ما رأينا — ينقصه الحماسة وبذل النفس . بيد أن هذا كله قد تبدل منذ ذلك الحين ، وغدت ذكرى ميدان كربلاء الملطخة بدماء ابن بنت النبى ، مع ما قاساه من شدة العطش وإحاطته بجثث ذوى قرباه ، كل ذلك غدا منذ هذا الوقت كافيا لأن يثير عاطفة الحماسة التى كانت على أشدّ ما تكون ، والأحزان التى تملكت النفوس — حتى عند أكثر الناس فتورا وتراخيا — وأصبحت هذه الروح التى لا تبالى بالآلام والأخطار ، بل ولا بالموت ، ترى كل هذه ترهات لا تساوى التفكير فيها "[٥] .

ويجدر بنا أن نقتبس أيضا ما ذكره الأستاذ نيكلسن حيث يقول فى هذا الصدد : " لقد اتخذ بنو أمية من واقعة كربلاء سببا كافيا يدعوهم الى أن يعضوا يد الندامة على ما جنت أيديهم ؛ إذ أن هذا اليوم وحّد صفوف الشيعة ، فصاحوا صيحة واحدة : الأخذ بثأر الحسين ! — هذا

(١) المسعودى ، "مروج الذهب" (ج ٢ ص ٣٦)

(٢) ليدن ، مخطوط ١٦٤٧ ، ورقة ١٣٥ (ب) .

(٣) قيل ان الحسين تسلم نحوا من مائة وخمسين كتابا من مختلف الجماعات (ليدن ، مخطوط ١٩٧٩ ، ورقة ١٢ (ب) ، ومخطوط ١٦٤٧ ، ورقة ١٤٥ أ) ، وكان ذلك فى شهر ذى الحجة سنة ٦٠ (٦٨٠ م) .

(٤) المسعودى ، مروج الذهب (ج ٢ ص ٦٥)

(٥) Browne: Literary History of Persia, vol. I., p. 226 seq.

النداء الذى دوى فى كل مكان ، وعلى الأخص عند الموالى من الفرس الذين تاقوا الى الخلاص من من نير العرب "[١] .

ومن هنا نشأت فرقة التوابين الذين ندموا على ما فرطوا فى جنب الحسين ، ورأوا أن لا توبة لهم إلا بالاستماتة فى سبيل الأخذ بثأر الحسين وأهل بيته . وقد تتبعوا قتلته واستأصلوهم .

هاتان العبارتان تصفان حال الأمة العربية وصفا دقيقا . فإن هـذا النزاع الذى احتدم بين هذين الحزبين لم ينته بموت الحسين وانهزام أشياعه ، بل على العكس من ذلك ، قد زاد فى الدعوة لآل علىّ قوة ، حتى إن العداء بين الأمويين والعلويين أصبح أشد خطرا وأعظم احتـداما عن ذى قبل . يؤيد هذا القول ما كان من ردّ ابن عفيف على ابن زياد عامل الكوفة ، حين صعد المنبر بعد وفاة الحسـين وخطب الناس خطبة جاء فيها : " الحمد لله الذى أظهر الحق وأهله ، ونصر أمير المؤمنين يزيد (بن معاوية) وحزبه ، وقتل الكذاب ابن الكذاب وشيعته " .

بيـد أن شعور العداء عند الشيعة أخذ يثور بركانه بعد واقعة كربلاء لأوهى الأسباب ؛ ذلك أنه بعد أن فرغ هذا الأمير من كلامه ، انبرى له عبد الله بن عفيف الأزدى يفند قوله فى هذه الكلمات المملوءة حنقا المفعمة سخطا على بنى أميـة وولاتهم فقال : " يا عدوّ الله ! إن الكذاب أنت وأبوك والذى ولاك وأبوه ، تقتل أولاد النبيين وتقوم على المنبر مقام الصديقين " ؟[٢]

ابن الزبير وابن الحنفية :

دعا عبـد الله بن الزبير الى نفسه فى سـنة ٦٣ للهجرة ، فصادفت دعوته نجاحا عظيما فى بلاد العرب والعراق . على أن محمد بن الحنفية بن علىّ بن أبى طالب أبى مبايعة ابن الزبير — وكان قد بايع يزيد بن معـاوية — ففت ذلك فى عضد ابن الزبير ، وساعد على ظهور حزب جديد : هو حزب الكيسانيـة الذى قام فى الكوفة بالدعوة الى محمد بن الحنفية بعـد قتل الحسن فى موقعـة كربلاء .

---

(١) Nicholson : Literary History of the Arabs, p. 198

(٢) ابن النعمان ، ليدن مخطوط ١٦٤٧ ، ورقة ١٨٠ أ

ان حياة ابن الحنفيـة لحياة حافلة عجيبة ؛ فقـد أقسم يمين الطاعة ليزيد حين ولاه أبوه العهد . ولما ولى يزيد الخلافة دعا ابن الحنفيـة لزيارته فى دمشـق ، حيث تلقاه بكل مظاهر الإجلال ، وأكرمه الإكرام كله وأمر له بثلاثمـائة ألف درهم (وفى رواية أخرى خمسمائة ألف درهم) وعروض بمـائة ألف[1] .

المختار والكيسانية[2] :

لقـد فت إباء ابن الحنيفـة عن الدخـول فيما قام به عبـد الله بن الزبير فى عضـد هـذه الدعوة ، وهيأ للمختار فرصـة سانحة لتكوين حزب شيعى جديد ، هو حزب الكيسانية . بيـد أن

---

(١) المقريزى ، التاريخ الكبير المقفى ، ليدن مخطوط ١٣٦٦ ، المجلد الثانى ، ورقة ١٢٧ ب

(٢) تنسب الطائفة الكيسانية على رواية الطبرى (طبعـة دى غويه ١ : ٣٣٩٣) ، والبغدادى (الفرق بين الفرق ص ٢٧) ، والشهرستانى (الملل والنحل ج ١ ص ١٩٦) الى كيسان مولى على بن أبى طالب الذى قتل فى موقعة صـفين سنة ٣٧ هـ . وتنسب هذه الطائفة ، على ما أورده المسعودى (مروج الذهب ، طبعة بولاق ج ٢ ص ٧٩) وابن عبد ربه (العقد الفريد ج ١ ص ٢٦٩) الى المختار بن أبى عبيد . ولكن كلام المسـعودى لا يعتمد عليه غير جازم بذلك اذ يقول : "أو هو غير المختار" .

على أنا نجد كثـيرا من المؤرخين يفرقون بين كيسان والمختار ، فيقول ابن حزم : (الفِصَل فى الملل والأهواء والنحل ج ٤ ص ٩٤) ان هناك شخصين مختلفين ، همـا المختار بن أبى عبيد وكيسان أبو عمرة . ويقول الشهرستانى (ج ١ ص ١٩٦) ، ان هناك طائفتين مختلفتين ، هما الكيسانية والمختارية : الأولى تنسب الى كيسان مولى على ، والثانيـة الى المختار بن أبى عبيد .

وذكر الطبرى (٢ : ٦٧١) فى مكان آخر ، أن أبا عمرة كيسان مولى بجيـلة هو رئيس شرطة المختار بن أبى عبيد . ووافق على هـذا أحمد بن يحيى بن المرتضى (كتاب غايات الأفكار ، مكتبـة المتحف البريطانى ، مخطوط ٣٧٧٢ ورقـة ١٢٧ ب) . على أن ابن المرتضى لدين الله لم يجزم بذلك حيث قال كما قال الطبرى (٢ : ١٣٩٣) : ويقال ان لفظ كيسان يطلق على مولى علىّ بن أبى طالب .

وقد يؤخذ بمـا ذكره الطبرى لولا ما جاء فى رواياته من تناقض وتضـارب ، ممـا يجعل الاهتـداء الى أصـل الطائفة الكيسانية بعيدا كل البعد . على أن هذا الاهتداء يمكن الوصول اليـه من مصدرين آخرين : همـا كتاب الطبقات لابن سـعد (+ ٢٣٠ هـ ٨٤٤ م) (ج ٥ ص ٧٧) وكتاب الأخبار الطوال للدينورى (+ ٢٨٢ أو ٢٩٠ هـ ٨٩٥ أو ٩٠٣ م) ، طبعة ليدن (ص ٢٩٦ — ٢٩٧) .

فقد أتى ابن سـعد باسم أبى عمرة كيسان ضمن أسماء غيره من الرجال الذين شهدوا بأن ابن الحنفية سمح للمختار بأن يبث الدعوة باسمه (ابن الحنفية) ، وان كان هـذا القول مشكوكا فيه لأنه غير ثابت تاريخيا بأن ابن الحنفيـة مالأ المختار ابن أبى عبيد ، بل عرف أنه بايع يزيد بن معاوية لأنه لم يكن يثق بأهل الكوفة .

وقد روى الدينورى عن الشعبى فى سياق كلامه على المختار عبارة تدل صراحة على أن المختار وكيسان شخصان مختلفان . والشعبى هذا من أكابر المحدثين والفقهاء ، وهو مشهور بالورع وصدق القول وتحرى النقل . قال الدينورى : "وكان على الكوفة يومئذ من قبل عبد الله بن الزبير ، عبد الله بن مطيع ؛ فأرسل ابن مطيع الى المختار يقول : =

المجهودات التى بذلها المختار لم تلق عطف ابن الحنفية وتأييده ، لأنه لم يكن يثق بأهل الكوفة الذين خذلوا أباه وأخويه من قبل[١]

وقامت ثورة المختار بن أبى عبيد فى خلافة عبد الملك بن مروان (سنة ٦٥ — ٨٦ هـ ، ٦٨٥ — ٧٠٥ م) . ولقد قارن فان فلوتن (Van Vloten) بين مذهب السبئية ومذهب الكيسانية فقال : " يظهر أن عقيدة السبئية قد بنيت على الرأى القديم القائل بتجسد الألوهية . وزاد هذا المؤرخ على ما تقدم بأن السبئية يختلفون عن الحزب الشيعى الآخر ، وهو حزب

ما هذه الجماعات التى تغدو وتروح اليك ؟ فقال : المختار مريض يعاد . فلم يزل كذلك حتى قال له نصحاؤه : عليك بابراهيم بن الأشتر فاستمله ، فانه متى شايعك على أمر ظفرت به وقضيت حاجتك . فأرسل المختار الى جماعة من أصحابه ، فدخلوا عليه وبيده صحيفة مختومة بالرصاص ، فقال الشعبى : وكنت فيمن دخل عليه ، فرأيت الرصاص يلوح ، فظننت أنه أنما ختم من الليل ، فقال لنا : انطلقوا بنا حتى نأتى ابراهيم بن الأشتر . قال فضينا معه ، وكنت أنا ويزيد بن أنس الأزدى ، وأحمد ابن سليط ، وعبد الله بن كامل ، وأبو عمرة كيسان مولى بجيلة الذى يقول الناس قد جاوره أبو عمرة ، وكان من بعد ذلك على شرط المختار " .

ولقد حاول فريد لينـدر (Friedlænder) فى تعليقه على " شنع الشيعة على ما جاء فى كتاب ابن حزم " (Heterodoxies of the Shi'ites in the Presentation of Ibn Hazm) المنشور فى مجلة الجمعية الأمريكية الشرقية فى العدد التاسع والعشرين (Journal of the American Oriental Society, vol. XXIX. pp. 29-30) الاهتداء الى أصل الكيسانية . وبالرغم من أن هذا الكاتب أخذ عن غير " الملل والنحل " لابن حزم ، فانه قال إن " ما ذكره ابن حزم عن هذه المسألة ، هو بلا شك القول الصحيح حقا من بين أقوال المؤرخين على اختلافهم " .

على أن ابن حزم (ج ٤ ص ١٧٩) انما قال إن الكيسانية هم أنصار المختار بن أبى عبيد . وهذا لا يستلزم أن الكيسانية هم المختارية ، لأنه لا توجد ثمة صلة بين لفظ المختار ولفظ الكيسانية . وعليه فانه من المحتمل كثيرا أن يكون لفظ الكيسانية نسبة الى كيسان مولى بجيلة ورئيس حرس المختار ، ويبعد أن يكون نسبة الى كيسان مولى على ، لأنه مات قبل قيام الكيسانية بنحو ثلاثين سنة . يضاف الى ما تقدم أن ابن حزم (ج ٤ ص ٩٤) قد ميز بجلاء ووضوح بين لفظى المختار وكيسان عند الإشارة الى الطائفة الكيسانية فى سياق كلامه على الإمام الثانى عشر فقال : وكان رئيسهم المختار بن أبى عبيد ، وكيسان أبو عمرة وغيرهما يذهبون الى أن الامام بعد الحسين هو أخوه محمد المعروف بابن الحنفية . وعليه فان ما أورده ابن سعد والدينورى — لا ابن حزم أو غيره — هو القول الصحيح .

[١] ذكر المقريزى فى كتابه " المقفى الكبير " (ليدن ، مخطوط ١٣٦٦ ، المجلد الثانى ، ورقة ١٢٨ أ) أن فريقا من أهل الشام ، وعلى رأسهم مسلم بن عقبة المرى ، ساروا الى الحجاز لقتال أنصار ابن الزبير ، وأن فريقا آخر من شايعوا ابن الزبير فى الكوفة ، وعلى رأسهم عبد الله بن مطيع عامل ابن الزبير على الكوفة وعبد الله بن عمر بن الخطاب ، جاءوا الى محمد بن الحنفية فقالوا له : أخرج معنا نقاتل يزيد ، فقال : على ما ذا أقاتله ولم أخلعه ؟ قالوا : إنه كفر ... وشرب الخمر . فقال لهم : ألا تتقون الله ، هل رآه أحد منكم يفعل ما تذكرون ، وقد صحبته أكثر مما صحبتموه فما رأيت به سوءًا ؟ قالوا : انه لم يكن يطلعك على فعله . قال : أفأطلعكم أنتم عليه ؟ نخافوا أن يثبط قعوده الناس عن الخروج ، فعرضوا عليه أن يبايعوه إذ كره أن يبايع ابن الزبير ، فقال : لست أقاتل تابعا أو متبوعا . قالوا : فقد قاتلت مع أبيك . قال : وأين مثل أبى اليوم ؟ فأخرجوه كارها ومعه بنوه مسلحين ؛ فحمل أهل الشام عليه ، فضارب بنوه دونه ، فقتل ابنه القاسم محمد ، وضرب أبو هاشم قاتل أخيه فقتله ؛ ثم خرج ابن الحنفية الى مكة من فوره " .

الكيسانيــة الذى ظهر فى بادئ أمره بالكوفــة تحت زعامة المختار[١] . وبالرغم من عقيدتهــم الأصلية ، وهى القول بامامة محمد بن الحنفية بعــد علىّ أبيــه ، فان الكيسانية يغالون فى اعتقادهم بمحمد بن الحنفية و بامامته ، و باحاطته بالعــلوم كلها "[٢] ، اذ اقتبس من أخويه الحسن والحسين الأسرار ، وأحاط بعلم التأويل والباطن[٣] .

ويعتقد الكيسانية فى البَــداء ، بمعنى أنَّ الله ســبحانه وتعالى يغير ما أراد ؛ وفى تنــاسخ الأرواح ، وهو خروج الروح من جسد وحلولهــا فى جسد آخر ؛ وفى الرجعــة ، أى رجعة محمد بن الحنفية ؛ كما يعتقدون أيضا بنبوة علىّ والحسن والحسين وابن الحنفية . على أنهم يختلفون فى أن ابن الحنفية ورث الإمامة عن علىّ مباشرة ، أو عن طريق أخويه الحسن والحسين .

أما عن الرجعة فقد أنكر جماعة من الكيسانية موت ابن الحنفيــة ؛ واستفزتهم الأخبار التى ذاعت عن موته ، فاعتقدوا أنه يقيم فى جبل رَضوى (على مسيرة سبعة أيام من المدينة)[٤] ، وأن عودته ســتكون من هذا المكان . ولقد جعل كُثيِّر عَزة والسيد الحميرى هذا الاعتقاد مثــارا لنظم

---

(١) كان المختار بن أبى عبيــد ممن بايعوا ابن الزبير ، وقد أوفده ابن الزبير الى الكوفة ليبث الدعوة باسم الطالبيين . على أن المختار لم يلبث أن خلع طاعة ابن الزبير ودعا لابن الحنفية . أنظر "مروج الذهب" للمسعودى ، (ج٢ ص ٥٥ — ٧٧) . وقد ذكر الشهرستانى (ج ٢ ص ١٢) أن الكيسانية بنوا معتقداتهم على معتقدات المجوس المزدكية (ظهرت هذه الطائفة فى بلاد الفرس قبل ظهور الاسلام — فى القرن الخامس الميلادى) ، والبراهمة فى الهند ، والفلاسفة القدماء والصابئين .

(٢) أنظر كتاب فان فلوتن (Van Vloten: Recherches sur la Domination Arabe, Le Chiitisme, etc., p. 41) ، مقتبسا من كتاب Mokhtar تأليف Van Gelder (ص ٨٢ وما يتبعها) . لقد قيل ان ابن الحنفية تبرأ من هذا الاعتقاد ، وحذا حذوه غيره من الأئمة . ولقد أصاب فان فلوتن فى تعليقه على ذلك بقوله : وهنا يتساءل المرء : بأى مظهر من مظاهر الترحاب قابل الأئمة هذه المعتقدات المغرقة فى الغلو ، التى كانت أشخاصهم السبب فى ظهورها ؟

ولا غرو فانَّ عليــا أنكر على السبئية هــذه الصفات التى نســبوها اليــه ، ورمى فى النــار من دعوه إلهــا ، ونفى عبد الله بن سبأ الى المدائن . ثم جاء ابنه محمد بن الحنفية ، فشارك أباه فى عواطفه وآرائه الدينية ، فتبرأ ممن اعتقدوا فى إحاطته بعلم التأويل والباطن . يدلك على صحة هذا القول ما ذكره ابن سعد فى كتابه " الطبقات الكبير" (ج ٥ ص ٧٧) ، أن ابن الحنفية لمــا علم باعتقاد الطائفة الكيسانية أن آل علىّ يلمون بجميع العلوم قال : " والله ما ورثنا من رسول الله الا مابين هذين اللوحين (يعنى القرآن) ، ثم قال : اللهم حلا ، وهذه الصحيفة فى ذؤابة سيفى" .

وهــذا التصريح من ابن الحنفية يدل دلالة واضحة على أن آل علىّ لم يختصوا بميراث شىء عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وأنهم لم يرثوا منه الا ما ورثه عامة المسلمين .

(٣) البغــدادى : الفرق بين الفرق (ص ٣٦) ، والشهرستانى : الملل والنحل (ج٢ ص ١٩٦ — ١٩٨) .

(٤) انظر لفظ رضوى فى معجم البلدان لياقوت .

أشعارهما ، حتى غدا هذا النوع من الشعر يعرف بالشعر الكيسانى . وفى ذلك يقول كثير عزة المتوفى سنة ١٠٥ هـ (٧٢٣ م) :

ألا إن الأئمةَ من قريش ولاةَ الحق أربعةٌ سواء
علىٌّ والثلاثةُ من بنيه هم الأسباطُ ليس بهم خفاءُ
فسبطٌ سبطُ إيمانٍ وبِرٍ وسبط غيَّبته كربلاء
وسبط لا يذوق الموتَ حتى يقودُ الخيلَ يتبعها اللواء
تغيَّب لا يُرى عنهم زماناً برضوى عنده عسلٌ وماء

ويقول السيد الحميرى المتوفى سنة ١٧٣ هـ (٧٨٩ — ٧٩٠ م) ، وكان كيسانيا :

سنين وأشهرا ويُرى برضوى بشِعب بين أنمار وأسد
مقيمٌ بين آرامٍ وعين وحَفَّانٍ تروح خلال رُبْد
تراعيها السباع وليس منها ملاقيهن مفترسا بجد
أمِنَّ به الردى فرتعن طورا بلا خوفٍ لدى مرعى ووِرْد

وإن هذه الأبيات لتمثل عقيدة السيد الحميرى فى محمد بن الحنفية ، من أنه قام بشعب من شعاب رضوى سنين وأشهرا كثيرة ، ومن حوله الأنمار والآساد ، والظباء وبقر الوحش ، وأنواع الشاء ، من غير أن يعدو أسد عليها بظفر أو بناب ، لاحترامها له وتقديسها إياه .

ويعتقد الكيسانية أن الدين طاعة رجل ؛ حتى حملهم هذا الاعتقاد على تأويل الشريعة . وقد حمل هذا الاعتقاد البعض على القول بأن طاعة رجل تبطل ضرورة التمسك بالشريعة (مثل ذلك الاعتقاد فى القيامة) ؛ اذ يستطيعون بذلك أن يتعلموا من هذا الرجل أركان الشريعة الاسلامية ، كالصيام والصلاة والحج وغيرها[١] .

ولقد تكلم فان فلوتن عن الإمام حسب معتقدات السبئية والكيسانية فقال : " اذا كان السبئية يعتبرون إمامهم شخصا مقدسا بطبيعته ، فان الكيسانية يبذلون له الطاعة كرجل رفيع المنزلة ؛ محيط بعلوم ما وراء الطبيعة (Si les Sabâia considéraient leur imâm comme un être divin par sa nature, les Kaisânia lui prêtaient obéissance comme à un homme supérieur, possédant des connaissances surnaturelles) [٢].

---

(١) الشهرستانى (ج ١ ص ١٩٦) .

(٢) Van Vloten, p. 42 .

هـذا موجز عما بثه المختار بن أبي عبيد فى نفوس الشيعة الكيسانية من عقائد وبدع لا يخفى بطلانها وبعدها عن تعاليم الدين الاسلامى . أما ما كان من أعماله الحربية ، فانه استولى على الكوفة ، ونال ممن كانت لهم يد فى موقعة كربلاء .

على أن انتصار المختار كان قصيرا أمده . فان قواد ابن الزبير قد نجحوا فى الإيقاع بالمختار وقتلوه (سنة ٦٧ هـ و٦٨٦ م) . ثم انهزم بعد ذلك ابن الزبير على يد الحجاج بن يوسف الثقفى (جمادى الثانية سـنة ٧٣ هـ ٦٩٢ م) الذى اسـتولى على مكة ، وقتـل المختار فى الكوفـة ؛ فرجع للدولة الأموية سلطانها على كافة الولايات الاسلامية .

---

٣ — الدعوة السرية للعباسيين أيام بنى أمية

من الضرورى أن نبحث فى هذا الصدد عن حادثة فى تاريخ الشيعة : هى انتقال حق الخلافة من بيت علىّ الى بيت العباس على يد أبى هاشم بن محمد بن الحنفية ؛ وهو ما يمكن أن نطلق عليه "ميراث الكيسانية" .

وذلك أنه فى سنة ٩٨ هـ (٧١٦ م) مات أبو هاشم ، وهو عميد الشيعة الكيسانية . وقبل موته بقليل ، استدعاه الخليفـة الأموى سليمان بن عبـد الملك[1] ٩٦ — ٩٩ هـ (٧١٤ — ٧١٧ م) الى دمشق ، حيث تلقاه بكل حفاوة واكرام . بيـد أن هـذا الخليفة دبر أمر موت أبى هاشم — على ما قيل — لمـا رآه من ذلاقة لسانه وفكاهته وشخصيته الجذابة ؛ فخاف أن يدعو الى نفسـه ويجد من مواهبـه أكبر معين على نجاحه ؛ فدس له هذا الخليفة من قعد له على طريق الحميمة بلبن مسموم ، وتلطف له حتى سقاه منه وهو فى طريقه الى إقليم الشَّراة ، حيث كان يقيم محمد بن علىّ بن عبد الله بن العباس فى الحميمة ، وهى قرية صغيرة الى الجنوب من البحر الميت على مقربة من العقبة .

وقد قيـل إن أبا هاشم لمـا أحس بدنو أجله ، عرج على محمد بن علىّ العباسى وأفضى اليـه بالدعوة وأسرارها ، وأمـده بكتب يسلمها الى داعى دعاته فى الكوفة وغيره من الدعاة ،

(١) يقول المقريزى فى كتابه "المقفى الكبير" (ليدن ، مخطوط ١٣٦٦ ، المجلد الثانى ، ورقة ١٣٥ ب) إن الوليد ابن عبد الملك ٨٦ — ٩٦ هـ (٧٠٥ — ٧١٤ م) هو الذى استدعى أبا هاشم ، وهذا خطأ واضح .

ونزل له عن حقه فى الإمامة ، وأوصى بأن تكون لابنه ابراهيم بن محمد الملقب بالإمام من بعده[١] ، وأن يبدأ ببث الدعوة عند تمام المائة سنة للهجرة (٧١٨ م) . ولقد أورد لنا المقريزى فى مخطوطه "المقفى الكبير" الموجود فى مكتبة ليدن أن أبا هاشم قال لمحمد بن علىّ عند ما أفضى اليه بسر الدعوة : "هذا أمر أنت أول من يقوم به ، ولولدك آخره"[٢] .

وبهذا تحول حق الامامة من بيت علىّ الى بيت العباس بمقتضى وصية أبى هاشم . وقد أجمع المؤرخون على أنه عند تمام المائة سنة للهجرة ، قام الامام محمد بن علىّ بتنفيذ وصية أبى هاشم ، فأرسل الى الدعاة يكشف عن السياسة التى ينبغى أن يسيروا عليها[٣] . وهنا نتساءل : ما الذى حدا بأبى هاشم الى أن يحول الخلافة الى بنى عمه ، ويترك بنى أبيه من العلويين مع كثرتهم وعلو شرفهم ؟

وإذا فرضنا أنه ترك أبناء أبيه لأنه لم يكن حوله حينذاك أحد منهم ، فلماذا لم يوص الى أحد من بنى أبيه ، ويسلم وصيته الى أحد أولاد عمه ليوصلها اليه ؟ ولعل ذلك لما كان هنالك من اختلاف بين مبادئ الكيسانية شيعة أبى هاشم والإمامية شيعة أولاد فاطمة .

ولقد أدرك الإمام شعور أهالى الولايات الأسلامية المختلفة وميولهم ، كما نتبين ذلك من وصفه الدقيق للأهواء والميول التى كانت سائدة بين أهالى الولايات فى ذلك الحين . وإنا ناقلون هذا الوصف عن المقدسى ؛ قال الإمام فى إحدى خطبه :

"أما الكوفة وسوادها فشيعة علىّ ؛ وأما البصرة فعثمانية تدين بالكف ؛ وأما الجزيرة فحرورية[٤] صادقة ، وأعراب كأعلاج ، ومسلمون فى أخلاق النصارى ؛ وأما أهل الشام فلا يعرفون غير معاوية وطاعة بنى أمية ، وعداوة راسخة وجهل متراكم ؛ وأما مكة والمدينة فقد غلب عليهم أبو بكر وعمر . ولكن عليكم بخراسان ، فان هنالك العدد الكثير والجلد الظاهر . وهنالك صدور سليمة وقلوب فارغة ، لم تتقسمها الأهواء ولم تتوزعها النحل ولم يقدح فيها فساد ؛

---

(١) المسعودى "التنبيه والإشراف" ، طبعة دى غويه (ج ٨ ص ٣٣٨) .

(٢) ليدن مخطوط ١٣٦٦ ، المجلد الثانى ورقة ١٣٥ ب .

(٣) الطبرى (٢ : ١٣٥٣) .

(٤) هذا اللفظ مشتق من حروراء ، وهى قرية بظاهر الكوفة تبعد عنها بميلين ، نزل بها الخوارج الذين اعتزلوا على بن أبى طالب ، فنسبوا اليها وسموا حرورية (أو خوارج) . انظر لفظ حروراء فى معجم البلدان لياقوت ، والفرق بين الفرق للبغدادى (ص ٥٧) ، (Prof. R. Nicholson: Literary History of the Arabs, p. 209)

وهم جند لهم أبدان وأجسام ومناكب وكواهل ، وهامات ولحى وشوارب وأصوات هائلة ، ولغات فخمة تخرج من أجسام منكرة . وبعد فانى أتفاءل الى المشرق ، والى مطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق[1] ".

ويتبين لنا من تلك الخطبة ، أنه كان من بين الأسباب التى حملت محمد بن علىّ على اختيار خراسان ، هو ما يعلمه من أن قلوب أهلها لم تتأثر بعد بالاختلافات الدينية . على أن هناك سببا آخر قد يكون أبعد أثرا ، وإن لم يعلق عليه الإمام أهمية كبيرة فى خطبته : ذلك هو تألم الخراسانيين من بنى أمية . ولقد صدق فان فلوتن[2] إذ يقول تعليقا على خطبة الأمام : "ولكن هناك أمرا آخر — وإن لم يدل عليه كلام الإمام — قد جعل اختيار خراسان بوجه خاص اختيارا موفقا ، ذلك هو أن الخراسانيين الأقوياء الأشداء كانوا يقاسون أسوأ صنوف الاستبداد من نير الأمويين". ولا شك فى أن هذا الأمر قد سهل على العباسيين القيام بنشر دعوتهم .

أنفذ محمد بن علىّ دعاته من الحميمة ؛ فوجه ميسرة الى العراق . كذلك وجه ثلاثة من الدعاة ، أحدهم أبو عكرمة السراج[3] ، وعهد اليهم فى نشر الدعوة فى خراسان لمحمد بن علىّ بن عبد الله بن العباس وآل بيته . وهناك أخذ هؤلاء الدعاة ينشرون الدعوة للعباسيين تحت طى الخفاء ، وظاهر أمرهم التجارة أو الحج الى مكة .

واختار أبو عكرمة من الدعاة سبعين رجلا ، من بينهم اثنا عشر نقيبا ؛ فشمر الكل عن ساعد الجد فى بث الدعوة لبنى العباس ، ولم يبالوا بما لاقوه من ضرب وصلب وقتل وتشريد . وفى سنة ١٠٥ هـ (٧٢٣ م) مات ميسرة ، فخلفه رجل ذو بأس وجاه ، هو بُكَيْر بن ماهان[4] .

وإنه وإن كان هناك من الأدلة ما يثبت صحة قول الإمام بأن قلوب الخراسانيين لم تزعزعها الاختلافات الدينية ، فانه ينبغى ألا يعزب عن البال وجود فريق يميل إلى العلويين بنوع خاص . ولا غرو فقد هددت جهود غالب ، وهو داع علوى متطرف ، نجاح الدعوة لبنى العباس ، وأدت إلى تغيير يذكر فى نص تلك الدعوة .

ذلك أنه لما وصلت أخبار غالب الى مسامع الإمام ، بعث هذا الى خراسان سنة ١٠٦ هـ (٧٢٤ م) بزياد أبى محمد مولى بنى همدان ، وأوصاه أن يتجنب غالبا ما استطاع . فلما سمع غالب بوصول

(١) المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم (طبعة دى غويه) (ج ٣ ص ٢٩٣ — ٢٩٤)

(٢) Van Vloten, p. 46

(٣) (الطبرى ٢ : ١٣٥٨ و ١٩٨٨)

(٤) الدينورى : الأخبار الطوال (ص ٣٣٦) ، والطبرى (٢ : ١٣٦٧)

زياد، أتاه فى مرو ، وقامت بين الرجلين مناظرة عدائيـة : هذا ينتصر لبيت العبـاس ، وذاك لبيت علىّ .

وكان من وراء عداء غالب أن أصبحت الدعوة بعـد ذلك الحين تنص على الرضا من آل محمد ، وبذلك وجد العباسيون ، كما يقول الأستاذ نيكلسن [١] ، فى هذه اللفظة المبهمة عبارة يمكن تطبيقها على أولاد علىّ والعباس ، وبها أيضا أمكن ستر المدعو اليه ، حتى لا تناله أيدى بنى أمية . ولم يكن يعلم بشخص المدعو له الا النقباء وخاصة الدعاة ؛ وبذلك تسنى للعباسيين أن يوجهوا الدعوة اليهم تحت طى الكتمان .

هذا ، ولقد قدر للعباسيين الفوز من وراء هذه المجهودات التى بذلها دعاتهم ، والتى أدت الى انضمام كثيرين من ذوى الرأى والجاه ، من أمثـال سليمان بن كثير ، وأبى مسلم الخراسانى [٢] ؛ حتى اذا ما مات الإمام محمد بن علىّ سنة ١٢٥ هـ (٧٤٢م) كانت الدعوة العباسية قد قطعت شوطا عظيما فى سبيل النجاح . وفى عهـد ابنه وخلفه ابراهيم دارت رحى الحرب بين الفريقين ؛ بمعنى أن النزاع بين بنى أمية وبنى العباس دخل فى طور جديد ، هو دور العمل ، وذلك فى سنة ١٢٧ هـ ، واليك البيان :

فى سنة ١٢٨ هـ تسلم أبو مسلم الخراسانى مقاليد الأمور فى خراسان . وكان من أسباب سقوط الأمويين شبوب نار العصبية بين المضرية أو النزارية ، وبين اليمانية فى خراسان ، وضعف قوة أمير هذه البلاد ، وخروج الخوارج فى اليمن وحضرموت [٣] .

أما جند خراسان ، فان نصر بن سيار أمير هـذه البلاد بعث الى مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية يكشف له عن قوة أبى مسلم وضعف جند خراسان ويسـتمده ، وختم كتابه بهذه الأبيات :

أرى بين الرماد وميضَ جمرٍ   فأحْجِ بأن يكونَ له ضرامُ
فانَّ النارَ بالعودَيْن تُذْكى   وإنَّ الحرب أولُها الكلامُ
فقلتُ من التعجب ليت شعرى !   أأيقاظٌ أميـةُ أم نيامُ ؟

---

(١) Prof. Nicholson: Literary History of the Arabs, p. 250

(٢) الدينورى : الأخبار الطوال (ص ٤٤١ — ٤٤٢) ، والطبرى (٢ : ١٧٢٧)

(٣) الطبرى (٢ : ١٩٤١ — ١٩٤٩) ، والمسعودى — مروج الذهب ، طبعة مصر ، (ج ٢ ص ١٤٥)

فأجابه مروان بقوله : يرى الشاهد مالا يراه الغائب ، وأمره بأن يحفظ ناحيته بجهده .

فلما ورد عليه الخطاب قال لأصحابه : "أما صاحبكم (يعنى مروان) فلا نصر عنده" .

فكتب بعد ذلك نصر الى يزيد بن عمر بن هبيرة والى العراق كتابا يطلب فيه المعونة والمدد ، وختمه بهذه الأبيات :

أبلغ يزيد ، وخيرُ القـول أصدقه ... وقد تبينتُ أنْ لا خير فى الكذب ،
أن خراسانَ أرضٌ قد رأيتُ بها ... بَيْضًا لو افرخ قد حُدِّثْتَ بالعجب
فراخُ عامين الا أنها كبِرت ... لما يطرن وقد سُربلن بالزغب
فان يطرنَ ولم يُحْتَلْ لهنَّ بها ... يُلْهِبْن نيرانَ حربٍ أيَّما لهبِ

فرد عليه يزيد بما لم يَشْف غُلة . فيئس نصر من النصر وقال : "لا غلبة الا بكثرة ، وليس عندى رجل"[1] .

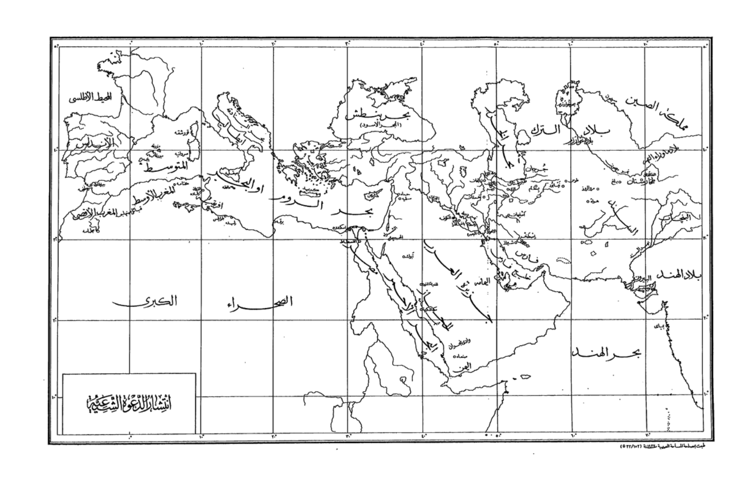
هـذا ، ولقد أعمل شيعة العباسيين ، وعلى رأسهم أبو مسلم الخراسانى ، الحيلة فى تفريق كلمة العرب فى خراسان ، فبذروا بذور الشقاق بين النزارية واليمانية . وبذلك أمنوا اجتماع كلمة العرب ، حتى إنه فى أواخر سنة ١٣٢ هـ (٧٥٠ م) رفرف العلم الأسود ، وهو شعار العباسيين ، فوق حصون دمشق ، وانمحت الدولة الأموية فى بحر من القسوة وسفك الدماء ، وغدا الأمويون والمناوئون للعباسيين ضحايا أول خلفاء بنى العباس ، وهو أبو العباس السفاح[2] .

---

(١) أنظر الطبرى (٢ : ١٩٧٣ — ١٩٧٤) ، والمسعودى ، مروج الذهب ، طبعة مصر (ج ٢ ص ١٤٥ — ١٤٦)

(٢) قال الأستاذ نيكلسن فى كتابه Literary History of the Arabs, p. 253, n. 1 : " يقول الأستاذ بيڤان (Prof. Bevan) الذى أدين له بهذه الملاحظات ، ان ترجمة لفظ السفاح ، ولو أن استعمالها قد شاع بين الكتاب الأوربيين ، فانها لا تزال مثارا لكثير من الشك . وقد ذهب الأستاذ دى غويه (De Goeje) الى القول بأن السفاح معناه الرجل الكثير العطايا أو المناح (munificent) . ومع كل فانه مما يهمنا ملاحظته أن هـذا الاسم قد أطلق على بعض شيوخ القبائل فى الجاهلية . ويقال ان سلمة بن خالد الذى قاد بنى تغلب فى موقعة بنى كُلاب الأولى (ابن الأثير طبعة Tornberg ج ١ ص ٢٤٦) ، سمى السفاح ، لأنه أفرغ مزاد جيشه قبيل الموقعة — ابن دريد ، طبعة Wüstenfeld (ص ٢٠٣ و ١ — ١٦) . ولقد ورد فى هذا الكتاب ذكر لشاعر اسمه السفاح بن عبد مناة (ص ٢٧٧) ، السطر الذى قبل الأخير . "

والذى أميل اليه أنه انما سمى بهذا الاسم لقوله فى أول خطبة له : "فأنا السفاح المبيح والثائر المنيح" .



طبعت بمصلحة المساحة المصرية (٥٣٢/١٥٢)

٤ — الدعوة السرية للعلويين أيام الدولة العباسية

بعد أن نال العباسيون الخلافة ، لم يعـدل العلويون عن المطالبة بدعواهم ، بل ظلوا يناضلون ويكافحون ابتغاء الوصول اليهـا . على أننا إذا رجعنا الى المـاضى ، فاننا نجد أن الضرورة هى التى أكرهت الشيعيين على الاكتفاء بالزعامة الدينية بعـد قتل الحسين ، حتى لقد أصبح تاريخ الشيعة تاريخا للمكائد التى دفعتهم عقيـدتهم إلى سلوك سبيلها . وهذا القول تؤيده تلك المسألة التاريخية ، وهى أن الشيعيين لم يستطيعوا الظهور فى ميدان السياسة والاعتماد على السيف بدلا من اعتمادهم على الكيد ، إلا فى أحوال قليلة .

هذا ، وإن قيام زيد بن علىّ زين العابدين بن الحسين بن علىّ ، الذى تنسب إليه طائفة الزيدية ، والذى ثار على هشام الخليفة الأموى[١] فى سنة ١٢٢ هـ (٧٤٠ م) ، مصداق لهذا التطور الجديد .

على أن أخلاق أهل الكوفة قد ظهرت فى وقت الشدة بما عرف عنهم من تقلب فى الرأى وتباين فى الميول والأهواء ؛ فقد خانوا عهد زيد واعتزلوه ، وبايعوا جعفرا الصادق على إمامتهم[٢] .

---

(١) المسعودى : كتاب التنبيه والاشراف (طبعة دى غويه) (ج ٨ ص ٢٢٣)

روى النويرى (المكتبة الأهليـة بباريس ، مخطوط ١٥٧٦ ، ورقة ٢٢ ب) أن الخليفة الأموى هشاما بن عبد الملك أنب زيد بن علىّ بن الحسين اذ بلغه أنه يكيد له فى الخفاء ، وأخرجه من مجلسه ، فخنق زيد وقال للخليفة : "أخرج ولا أكون الا بحيث تكره" .

وقد أورد لنا النويرى (ورقة ٢٣ ب) نص الدعوة التى كان يأخذها زيد على من يعتنق مذهبـه ، وهى تتلخص فى : (١) أن يحلف الرجل يمين الطاعة والولاء لزيد ، (٢) وأن يعقد النية على قتال أعدائه "إنا ندعوك الى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وجهاد الظالمين ، وإعطاء المحرومين ، وتقسيم هذا الفىء بين أهله بالسواء . أتبايعون على ذلك ؟ فاذا قال نعم ! مسح على يده ثم قال اللهم اشهد . فبايعه خمسة عشر ألفا ، وقيل أربعون ألفا ؛ وأمر أصحابه بالاستعداد ، فأقبل من يريد أن يفى له ويخرج معه" .

(٢) ذكر الطبرى (٢ : ١٦٩٩ و ١٦٧٠) أنهم دعوا الرافضة . وقد بحث فريد ليندر أصل هذا اللفظ بحثا مسهبا فى مجلة الجمعية الأمريكية الشرقية (Journal of the American Oriental Society, vol. XXIX. pp. 137-159) فقال : "من المرجح كثيرا أن يكون شيوع استعمال هـذا اللفظ نتيجة العداء الشديد للشيعيين . ويطلقه بعض الكتاب على جميع فرق الشيعة بلا استثناء" .

ويريد فريد ليندر أن يقول ان هـذا اللفظ جرى فى العرف العام مجرى الذم ؛ فانهـم اذا أرادوا أن يحتقروا شخصا ويصفوه بأقبح أوصاف الذم يقولون "رافضى" . ولا يزال هذا اللفظ جاريا على ألسنة العامة ، مع تحريف الى "رفضى" ، حتى كان هذا اللقب فى بعض الأزمان يطلق على كل من يبدى ميلا لآل البيت . ومن ذلك قول الشاعر :

إنْ كان رفضًا حب آل محمدٍ   فليشهد الثقلان أنى رافضُ

وبذلك ترك زيد يحارب فى جماعة قليلة قاتل معها إلى أن قتل ؛ فأحرقوه بالنـار وضربوه بالعصى حتى صار رمادا[١].

وهؤلاء الزيدية هم الذين نشأت منهم الرافضة . وسبب ذلك أن زيدا لمـا اشتبك مع يوسف ابن عمر الثقفى والى العراق من قبـل هشام بن عبد الملك قالوا له : "إنا ننصرك على أعدائك بعـد أن تخبرنا برأيك فى أبى بكر وعمر اللذين ظلما جدك علىّ بن أبى طالب ." فقال زيد : "إنى لا أقول فيهما الا خيرا ، وما سمعت أبى يقول فيهما الا خيرا ؛ و إنمـا خرجت على بنى أمية لأنهم قاتلوا جدى الحسين ، وأغاروا على المدينة يوم الحرّة ، ثم رموا بيت الله بحجر المنجنيق والنـار" . ففارقوه عند ذلك فقال لهم : "رفضتمونى" ؛ ومن يومئذ سموا رافضة .

و بعد موت زيد بن علىّ بن الحسين انقسم الزيدية الى طوائف عدة : فظل فريق منهم على ولائه لزيد ، و بايعوا ابنه يحيى ، وقاتلوا معه فى خراسان سنة ١٢٥ هـ (٧٤٣ م) . بيد أن أمر يحيى قد آل الى ما آل اليه أمر أبيه من قبل ؛ فقد قتل فى هـذه السنة ، أصابته نشابة فمات ، وحز رأسه وصلب ، ثم أحرق حتى صار رمادا تذروه الرياح[٢].

الإمامية والإسماعيلية :

على أن فريقا كبيرا من الزيدية الذين اعتزلوا زيدا قد انضموا الى الطائفة الإمامية أنصار جعفر الصادق . والإمام حسب معتقـدات الإمامية يكتسب حقه فى الإمامة بطريق الوراثة عن علىّ باعتباره خليفة النبى شرعا ؛ ويعتبر الإمام فوق ذلك وريث النبى عن فاطمة ؛ و يغلب فى اختياره أن يكون أكبر أبناء أبيه سنا . بيد أن خروج فريق من هذه الطائفة على هذه القاعدة بعد موت جعفر الصادق قد جرالى انقسام الإمامية قسمين :

(١) الإمامية : وقد أطلق عليهم فيما بعـد الاثنا عشرية ؛ وقالوا بامامة موسى بن جعفر الصادق ، وهو عندهم الإمام السابع .

---

(١) شرف الدين الهدوى ، مكتبة المتحف البريطـانى ، القسم الشرقى ، مخطوط ٣٨٦٨ ، ورقة ١١٤ ب وما يتبعها .

(٢) الطبرى (٢ : ١٧٧٠ — ١٧٧٤)

(٢) الاسماعيلية : وقد قالوا بامامة اسماعيل بن جعفر ، وكان أكبر أولاد أبيه جعفر ، ولو أن وفاته كانت فى حياة أبيه ، فحوّل أنصار هذا المذهب إمامة اسماعيل إلى ابنه محمد ، وهو عندهم الإمام السابع ؛ ومن ثم أطلق عليهم السبْعية لتمييزهم عن الاثنى عشرية .

ثورة محمد وابراهيم فى الحجاز والعراق :

هذا ، ويجدر بنا أن نستطرد فى الكلام على تاريخ الشيعة ، ناحين فى ذلك منحى الإيجاز ، لكى ننير الطريق أمام من يريد أن يتعرف ما كان عليه قيام الفاطميين فى بلاد المغرب . ولقد أوضحنا قبلا أن العباسيين استغلوا اسم الشيعة فى إسقاط الدولة الأموية ، حتى اذا ما آلت اليهم الخلافة ، تم انفصال فريق الشيعة والعباسيين .

ذلك أنه فى خلافة أبى جعفر المنصور ١٣٦ — ١٥٨ هـ (٧٥٤ — ٧٧٥م) ، دعا محمد ابن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علىّ ، المعروف بالنفس الزكية ، الى نفسه سرا ، وتلقب بأمير المؤمنين . وفى سنة ١٤٥ هـ (٧٦٢ م) ظهر محمد بن عبد الله هذا بعد أن عاش فى الخفاء دهرا أخذ فيه أشياعه يقيمون له الدعوة ، الى أن كثر أنصاره فى خراسان[١] ، واعترف الناس بامامته فى مكة والمدينة ؛ ومن هذه أرسل أخاه ابراهيم الى البصرة لنشر دعوته .

على أن محمد بن عبد الله لم يعش حتى يرى أثر دعوته . فقد قتل على يد عيسى بن موسى (ابن محمد بن علىّ بن عبد الله بن عباس) ؛ فدعا أخوه ابراهيم الى نفسه ، وشد أزره كثيرون من فقهاء البصرة وغيرهم من ذوى الرأى والجاه ؛ وانضوت المعتزلة والزيدية تحت لوائه ، وعاونه أبو حنيفة وراسله سرا ، كما عاون الإمام مالك أخاه محمدا بالمدينة حين أفتى بنقض بيعة المنصور لأنها كانت مبنية على الإكراه . وبهذا كله تمكن ابراهيم من إدخال أهالى واسط والأهواز وفارس فى دعوته[٢] .

بيد أن حياة ابراهيم قد آلت الى ما آلت اليه حياة أخيه من قبله ، فقد قتله عيسى بن موسى أيضا أول ذى الحجة سنة ١٤٥ (٧٦٢ م) فى موقعة باخمرا[٣] الواقعة بين الكوفة وواسط .

---

(١) يحيى بن الحسين ، ليدن ، مخطوط ١٩٧٤ ، ورقة ١٥ (أ) وما يتبعها .

(٢) شرحه ، ورقة ١٩ (أ)

(٣) أقرب الى الكوفة منها الى واسط ، وتبعد عن الأولى بسبعة عشر فرسخا . راجع معجم البلدان لياقوت .

ومن هنا يتبين أن العلويين لم يعوّلوا فى دعواهم فى الخلافة على الكيد وحده ، بل ظلوا ينازلون أعداءهم فى ميادين القتال كلما سنحت لهم الفرص وتهيأت لهم الأحوال : ففى عهد الهادى خرج الحسين بن علىّ بن الحسن بن الحسن بن الحسن بن علىّ بالمدينة يدعو الى نفسه فى ذى القعدة سنة ١٦٩هـ ، ومنها سار الى مكة حيث التقى بجيش العباسيين بفخ — وهو واد فى طريق مكة — فقتل بعد أن أبلى بلاء شديدا . وكانت هذه الموقعة من الشدة بحيث قيل «لم تكن مصيبة بعد كربلاء أشد وأفجع من فخ» . وقد أكثر شعراء الشيعة فى رثاء قتلاهم ؛ ومن ذلك قول أحدهم :

فلأبكينّ على الحسيـ ... ن بعَوْلة وعلى الحسنْ
وعلى ابنِ عاتكةَ الذى ... واروْه ليس بذى كفن
تُرِكوا بفخ غُــدوةً ... فى غير منزلة الوطن
كانوا كراما هُيِّجوا ... لا طائشين ولا جُبُنْ
غســلوا المذلةَ عنهم ... غسلَ الثياب من الدَّرَن
هُدِىَ العبــادُ بجدهم ... فلهم على الناس المنن (١)

وكانت هــذه الموقعة بعيدة الأثر ؛ فقد هرب منها رجلان كانا شجى فى حلق العباسيين : أحدهما يحيى بن عبد الله صاحب الديلم ، وأخوه ادريس فى بلاد المغرب .

أما يحيى فقد ثار فى عهد هارون الرشيد ١٧٠ — ١٩٣ هـ (٧٨٦ — ٨٠٩ م) فى بلاد الديلم ، وانتصر له أهل اليمن ، وغدا أمره من الخطر بحيث هدد سلامة الدولة العباسية وأقلق بال الرشيد . فأنفذ اليه الفضل البرمكى ؛ وهذا أعمل الحيلة ، فأرغمه فى سنة ١٧٦ هـ (٧٩٢ م) على أن يقسم يمين الولاء للرشيد الذى قتله بعد قليل ومداد الأمان لم يجف بعد . على أن الصورة التى قتل بها يحيى لا تزال سرا غامضا .

وكان من نتيجة هذه الجهود التى بذلها إدريس بن عبد الله أخو يحيى فى إثارة شعور شمال إفريقية ضد حكم العباسيين ، أن تأسست دولة الأدارسة فى الطرف الشمالى الغربى ، وضاعت هذه البلاد من أيدى العباسيين .

---

(١) راجع لفظ فخ فى معجم البلدان لياقوت .

٥ — فشل هذه الدعوة فى الشرق وانتقالها الى الغرب (شمـال افريقية) :

كان من أثر ماحل بالعلويين من حبس وقتل أن عمدوا الى نشر دعوتهم فى طى الخفاء ؛ فتلمسوا أماكن يختفون فيها و يتخذونها ملاجئ يدرءون بها عن أنفسهم ما كان يوقعه العباسيون بهم من حبس وآلام ، الى أن تقوى دعائم دعوتهم ، واذ ذاك يستطيعون الظهور .

على أن فكرة سرية الدعوة إنمـا كانت فكرة قديمة ، استحدثها النبى صلى الله عليه وسلم . فقد دعا الى الاسلام سرا فى دار ابن الأرقم ، ومن بعدها اختفى فى الغار حين هدد حياته أعداؤه من قريش.

وقد اتخذت هذه النظرية التى ابتدعها ابن سبأ شكلا جديدا فى سنة ٢٦٠ ﻫ (٨٧٤ م) ، وهى السنة التى مات فيها الحسن العسكرى الإمام الحادى عشر .

أما ونحن بصدد الكلام على الغيبة ، وجب أن نأتى بكلمة يسيرة نصف بها استتار أئمة الشيعة لدرء ماعسى أن يحيق بهم من مكروه . ولا غرو فقد شدد الخلفاء العباسـيون فى طلب آل البيت ، حتى لا تظهر دعوتهم وتقوم دولتهم على أنقاض الخلافة العباسـية نفسها . ولهذا اتخذ دعاة الشيعة من الاسماعيلية بوجه خاص دور الهجرة فى البلاد التى قاموا فيها بنشر المذهب الاسماعيلى .

ولقد أورد لنا يحيى بن الحسين المتوفى سنة ٣٦٠ ﻫ (٩٧١ م) فى كتابه «الإفادة فى تاريخ الأئمة السادة على مذهب الزيدية» أن القاسم بن ابراهيم بن اسماعيل بن ابراهيم بن الحسن بن الحسن بن علىّ ابن أبى طالب اسـتتر فى مصر فى خلافة المأمون العباسى ، وأنه دعا الى نفسه حين بلغه موت أخيه محمد . وقد بث دعاته وهو على حال استتاره زهاء عشر سنين ؛ فبايعه أهل مكة والمدينة والكوفة والرى وقزوين وطبرستان و بلاد الديلم ، وكاتبه أهل البصرة والأهواز وحثوه على الظهور ؛ فوصل خبره الى الخليفة ، فأمر بالتشـدد فى طلبه . فلم يطب للقاسم المقام فى مصر ، فعاد الى الحجاز ومنها الى تهامة ، ولحق به جماعة من بنى عمـه وغيرهم ، فبثوا الدعوة باسمـه فى بلخ[1] والطالقان[2] ومرو

---

(١) مدينة مشهورة بخراسان ومن أجل مدائنها وأكثرها خيرا . افتتحها الأحنف بن قيس من قبل عبد الله بن عامر فى خلافة عثمان بن عفان . واليها ينتسب كثيرون من أهل الأدب وعلماء الكلام والحفاظ — أنظر لفظ بلخ فى معجم البلدان لياقوت.

(٢) الطالقان بلدتان : إحداهما بخراسان بين مرو الروذ و بلخ ، بينها و بين مرو الروذ ثلاث مراحل . وقد ذكر الإصطخرى أن طالقان أكبر مدن طخارستان ، وتقع فى مستوى من الأرض ، يجرى فيها نهر كبير ، وتبلغ فى الاتساع ثلث ماتبلغه مدينة بلخ ؛ والأخرى بلدة وكورة بين قزوين وأبهر (مدينة مشهورة بين قزوين وزنجان وهمذان من نواحى الجبل ، والفرس يسمونها أوهر ، فتحت فى أيام عثمان بن عفان ، و بينها و بين زنجان خمسة عشر فرسخا ، و بينها و بين قزوين اثنا عشر فرسخا) و بها عدة قرى تعرف كلها بهذا الاسم .

وغيرها فذاع خبره ، وبعث الخليفة الى بلاد اليمن جندا يطلبونه ، فاختفى فى حى من البدو . ولما ولى المعتصم الخلافة شدد فى طلب القاسم ، وبعث بغا الكبير وآشناس فى جند كثيف ، فانتقض عليه أمره ، وذلك سنة ٢٢٠ هـ .

وقد روى هـذا المؤرخ عن خادم القاسم بمصر تلك الحكاية قال : " ضاقت بالإمام القاسم المسالك واشتد الطلب ، ونحن مختفون معه خلف حانوت إسكاف ... ... فنودى نداء يبلغنا صـوته : برئت الذمة ممن آوى القاسم بن ابراهيم وممن لايدل عليه ؛ ومن دل عليه فله ألف دينار ، ومن البز كذا وكذا . والاسكاف مطرق يسمع و يعمل لا يرفع صوته . فلما جاءنا قلنا له : أما ارتعت ؟ قال : من لى ! ما ارتياعى منهم ولو قُرِضت بالمقاريض بعد إرضاء رسول الله حتى فى وقايتى لولده بنفسى[1] ؟"

والآن نعود الى الكلام على الإمام الثانى عشر : فى شعبان سنة ٢٥٥ هـ (٨٦٨ م) ولد للحسن العسكرى ، وهو الإمام الحادى عشر عند الشيعة الإمامية ، ولد سماه محمدا ، من أم ولد اسمها صَقِيل[2] . فلما توفى الحسن فى سـنة ٢٦٠ هـ كان ولده فى الخامسة من عمره . ومن هنا تنسب الى الإمام الثانى عشر غيبتان : الغيبة الصغرى ، منذ ولد محمد الى أن اختفى عن أشياعه ، والغيبة الكبرى ، منذ اختفائه نهائيا الى وقت ظهوره .

وقد رجح ابن حزم صحة اسم صقيل وزاد أنهـا ادعت الحمل بعـد وفاة الحسن العسكرى سبع سنين ، فوقف ميراثه ؛ وقد نازعها فيه أخوه جعفر بن علىّ الى سـنة ٢٦٧ هـ ؛ فقضى له القاضى وانقسمت الشيعة بسبب ذلك فريقين :

(١) فريق ناصر جعفرا .

(٢) وفريق آخر تعصب لصـقيل ، ومن بينهم حسن بن جعفر النُّوبَخْتى[3] ؛ وهو فارسى الأصـل وصاحب الزيج المشهور ، والذى قام برسم مدينة بغداد للمنصور ، فصار بيته من أشهر البيوتات .

---

(١) ليدن مخطوط ، ١٩٧٤ ، ورقة ٣٤ أ — ٣٥ ب

(٢) هذا هو الرأى الشائع . على أن هناك فريقا من المؤرخين يخالفون هذا الرأى ، فيذكرون أن محمدا من أم ولد اسمها نرجس ، ويزعم آخرون أنه من أم ولد اسمها سوسن (ابن حزم ج ٤ ص ٩٤) .

(٣) نوبخت بالفارسية معناها البخت القريب .

عاشت صقيل بعد وفاة سـيدها عشرين سنة فى بيت الحسن النوبختى ؛ فراجت الاشاعات حول مقامها فى هـذا البيت ؛ فأمر الخليفة المعتضد فحملت الى قصره ، فظلت فيه الى أن ماتت فى خلافة المقتدر .

وقد ذكر لنا المؤرخون عنـد كلامهم على الغيبة الكبرى سـنة ٢٦٠ هـ ، أن الحسن العسكرى وكل بدعوته بعضَ رؤساء الشيعة . فكان أبو سعيد العُمَرى رئيسُ الإمامية الوكيلَ الأول . أما الوكيل الثانى فهو النُّمَيْرى ، وهو أصل الطائفة النُّصَيْرية . والوكيل الثـالث حسن بن جعفر النوبختى الذى قامت الدعوة لآل علىّ على يد رجال من بيته .

ويقال إن محمدا الإمام الثانى عشر دخل سردابا فى مدينة سامَرّا ؛ ولم يقف له أشياعه على أثر منذ ذلك الحين . ولهذا يعتقد الإمامية أنه سيظهر ويملأ الأرض عدلا كما مُلئت جورا ؛ ومن ثم سمى الإمام المنتظر ، وصاحب الزمان ، والقائم بالحق .

ولا غرو فأن جهود الإمامية قد ظهرت ظهورا بينا منذ وفاة الإمام الحادى عشر سنة ٢٦٠ هـ (٨٧٣ م) ، ممـا حدا بالخلفاء العباسيين الى تضييق الخناق على طائفة الاسماعيلية ؛ فاضطروا الى مغادرة سَلَمْية[1] مركز دعوتهم ، ومواصلة جهودهم فى بلاد أكثر صلاحية لبث هـذه الدعوة ، وهى شمال إفريقية .

ولا شك فى أن المجهودات التى بذلهـا الشيعيون لتأسيس خلافة علوية بالشـام قد قضى عليها ؛ فلم ير الأئمة بدا من الاستتار ليدرءوا عن أنفسهم ما أضمره لهم العباسيون من حنق ونقمة . والآن نشرع فى بيان الأسباب التى من أجلها وقع اختيار الشيعيين على شمال إفريقية ابتغاء نجاح دعوتهم ، ثم نأخذ فى الكلام بعـد ذلك على نسب الاسماعيليـة أو الفاطميين ، وهو اللفظ الذى اصطلح المؤرخون على استعماله اذا ما تناولوا الكلام على هذه الأسرة .

---

(١) وسَلَمْية بهذا الضبط كما حققه ياقوت فى معجمه ، وهى من أعمال حماة من بلاد الشام .

٦ – الأسباب التي مهدت السبيل لنجاح الدعوة الشيعية فى المغرب

(أ) البعد عن السلطة المركزية فى بغداد

كان الأدارسة — على ما ذكرنا — أول من أسس سلطانا من العلويين ؛ فأقاموا دولة الأدارسة فى شمال إفريقية (المغرب الأقصى) سنة ١٦٩ هـ (٨٧٥م) ، وحذا حذوهم ذوو قرباهم من الزيدية فى بلاد اليمن . أضف الى ذلك أن شمال إفريقية التى أقطعها هارون الرشيد ابراهيم بن الأغلب قد استقلت استقلالا فعليا ، ولم تكن خاضعة للعباسيين الا فى الاسم فقط .

نعم ! لقد أقام ابراهيم دولة دام سلطانها زهاء مائة سنة ١٨٤ — ٢٩٦ هـ (٨٠٠ — ٩٠٩ م) . وبالرغم من أن خلفاءه اكتفوا بلقب الإمارة ، فإن قوة الخليفة العباسى قد بلغت من الضعف بحيث لم يعد قادرا على التدخل فى أمور هذه الولاية ، مكتفيا بذكر اسمه فى الخطبة ونقشه على السكة . وهذان المظهران هما كل ما بقى للخلافة العباسية فى جميع البلاد الاسلامية التى زال عنها نفوذ بغداد .

ضعفت قوة الدولة العباسية لاستئثار الموالى من الأتراك بالسلطة دون الخليفة ، وأصبح فى يدهم تولية الخليفة وعزله وقتله ؛ وغدت البلاد مرتعا للفوضى والقلاقل ، وصارت السلطة العسكرية فى بغداد — وقد أصبحت ملهى يلهو به المتنافسون — من الضعف بحيث لم يعد الخليفة قادرا على الدفاع عن حاضرة الدولة ، وقد هددها الزنج وأضرموا نار الثورة التى دامت زهاء أربع عشرة سنة ٢٥٥ — ٢٧٠ هـ (٨٦٩ — ٨٨٣ م) عرّضوا فيها كيان الدولة للخطر ، كما أصبحت دلتا الفرات تحت رحمة العصابات من قطاع الطرق الذين أدخلوا الفزع والهلع فى قلوب الأهلين ؛ وتعدى بلاؤهم الى محاصرة أمهات المدن كالبصرة ، والأهواز ، وواسط .

هذه الحالة تكشف لنا عن مبلغ الضعف الذى وصلت اليه السلطة المركزية فى بغداد ، هذه السلطة التى عجزت حتى عن الدفاع عن الولايات المتاخمة لحاضرة الدولة . ومن هذا يتبين لنا مبلغ السهولة التى أقام بها الفاطميون دولتهم فى إحدى ولايات الدولة البعيدة كشمال إفريقية ، لما أصابها من وهن وما اشتهر عن أمرائها من ضعف وانحلال .

" أضف الى ما تقدّم أن البربر، على ما هو مشهور عنهم من حب للقتال ، وما تعوّدوه من شظف فى العيش ، وما فطروا عليه من عدم إخلاد للنظام كانوا — كما بينا — متأهبين للمخاطرة بأرواحهم اذا ما عرض لهم باعث يحرك فى نفوسهم ما جبلت عليه من إقدام على المخاطر وركوب متن الأهوال . وزد على ذلك أن عامل الشراهة الذى فطر البربر على إرضائه ، وما انطوت عليه أخلاقهم من حمق وخشونة — كل ذلك جعلهم أسلس قيادا الى أبى عبد الله الشيعى ، فتمكن من الوصول الى أغراضه من إثارة حميتهم وإعجابهم بآل علىّ والمهدى"[1]

هـذا ، ولا يغيب عن أذهاننا أن بلاد الأندلس ، التى سهل انسلاخها عن الخلافة العباسية بسبب بعدها عن مركز هـذه الخلافة وازدياد نفوذ الأمويين فيها فى أواخر القرن الثالث الهجرى ، لو بقيت تحت سلطان العباسيين ، لوقفت حجر عثرة فى سبيل ازدياد نفوذ الفاطميين فى شمال إفريقية .

(ب) جهل البربر وعدم استعدادهم للحضارة الاسلامية فى بغداد

لم تتوطد أركان السلام بين البربر والعرب النازلين فى بلادهم مذ ظهر الاسلام وامتدت فتوحه الى هذه البلاد . ولا ريب فى أن البربر كانوا دون العرب حضارة وثقافة ؛ وقد نظروا الى العرب نظرهم الى الغاصب . وزاد اشتعال نار العصبية هـذا العـداء . هـذا الى أن البربر لم يكن لديهم الميل والاستعداد للأخذ بأهداب الحضارة الاسلامية التى أوجدها العرب فى صدر الاسلام . ولو أخذ البربر بحضارة العرب ، لكان ذلك قبولا لحضارة الفاتحين .

ولا شك فى أن أكبر العوامل التى وقفت فى سبيل استتباب الأمن إنما ترجع الى العاطفة الوطنية التى هى من أخص صفات البربر منذ مبدأ ظهورهم فى عالم التاريخ ، والتى أخذت تتجلى شيئا فشيئا فى الأحقاب المتتابعة .

وتتكوّن البلاد التى يعيش فيها البربر من بقاع رملية وتلال جرداء مجدبة ، لا يمكن أن تمدّهم بما تحتاج إليه الأمم من الحاجات اللازمة لتقدّمها ورقيها ، ولا تجعل من السهل عليها أن تقيم حضارة خاصة بها ، أو أن تتصل بغيرها من الأمم فتنال قبسا من ثقافتها . هذا الى أن بلادهم لم تكن لتصلح إلا لإمدادهم بما تتطلبه الحياة البدوية — اللهم إلا اذا استثنينا هذا السهل الضيق الذى يتاخم

(1) Nicholson (J.): The Establishment of the Fatimite Dynasty in Africa, p. 26

البحر الأبيض المتوسط ، وجل سكانه من أصول مختلفة : من فينيقيين وقرطاجانيين وإغريق ورومان ، الى ونداك ، وهم من أصل جرمانى ، وعرب — فقد كان قرب هذا الجزء من الساحل الأوربى سببا فى أن تيسر لسكانه أن يقتبسوا شيئا من رقى الأمم المجاورة .

(ج) بغض الولاة لفرضهم الضرائب الفادحة

وليست فداحة الضرائب التى أثقلت كاهل الأهلين بأقل أهمية مما تقدم . نعم ! لم يكن قيام الخوارج من البربر فى وجه الولاة خروجا على الدين ، بل كان خروجا على السلطة الحاكمة ، لظلم الولاة لهم وفرضهم ضرائب فادحة ليست مما يفرضه الدين . كما أنهم لم يجدوا ما كانوا يؤملونه ثمنا لما قاموا به من تضحيات فى حربهم مع العرب ؛ ولم يجدوا فى ولاتهم ما يحببهم إليهم . فقد كانوا يعاملونهم معاملة السيد للمسود ، لا النظير للنظير ؛ فكان كل ذلك مما أعدّهم لقبول المذهب الشيعى . على أنهم لما ساءهم أمر الولاة ، رفعوا الصوت تنديدا بهذه السياسة الخرقاء وبثوا شكواهم الى الخليفة العباسى فى بغداد .

ولما كانت بغداد بعيدة عن شمال إفريقية ، لم يعر الخليفة — لما حل به وبدولته من ضعف ووهن — شكواهم أذنا صاغية ؛ فهموا تارة بالاحتجاج وطورا بالسيف . وسهلت كراهتهم للعرب انضمامهم لأبى عبد الله الشيعى ، الأمر الذى ساعد على تأسيس الدولة الفاطمية بالقيروان . وقد أصاب نيكلسن حيث يقول : " لم يعد من الصعب أن يحرّض البربر على محاربة الذين لا يمكن اعتبارهم إلا متطفلين فى أرض الوطن "[١] .

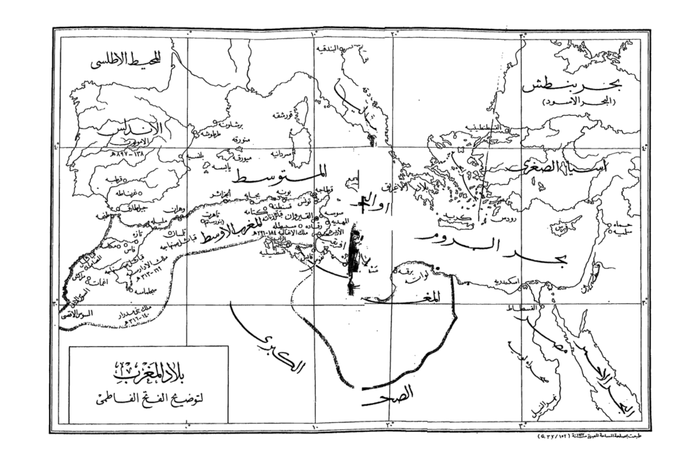
ومما تقدم نستطيع أن نفهم كيف هيأت الأحوال فى شمال إفريقية دخول كثيرين من البربر فى حظيرة المذهب الشيعى بمثل ما تهيأت لهم الظروف من قبل . ولا غرو فقد وجه الفاطميون عنايتهم لتحقيق هذه الغاية على يد أبى عبدالله الشيعى ؛ حتى إذا ما وصل بلاد كُتامة (أو كَتامة)[٢] (٢٨٨ هـ ٩١٠ م) التى حرثها الحلوانى وأبو سفيان من قبله ، وجد هذه البلاد موطأة ممهدة له[٣] .

---

(١) Nicholson (J) : The Fatimite Dynasty in Africa, p. 26

(٢) انظر كتاب الأنساب للسمعانى (ص ٤٧٤ ب و ٥٧٥ أ) لمعرفة أصل هذه القبيلة وصحة نطق هذا اللفظ .

(٣) ذكر ابن الأثير (ج ٨ ص ١١) والمقريزى (اتعاظ الحنفا ص ٢١) أن هذين الداعيين (الحلوانى وأبا سفيان) قد بعث بهما أبوعبدالله جعفر الصادق بن محمد سنة ١٤٥ هـ وقال لهما " إن المغرب أرض بور ، فاذهبا فاحرثا حتى يجيء صاحب البذر " والفترة بين دخول هذين الداعيين بلاد المغرب ودخول أبى عبد الله الشيعى ١٤٣ سنة (١٤٥ — ٢٨٨ هـ ٧٦٢ — ٩٠١ م) .



طبعت بمصلحة المساحة المصرية سنة ١٩٣٢ (١٥٢/٣٢ م.ع)

وفى الحق أن هـذه الحالة السياسية التى سادت فى شمـال إفريقية ، وميول بنى كتامة الدينية الذين أثمرت وأينعت فيهـم تعاليم دعاة الشيعة قبـل أن تطأ قدم أبى عبد الله أرضهم — كل ذلك مهد السبيل للهدى ليظهر للناس كأنه المهدى المنتظر وسليل آل علىّ ، ويحقق بذلك الأغراض التى كان يرمى اليها من نشر دعوته .

هذا ، ولا يفوتنا ما كان من ضعف قوة الأمراء فى شمال إفريقية ، وما أبداه دعاة الشيعة من نشـاط وهمـة كان لهما الأثر الكبير فى اكتساب ولاء القبائل على اختلافها ومعونة رجالهـا الذين عرفوا بغيرتهم وتعصبهم — فكان اجتماع كل هذه الأسباب فرصة سانحة انتهزها الفاطميون لتأسيس خلافتهم .

---

٧ – نجاح هذه الدعوة فى شمـال إفريقية

(أ) رحيل أبى عبد الله الشيعى الى بلاد المغرب :

كانت هذه الفترة التى تخللت سـنتى ٢٨٨ و ٢٩٦ ﻫ (٩٠١ — ٩٠٨ م) عهد جهاد مستمر ، سلك فيه أبو عبد الله[1] سياسة الحزم والعزم .

وأقدم المصادر التى اعتمدنا عليها فى بحث هذا الموضوع ، هو كتاب صلة تاريخ الطبرى لعريب ابن سعد . وقد سبق هـذا المؤلف الطبرى وكتب عن الفاطميين . ولكنه لم يعش فى بلادهم ولم يخالطهم ؛ فكان ما كتبه غامضا مبهما . ويظهر أن إمام الشيعة الاسماعيليـة لم يكن معروفا

---

(١) أطلق عريب بن سعد على أبى عبد الله الشيعى اسم الصوفى أو المحتسب .

(انظر الأحكام السلطانية للماوردى — طبعة مصر (ص ٢٢٧ — ٢٣٠) والقلقشندى (ج ٣ ص ٤٨٧) ونشوار المحاضرة للتنوخى (ص ١٥٨ و ١٦٤ و ٢٥٠) لمعرفة واجبات المحتسب ، ومقدمة ابن خلدون (ص ٢٢٥ — ٢٢٦) والمقريزى : خطط (بجزء أول ص ٣٦٣ و ٤٦٤) . وذكر ابن الأثير (ج ٨ ص ١١) وغيره أن أبا عبدالله من أهل صنعاء ، اتصل بمحمد الحبيب أبى عبيد الله أول الخلفاء الفاطميين ، فأرسله الى اليمن ، وهناك صحب ابن حوشب بعدن وصار من كبار أصحابه . ولما كانت تلك البلاد خالية ممن يقوم ببث الدعوة فيها من عهد وفاة الحلوانى وأبى سفيان ، بعث به ابن حوشب الى بلاد المغرب .

على أن ابن خلدون (ج ٤ ص ٣٢) خالف عريب بن سعد ، فقال إن أخا أبى عبد الله (أبو العباس) هو المحتسب ، وكان يؤدى أعمـال هذه الوظيفة فى أحد أعمـال البصرة ، وأن أبا عبدالله كان يعرف بالمعلم ، لأنه كان يقوم بتعليم مذهب الإمامية قبل أن يعتنق مذهب الاسماعيلية . أما المقريزى (خطط ج ٢ ص ١٠) فقد خالف ابن خلدون فى هـذه المسألة ، فقال ان أبا عبد الله نفسه كان محتسبا فى أحد أعمال بغداد ، لا البصرة .

عند الطبرى ، بدليل تسميته له ابن البصرى [١] ؛ بخلاف عريب بن سعد ، فانه ذكر ان المهدى إنما عرف بهذا الاسم بعد دخوله مدينة رقاده [٢] .

وقبل أن نتكلم عما بذله أبو عبدالله الشيعى فى سبيل تأسيس الدولة الفاطمية فى بلاد المغرب ، يجب أن نعرف شيئا عن حياة هذا الرجل . فأبو عبد الله الشيعى هو الحسن بن أحمد ابن محمد بن زكريا ، من أهل صنعاء باليمن . وقد ولى الحسبة فى بعض أعمال بغداد ، ثم سار الى اليمن ، وهناك لقى ابن حوشب داعى دعاة الاسماعيلية فى هذه البلاد وصار من كبار أصحابه ، لما رآه فيه من العلم والذكاء والمكر والدهاء . فلما اتصل بابن حوشب نبأ موت أبى سفيان داعى الاسماعيلية فى بلاد المغرب ، عهد الى أبى عبد الله الشيعى القيام بالدعوة الى هذا المذهب ، وقال له : " إن أرض كتامة من بلاد المغرب قد حرثها الحلوانى وأبو سفيان ، وقد ماتا ؛ وليس لها غيرك ؛ فبادر فانها موطأة ممهدة لك " .

غادر أبو عبد الله اليمن قاصدا مكة ؛ وقد زوده ابن حوشب بما احتاج اليه من مال . فلما وصل الى مكة ، سأل عن حجاج كتامة واجتمع بهم ؛ فسمعهم يتحدثون بفضائل آل البيت ، فحدثهم فى ذلك وأفاض القول فى مآثر أهل البيت ؛ ثم نهض ، فسألوه أن يأذن لهم فى زيارته لما رأوا من علمه وعقله ؛ فأجابهم الى ذلك . فأخذوا يترددون عليه وسألوه أين يقصد ، فأجابهم إنه يريد مصر . فسروا بصحبته ، ورحلوا جميعا من مكة ؛ وهو فى كل ذلك يخفى عنهم أغراضه . وما لبثوا أن تعلقوا به واجتمعوا على محبته لما رأوا من ورعه وزهده ، وهو فى ذلك كله يسألهم عن أحوال بلادهم وعن مبلغ إطاعتهم لأميرهم ، فقالوا : " ليس له علينا طاعة ، وبيننا وبينه عشرة أيام " .

وقد استطاع أبو عبد الله بما جبل عليه من مكر ، وبما وهبه الله من ضروب الحيل ، أن يعرف منهم أن حمل السلاح كان كل همهم ؛ وبهذا كله أتيح له أن يقف على جميع أحوالهم . فلما وصلوا مصر أخذ يودعهم ؛ فشق عليهم فراقه وسألوه عن حاجته بمصر ، فقال إنه ليس له بها حاجة إلا طلب العلم ؛ فقالوا له : " فأما اذا كنت تقصد هذا ، فان بلادنا أنفع لك وأطوع لأمرك ، ونحن أعرف بحقك " . وما زالوا به حتى أجابهم الى المسير معهم ؛ فاستأنفوا السير حتى أصبحوا على

---

(١) الطبرى ٣ : ٢٢٩١ و ٢٢٩٢

(٢) عريب بن سعد (ص ٥٣) .

مقربة من بلادهم كتامة — وهى فى بلاد الجزائر اليوم — وقد خرج الى لقائهم أصحابهم الذين أينعت وأثمرت فيهم تعاليم الشيعة على يد دعاة الاسماعيلية من قبل .

ولما وقف القوم على حال أبى عبد الله ، أحلوه من أنفسهم محل الاجلال والاكرام ، ورغبوا فى نزوله عندهم واقترعوا أيهم يضيفه . ولما وصلوا أرض كتامة فى شهر ربيع الأول سنة ٢٨٨ هـ ، تهافت كل منهم على إنزاله فى بيته ؛ فسألهم : "أين فج الأخيار[١] ؟" فدلوه عليه ، فقصده ؛ وسار الى جبل إيكجان ، فنزل بفج الأخيار . وهنا قال لهم : " هذا فج الأخيار ، وما سمى إلا بكم ؛ ولقد جاء فى الآثار للمهدى هجرة ينبو بها عن الأوطان ، ينصره فيها الأخيار من أهل ذلك الزمان ، قوم اسمهم مشتق من الكتمان ؛ ولخروجكم فى هذا الفج ، سمى فج الأخيار " . فتسامعت به القبائل وأتته البربر من كل مكان ، وعظم أمره ؛ وما لبث أن كشف عن قصده ، فقال لرجال كتامة : " أنا صاحب البذر الذى أخبر به أبو سفيان والحلوانى "[٢] اللذين أرسلهما الاسماعيلية لبث الدعوة فى بلاد كتامة [٣] . فازدادت محبتهم له وعظم أمره فيهم ، وأتته القبائل من كل مكان[٤] .

أما ونحن بصدد الكلام عن فج الأخيار ، يجدر بنا أن نذكر كيف قام الاسماعيلية ببث دعوتهم . كان الإسماعيليون يبعثون بالدعاة من سلمية ، مركز حركتهم الدينية ، الى كافة الأقطار الاسماعيلية . وقد اتخذ هؤلاء الدعاة دار هجرة فى كل قطر ؛ فاتخذوا دار هجرة فى نجران ، وفى سواد الكوفة وفى جبل لاعة باليمن ، وفى بلاد تركستان وعلى الأخص فى الجزء الشرقى ، وكذلك فى بنجاب وبمباى ، حيث لا يزال يمثل أغا خان طائفة منهم الى الآن .

---

(١) فج الأخيار فى جبل إيكجان فى أرض كتامة (على مقربة من مدينة قُسنطينه ، تعرف بمناعتها . يسكنها قبائل من كتامة ، وكانت بها أسواق عظيمة ، وكانت كبيرة آهلة بالسكان (انظر البكرى ص ٦٣ و ٦٤) ، وفيه أقام أبو عبد الله الشيعى وسماه دار الهجرة . وقد سمع ياقوت بعض الناس يطلقون عليه ايكجان ، وذكره المقريزى فى اتعاظ الحنفا (ص ٣٢) ، ونقله أوليرى (O'Leary) أنكيجان ، وهو خطأ .

(٢) بعث محمد الحبيب أحد أشياعه ، ويدعى رستم بن الحسين بن فرج بن حوشب الكوفى الى اليمن ، لينشر الدعوة للفاطميين ويعلن للناس أن قد حان ظهور المهدى ، فظهرت الدعوة سنة ٢٧٠ هـ ، ونجح ابن حوشب فى مهمته ، حتى اعتقد الناس فى المهدى من آل على وفى صفاته . وسرعان ما ابتنى ابن حوشب حصنا بجبل لاعة وتغلب على أغلب بلاد اليمن بما فيه صنعاء ، ودعا نفسه المنصور ، وبعث الدعاة الى كافة بلاد اليمن واليمامة والبحرين والسند والهند ومصر وشمال إفريقية — ابن خلدون (ج ٤ ص ٣١) والمقريزى : اتعاظ الحنفا (ص ٢٧) .

(٣) ابن الأثير (ج ٨ ص ١٢) .

(٤) الخطط للمقريزى (ج ٢ ص ١٠ و ١١) .

ولما دخل أبو عبد الله الشيعي بلاد المغرب ، اتخذ دار هجرة فى فج الأخيار فى إيكجان الواقع فى منتصف الطريق بين طنجة وفاس . و إيكجان جمع حاج (حجاج) ؛ وكانوا يطلقون عليه منذ قديم الزمان Tzajjan ، وهو محل اجتماع الحجاج من الأندلس وشمال المغرب الأقصى . وفى هذا المكان اتخذ أبو عبد الله الشيعي دار الهجرة ، وهو مركز حركته ومجمع أنصاره من البربر . ومن الغريب أن أكثر سكان البلاد التى قام فيها الاسماعيليون بنشر مذهبهم لا يزالون متمسكين بعقائد هذا المذهب ، الا سكان بلاد المغرب حيث لم يبق للاسماعيليين بقية .

و يرجع ذلك — على ماذكرنا — إلى جهل البربر وعدم استعدادهم لفهم مذهب الاسماعيلية بدرجاته المختلفة المتدرجة فى الصعوبة ، كغيرهم من أهالى الأقطار الأخرى — كفارس ومصر — التى يمتاز أهلها بالحضارة وسمو الفكر .

فليس من عجب اذا لم يتعمق البربر فى فهم مذهب الاسماعيلية وتعاليمه التى تحتاج الى إعمال الفكر ؛ و إنما اعتنقوه لأول وهلة وبلا كبير عناء أو تفكير . فلم يكن ثمة ما يساعد على رسوخه فى نفوسهم ، مما أدى بهذا المذهب الى الزوال من بلاد المغرب ، حيث لم يبق له الآن بقية أو أثر[1] .

وفى سنة ٢٩١ هـ (٩٠٣ م) بدأت أعمال أبى عبد الله الشيعي الحربية ، فوقعت فى يد الداعى مدن عدة . وساعد على تقدمه فى الفتوح موت ابراهيم بن الأغلب (سنة ٢٩١ هـ) ، ولحاق ابنه أبى العباس به ، وتولية ولده زيادة الله الذى قضى أيامه فى اللهو والترف ، بينما كان وزراؤه لايبالون الا بنجاح المذهب الشيعي الذى اعتنقه معظمهم . ولا غرو فقد ساعدت هذه الأسباب أبا عبد الله على قمع الأغالبة ، ومد نفوذه على أكثر أجزاء هذه البلاد ، والمجاهرة بأن ظهور المهدى قد آن أوانه .

---

(١) إنى مدين ببعض ما جاء بهذه العبارة الى المسيو لوى ما سينيو الأستاذ بكلية فرنسا (M. Louis Massignon, Professeur au Collège du France) . وقد دارت بيننا محادثات على موضوع هذا الكتاب فى منزله بباريس .

ذكر المقريزى (اتعاظ الحنفا ص ٣٢) فى كلامه على دخول أبى عبد الله الشيعي أرض كتامة ونزوله فج الأخيار ، أن أبا عبد الله خطب أهل كتامة ، معددا مآثرهم مشيدا بفضل بلادهم فى العبارة التى ذكرناها قبل .

(ب) رحيل عبيد الله المهدى الى بلاد المغرب :

غدا الشيعيون فى ذلك الوقت (سنة ٢٩١ هـ) أصحاب السلطان المطلق فى جميع الجهات الواقعة الى الغرب من مدينة القيروان[١] ، وأنفذ أبو عبد الله الشيعى الرسل الى المهدى فى سلمية يدعوه للحضور الى إفريقية[٢] . فرحب عبيد الله بهذه الدعوة ، وقد سمع بدعوته الخاص والعام . فأصدر الخليفة العباسى الأوامر بالقبض عليه .

على أن عبيد الله لم يكد يصل مدينة سجلماسة[٣] حاضرة بنى مدرار حتى قبض عليه أميرها اليسع ابن مدرار وحبسه الى أن أطلقه أبو عبد الله[٤] .

ومن الصعب أن نفهم كيف أتيح لعبيد الله أن يتجنب القبض عليه قبل وصوله سجلماسة ، اذا علمنا أن الأوامر قد صدرت للولاة فى مصر وشمال افريقية بالقبض عليه ، اذ هدد سلطة الخليفة العباسى ، وهو المالك للبلاد التى سلكها عبيد الله . وقد ذكر عريب بن سعد أن محمد بن سليمان[٥]

---

(١) القيروان أكبر مدائن بلاد المغرب ، وتقع على بعد أربعة أميال من مدينة رقاده ، وتشتهر بمساجدها وحدائقها الغناء ومبانيها الفخمة — انظر البكرى : كتاب المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب (ص ٢٢ — ٢٧) .

(٢) عريب بن سعد (ص ٥٢) .

(٣) مدينة بالمغرب الأقصى ، يجرى فيها نهران أصلهما واحد ، فاذا قربا من المدينة تشعبا الى نهرين يسلكانها شرقا وغربا . وتقع فى سهل أرضه سبخة حوله أرباض كثيرة . وتبعد عن القيروان بستة وأربعين فرسخا . وكان بناؤها سنة ١٤٠ هـ . وفى سنة ١٦٠ هـ اتخذها بنو مدرار حاضرة لملكهم — انظر البكرى (ص ١٤٨ — ١٤٩) .

(٤) عريب بن سعد (ص ٥٢) .

(٥) خالف عريب بن سعد غيره من المؤرخين من أمثال أوتيخا (ص ٧٦) والكندى (ص ٢٥٨) وابن الأثير (ج ٨ ص ١٣) وأبى الفدا (ج ٢ ص ٦٣ — ٦٤) والمقريزى (خطط ج ١ ص ٣٢٧) فقال ان محمد بن سليمان — لا عيسى النوشرى — هو الذى قبض على عبيد الله . وقد ذكر الطبرى (٣ : ٢٢٥١ و ٢٢٥٢) أن الخليفة العباسى المكتفى ندب محمد بن سليمان لطرد هارون آخر ولاة الطولونيين من مصر . وفى صفر سنة ٢٩٢ هـ هُزم هارون وقُتل . وفى السابع من جمادى الآخرة من هذه السنة ، رحل محمد بن سليمان عن مصر بعد أن أقام فيها نحوا من أربعة أشهر .

هذا ، ولقد تكلم الكندى (كتاب الولاة ص ٢٢٨) عن مدة ولاية محمد بن سليمان فقال : إنها بدأت فى ٧ جمادى الأولى من السنة التى أتى مصر فيها . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فقد ذكر أوتيخا (ص ٧٦) أن مدة ولاية محمد بن سليمان دامت نحوا من ستة أشهر ، خلفه بعدها عيسى النوشرى . على أننا نشك فى صحة هذا القول ، لأن هذا المؤرخ لم يعين الوقت الذى بدأت فيه ولاية محمد بن سليمان فعلا .

وقد تكلم ابن الأثير (ج ٨ ص ١٣) عن هذه الحادثة باسهاب ، ونقل عنه ، على ما يظهر ، بعض من أتى بعده من المؤرخين كابن خلدون والمقريزى . قال ابن الأثير إن عبيد الله لما وصل الى مصر ، أشار عليه بعض رجال الحاشية فى بلاط النوشرى ، ممن اعتنق مذهب الشيعة ، أن يحذر من أن يقبض عليه رجال السلطة فى مصر . وبالرغم من هذا التحذير فقد قبض عليه النوشرى وهو فى طريقه الى بلاد المغرب ، ولكنه أطلقه لورعه ، أو كما قال ابن الأثير ، لمال أخذه منه . =

قبض عليه ثم أطلقه لمـال أخذه منه[١]

وقد زادنا ابن الأثير بيانا فى هذه المسألة ، فقال إن عبيد الله لمـا رحل عن سلمية ، حمل معه مالا عظيما استطاع أن يرشو به الولاة فى طريقه الى سجلماسة ويأمن الوقوع فى أيديهم[٢] . و يظهر لنا أن ابن الأثير قد نقل هذه العبارة عن عريب بن سعد[٣] الذى يقول إن محمد بن سليمان قبض على عبيد الله المهدى وأخذ منه مالا فأطلقه . ونحن نرجح صحة هـذا القول ، اذا عرفنا كيف استطاع عبيد الله أن يأمن القبض عليـه فى مصر ، وفى طرابلس أيضا ، حيث كتب أميرها الى زيادة الله ابن الأغلب — وقد أمر بالقبض على عبيد الله — يقول إن عبيد الله هـذا قد غادر المدينة ، وأن لاسبيل الى اللحاق به .

على أن مسألة إلقاء القبض على عبيد الله فى سجلماسة على يد أميرها إنمـا ترجع الى سبب واحد ، هو أن الرشوة لاتجدى مع هذا الأمير بحكم مركزه وما لصفة الإمارة فى نفسه من هيبة وحرمة .

هذا ، ولقد أجمع المؤرخون على أن أبا عبد الله الشيعى أرسل فى سنة ٢٩١ هـ الى عبيد الله بمـال كثير مما حصل عليه فى حروبه من أسلاب وغنائم .

= ولم تكد سلطة الوالى الجـديد (عيسى النوشرى) تستقر مـدة ثلاثة شهور ، حتى سلبها منه ابن الخليج أحد قواد الطولونيين ، الذى انتزع منـه نفوذه زهاء ثمانيـة شهور (سبعة شهور وعشرون يوما على ما ذكره المقريزى فى خططه (ج ١ ص ٣٢٧) بعـد أن اسـتولى على الفسطاط ، الذى ظل فى يده الى أن قبض عليـه فى رجب سـنة ٢٩٣ (الطبرى ٣ : ٢٢٦٧) وبعث به وبغيره من الثوار الى بغـداد ، فغدا عيسى بحيث يستطيع استرداد سلطته ويحول الى الفسطاط وينزل بدار الامارة .

أما إلقاء القبض على عبـيد الله وإطلاقه ، فلا بد أن يكون حدوثهما قد تم إما فى مدّة ولاية محمد بن سليمان (محرم — رجب سـنة ٢٩٢) أو فى مدّة ولاية عيسى النوشرى (جمادى الثانية — ذو القعدة سـنة ٢٩٢) — وقد دامت ولايته ، على ما ذكره الكندى (ص ٢٦٧) ، الى أن مات سنة ٢٩٧ هـ .

وعليه ، فان ما ذكره عريب من أن عبيـد الله سـار الى بلاد المغرب فى مدة ولاية محمد بن سليمان ، لا يترك مجالا للشك فى وقوع هـذه الحادثة سنة ٢٩٢ هـ ، بعـد الانتصارات التى حازها أبو عبد الله الشيعى فى شمال إفريقية سـنة ٢٩١ هـ كما سبق بيانه .

ونحن نرى أن محمد بن سليمان — لا عيسى النوشرى — هو الذى قبض على عبيد الله المهدى . يؤيد هذا الرأى ما أورده أوتيخا (ص ٧٧) عن محمد بن سليمان ممـا يؤيد أيضا ما ذهب اليه عريب بن سعد . وتتلخص عبارة أوتيخا فى أن الخليفة العباسى المكتفى قبض على محمد بن سليمان ، إذ اتهمه بمـال أخذه من خراج مصر . وهـذه العبارة ترجح ما ذهبنا اليه من أن محمد بن سليمان هو الذى قبض على عبيد الله ثم أطلقه لمـال أخذه منه . هـذا فضلا عن أن عريب بن سعد أقدم من كتب عن هـذا الموضوع (بعد أوتيخا والكندى) من المؤرخين . ولا شك فى أن عبارته التى خلفها لنا مما يقام له وزن ويجزم بصحته إذا ماقيست بأقوال غيره .

(١) عريب بن سعد (ص ٥٢)

(٢) ابن الأثير (ج ٨ ص ١٣ و ١٤)

(٣) ص ٥٢

(ج) أبو عبد الله ونجاحه فى فتوحه :

أخذ أبو عبد الله الشيعى يواصل فتوحه مذ رحلت رسله الى عبيد الله المهدى ، وغدا للحروب التى نشبت بين زيادة الله وداعى الشيعة شأن أجل وأعظم . وفى سنة ٢٩٥ هـ (٩٠٧ م) مدّ أبو عبدالله نفوذه على معظم أرجاء بلاد المغرب . وفى يوم الأحد مستهل رجب سنة ٢٩٦ هـ دخل داعى الشيعة مدينة رقادة (وتقع جنوبى القيروان ، وهى من أعمال تونس الآن) واستقر فى دار الإمارة . وبهذا تكللت أعمال الداعى بالنجاح[١] .

أمر الداعى بعدئذ بجمع ما كان لزيادة الله من مال وسلاح وغيره . ولما كان يوم الجمعة أمر الخطباء فى القيروان ورقادة فخطبوا ، وأبطل ذكر اسم الخليفة العباسى فى الخطبة . وبهذا زالت سلطة العباسيين الاسمية والفعلية عن هـذه البلاد . وأمر الداعى بالسكة فضربت من غير أن ينقش عليها اسم[٢] ، بل جعل فى أحد وجهيها : " بلغت حجة الله " ، وفى الوجه الآخر : " تفرق أعداء الله " ، ونقش على السلاح : "عدة فى سبيل الله" ، ووسم الخيل على أفخاذها : " الملك لله "[٣] .

---

(١) عريب بن سعد (ص ٥٢) و والبكرى (ص ٢٧)

(٢) ذكر الدكتور أوليرى (Dr. O'Leary, p. 63) ، عند كلامه عن الخطة التى سلكها أبو عبدالله الشيعى بعد دخوله مدينة رقادة ، "أن الطقوس الدينية أدخلت فى الخطبة ، فزيدت عبارة "حى على خير العمل" ، وأضيفت اليها أسماء "على وفاطمة والحسن والحسين" . ويظهر أن الدكتور أوليرى أخذ هذه العبارة عن كتاب نيكلسن المسمى "تأسيس الدولة الفاطمية فى إفريقية" (Nicholson, J. : Establishment of the Fatimite Dynasty in Africa) . وقد أخذها فى كتابه أيضا دى ساسى (De Sacy : Exposé de la Religion des Druzes, T. I. p. CCLXXII) . وهذا الكتاب عبارة عن ترجمة ما ورد بكتاب "صلة تاريخ الطبرى" لعريب بن سعد القرطبي عن تأسيس الدولة الفاطمية فى بلاد المغرب مع شرح بعض الحقائق التاريخية . على أن هذه العبارة لم يرد لها ذكر فى النص العربى الذى طبعه مسيو دى غويه (De Goeje) ، ولا توجد الا فى كتب من جاء بعد عريب بن سعد من المؤرخين ، كيحيي بن سعيد (ص ١٠٧) وابن الأثير (ج ٨ ص ١٧) وابن خلدون (ج ٤ ص ٣٦) والمقريزى (خطط ج ٢ ص ١١) واتعاظ الحنفا (ص ٣٨) .

ويظهر أن دى ساسى (Exposé, T. I. p. CCLXXII) اعتمد على ما ذكره ابن الأثير الذى قال انه لم يرد لهـذا ذكر فى الخطبة ولا على السكة حيث يقول : "ولما حضرت الجمعة أمر الخطباء بالقيروان ورقادة فخطبوا ، ولم يذكروا أحدا ، وأمر بضرب السكة وألا ينقش عليها اسم . ولكنه جعل مكان الاسم : "بلغت حجة الله" ، وعلى الوجه الآخر : " تفرق أعداء الله" ، ونقش على السلاح : "عدة فى سبيل الله" . ووسم الخيل على أفخاذها : " الملك لله" ، وأقام على ما كان عليه من لبس الدون الخشن والقليل من الطعام الغليظ " .

(٣) يحى بن سعيد (ص ١٠٧) وابن الأثير (ج ٨ ص ١٧) .

(د) إطلاق عبيد الله من سجلماسة :

ظل عبيد الله فى حبسه بسجلماسة ، وأبو عبد الله الشيعى يواصل حروبه وفتوحه . فلما تم لداعى الشيعة الفتح والنصر ، سار فى قوة كبيرة الى سجلماسة لاطلاق عبيد الله . وفى اليوم التالى ليوم وصوله ، اتصل بمسامع الداعى نبأ هرب اليسع بن مدرار أمير هذه المدينة ليلا ، وقد حمل معه أقاربه وأمتعته ؛ فأطلق الداعى من فوره عبيد الله المهدى وابنه أبا القاسم .

ولقد حامت حول إطلاق عبيد الله الشبهات وتباينت فيها أقوال المؤرخين . فذهب البعض الي أن الداعى علم بقتل عبيد الله ، فجاء برجل يهودى أظهره للناس باسم المهدى . وليت شعرى أين كان أبو القاسم الذى ولى الخلافة بعد أبيه ؟ ولَم لَمْ يلها فى ذلك الوقت ، وقد كان فى سن يستطيع معها الاضطلاع بأعباء الحكم ؟ يدلك على صحة هذا القول ما كان من مسير أبى القاسم هذا على رأس جيش من المغاربة لغزو مصر فى سنة ٣٠١ هـ وما بعدها ، أى بعد هذه الحادثة بنحو أربع سنين .

(هـ) تقلد المهدى زمام الحكم :

كان معنى إطلاق عبيد الله المهدى من سجنه بسجلماسة فى ٧ رجب سنة ٢٩٦ هـ زوال سلطان بنى مدرار فى سجلماسة ، وبنى رُسْتَم فى تاهَرْت[1] والأغالبة فى تونس ، وقيام الدولة الفاطمية فى كل شمال إفريقية الذى خرج عن سلطان العباسيين .

قرب المهدى من رقادة ، فتلقاه أهلها وأهل القيروان ؛ وسار بين يديه أبو عبد الله الشيعى ورؤساء كتامة ، فسلموا عليه بالخلافة وبايعوه على الطاعة . ونزل ذلك الخليفة الفاطمى الجديد بقصر من قصور رقادة . وفى يوم الجمعة أمر باسمه فذكر فى الخطبة على منابر البلاد ، وتلقب بالمهدى أمير المؤمنين ؛ وجلس فى ذلك اليوم رجل يعرف بالشريف ومعه الدعاة ، ودعوا الناس إلى مذهب الاسماعيلية ، فدخل فيه الناس طوعا وكرها .

ولم يلبث المهدى أن قسم على رؤساء كتامة أعمال إفريقية . وسرعان مادوّن الدواوين وجبى الأموال ، فاستقرت قدمه ودانت له البلاد .

---

(١) تاهرت أو تيهرت اسم لمدينتين متقابلتين استولى عليهما الداعى سنة ٢٩٦ هـ ، بعد أن ملكهما بنو رستم زهاء مائة وثلاثين سنة . وكان بها أسواق عامرة وحمامات كثيرة . وكان ميمون بن عبد الوهاب بن رستم بن بهرام (وبهرام مولى عثمان بن عفان) صاحب تاهرت ، رأس الأباضية وامامهم ، وكانوا يسلمون عليه بالخلافة .

(و) أبو عبد الله يلاقى مالاقاه أبو مسلم :

لا شك فى أن الدولة الفاطمية تدين بظهورها ووجودها فى عالم الدول المستقلة لداعى الشيعة الذى تأسست هذه الدولة بفضل جهوده وحسن سياسته . على أن حظ هذا الرجل ، مع ما عرف عنه من غيرته وانتصاره للدعوة الفاطمية ، كان حظ أبى مسلم الخراسانى الذى كان فى حقيقة الأمر شخصية بارزة وعاملا قويا من عوامل تأسيس الدولة العباسية .

ويعزو المؤرخون قتل أبى عبد الله الشيعى إلى أنه لما دانت البلاد للمهدى واستقامت له الأحوال كف يد أبى عبد الله الشيعى ويد أخيه أبى العباس ؛ فداخل أبا العباس الحسد واستمال أخاه إليه ، وأخذا يحرضان معاعلى المهدى ، واتفقا على قتله . فوصل خبر هذه المؤامرات إلى مسامع المهدى ؛ ففرق أنصارهما فى البلاد وأمر بهم فقتلوا ، ثم قتل أبا عبد الله الداعى وأخاه (الاثنين ١٥ جمادى الثانية سنة ٢٩٨) .

الباب الثانى

وصول الفاطميين إلى مصر

١ – من هم الفاطميون ؟

(أ) آراء طائفة من مؤرخى الأفرنج

إن لفظ الفاطميين الذى عرف به أولاد عبيد الله المهدى ، يشعر فى بادئ الرأى بأنهم من اولاد فاطمة بنت النبى صلى الله عليه وسلم ؛ فهم علويون أيضا . على أن مسألة نسب هذه الأسرة كانت — ولا تزال — موضوعا كثرت فيه آراء جمهور الكتاب والمؤرخين الأقدمين والمحدثين ، لما كان من انحياز الكتاب من العرب إلى القول بما يوافق نزعاتهم السياسية وميولهم الدينية ، بعيدين عن الحقيقة . ففريق ذهب الى القول بصحة هذا النسب ، وفريق ناقض هذا القول بجزم بعدم صحته .

بيد أن بحث المحدثين من المؤرخين لهذا الموضوع لم يسفر عن نتيجة حاسمة ، نظرا لما خلفه لنا المؤرخون الأقدمون من أقوال كثيرة متباينة . وليست مسألة نسب الفاطميين إلى ابن ميمون القداح ، أو الى اسماعيل بن جعفر الصادق ، مسألة جوهرية لهذا البحث ؛ ولكن يحسن بنا ألا نمر عليها مر الكرام من غير أن نعير هذه الدعاوى التى أقامها الفاطميون لإثبات صحة نسبهم شيئا مما هى جديرة به من عناية واهتمام .

لقد حاول دى ساسى فى كتابه (De Sacy : Exposé de la Religion des Druzes, Paris, 1835) أن يلقى قبسا من النور على هذا الموضوع . وكان المصدر الأصلى الذى اعتمد عليه هذا المؤرخ ، هو هذه الشذرات الهامة التى كتبها الشريف أخو محسن[1] ، ونقلها عنه ابن النديم[2] ، ونسبها خطأ إلى ابن رزّام ، فظن أنها له ؛ وهؤلاء جميعا عاشوا فى القرن الرابع الهجرى .

---

(١) هو محمد بن علىّ بن الحسين بن أحمد بن إسماعيل بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق .

(٢) كتاب الفهرست (ج ١ ص ١٨٦ وما يتبعها) .

ولقد نقل النويرى فى " نهاية الأرب "[١] والمقريزى فى " اتعاظ الحنفا "[٢] عبارة أخى محسن . على أن فيما أورده لنا المقريزى [٣] من أنه قرأ هذا الكتاب بنفسه ووصفه بأنه يقع فى مجلد واحد فى أكثر من عشرين كراسة ، ما يحملنا على عدم الأخذ بصحة نسبة هذه الشذرات الى ابن رزام .

ولقد حاول آخرون غير دى ساسى ، من أمثال وستنفلد (Wüstenfeld)[٤] ودى غويه (De Goeje) [٥] أن يزيدوا هذا الموضوع بيانا ؛ ولكن ما صادفوه من نجاح فى هذا السبيل لم يتعد زيادة عدد المصادر التى اعتمد عليها من تقدمهم من الكتاب ممن تصدوا لبحث هذا الموضوع .

وهنا يجدر بنا أن نشير الى هذه الحقيقة ، وهى أن هؤلاء المؤرخين لم يهتدوا الى رأى قاطع فى هذه المسألة ، كما أنهم انساقوا مدفوعين بميولهم الشخصية ، فلم يجمعوا على رأى واحد فى صدد هذا النسب . ويظهر أن ما قام به فايل (Weil) ووستنفلد (Wüstenfeld) فى استقصاء هذا الموضوع لم يتعد نقل حقائق تاريخية لغيرهم ، دون أن يبينوا رأيهم الخاص .

أما دى ساسى (De Sacy) فانه يميل الى الأخذ بصحة نسب الفاطميين إذ يقول : " وهنا يتسنى للمرء أن يضيف على هذه الأدلة التى أوردها المقريزى أنه اذا كان عبيد الله دعيا ، ولم يكن من سلالة علىّ ، فان أبناءه الحقيقيين الذين لم يتطرق اليأس الى نفوسهم قط بأنه سيأتى يوم يستطيعون فيه أن يكشفوا للناس عن أحقيتهم فى الامامة ، لا بد أن تتاح لهم الفرصة لاماطة اللثام عن صحة نسبهم وأحقيتهم "[٦] .

أما دى غويه (De Goeje) [٧] فانه اعتبر أن ابن ميمون هو مؤسس مذهب القرامطة وجدّ الخلفاء الفاطميين حيث قال : " كانت لهذه الجرثومة الصغيرة القوية قوة هائلة ، هى أن

---

(١) المكتبة الأهلية بباريس ، مخطوط ١٥٧٦ ، ورقة ٤٧ (ب) وما تبعها .

(٢) ص ١١ — ١٤

(٣) شرحه (ص ١١)

(٤) Geschichte der Fâtimiden—Chalifen, pp. 3-12

(٥) Mémoires sur les Carmathes du Bahraïn et les Fatimides, Leyden, 1886

(٦) De Sacy : Exposé de la Religion des Druzes, Introduction, p. 251

(٧) Mémoires sur les Carmathes du Bahraïn, etc. p. 1

حزبا خامل الذكر عند ظهوره يصبح بعد قليل أسرة حاكمة ، وينتهى بفتح كافة أرجاء بلاد الخلافة فى الغرب ... إلى أن يقول : فانه حول منتصف القرن الثالث من الهجرة ، قام عبد الله بن ميمون القداح بنشر تعاليم هذا المذهب...الخ ". ويقول دى غويه فى موضع آخر : " إذا ما تناولنا الكلام على الفاطميين والقرامطة ، فانما نتكلم عن طائفة واحدة "[1] .

أما وستنفلد فقد ختم عبارته المسهبة عن نسب الفاطميين بهذه الكلمات التى تبين لك أنه قد تردد فى تكوين رأى قاطع فى هذه المسألة ، بسبب ما جاء عنها من آراء كتاب العرب المتناقضة المتضاربة ، حتى ما ذاع منها بين العلويين أنفسهم . ويظهر لنا أن وستنفلد يميل إلى الأخذ بالرأى القائل بنسبة الفاطميين إلى الامام المهدى المنتظر فيقول : "وكل ما يمكن قوله ، هو أن هذا النسب الى الامام المنتظر محتمل بعض الاحتمال ، بالرغم من وجود هذه الحجة العديمة القيمة ، وهى عدم اعتراف الشيعيين بهذا النسب"[2] .

(ب) رأى الطاعنين فى صحة النسب

ينتسب عبيد الله المهدى — على ما ذهب اليه أخو محسن وغيره ممن نقل عنه أو لم يميلوا الى القول بصحة نسب الفاطميين — الى ميمون بن دَيْصان الثنوى المذهب الذى ينتسب اليه الثنوية القائلون بوجود إلهين : إله النور وإله الظلمة .

وقد خلف القداحَ ابنه عبد الله ؛ ووصفه المقريزى فقال إنه كان عالما بجميع الشرائع والسنن والمذاهب . وقد اعتنق عبد الله هذا — على ما ذهب اليه أخو محسن — مذهب الشيعة ، لا للدعوة الى إمامة اسماعيل بن جعفر الصادق ، أو الى ابنه محمد ، بل لحيلة اتخذها ليجمع حوله أتباعا ؛ بمعنى أنه اتخذ من هذه الدعوة وسيلة لتنفيذ أغراضه ، وهى تكوين دولة فارسية[3] .

وقد ذهب الأستاذ نيكلسن (Prof. R. Nicholson) الى القول بأن تأسيس الدولة الفاطمية ، كان أقصى ما وصلت اليه هذه المؤامرة القوية الدعائم ، التى تم تنظيمها بمهارة فائقة ، والتى شرع عبد الله بن ميمون القداح الأهوازى الفارسى الأصل يروج لها قبل ذلك بنصف قرن ، وقد تملكت

---

(1) Ibid, pp. 2, 3

(2) Wüstenfeld: Geschichte der Fatimiden—Chalifen, pp. 14, 15

(٣) المقريزى ، خطط (ج ١ ص ٣٤٨)

نفسه الكراهة فى أبشع صورها للعرب ، والاحتقار للاسلام والمسلمين ، مدفوعا الى ذلك بما يدعيه من حرية الفكر والعقيدة . وقد عمل على إيجاد جمعية سرية كبيرة تلقن الناس جميعا مبادئها كلا على قدر عقله واستعداده ، وتعبث بأشد الميول وأقواها ، وتغرر بكافة عوامل الضعف الكامنة فى الطبيعة البشرية ، لجمع بين كل الساخطين فى صورة مؤامرة ترمى الى قلب النظام الحاضر"[١] .

وهذا كله مما حدا بعبد الله بن ميمون — على ما ذهب اليه دوزى (Dozy) — "الى العمل على استخلاص الحكم ، ان لم يكن لنفسه ، فلأولاده من بعده ؛ وهذه فكرة — إن صحت — تعد فكرة عظيمة ، لأنها تنطوى على الجرأة والإقدام . وقد ساعد على تحقيقها ما وهبه هذا الرجل من مهارة وحيلة ودراية تامة بما فى قلوب الناس[٢]" .

تأييد الفرس للعلويين

أما عن تعلق الفرس بأهداب عقائد المذهب الشيعى أو حزب علىّ ، فقد أوضح لنا الأستاذ براون (Prof. E. Browne) السبب الذى استمالهم الى ذلك ، معتمدا على ما ذكره جو بينو (Gobineau) فى هذا الصدد حيث يقول : " إنى أعتقد أن جو بينو قد أصاب فيما قاله ، إن نظرية الحق الالهى وحصرها فى البيت الساسانى كان لها تأثير عظيم فى تاريخ الفرس فى العصور التى تلتها . ولقد جاءت فكرة انتخاب الخليفة متمشية بطبيعتها مع ديمقراطية العرب ؛ غير أنها لا يمكن أن تظهر فى نظر الفرس الا بمظهر ثورى غير مطابق لطبائع الأشياء . أضف الى ذلك ما كان من نزعة السخط والكراهة التى أضمرها هؤلاء الفرس لعمر ، ثانى الخلفاء الراشدين ومقوض دعائم الامبراطورية الفارسية . وإن هذه النزعة وان تسترت بستار الدين ، فلن يفوتَ الباحث تفهم سرها ومراميها . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فان الحسين ، وهو أصغر ولدى فاطمة بنت النبى وعلىّ ابن عمه ، قد قالوا إنه قد تزوج من شهر بانوه ابنة يزدجرد الثالث آخر ملوك آل ساسان . ومن هنا أصبح الأئمة من حزب الشيعة بقسميه (طائفة الاثنى عشرية الشائعة الآن فى بلاد فارس ، وطائفة السبعية أو الاسماعيلية) لا يمثلون حق النبوة فقط ، بل يمثلون الملك أيضا ، لأنهم من سلالة النبى محمد وآل ساسان معا" [٣] .

---

(١) Prof. R Nicholson : Literary History of the Arabs, pp. 271-272

(٢) Dozy : Histoire des Musulmans d'Espagne, vol. I. p. 8 seq.

(٣) Prof. Browne : Literary History of Persia, vol. I. p. 130

من ذلك تولدت هذه النظرية السياسية التى يشير اليها جوبينو فى العبارة الآتية حيث يقول : "كانت هـذه النظرية عقيدة سياسـية غير متنـازع فيهـا عند الفرس ، وهى أن العـلويين وحدهم يملكون حق التـاج ، وذلك بصفتهم المزدوجة ، لكونهم وارثى آل ساسان من جهة أمهم بيبى شهر بانوه ابنة يزدجرد آخر ملوك الفرس ، والأئمة رؤساء هذا الدين حقا"[1] .

كيف سار عبد الله بن ميمون فى تحقيق أغراضه ؟

أظهر عبـد الله بن ميمون القداح ، الذى يرى بعض المؤرخين نسـبة الفاطميين اليه ، الزهد والتقشف ، والعلم والتشيع ؛ فحاز ثقة الناس ونجح فى تأسيس جمعية سرية . ثم أخذ يعـلم الناس أسرار الدعوة التى قسمها الى سبع درجات (وزادت فيما بعد حتى بلغت تسعا فى أيام الفاطميين) ، فكثر أنصاره .

وكان عبـد الله ودعاته يعلمون الناس — كما قدمنا — كلا على قدر عقله ودينه ومذهبه . فكان الداعى يبدأ باظهار بعض مشكلات القرآن ؛ حتى اذا ما طلب الناس منه حل هذه الرموز ، أخذ عليهم العهود والمواثيق بأن يجعلوا هذه الدعوة سرا مكتوما ، ثم طلب منهم أن يدفعوا ضريبة مقررة تساعده على نشر مذهبه .

واذا تم للداعى ما أراد ، دخل بالطالب فى المرحلة الثـانية ؛ ومؤداها أن فرائض الاسـلام لا تؤدى الى مرضاة الله ، إلا اذا كانت عن طريق الأئمة السبعة من ولد اسماعيل بن جعفر الصادق . فاذا وصل الطـالب الى المرحلة الرابعة ، اعتقد أن محمد بن اسماعيل هو خاتم النبيين ؛ ومن تقـدم هـذه المرتبة لا يعلم سوى نظريات فلسفية لا تمت للاسلام بشىء ، حتى يصل به الاعتقاد الى أن محمد بن اسماعيل هو عبد الله بن ميمون ، وأنه بمنزلة هرون من موسى ، أو بمنزلة علىّ من محمد .

اتصـل بالوالى خبر عبـد الله بن ميمون ، فقصده بالسوء ؛ ففر من فارس الى البصرة قبـل سنة ٢٦١ هـ (٨٧٤م) ، وأقام فى أسرة عَقيل بن أبى طالب ، فحامت حوله الشبهات ؛ فرحل الى الشام وأقام فى سلمية حيث ولد له ابن سماه أحمد ؛ فخلفه بعد وفاته .

---

(1) Gobineau : Religion et Philosophie dans l'Asie Centrale, p. 275

ولما مات أحمد هذا ، خلفه فى الدعوة ابنه الحسين ؛ ولكنه مات بعد قليل ، فقام من بعده أخوه محمد المعروف بأبى الشلعلع ، وهو الذى بعث الى بلاد المغرب بأبى عبد الله الشيعى وأخيه أبى العباس اللذين قدمنا خبرهما .

وكان لأحمد بن الحسين ولد اسمه سعيد ، أصبح فى حِجْر عمه بعد وفاة أبيه . وقد اشتهر أمر سعيد هذا بعد وفاة عمه وكثر ماله وأنصاره ، حتى اضطر الخليفة العباسى المعتضد الى التشديد فى طلبه ؛ ففر من سلمية يريد بلاد المغرب عن طريق مصر ، فحبسه أمير سجلماسة — على ما ذكرنا — وظل فى حبسه الى أن أطلقه أبو عبد الله الشيعى وذهب به الى رقادة ، حيث تسمى بالمهدى وتلقب أمير المؤمنين ، وانتسب الى اسماعيل بن جعفر الصادق .

هذا ما ذهب اليه من ينكرون صحة نسب عبيد الله المهدى الى علىّ وفاطمة ، إذ يقولون ان عبيد الله المهدى هو سعيد بن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح بن ديصان الثنوى الأهوازى ، وأصله من المجوس .

وليس هذا كل ما يقوله الذين أنكروا صحة نسب الفاطميين . فقد ذكر أخو محسن أن سعيدا — أو عبيد الله — كان ابن حداد يهودى مجهول ، تزوجت أرملته بعد وفاته بالحسين بن أحمد بن عبد الله ابن ميمون ؛ فتبنى سعيدا ، وأدبه وعلمه أسرار مذهب الاسماعيلية ، وأوصى الدعاة بطاعته ، وزوجه ابنة عمه أبى الشلعلع [١] .

ولقد ذاع قول أخى محسن وأخذ به المؤرخون الذين لا يميلون الى القول بصحة نسب الفاطميين ، مثل أبى بكر الباقلانى [٢] المتوفى سنة ٤٠٣ ﻫ (١٠١٢ م) ، وابن خلكان المتوفى سنة ٦٨١ ﻫ (١٢٨٢ م) ، وابن واصل [٣] المتوفى سنة ٦٩٧ ﻫ (١٢٩٧ م) ، والذهبى المتوفى سنة ٧٤٨ ﻫ (١٣٤٨ م) فى كتابه " تاريخ الاسلام " .

---

(١) المقريزى ، اتعاظ الحنفا (ص ٢١ و ٢٢)

(٢) كتب القاضى أبو بكر الباقلانى كتابا سماه " أسرار الباطنية " ، وهو الكتاب الذى أشار اليه المقريزى (المقفى الكبير ، المكتبة الأهلية بباريس ، مخطوط ٢١٤٤ ، ورقة ١٦٦ ب) . وفى هذا الكتاب حمل الباقلانى على الفاطميين وأنكر صحة نسبهم . وتوفى ، على ماذكره ابن خلكان (ـ ٠ ص ٦٠٩) ، فى بغداد سنة ٤٠٣ ﻫ (١٠١٢ م) .

انظر أيضا أباالفدا (ج ٢ ص ١٥١) ، ووستنفلد (Wüstenfeld : Geschichte der Fatimiden—Chalifen, p. 1),

(٣) ابن واصل : مفرّج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، المكتبة الأهلية بباريس ، مخطوط ١٧٠٢ ، ورقة ٢٣٠ ب — وقد روى أبو المحاسن (المجلد الثانى ج ١ رقم ١ ص ٩٠) بعض ما جاء بكتاب ابن واصل عن هذا الموضوع .

وقد ذكر ابن خلكان أن جماعة من أهل مصر طعنوا فى نسب المعز واتصاله بعلىّ بن أبى طالب ، حتى ان هذا الخليفة لما وصل مصر ، اجتمع به بعض الأشراف وسأله أحدهم ، وهو ابن طَبَاطَبا : "الى من ينتسب مولانا ؟ " فأجابه المعز بأنه سيعقد مجمعا يضم كافة الأشراف ويسرد عليهم نسبه . حتى اذا ما انعقد المجلس فى القصر ، سل المعز سيفه الى النصف وقال : "هذا نسبى" ؛ ثم غمرهم بالذهب الكثير وقال : "وهذا حسبى" .

ومن هنا نشأ القول المأثور "سيف المعز وذهبه" للاشارة الى بطلان الشىء أو أنه مأخوذ كُرْها .

ولقد أنكر دى سلين (De Slane)[1] بالدليل صحة هذه الرواية ؛ لأنه لما وصل المعز مصر سنة ٣٦٢ هـ (٩٧٢ م) كان ابن طباطبا قد مات سنة ٣٤٨ هـ (٩٥٩ م) ، أى قبل أربع عشرة سنة ، على ما ذكره ابن خلكان فى موضع آخر[٢] .

ولقد نقل ابن خلكان أيضا حكاية أخرى تبين لك مبلغ انكار المصريين صحة نسب الفاطميين . ذلك أن العزيز ٣٦٥—٣٨٦ هـ (٩٧٥—٩٩٦ م) صعد المنبر يوم الجمعة فى أوائل أيام خلافته ، فرأى ورقة فيها هذه الأبيات :

إنا سمعنا نسبا منكرا ... يُتْلى على المنبر فى الجامع
إن كنتَ فيما تدعى صادقا ... فاذكر أبا بعد الأب الرابع
وإن تُرد تحقيق ما قلتَه ... فانسُب لنا نفسك كالطائع[٣]
أو فدع الأنساب مستورة ... وادخل بنا فى النسب الواسع
فإنّ أنساب بنى هاشم ... يقصُر عنها طمع الطامع[٤]

وقد روى لنا الثعالبى حكاية أخرى تؤيد هؤلاء المؤرخين إذ يقول إن عبدالرحمن الثالث الأموى الأندلسى تلقى من العزيز كتابا يسبه فيه ويهجوه ، ليس لسبب نعرفه ؛ فكتب إليه عبد الرحمن : "أما بعد ، فقد عرفتنا فهجوتنا ، ولو عرفناك لأجبناك"[٥] .

---

(١) Ibn Khallikân's Biographical Dictionary : English Translation, vol. II. p. 49, n. 7

(٢) ج ١ ص ٣٢٦

(٣) هو الخليفة العباسى ٣٦٣ — ٣٨١ هـ (٩٧٣ — ٩٩١ م) .

(٤) ابن خلكان (ج ٢ ص ٢٠٠) .

(٥) الثعالبى : يتيمة الدهر (ج ١ ص ٢٢٤) .

(ج) أقوال المثبتين لصحة النسب

لقد خالف كثير من الكتّاب والشعراء وغيرهم من ذوى الرأى والجاه من أولاد علىّ بن أبى طالب، ما ذهب اليه من ذكرنا من المؤرخين الذين ينكرون نسب الفاطميين الى علىّ وفاطمة إذ اعترفوا بصحة هذا النسب . فيكون نسب عبيد الله المهدى ، على ما ذهب إليه هؤلاء المؤرخون وغيرهم كما يلى : عبيد الله (أو سعيد) المهدى بن أحمد بن اسماعيل بن محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق[1] .

والآن نأتى بأمثلة صالحة من أقوال الشعراء والكتّاب المعاصرين للفاطميين ، ممن تصدّوا للكلام على هذا الموضوع ؛ فنذكر الشريف الرضىّ العلوى[2] ، وناصرى خسرو[3] الاسماعيلى المذهب المتوفى سنة ٤٨١ هـ ، بل وعمارة اليمنى الشاعر المشهور المتوفى سنة ٥٦٩ هـ ، وكان من غلاة أهل السنة كما سيأتى بيانه فى الباب الرابع عند كلامنا على ما قام به هذا الشاعر فى سبيل تأييد سلطان الفاطميين .

أجل ! لقد طعن كثير من المؤرخين والكتّاب فى نسب مؤسس هذه الأسرة ، مما جعل هذه المسألة من أعقد مسائل تاريخ الشرق وأكثرها غموضا وإبهاما ، لتشعب آراء الكتّاب المعاصرين من العرب على اختلافهم ؛ لأنهم كتبوا متأثرين بسطوة الخلفاء من العباسيين أو من الفاطميين ، ذلك الأمر الذى أدّى بهم الى إيراد هذه الآراء التاريخية المتناقضة .

وقد أشار كترمير (Quatremère) فى كلامه عن أصل الفاطميين بهذه العبارة : " بيد أنه لسوء الحظ ، فان بعد الزمن ، وما ساد العقول من أوهام ، وما تسلط على نفوس الرجال من نزعات وميول ، وما أدلى به المؤرخون من أدلة متناقضة متضاربة : فريق ألف وكتب متأثرا بسلطان الخلفاء العباسيين ، وفريق آخر قام بهذا العمل مجارين أعداء هذه الأسرة — كل ذلك أحاط هذه المسألة بظلام دامس ، لا يستطيع مشعل النقد كشفه إلا بشكل ناقص مبتور " .

---

(١) هناك أقوال كثيرة مختلفة وردت عن نسبة الفاطميين الى اسماعيل بن جعفر ؛ ولا حاجة بنا الى استقصائها هنا .

(٢) أبو الحسن محمد بن علىّ بن أحمد بن الحسين بن موسى بن محمد بن موسى بن ابراهيم بن موسى بن جعفر الصادق .

(٣) كان ناصرى خسرو اسماعيلى المذهب ؛ زار مصر فى القرن الخامس من الهجرة (الحادى عشر الميلادى) . وقد تكلم عن نفسه فقال انه وصل القاهرة فى ٧ صفر سنة ٤٣٩ هـ (١٠٤٧ م) وأقام فيها الى يوم الثلاثاء ١٤ ذى الحجة سنة ٤٤١ هـ (أبريل سنة ١٠٥٠ م) . واعتبر القاهرة — كغيره من الاسماعيلية الغلاة — مركزا لهذا المذهب ، واعتقد أن الخليفة الفاطمى هو الامام حقا . وذكر هذه الحقائق فى كتابه "سفرنامه" الذى سيأتى الاشارة اليه فى الباب الذى يتناول الكلام على ثروة مصر ومبلغ رخائها .

"Mais, par malheur, l'éloignement des temps, les préjugés, les passions des hommes, les témoignages contradictoires des chroniqueurs, dont les uns ont écrit sous l'influence des Khalifes abbassides, d'autres sous celles des ennemis de cette dynastie, ont répandu autour de cette question des ténèbres épaisses, que le flambeau de la critique ne saurait dissiper que d'une manière imparfaite " (1).

و بالرغم من تباين آراء الكتّاب الأقدمين فى هذه المسألة ، فانى أميل الى القول — ولو بشىء من التردّد — الى أن نسب الخلفاء الفاطميين الى فاطمة صحيح ، وأنه بسبب هذا الغلو الذى ساد المعتقدات الفاطمية ، هم مناظروهم يدحضون ما ادّعوه من النسبة الى فاطمة ، عسى أن يحط ذلك من شأنهم فى أعين رعاياهم .

ولا غرو فان التحيز ليظهر ظهورا بينا من ثنايا أقوال الكتّاب من السنيين ، مما يجعل دحضه أمرا ميسورا . ولا بأس من أن نأتى فى هذا الصدد بمثل أو مثلين من هذه الأقوال : فمن ذلك ما ذهب اليه السنيون من أن أبا عبد الله الداعى لما علم بقتل المهدى فى سجنه بسجلماسة ، أجلس على العرش رجلا يهوديا لا حيثية له ، وادّعى أنه الإمام المنتظر . وهنا يتساءل المرء : ما هو الدافع الذى حمل أبا عبد الله الشيعى على عدم إجلاس أبى القاسم بن المهدى بعد وفاة أبيه؟ كما نتساءل أيضا : ألم يجد أبو عبد الله الشيعى من يجلسه من المسلمين مكان عبيد الله حين علم بموته ، وخصوصا بالنسبة لابنه ؟ ولقد كان هناك من العلويين من يصلح لهذا المركز بدلا من ذلك اليهودى الذى لا قيمة له ، والذى لا ندرى كيف عثر عليه بهذه السهولة .

نعم ! لاشك فى أن هذا العمل كان من السهولة بمكان ؛ فضلا عن أنه لم يكن ينطوى تحته إجراء تغيير أو تبديل فى البيعة ؛ لأن حق المهدى يتحوّل بمقتضى قانون الشيعة الى ابنه بصورة طبيعية :

وهناك مثل آخر ، وهو ما سبق أن أشرنا اليه من إحراج ابن طباطبا للمعز بسؤاله عن نسبه ، وما كان من سل المعز سيفه قائلا : "هذا نسبى" ، ونثره الذهب الكثير قائلا : "وهذا حسبى".

هذا مثل من أقوالهم . ونحن نشك فيه كل الشك ، إذا علمنا أنه لما وصل المعز مصر سنة ٣٦٢ هـ كان ابن طباطبا قد مات سنة ٣٤٨ هـ ، أى قبل أربع عشرة سنة من مجيئه .

---

(1) Journal Asiatique, Août, 1836, pp. 101, 102

ولدينا من الحقائق التاريخية ما يؤيد قبول المذهب القائل بصحة نسب الفاطميين الى النبي . فقد ساعد اعتقاد الناس فى صحة هذا النسب على نشر سلطة الفاطميين الروحية والزمنية — أو كليهما — فى كثير من البلاد الاسلامية الى حد أن نجح الفاطميون فى الحصول على اعتراف الناس بهذه السلطة فى أكثر بلاد الدولة العباسية ، دون أن يجدوا معارضة من الرأى العام فى ذلك الوقت .

وبدهى أن الوصول الى اعتراف الناس بأن المهدى وخلفاءه هم الأئمة حقا وانهم يتصلون بالنسب الى فاطمة ، راجع الى ذلك النشاط الذى أبداه دعاة الفاطميين . ذلك أنه بعد تأسيس الدولة الفاطمية فى القيروان بقليل ، ذهب شعراء الأغالبة المتشيعون من أمثال ابن سعدون الورّجيلى[١] إلى القول بصحة هذا النسب ، كما يتبين ذلك من هذه الأبيات التى أنشدها هذا الشاعر فى حضرة المهدى عبيد الله وأبى عبد الله الشيعى داعى دعاته :

هذا أميرُ المؤمنين تضعضعتْ   لقدومه أركانُ كل أمير
هـذا الامامُ الفاطمى ومن به   أمنت مغاربُها من المحذور
يامن تخيَّر من خيار دعاته   أرجاهُمُ للعسر والميسور[٢]

ولم يفتر الخلفاء الفاطميون عن إجزال العطاء للشعراء الذين شادوا بذكرهم وأطنبوا فى أحقيتهم بالإمامة . فليس من عجب إذا " أمر المهدى للشاعر بصلة جزيلة كانت تجرى عليه لكل عام ، ووصله أبو عبد الله أيضا "[٣] .

هذا ، وقد ذكر لنا مسكويه والمقريزى أن نصر بن أحمد السامانى أمير خراسان بعث الى المهدى بكتاب يعترف فيه بسلطته الروحية ويعد بامداده بالرجال ، كما يتبين من هذه العبارة : " أنا فى خمسين ألف مملوك يطيعوننى ، وليس على المهدى بهم كلفة ولا مؤنة ؛ فان أمرنى بالمسير سرت اليه ، ووقفت بسيفى ومنطقتى بين يديه وامتثلت أمره ... ... الخ "[٤] .

أضف الى ما تقدم ما كان من أمر يوسف بن أبى الساج أمير الرى — إذا أخذنا بقول كاتبه محمد بن خلف النيرمانى — فقد فكر فى خلع طاعة الخليفة العباسى المقتدى والدخول

---

(١) يحتمل أن يكون هـذا اللفظ مشتقا من ورْجَلان ، وهى كورة بين شمال إفريقية وبلاد الجريد التى يسكنها قوم من البربر ومجّانه — البكرى (ص ٧٧ و ١٨٢) وياقوت : معجم البلدان — انظر لفظ ورْجلان .

(٢)و(٣)و(٤) المقريزى : كتاب المقفى الكبير — المكتبة الأهلية بباريس . مخطوط ٢١٤٤ ورقة ٢٢٣ أ و ب .

فى طاعة الامام العلوى بالقيروان الذى كان أبو طاهر القرمطى — على ما ذهب اليه ابن أبى الساج — من أصحابه وأنصاره . وقد أورد لنا مسكويه هذه الحكاية بشىء من التفصيل ، ونحا المقريزى فيها منحى الايجاز .

ولقد أخبر ابن أبى الساج — على ماذكره مسكويه[1] — محمد بن خلف ، أنه متى جمع خراج واسط والكوفة وسَقْى الفرات عن سنة ٣١٤ هـ ، شق عصا طاعة الخليفة العباسى وأظهر الدعوة للهدى ، ثم دعا الناس الى الدخول فيما دخل فيه ، وسار الى بغداد . فكتب محمد بن خلف بذلك كله الى نصر الحاجب ، فأوصله الى مسامع الخليفة العباسى .

غير أنه يظهر لنا أن الخليفة لم يقم بأى عمل إزاء هذا الحادث ؛ بل علمنا بالقبض على ابن خلف ومصادرة أمواله ؛ وعلمنا أيضا أن ابن أبى الساج كان يقود الجيوش العباسية ويحارب ضد أبى طاهر بظاهر الكوفة (شوال سنة ٣١٥ هـ) ، وأن الهزيمة حلّت بابن أبى الساج فأُسر ثم انتحر[2] .

وبالرغم من أن عبارة مسكويه لا تدل على أن ابن أبى الساج لم يقم فى هذه الحرب بعمل تشتم منه رائحة العصيان للخليفة العباسى ، فان هذا الأمر لا يحول دون ما نراه ، وهو أنه كان يميل الى الدخول فى دعوة المهدى ، ولكن الفرصة لم تحن بعد لأن يقوم بتحقيق مثل هذا العمل .

أضف الى ماتقدم أن مرداويج بن زيار الديلمى ، أحد قواد الأصفر أمير قزوين ، الذى طرد الأصفر واستولى على بلاده ثم فتح الرى وأصبهان — وكانا من قبل تحت ولاية ابن أبى الساج — قد بعث بالرسل يحملون المال الكثير للهدى فى شمال إفريقية ، وأعلن رغبته فى الدخول فى طاعته .

ولقد أورد لنا المقريزى عبارة موجزة نتبين منها اتجاه ميول هؤلاء الأمراء الى ما ادعاه الفاطميون من حق فى الخلافة ، مما لا يترك مجالا للشك فى أن نسب عبيد الله الى فاطمة كان أمرا معترفا به فى ذلك الوقت ؛ وقد ختم المقريزى عبارته بقوله إن المهدى ظن أن الوقت لم يحن بعد لأن يطلب معونة هؤلاء الأمراء ، فنصح اليهم أن يلزموا مراكزهم ، كما يظهر ذلك من هذه الكلمات التى كتبها المهدى بيده ، نذكرها فى عبارة المقريزى وهى :

---

(١) (ج ١ ص ١٦٧ — ١٦٨) .

(٢) (ج ١ ص ١٧٣ وما يتبعها) .

وبعث اليه نصر بن أحمد أمير خراسان يقول : أنا فى خمسين ألفا يطيعوننى ... ... وكتب أليه مرداويج الجبلى بمثل ذلك . وكتب اليه يوسف بن أبى الساج ... ... وأنفذوا رسلهم مع الأموال إليه ؛ فوقع على ظهر كتبهم : " الزموا مراكزكم (لكل أجل كتاب) "[1] .

أجل ! لقد بلغ نفوذ دعاة الفاطميين فى بلاد الدولة العباسـية مبلغا عظيما ؛ كما كان للعلاقات الودية التى سادت بين الفاطميين والقرامطة فى هَجَر فى أيامها الأولى أكبر الأثر فى جذب كثيرين الى اعتناق مذهب الاسماعيلية فى بلاد الدولة العباسـية . يدلك على صحة ذلك هـذا الحـديث الذى دار بين علىّ بن عيسى وزير القـائم العباسى ، ورجل من شيراز نمى الى الوزير أنه كان يتجسس لقرامطة البحرين ويكاتبهم . وقـد دار الحديث فى حضرة الوزير والقاضى والقواد ؛ وناظر هـذا الشيرازى الوزير فى هذه الكلمات التى ننقلها بنصها عن مسكويه :

" أنا صاحب أبى طاهر (القرمطى) ؛ وما صحبته الا لأنه (فى الأصل على أنه) على حق ، وأنت وأصحابك ومن (فى الأصل وما) يتبعكم كفار مبطلون ؛ ولا بد لله فى أرضـه من حجة وإمام عدل ؛ وإمامنا المهدى فلان بن اسماعيل بن جعفر الصادق ؛ ولسنا (فى الأصل وليس نحن) مثل الرافضة الحمق الذين يدعون الى غائب منتظر "[2] .

أما الطريقة التى لاقى بها هذا الرجل حتفه ، فاننا نتركها لخيال القارئ .

ويعلق بعض المؤرخين أهمية كبـيرة على قصـيدة الشريف الرضى ؛ إذ أثارت حنق الخليفـة القـادر ، وأدت الى عقد اجتماع الفقهاء وأقطاب العلويين ، وكتب فيه محضر (فى ربيع الثـانى سـنة ٤٠٢ هـ — ١٠١١ م)[3] طعن فيه المجتمعون فى نسب الفاطميين ، وكانوا فى هذا الأمر مدفوعين بعوامل الخوف أو منساقين بميولهم وعدائهم لهذا المذهب . وقد تلا هـذا المحضرَ محضر آخر يمـاثله كتب فى سنة ٤٤٤ هـ (١٠٥٢ م)[4] .

وهـذه القصيدة وان لم تظهر فى ديوان الرضى بادئ الأمر ، فإن تناقل الكتّاب لهـا على اختلافهم يدل على ثبوت نسبتها الى الرضى .

---

(١) سورة ١٣ آية ٣٨

المقريزى : المقفى الكبير — المكتبة الأهلية بباريس . مخطوط ٢١٤٤ ورقة ٢٢٣ ب .

(٢) مسكويه (ج١ ص ١٨١) .

(٣) أبو الفدا (ج ٢ ص ١٥٠) وأبو المحاسن — المجلد الثانى (ج ٢ رقم ١ ص ١١٢ و ١١٣) .

(٤) أبو المحاسن . المجلد الثانى (ج ١ ص ٢١٣ — ٢١٤) .

وقد نقل المقريزى[١] عن هلال الصابئ وابنه محمد ، أن الرضى لم يودع ديوانه هـذه القصيدة خوفا من الخليفة العباسى و إرضاء لأبيـه . أضف الى ماتقدم ما كان من امتنـاع الرضى عن إنكار نسبة هذه القصيدة إليه ، ومماطلته فى التوقيع على المحضر حين طلب منه التوقيع . كل هذه حقائق تاريخية لهـا قيمة عظيمة من حيث اثبات صحة نسبة هذه القصيدة الى الرضى .

هذا إلى أن صرف الرضى عن النظر فى المظالم ونقابة العلويين و إمارة الحج[٢] ، وما كان أيضا من إجماع كثيرين من المؤرخين على نسبة هذه القصيدة اليه — كل ذلك يدحض قول البعض من أن هذه القصيدة التى نسبت الى الرضى لم تكن من نظمه . ولا بأس من إيراد بعض أبيات من هـذه القصيدة :

ما مُقامى على الهوان وعندى	مقولٌ صـارم وأنف حمىٌّ
أحمل الضيمَ فى بلاد الأعادى	و بمصرَ الخليفـةُ العـلوى
من أبوه أبى ومولاه مولا	ى إذا ضامنى البعيد القصى
لف عرقى بعرقه سيدا النا	س جميعـا محمـدٌ وعلىٌّ [٣]

ولا يزال هناك فريق آخر من المؤرخين غير من ذكرنا ، لا يتردد فى القول بأن دعوى الفاطميين النسب الى علىّ قائمة على أساس متين . نذكر من بين هؤلاء ابن الأثير المتوفى سـنة ٦٣٠ هـ (١٢٣٤ م) ، وابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨ هـ (١٤٠٥ م) ، والمقريزى المتوفى سنة ٨٤٥ هـ (١٤٤١ م) .

أ . ابن الأثير فإنه يجعل لقصيدة الرضى أهمية كبيرة . هذا إلى ما كان من امتناعه عن انكار نظمها ، ومن توقيعه على المحضر الذى طعن فى نسب الفاطميين ، وصرفه عن المناصب التى تقلدها من قبل الخليفة العباسى . و زاد ابن الأثير هـذه المسألة بيانا فقال إنه ناقش مسألة هـذا النسب مع جماعة من العلويين العالمين بالأنساب ، فلم يرتابوا فى أن الفاطميين من أولاد علىّ[٤] .

---

(١) اتعاظ الحنفا (ص ١٦) .

(٢) المقريزى ، اتعاظ الحنفا (ص ١٥ و ١٦) نقلا عن هلال الصابئ .

(٣) ديوان الشريف الرضى (ص ٩٧٢ و ٩٧٣) . نقل هذه القصيدة من المؤرخين ابن الأثير (ج ٨ ص ٨ و ٩) ، والمقريزى (اتعاظ الحنفا ص ١٦) وغيرهما .

(٤) ابن الأثير (ج ٨ ص ٨ و ٩) .

وأما ابن خلدون ، وهو من المتعصبين لمذهب الشيعة ، فقد دحض فى "مقدمته" هذه الأقوال التى أنكر فيها المؤرخون والكتاب صحة هذا النسب حيث يقول : "ومن الأخبار الواهية ما يذهب اليه الكثيرون من المؤرخين والأثبات فى العبيديين خلفاء الشيعة بالقيروان والقاهرة ، من نفيهم عن أهل البيت صلوات الله عليهم ، والطعن فى نسبهم الى اسماعيل الامام بن جعفر الصادق ؛ يعتمدون فى ذلك على أحاديث لفقت للمستضعفين من خلفاء بنى العباس ، تزلفا اليهم بالقدح فيمن ناصبهم ، وتفننا فى الشماتة بعدوهم ... ويغفلون عن التفطن لشواهد الواقعات وأدلة الأحوال التى اقتضت خلاف ذلك ، من تكذيب دعواهم والرد عليهم ؛ فانهم متفقون فى حديثهم عن مبدأ دولة الشيعة أن أبا عبد الله المحتسب لما دعا بكتامة للرضى من آل محمد ، واشتهر خبره وعُلم تحويمه على عبيد الله المهدى وابنه أبى القاسم ، خشيا على أنفسهما ، فهربا من المشرق محل الخلافة واجتازا مصر ، وأنهما خرجا من الاسكندرية فى زى التجار ... الخ"[1] .

أما المقريزى ، وهو ممن ينتسبون الى الفاطميين أيضا ، فقد شدد النكير على ما كتبه الكتاب الذين لا يميلون الى القول بصحة هذا النسب ، بنفس هذه الروح التى سادت أقوال ابن خلدون ؛ حتى إننا اذا وازنا بين عبارتى هذين الرجلين ، تبين لنا أن المقريزى[2] نقل جزءا غير قليل مما كتبه ابن خلدون.

أما وقد أوردنا شيئا غير قليل عما قيل فى نسب الفاطميين ، فانه يجدر بنا ألا نغض الطرف عن عبارات ثلاث أمدنا بها المقريزى فى مخطوطه "المقفى الكبير" نقلا عن اثنين من الكتاب المعاصرين للفاطميين : هما أبو حنيفة النعمان المغربى المتوفى سنة ٣٦٣ هـ ، وقاضى قضاة الخليفة المعز والثقة فى قوانين الاسماعيلية ، والمُسَبِّحى المتوفى سنة ٤٢٠ هـ ، وهو أيضا حجة فى تاريخ الصدر الأول من أيام الفاطميين ، ذلك التاريخ الذى لعبت به يد الدهر ، ولم يصل الى أيدينا منه شىء ، اللهم الا هذه الشذرات التى نقلها عنه ابن منجب وابن ميسر ، وابن خلكان والمقريزى ، وأبو المحاسن وغيرهم .

هذا ، وتنحصر أهمية هذه الوثائق التاريخية فى اثبات شخصية عبيد الله ، وأنه المهدى من آل على ، الأمر الذى أيده الدعاة الذين كان يلقاهم عبيد الله أنّى سار ؛ كما نقف منها على أن عبيد الله هذا بث معتقدات مذهبه فى طى الخفاء ، ليأمن على نفسه القبض والحبس .

---

(١) مقدمة ابن خلدون (ص ٢١)

(٢) خطط (ج ١ ص ٣٤٨ — ٣٤٩) ، واتعاظ الحنفا (ص ٢٤ — ٢٦)

وقد أورد لنا أبو حنيفة النعمان المغربى حكاية نقلها عن أبى القاسم الحسن بن أبى الفرج ابن حوشب ، الذى صار فيما بعد داعيا للدعاة من قبل عبيد الله فى اليمن . وكان ابن حوشب هذا ممن يعتقدون أن ظهور المهدى قد آن أوانه ؛ فذكر ماقاله الفهرى[١] أحد الشعراء فى هذا الصدد .

واستطرد أبو حنيفة فى كلامه عن ابن حوشب حيث يقول : "فخرجت الى دجلة ، ثم أخذت فى قراءة سورة الكهف[٢] ؛ فأقبل شيخ يمشى معه رجل ما نظرت الى أحد يملأ قلبى هيبة قبله ؛ فجلس ناحية ، وجلس الرجل بين يديه . وأقبل غلام فقرب منى ، فقلت : من أنت ؟ فقال حَسَنِّى (؟) ، فاستعبرت وقلت : بأبى الحسين المضرج (المدرج فى الأصل) بالدماء الممنوع من هذا الماء ! فرأيت الشيخ ينظر الىّ ، وكلم الرجل الذى بين يديه ، فقال لى الرجل : تقدّم الينا ! فقمت وجلست بين يديه" .

بعد ذلك يقص علينا ابن حوشب الحديث الذى دار بينه وبين هذا الرجل الطاعن فى السن ؛ ثم يستطرد فى الكلام فيبين لنا مبلغ حديث هذا الرجل من نفسه ، وما لاحظه عليه من رجاحة العقل ؛ ويصف لنا ذلك اليأس الذى تطرق الى نفسه لجهله المكان الذى رحل اليه . وبينا ابن حوشب مطرق يفكر ، إذ انقشعت غياهب الأسى عن نفسه حين حضر الرجل الذى كان فى صحبة الامام وأخبره بمقره .

ويصف لنا بعد ذلك أيضا ابن حوشب ما كان من التقائه بمحمد الحبيب[٣] والد عبيد الله المهدى ، وعهده إليه فى سنة ٢٦٨ هـ (٨٨١ م) باقامة الدعوة له فى بلاد اليمن[٤] .

---

(١) ذكر المقريزى (المقفى الكبير — المكتبة الأهلية بباريس . مخطوط ٢١٤٤ ورقة ٢١٢ ب) أنه أثر عن علىّ بن محمد بن على بن موسى الكاظم أنه قال فى سنة ٢٥٢ هـ (٨٦٨ م) ان المهدى سيظهر بعد اثنين وأربعين سنة ، أى سنة ٢٩٦ هـ (٩٠٨ م) ؛ فعبر الفهرى عن هذا التصريح بأسلوب شعرى ، حيث قال فى قصيدة نقل منها هذه الأبيات :

ألا ياشيعةَ الحق ذوى الايمان والبر
ومن هم نُصرة الله على التخويف والزجر
فعند الست والتسعين قَطْعُ القول فى العذر
لأمرٍ ما يقول النا س بيع الدر بالبعر

نقل هذه الأبيات مسيو كترمير ، ونشرتها المجلة الأسيوية الفرنسوية فى عدد أغسطس سنة ١٨٣٦ : (Quatremère : Journal Asiatique, Août, 1836, pp. 123—131)

(٢) القرآن الكريم سورة ١٨

(٣) هذا الشيخ هو محمد الحبيب على ما ذكره ابن خلدون (ج ٤ ص ٣١) . أنظر الفصل السابع من الباب الأول من هذا الكتاب .

(٤) المقريزى : المقفى الكبير ، المكتبة الأهلية بباريس . مخطوط ٢١٤٤ ، ورقة ٢١٢ أ — ٢١٣ ب .

وإذا جاز لنا أن نأخذ بعبارة أبى حنيفة النعمان المغربى ، رأينا أن شخصية الإمام كانت ثابتة معروفة لدى أخصائه المقربين إليه ، وأن مكان إقامته كان على الدوام سرا لا يعلم به إلا أنصاره ، لما كان من تشدد الخلفاء العباسيين فى طلبه والقبض عليه .

ومما هو جدير بالملاحظة أن مسألة مقابلة الإمام مع ابن حوشب ، التى كانت على ما ذهب إليه أبو حنيفة قبل سنة ٢٦٨ هـ (وقد تقابلا لأول مرة فى سنة ٢٦٦ هـ) — وهى السنة التى تعين فيها ابن حوشب داعيا للدعاة فى اليمن — مسألة يحوطها الشك ، إذا كان عبيد الله هذا هو الإمام والمهدى حقا .

ومما لا نشك فيه أن ولادة المهدى كانت فى سنة ٢٥٩ هـ (أو ٢٦٠ هـ) ؛ فلم يكن قد بلغ العاشرة من العمر حين المقابلة لأول مرة . وإذا جاز لنا أيضا أن نجزم بصحة هذه الحكاية ، فان التفسير الذى يمكن أن نفسر به هذه المسألة ، هو أن هذا الرجل المسن هو محمد الحبيب أبو المهدى ، وأن هذا الصبى هو من أولاد الحسين والمهدى نفسه . ومن الواضح الجلى أن هذه الحكاية لا بد أن يكون قد دخل عليها شىء من التحوير والتبديل منذ وقع هذا الحادث إلى يومنا هذا .

وهنا نذكر أيضا ما رواه لنا المقريزى عما ذكره المسبحى فى حادث آخر، نتبين منه كيف أن نسب المهدى عبيد الله كان أمرا لم ينازع فيه أحد من دعاة الفاطميين وغيرهم من عِلْية القوم فى مصر ؛ وكان بين هؤلاء طائفة من بلاط الأخشيد ؛ كما نتبين أيضا أن رجال البلاط هؤلاء قدموا للمهدى كل ما استطاعوا من معونة ، لا لشىء سوى أنه من أولاد علىّ .

وبعد أن يقص علينا المسبحى قصته عن وصول عبيد الله إلى مصر ورحيله عنها مختفيا فى زى التجار[1] ، يروى لنا حكاية أخرى نقلها عن أحد أحفاد أبى علىّ الداعى[2] الذى صحب المهدى أثناء مقامه فى مصر ننقلها للقارئ فيما يلى :

" وأخبرنى .... بن محمد بن أبى علىّ الداعى أن الامام المهدى صلى يوما الصبح فى الجامع العتيق بمصر تحت اللوح الأخضر ومعه أبو علىّ الداعى . فلما خرجا من الباب ، ضرب رجل بيده على كم الامام وقال له : قد حصلت لى عشرة آلاف دينار . فقال له : وكيف ذلك ؟ قال : لأنك

---

(١) المقريزى : المقفى الكبير ، المكتبة الأهلية بباريس . مخطوط ٢١٤٤ ، ورقة ٢١٩ ب .

(٢) إذا صحت سلسلة هذا النسب ، فان اسم حفيد أبى علىّ الداعى يكون على هذا الوجه : مبارك بن علىّ بن محمود — رسائل الحاكم بأمر الله ، المكتبة الملكية بالقاهرة . مخطوط (كتب الشيعة ٢٠) ورقة ١٢ ب .

الرجل المطلوب ؛ فضحك المهدى ، ثم ضرب بيده إلى الرجل الذى ضرب بيده إلى كمه ، ودخل معه إلى صدر الجامع وقال له : عليك عهد الله وغليظ ميثاقه انى إذا جمعت بينك و بين الرجل الذى تطلبه ، كان لى عليك ولصديق هذا خمسة آلاف دينار . ثم أخذ بيده وأتى به إلى حلقة قد اجتمع الناس فيها ، وأدخله من جانبها وفارقه ؛ فخرج من الجانب الآخر ، ولم يلتقيا إلى هذه الساعة". [1]

هـذا ، و يقص علينا المسبحى حكاية أخرى نقلهـا عن هـذا الداعى نفسه ، ننقلها للقارئ أيضا ، قال : "وكنت يوما قائما على الجسر بمصر مع الامام المهدى ، إلى أن سمعت الجرس والنداء عليـه : ألا برئت الذمة من رجل أوى رجلا صـفته كذا وكذا ، ونعتـه كذا — ووصف صفة المهدى — ومن أتى به فله عشرة آلاف دينار حلا لا طيبا . فقال [المهدى] : يا أبا على ! المقـام بعد هـذا عجز ، ثم ركب الجسر ؛ وسرت معه وسألته أن أرحـل معه إلى بلاد المغرب ، فقال : على من أدع ، من لى ههنا ؟ فبكيت ، فأنشدنى شعر امرئ القيس :

بكى صاحبى لمـا رأى الدربَ دونه وأيقن أنَّا لاحقان بقيصرا

فقلتُ له : لا تَبْـكِ عينك إنمـا نحـاولُ ملكا أو نمـوت فنعذرا"

ولسنا نشك فى صحة هاتين العبارتين الأخيرتين اللتين أوردهما لنا المسبحى ؛ إذ يحتمل أن يكون حفيد أبى عبد الله الداعى ، الذى نقل عنه المسـبحى ، قد سمع عن هـذا الحادث من جده نفسه أو من أبيه الذى عاش بعد وقوعه بزمن قصير .

ولا نستطيع الجزم بأن هذه الحقائق التى أوردناها قد حلت مسألة نسب الفاطميين وأظهرت أنه يرجع إلى علىّ وفاطمة . لكنه لمـا كان من واجبنا أن نزود الموضوع الذى تصدينا للكلام عليه بحقائق جديدة ، فقد حاولنا جهدنا . ولا شك فى أن هذه العبارات قد ألقت قبسا من النور على نسب الفـاطميين ، ممـا يجعل استقصاء هـذا الموضوع أكثر سهولة على من يميلون لزيادة استقصائه .

ولم يصل المؤرخون بعد إلى رأى قاطع عن نسب الفاطميين إلى اسماعيل بن جعفر الصادق ، أو إلى ابن ميمون القداح . على أنه بالرغم من أن تعاليم هذين الحزبين متشابهة من كثير من الوجوه ، فإن انفصال هاتين الطائفتين بعضهما عن بعض ، والعداء الذى تجلى فى هذه الحروب التى نشبت بينهما ، ممـا يحمل على الظن أن القرامطة إنما مالوا إلى الاسماعيلية وعطفوا على مذهبهم لأغراض سياسـية .

---

(١) المقريزى — المقفى الكبير — المكتبة الأهلية بباريس . مخطوط ٢١٤٤ ، ورقة ٢١٨ ب وما يتبعها .

٢ ـ أهمية مصر للدعوة الشيعية

(١) موقع مصر الجغرافى بين الشرق والغرب

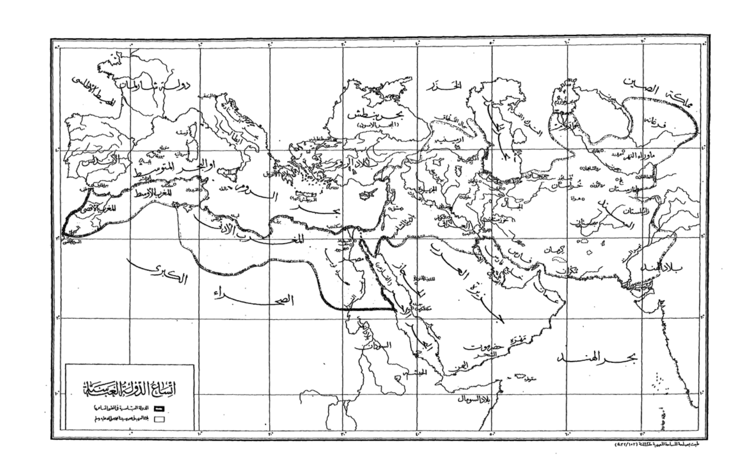
كانت السنوات الثلاث الأولى من خلافة المهدى عهد نزاع ومشاكل متوالية ، أتيح له فيها القضاء عليها بما أوتيه من نشاط وهمة . وبموت أبى عبد الله الشيعى أصبح المهدى الحاكم المطلق لكافة أرجاء بلاد المغرب .

لم يكتف بشمال إفريقية الخلفاء الفاطميون الذين كانت مجهوداتهم فى سلمية موجهة إلى إقامة خلافة علوية على أطلال الخلافة العباسية ، كما فعل العباسيون مع الأمويين . وإنما كان اختيارهم لتلك البلاد راجعا — كما أسلفنا — إلى بعدها عن مركز الخلافة فى بغداد ، ولميل البربر لإذكاء نار الثورة على الأسرة الحاكمة فى بلادهم ، ولضعف هذه الأسرة الحاكمة نفسها .

نعم ! لقد وجه الفاطميون عنايتهم لهذا الجزء من أجزاء الامبراطورية العباسية ، حين أصبحت الجهود التى بذلوها لاقامة خلافة علوية فى آسيا قاب قوسين أو أدنى من الفشل . ولا غرو فقد كان هذا هو السبب الحقيق الذى تذرع به المطالبون بالخلافة من العلويين ، الذين كانوا يودعون غياهب السجون أو كان القتل مصيرهم إذا انكشف أمرهم ، مما حدا بهم إلى الاستتار وتفويض إقامة الدعوة لهم إلى دعاة مهمتهم جذب الناس لهذه الدعوة ، بل وإخفاء أسمائهم الحقيقية تحت ألفاظ أخرى ، من أمثال المهدى والمكتوم وغيرهما ، ليدرءوا بذلك عن أنفسهم سخط العباسيين وحنقهم .

من هنا يعلم أن بلاد المغرب كانت ميدانا أصلح من آسيا لنجاح الدعوة الفاطمية . بيد أن القيروان أو المهدية لم تكن لتصلح أن تكون حاضرة للامبراطورية الفاطمية ، لما يستدعيه اتخاذ الحاضرة فى موضع يسهل معه التواصل مع الولايات الخاضعة لسلطانها .

ولهذا لا نعجب إذا رأينا المهدى يضع الخطط لغزو مصر على أثر تأسيس خلافته فى القيروان ، بالرغم من أن سلطان العلويين لم يكن قد توطد فى كافة ارجاء بلاد المغرب قبل سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩ م)



اتساع الدولة العباسية
الدولة العباسية في أقصى اتساعها
دولة شارلمان
المحيط الأطلسي
الأندلس
المغرب الأقصى
المغرب الأوسط
المغرب الأدنى
البحر المتوسط
بحر الروم
الصحراء
الكبرى
مصر
السودان
الحبشة
بلاد السومال
بحر بنطش
(البحر الأسود)
الخزر
أرمينية
بلاد الروم
العراق
الجبال
فارس
كرمان
خراسان
ما وراء النهر
فرغانة
مملكة الصين
بلاد الهند
بحر الهند
حضرموت
مهرة
اليمن

— وهى السنة التى استولوا فيها على مصر — ولا غرو فان فكرة غزو هـذه البلاد قد توارثها الخلفاء الفاطميون بعضهم عن بعض .

عنى الخلفاء الفاطميون عناية خاصة بامتلاك مصر ، لما لموقعها من عظيم الأهمية سياسيا وحربيا ؛ خصوصا وأن ولاة هذه البلاد كانت اليهم ولاية الشام والحجاز . فكان امتلاك مصر امتلاكا لهذين البلدين العظيمين ، وتأسيس نفوذ الفاطميين ، السياسى والدينى ، فى ثلاثة من المراكز الاسلامية الكبيرة وهى : الفسطاط والمدينة ودمشق .

أجل ! إن تحقيق هذا المطمع الذى قصد اليه أول الخلفاء الفاطميين معناه تمهيد الطريق لتهديد بغداد نفسها ، حاضرة الامبراطورية العباسية فى ذلك الحين .

هذا ، ونستطيع أن نشير من بين المصادر التى عولنا عليها فى بحث هذا العصر من عصور تاريخ مصر ، الى ما كتبه الطبرى وأويتخا وعريب بن سعد ومسكويه .

أما تاريخ الطبرى الذى ينتهى إلى سنة ٣٠٢ هـ ، فانه يقتصر على الكلام عن الخطوة الأولى التى خطاها المهدى فى سبيل تحقيق هذه الفكرة الجريئة التى كانت ترمى إلى غزو مصر . وأما "صلة تاريخ الطبرى" لعريب بن سعد ، فقد تناولت الكلام على هذه الحملات بشىء من الاسهاب . ويلوح لنا أن مسكويه استطاع أن يحصل على معلومات أوفى من تلك عن هذه الحملات . أما أويتخا والكندى ، وهما مصريا المولد والدار وأقدم هؤلاء المؤرخين بعد الطبرى ، فقد أمدنا كل منهما بمعلومات أكثر تفصيلا وإسهابا عن هذا الموضوع .

فى سنة ٣٠١ هـ (٩١٣ م) جيش المهدى جيشا من المغاربة تحت إمرة ابنه وولى عهده أبى القاسم ، وحباسة بن يوسف[1] ، وهو من زعماء كتامة . ويظهر لنا أن حباسة هذا قد اضطلع بجميع أعباء هذه الحملة . تقدم هذا الجيش نحو الاسكندرية ، فاستولى فى طريقه على برقة ،[2]

---

(١) ذكر الطبرى (٣ : ٢٢٩١ و ٢٢٩٢) أن هذا الجيش كان تحت قيادة حباسة . وخالفه فى ذلك عريب بن سعد (ص ٥٢) فقال إن أبا القاسم كان على رأس جيش المغاربة الذى دخل الاسكندرية فى سنة ٣٠١ هـ ؛ وهناك ألقى كثيرا من الخطب ، لا يبعد أنه تلمس من ورائها الحصول على معونة المصريين . وقد قرأ عريب نفسه نص هذه الخطب ، وأحجم ، على ما يقوله لنا ، عن ايداعها تاريخه ، لما فيها من مبالغة تؤدى إلى إفساد العقائد الدينية . أما الكندى (ص ٢٦٩) فلم يرد فى كتابه ذكر البتة عن انضمام أبى القاسم الى هذه الحملة مطلقا ؛ ويتكلم عن حباسة بصفته قائد الجيوش الفاطمية . وذكر أويتخا (ص ١١٠) أن أبا القاسم بعث به الخليفة على رأس المدد الذى لحق بحباسة بعد استيلائه على الاسكندرية والفيوم . ويخالفه فى ذلك ابن خلكان (ج ٢ ص ٣٥) والمقريزى (اتعاظ ص ٤١) حيث تكلما عن أبى القاسم باعتباره قائد هذه الجيوش من بعد مسيرها من برقه .

(٢) فى ذى الحجة سنة ٣٠١ هـ ، على ما رواه المقريزى ، اتعاظ الحنفا (ص ٤١) ، والخطط (ج ١ ص ٣٢٧) .

ثم واصل السير حتى دخل الاسكندرية واستولى عليها ؛ ومن ثم سار الى الوجه البحرى .[١]
فلما علم المقتدر العباسى بذلك ، بعث مؤنسا الخادم على رأس جيش كبير قيل إنه بلغ أربعين ألفا[٢] . وفى مدينة مشتول القريبة من الجيزة التحم الفريقان فى القتال ، فحلت الهزيمة بجيش حباسه[٣] ؛ فأرغم على العودة الى بلاد المغرب حيث قتله الخليفة الفاطمى على أثر رجوعه[٤].

على أن أهمية هذه الغزوة تنحصر فى أمر تجب ملاحظته ، وهو أنه كان فى مصر فى ذلك الوقت كثيرون يعطفون على الدعوة الفاطمية . وقد وعدوا بنصرة الفاطميين ؛ يدلك على صحة هذا ما ذكره الكندى من أن جماعة من المصريين كاتبوا الفاطميين ودفعوهم إلى غزو مصر . وإلى هذا يشير ابن مهران أحد شعراء مصر المعاصرين لهذه الحوادث فى هذه الأبيات :

وأقبل[٥] جاهلا حتى تخطّى ... وجاز بجهله حدَّ التخطى
بكُتْب جماعةٍ قد كاتبوه ... مِنَ اقْباطٍ بمصرَ وغيرِ قبطى
وكلٌّ كاتبوه ونافقونا ... وكل فى البلاد له مُوَطِّى[٦]

ولقد حاول ذُكا[٧] (٣٠٣—٣٠٧ هـ) والى مصر الجديد ، الذى دخل هذه البلاد فى ١٢ صفر سنة ٣٠٣ ، أن يضع حدا للأعمال التى قام بها الموالون للفاطميين ؛ فتتبع كل من رمى منهم بمراسلة الفاطميين ؛ فسجن منهم كثيرين وقطع أيدى بعضهم وأرجلهم ، وجلا أهل لوبية ومراقية الى الاسكندرية خوفا من غزو الفاطميين بلادهم[٨] .

---

(١) الكندى (ص ٢٦٨)

(٢) هذا التقدير أتى به مسكويه (ج١ ص٣٦) . أما أوتيخا (ص ٦٠) فقد ذكر أن هذا الجيش بلغ مائة ألف من الأشداء .

(٣) الكندى (ص ٢٧٠)

(٤) الطبرى (٢ : ٢٢٩٣) ، وعريب بن سعد (ص٥٣)

(٥) الضمير يعود على حباسه الذى ذكر اسمه فى البيت الثانى من هذه القصيدة (الكندى ص ٢٧٢) .

(٦) الكندى (ص ٢٧٦)

(٧) ذكر ناشر كتاب الولاة للكندى (ص ٢٧٣) ، حاشية ٢ ، أن هذا الاسم ضبط فى الأصل بالفتح ، وهو فى بعض الكتب بالضم (راجع صلة تاريخ الطبرى لعريب بن سعد ص ٥٣) . وقد ذكره ستانلى لين بول فى كتابه "تاريخ مصر فى العصور الوسطى" (Stanley Lane-Poole: History of Egypt in the Middle Ages, p. 80) بالضم ، وأطلق عليه ذكا الرومى ، وزاد أن اسمه بالأغريقية دوكاس (Ducas)

(٨) الكندى (ص ٢٧٤)

وفى سنة ٣٠٧ هـ (٩١٩ م) سار الى مصر جيش كثيف تحت قيادة أبى القاسم بن المهدى ؛ فاستولى على الاسكندرية[١] ، ثم سار الى الجيزة . وفى جمادى الآخرة[٢] من السنة نفسها وقعت موقعة كبيرة بين جند الفاطميين وأهل مصر ؛ وكانت خسائر كل من الفريقين فيها أربعة آلاف[٣] ؛ فأرسل الخليفة مؤنسا الى مصر ثانية[٤] . فلما وصل كان الفاطميون قد استولوا على الأشمونين والفيوم. ومع هذا فان الهزيمة قد لحقت بجند الفاطميين كما لحقت بهم فى المرة السابقة[٥] ، وأحرق كثير من مراكب المهدى[٦] ، وقتل وأسر معظم جندها وقوادها[٧] .

وقد دوّن عريب إحدى هذه القصائد التى وجه بها أبو القاسم لأهل مصر ؛ وفيها شاد بذكر بيته والبلاد التى فتحها . وأرسلت نسخ من هذه القصيدة الى الخليفة العباسى المقتدر ؛ فأمر الصولى[٨] الشاعر المشهور بأن ينظم قصيدة أخرى يرد بها على أبى القاسم ويدحض قوله ؛ فقام الصولى بما أمر به ؛ ونظم قصيدة على وزنها ورويها ، وفى أحد أبياتها يقول :

ولو كانت الدنيا مطيةَ راكبٍ[٩] لكان لكم منها بما حزتم الذَّنَبُ

(١) كان ذلك فى صفر سنة ٣٠٧ ، على ما ذكره الكندى (ص ٢٧٥) .

(٢) ذكر الكندى (ص ٢٧٦) ٤ جمادى الآخرة . ويخالفه فى ذلك عريب بن سعد (ص ٨٠) حيث يقول ان هذه الواقعة دارت رحاها فى الخامس من هذا الشهر .

(٣) ذكر عريب بن سعد (ص ٧٩) هذا العدد . وقال الكندى (ص ٢٧٧) ان هذه الموقعة وقعت فى الجيزة ، وكان من أثرها أن أرسل مؤنس الى مصر .

(٤) دخل مؤنس مصر — على ما ذكره الكندى (ص ٢٧٧) — فى ٥ محرم سنة ٣٠٨ هـ .

(٥) الكندى (ص ٢٧٧ و ٢٧٨) وعريب بن سعد (ص ٨٠ — ٨٦) .

(٦) يقول أوتيجا (ص ٨٠) إن عدد المراكب مائة . ويخالفه فى ذلك ابن الأثير (ج ٨ ص ٣٩) وابن خلدون (ج ٣ ص ٣٧١) والمقريزى (اتعاظ ص ٤٣) فيقولون إن عدد المراكب بلغ ثمانين . ويقول الكندى (ص ٢٧٦) ان هذه الموقعة وقعت فى العشرين من شوال سنة ٣٠٧ هـ .

(٧) عاد أبو القاسم مع الفالة فى صفر سنة ٣٠٩ . عريب بن سعد (ص ٨٦) .

(٨) من أحفاد ابراهيم الصولى الشاعر المتوفى سنة ٢٤٣ هـ . انظر ابن خلكان (ج ١ ص ١١ — ١٣)

(٩) نقل عريب بن سعد (ص ٨٣) هذا البيت . أما المقريزى (اتعاظ ص ٤٢) فقد ذكر لنا عند كلامه على غزو مصر على يد الفاطميين فى سنتى ٣٠١ و ٣٠٢ ، أن أبا القاسم نظم قصيدته فى بلاد المغرب ، وأن هذا البيت من قصيدة الصولى حرك همة أبى القاسم وشغفه بفتح هذه البلاد حيث قال : "والله لا أزال حتى أملك صدر هذا الطائر ورأسه ان قدرت ، والا أهلك دونه" .

أما الدنيا فقد شبهها الصولى — على ما ذكره المقريزى — بطائر ، وبمطية الركوب ، كما جاء فى هذا البيت الذى دوّنه عريب بن سعد . ولامشاحة فى صحة هذا القول ، لأن الصولى قصد من ذلك أن يقلل من شأن ما فتحه أبو القاسم من =

ويظهر أن غزوة الفاطميين الثانية لمصر (٣٠٧ — ٣٠٩ هـ) قد أوقعت شيئا غير قليل من الرعب والهلع فى حاضرة الخلافة العباسية ، وفى نفوس الموظفين فى مصر ؛ يتجلى ذلك من الحديث الذى دار بين الوزير ابن الفرات وعلىّ بن عيسى ، وكان يتقلد أعمال الدواوين .

وقد روى مسكويه هذا الحديث بمناسبة كلامه على المادَرائيين الذين اتهموا باختلاس أموال الخراج عن مصر والشام ؛ وكان ابن بِسطام (سلف المادرائيين) قد جمع مليونين وثلثمائة ألف دينار ، ولم يدفع المادرائيون سوى خمسمائة ألف . وأخذ على رئيس هذا الديوان أنه لم يستوف بقية الخراج ، وكان قد أخذ على نفسه عهدا بأن يقوم فى المستقبل بدفع الباقى على أقساط يؤديها من ضمان أعمال الخراج والضياع .

وكان جواب متقلد هذا الديوان أنه " قد كان ورد من مال الضمان للسنة الأولى جملة ، ثم سار العلوى من إفريقية حتى تغلب على أكثر النواحى بمصر ... فانصرف أكثر المال الى أعطيات الجند ونفقات العساكر ، وانكسر باقيه لأجل استخراج العلوى ما استخرجه من أموال النواحى المجاورة لمصر " (١)

= البلاد . وهناك تشابه بين ما نقرؤه فى كتاب المقريزى عن هذه المسألة ، وهو الطائر ، وهذه الحكاية التى أثرت عن هارون الرشيد ، الذى وصف بلاد المغرب لجماعة من الرسل جاءوا اليه من هذا الأقليم — وكان أحد الأقاليم التى كانت تابعة للامبراطورية العباسية — كذنب الطائر ؛ فأجاب الخليفة أحد هؤلاء الرسل قائلا : ان أحسن جزء فى الطاووس هو ذنبه . وهذا كله لا يترك مجالا للشك بأن استعمال عريب عبارة " مطية راكب " صحيح لمناسبته لهذه الحالة .

(١) قال الأستاذ مرجوليوث (Margoliouth) فى ترجمته لكتاب تجارب الأمم لمسكويه (ج ١ ص ١٢٠ حاشية ١) : " ومعنى هذا (أى المال الذى استخرجه الغزاة من أموال النواحى المجاورة لمصر) غير واضح كل الوضوح . ويظهر أن هلال الصابئ (ص ٢٩٠) لم يكن قد فهمه " . على أنه يفهم من عبارة مسكويه أن مال الخراج عن سنى ٣٠٦ — ٣٠٩ هـ قد استهلك بعضه فى أعطيات الجند ونفقات الجيش ؛ واستهلك البعض الآخر فيما استخرجه الغزاة من أموال النواحى المجاورة لمصر . أما عبارة هلال وهى : " وانكسر الباقى لأجل هذه الحادثة " فمعناها أن بقية الخراج لسنى ٣٠٦ — ٣٠٩ هـ (مال الخراج عن سنة ٣٠٦ هـ كان قد دفع كما سبقت الاشارة الى ذلك) لا بد أن يؤجل بسبب غزو الفاطميين لهذه البلاد .

وهذا يظهر جليا من عبارة عريب (ص ٨٠) التى نأتى بنصها : " نخرج القضاة والقواد ووجوه أهل مصر (Misr) الى مؤنس ، ونزل خارج المدينة (Misr) ، واجتبى أبو القاسم خراج الفيوم وضياع مصر (Misr) ، ودفع مؤنس أرزاق الجند من أموال أهل مصر " .

أما الضياع التابعة لمدينة مصر فتقع طبعا بجوار مصر (المدينة) . هذا فضلا عن أن الفيوم لا تبعد عن هذه المدينة ، وقد احتلهما الفاطميون فى ذلك الحين ، كما احتلوا أيضا — على ما رواه أوتيخا (ص ٨٠) — كورتى البهنسا الأشمونين .

وعليه ، فان لفظ " مصر " ، الذى استعمله عريب ومسكويه وهلال ، يقصد منه مدينة مصر القديمة ، لا البلاد المصرية .

وهذه العبارة توضح لنا ما كان من تأثير هـذه الغزوة فى بغداد والفسطاط ، حتى إن الخليفة العباسى لقب مؤنسا " المظفَّر " فى وسط مظاهر الاحتفالات والتكريم ، إشادة بذكر هذا الانتصار[١]

على أن هـذه المجهودات التى قام بها الفاطميون فى سبيل استيلائهم على مصر لم يكن قد حان وقت جنى ثمـارها ؛ اذ كان لا بد من تأجيلها طوال عهد المهدى ؛ لأن الخليفة العباسى كان لا يزال من القوة بحيث يستطيع دفع الفاطميين عن هـذه البلاد ؛ وكان على هؤلاء أن يعملوا للتغلب على سلسلة المصاعب الداخلية التى كان يثيرها فى وجههم الخوارج حينا بعد حين .

ويحدثنا الكندى[٢] عن الحملة الفاطمية الثالثة على مصر ، فيقول ان هذه الحملة ظلت زهاء ثلاث سنين (٣٢١ — ٣٢٤ هـ) ، وانه قد حدثت فى سنتى ٣٢١ و ٣٢٢ مناوشات بين جيوش الفاطميين والجيوش المصرية . وفى صفر سنة ٣٢٢ عقدت معاهدة الصلح بين جماعة من المصريين وحبشى بن أحمد قائد جند المغاربة ، وكان معسكرا فى الجيزة[٣] .

على أن هذا الصلح لم يطل أمده ؛ اذ نقرأ فى كتاب الكندى عن نشوب مواقع عدة بين جيوش المغاربة والمصريين فى بعض المدن كالجيزة وبولاق و بلبيس[٤] .

وفى عهد ولاية الأخشيد الثانية [٥] (رمضان سنة ٣٢٣ — جمادى الاخرة سنة ٣٣٤ — الكندى ص ٢٨٦ — ٢٩٢) ، انضم بعض زعماء المصريين الى جيش المغاربة الذى دخل الاسكندرية فى ربيع الثانى سنة ٣٢٤ [٦] ؛ فبعث اليهم الأخشيد قوة كبيرة استطاعت أن توقع بهم الهزيمـة (جمادى الأولى سنة ٣٢٤) ، وأرغمهم على العودة الى شمال إفريقية [٧]

---

(١) مسكويه (ج ١ ص ٧٦)

(٢) الكندى (ص ٢٨١ — ٢٨٧)

(٣) شرحه (ص ٢٨٤)

(٤) شرحه (ص ٢٨٤ — ٢٨٥)

(٥) اسمه محمد بن طغج . وقد ذكر الكندى (ص ٢٨٨) أن هذا اللقب أطلق عليه فى رمضان سنة ٣٢٧ هـ ؛ والأخشيد هو أبو بكر محمد بن طغج بن جف من أولاد ملوك فرغانة . وكانوا يلقبون بالأخشيد كما يلقب ملوك الفرس بالأكاسرة وملوك الروم بالقياصرة . وتفسير طغج — على ماذكره ابن زولاق — عبد الرحمن .

(٦) الكندى (ص ٢٨٧)

(٧) شرحه (ص ٢٨٧)

تناول بعض المؤرخين ممن جاءوا بعد الكندى كابن الأثير (ج ٨ ص ٩٨) وابن خلدون (ج ٤ ص ٣٩) والمقريزى (اتعاظ ص ٤٥) الكلام على الحملة الثالثة بايجاز ، واتفقوا على أنها وقعت فى سنة ٣٢٢ ، بخلاف ماذكره الكندى من أنها دامت ثلاث سنين .

هذا ، ولم يقم الفاطميون بمحاولة ما لفتح مصر فى البقية الباقية من خلافة القائم (٣٢٢ — ٣٣٤ﻫ ٩٣٤ — ٩٤٥م) ، وطوال عهد المنصور (٣٣٤ — ٣٤١ ﻫ ٩٤٥ — ٩٥٢ م) ؛ لأن حالة بلاد المغرب الداخلية قد تطلبت كل جهود هذين الخليفتين ، كما تطلبت كل موارد البلاد المالية . هذا الى ما أحدثه الخوارج من ثورات ، كان أجلها خطرا وأشدها بلاء هـذه الثورة التى أضرم نارها أبو يزيد [١] ، الذى انتشرت جيوشـه فى سـنة ٣٣٣ ﻫ (٩٤٤ م) فى جل أرجاء الولايات الفاطمية ، فأصبح فى مركز يستطيع معه أن يهدد مدينة المهدية نفسها . لذلك رأى القائم ضرورة الكتابة الى زيرى بن مَناد شيخ صنهاجة يستحثه على أن يوافيه برجاله فيلحق به فى المهدية [٢].

بيد أن حسن الحظ قد ساعد الفاطميين فى ذلك الحين ، لمـا كان من انضمام عدد غير قليل من رجال أبى يزيد الى جيوشهم ولحاقهم بهم فى القيروان . وبذلك أصبح أبو يزيد أمام أمر واقع ، هو الاعتماد على قبيلتين اثنتين من قبائل البربر ، وهما هوارة وبنو كملان ، ممـا اضطره الى الارتداد عن المهدية بقوة يسيرة من رجاله ، تاركا خلفه ما كان معـه من مؤن وأثقال ؛ ثم تقدم الى القيروان ، فامتنع عليه أهلها وأرغموه على الارتداد مع الفالة من رجاله الذين لم يلبثوا أن هلكوا جوعا وعطشا [٣].

توفى الخليفة القائم فى ذلك الحين (رمضان سنة ٣٣٤) ؛ فأخفى ابنه وخليفته المنصور موته ، حتى لا يؤثر هذا النبأ فى حماس جيوشه ، فيهيئ بذلك الفرصة للخارجى لاحراز النصر [٤] .

---

(١) هو أبو يزيد مُخَـلَّد بن كَيْداد ، من قبيلة زناتة فى مدينة توزر (أكبر مدائن بلاد الجريد التى تنقسم قسمين : قسطيلية ، ويتبعها توزر والزاب — أنظر البكرى ، ص ٤٨ — ٧٤ والمراكشى : كتاب المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ٢٥٨) . وكانت أمه جارية هوارية ، تزوجها أبوه فى السودان وأتى بها الى توزر حيث ولد لها أبو يزيد هذا ؛ فنشأ فى هـذه المدينة ، وخالطه جماعة من النكارية ، فاعتنق مذهبهم ، وكان يقضى بتكفير أهـل الدين واستباحة الأموال ، والخروج عن طاعة الخليفة . ثم سافر الى تاهرت ، فأقام بها يعلم الصبية الى أن خرج أبو عبـد الله الشيعى الى سجلماسة لاطلاق المهدى ؛ فانتقل الى تقوس ، واشترى ضيعة ، وأخذ يعلم الصبيان . وفى سـنة ٣١٦ ﻫ (٩٢٨ م) قوى أمر أبى يزيد وراجت دعوته لدى بعض قبائل البربر فى نفوس والزاب والمغرب الأقصى . وفى عهد خلافة القائم زادت شوكته وكثر أتباعه ؛ فاسـتولى على بجاية ومرمجنه وأوقع الهزيمة بقبيلة كتامة ، ودخل سبيبة واستولى على الأربس ونهبها وقتل الكثير من أهلها . وقد أدخل استيلاء أبى يزيد على الأربس ، وكان يعدها أهل المهدية باب مدينتهم ، الهلع فى قلوب الأهلين . وبذلك استطاع أبو يزيد أن يعسكر بجنده على بعـد خمسة عشر ميلا من المهدية ، وأخذ يباغت المدينة بحملاته ؛ فانتقل كافة أهلها الى طرابلس وصقلية ومصر وبلاد الدولة البيزنطية .

أنظر ابن الأثير (ج ٨ ص ١٥٠ — ١٥٨) وابن أبى دينار (ص ٥٥ — ٥٦) والمقريزى ، اتعاظ (ص ٤٥ — ٥٤) . راجع كتاب المغرب للبكرى لمعرفة مواقع المدن الواردة فى هذه العبارة .

(٢) ابن الأثير (ج ٨ ص ٦٧ و ١٥٠ — ١٥٨) والمقريزى ، اتعاظ (ص ٥٤ و ٥٥)

(٣) ابن الأثير (ج ٨ ص ١٥٠ — ١٥٨) والمقريزى ، اتعاظ (٥٤ — ٥٥) وابن أبى دينار (ص ٥٥ — ٥٩)

(٤) ابن الأثير (ج ٨ ص ١٥٧) والمقريزى ، اتعاظ (ص ٥٤) وابن أبى دينار (ص ٥٩)

أما جيوش المنصور فقد قوى أمرها وزاد عددها بانضمام قوة صنهاجة اليها ؛ فأتاح ذلك الأمر الفرصة للنصور ، فأوقع بجيش الخارجى فى سنة ٣٣٦ ﻫ ؛ فقطعت أوصاله ، وطورد أبو يزيد نفسه الى الصحراء وقبض عليه وبعث به الى المهدية ؛ وهناك مات متأثرا من جراحه (٣٠ محرم سنة ٣٣٦) [١]

ولقد تركت الثورة التى أذكى نارها أبو يزيد شمال إفريقية فى حالة يرثى لها . ولولا ما أظهره المنصور من نشاط وشجاعة نادرة ودراية بأساليب الحرب ، لزالت معالم الخلافة الفاطمية من كافة أرجاء هذه البلاد . ولا غرو فان موارد الخلافة قد أصابها العطل ، فأصبح بيت المال صفرا من الصفراء والبيضاء . ولم يكن بد من أن يدأب المنصور على إصلاح ما أفسده أبو يزيد ؛ فقضى بقية حياته فى إعادة تنظيم البلاد ؛ حتى إنه لم يمت (شوال سنة ٣٤١ ﻫ و ٩٥٢ م) الا وقد استردت الدولة ما كان لها من قوة وجلال .

أما الخليفة الفاطمى الرابع ، وهو المعز ، فكان ذا ولع بالعلوم ودراية بالأدب ، فضلا عما عرف به من حسن التدبير وإحكام الأمور كما كان عليه آباؤه من قبل . وفى عهده دانت لسلطانه كافة قبائل البربر ، ومن بينها بنو كملان وبنو مليلة ، وهما قبيلتان من قبائل هوارة أبتا أن تذعنا لمن كان قبله من الخلفاء .

ولا غرو فان السياسة التى جرى عليها المعز نحو القبائل على اختلافها كفلت له اكتساب طاعتهم ، وساعدت مساعدة تذكر على توثيق عرى خلافته ؛ فأتيح له بذلك كله أن يقضى على أمراء الأدارسة فى المغرب الأقصى ؛ فانتهى بذلك عهد استقلالهم الذى دام زهاء قرنين[٢]

وقد رأى زيرى بن مناد الصنهاجى أن يبين لمولاه إلى أى حد وصل سلطان الفاطميين فى الغرب ، وقد انتشر من حدود طرابلس الغرب شرقا إلى ساحل المحيط الأطلنطى غربا وما الى هذه الأرجاء من جزيرة صقلية فى البحر الأبيض المتوسط ، فأمر بعض رجاله أن يصطادوا له من سمكه ، وجعل السمك فى قلال الماء وحمله الى المعز . ولما عاد جوهر من حروبه الى القيروان ، كان المعز قد أصبح فى ذلك الوقت الحاكم الذى لا ينازعه منازع فى كافة أرجاء شمال إفريقية [٣]

(١) ابن أبى دينار (ص ٦٠)
(٢) ابن الأثير (ج ٨ ص ١٨٩) والمقريزى ، اتعاظ (ص ٥٩ و ٦٠) .
(٣) ابن أبى دينار ص ٦١

(ب) صلاح مصر للدعوة الشيعية

لقد كانت مصر صالحة للدعوة الشيعية من أجل ثروتها وهدوء الأمر فيها ، مع فقر الشرق واضطراب الأمر فيه ، بتغلب المتغلبين عليه من جهة و إغارة الروم من جهة أخرى . ولا غرو فقد كانت مصر من القوة فى ذلك الوقت بحيث أصبح الأمن مستتبا والهدوء شاملا فى عهد الأخشيد الذى بلغ عدد جيوشه أربعمائة ألف رجل ، عدا حرسه الخاص به . وكانت تدفع رواتب هؤلاء جميعا بانتظام من الموارد التى هيأتها ثروة هذه البلاد . وان نظرة واحدة الى ما بذله خمارويه ابن أحمد بن طولون فى جهاز ابنته قطر الندى (أو أسماء) التى تزوجت من الخليفة المعتضد فى سنة ٢٨٢ هـ (٨٩٥ م) ، لتملأ نفس المؤرخ دهشة وعجبا .

فقد كان من جملة صداق قطر الندى وما قدم اليها من هدايا ، سرير من أربع قطع من الذهب ، عليه قبة من ذهب مشبك ، فى كل عين من التشبيك قرط معلق فيه حجر من الأحجار الكريمة لا يقوم بمال . هذا إلى ما كان هنالك من مائة هاون من الذهب ، وألف تُجْزة[1] ثمن الواحدة منها عشرة دنانير . أما قيمة بقية الهدايا فنتركها الى اتساع مدارك القارئ وقوة تصوره وخياله .

ولسنا نشك فى أن هذا التبذير أفقر خمارويه . فقد أمر ، توفيرا لأسباب الراحة لابنته فى طريقها الى بغداد ، أن يبنى على رأس كل مرحلة قصر تنزل فيه ، وأعد هذه القصور بكل ما تحتاج اليه من فاخر الأثاث وغيره ، لتكون فى سفرها ممتعة بكل وسائل الرفاهة كما لو كانت فى قصر أبيها[2] .

على أن ثروة مصر وما ساد فيها من طمأنينة وهدوء قد تعرضا للزوال حينا من الدهر ، بعد أن بلغ هذا البلد ذروة مجده فى الشطر الأخير من أيام كافور . يؤيد ما قلناه من تبذير خمارويه الذى أفقره من وراء زواج ابنته ، هذه العبارة التى ننقلها عن التَّنُوخى فى كتابه " نشوار المحاضرة "[3] قال : " ولما حصلت (كذا) قطر الندى ببغداد ، أضاق خمارويه إضاقة شديدة ، لأنه افتقر بما حمله معها وخرج من جميع نعمته ، حتى طلب شمعة فاحتبست عليه ساعة الى أن احتيلت فقال : لعن الله ابن الجصاص أفقرنى فى السر " .

---

(١) الجزة معقد الازار .

(٢) ابن خلكان (ج ١ ص ٢١٨) ، ابن دقاق (ج ٤ ص ٦٧) .

ذكر ابن دقاق أن عبد الله بن الجصاص الذى عهد اليه باعداد الجهاز ، نال جائزته وهى أربعمائة ألف دينار بقيت بعد إعداد كل ما تحتاج اليه العروس .

(٣) (ص ٢٦٢) Prof. Margoliouth's Translation into English, p. 273

وفى سنة ٣٣٣ هـ (٩٤٤ — ٩٤٥ م) انكمشت الدولة العباسية الى حدود بغداد تقريباً ؛ وغدت الولايات الاسلامية معرضة لهجمات البيزنطيين ، وتعذّر على بغداد أن تصد الحملة الفاطمية على مصر . هذا ، ومن الضرورى أن نوجز القول الآن فيما جرى فى مصر من أمور خلال هذه الفترة القصيرة التى سبقت الفتح الفاطمى ، أى منذ حوالى سنة ٣٢٠ هـ (٩٣٢ م) .

ولقد صادفت الدعوة للبيت العلوى نجاحا عظيما فى هذه البلاد ، بالرغم من القضاء على هذه المحاولات التى قام بها الفاطميون لغزو مصر فى سنى ٣٠١ و٣٠٢ و٣٠٧ و٣٠٩ و٣٢١ — ٣٢٤ هـ . فقد كان الفاطميون يدمجون فى صفوف جندهم دعاة عهد اليهم أن يختلطوا بالناس و يعلموهم عقائد المذهب الفاطمى[1] ؛ فلم يلبث أن صار فى مصر — قبل فتح هذه البلاد على أيدى الفاطميين بزمن طويل — عدد غير قليل يعتنق المذهب الشيعى و يرجو نجاحه .

ولم يقتصر ما قام به الفاطميون فى سبيل نشر دعوتهم على هؤلاء الدعاة فحسب ، بل كان لخلفائهم أيضا نصيب وافر فى تشجيع هذه الدعوة ؛ فقد أثر عن بعضهم أنهم كانوا يرسلون كتبا يكتبونها بايديهم و يذيلونها بامضاءاتهم .

ولقد ذكر لنا ابن سعيد أن أبا القاسم (هو الخليفة القائم ٣٢٢ — ٣٣٤ هـ و ٩٣٤ — ٩٤٥ م) كتب بيده كتابا خاصا بعث به مع رسول من قبله الى محمد الأخشيد ، رغبة منه فى أن تفعل سياسة اللين والمسالمة ما لم تفعله سياسة العداء والحرب ، تلك السياسة التى أخفق فيها هو وأبوه من قبل ؛ واليك هذا الكتاب بنصه :

" قد خاطبتك أعزك الله فى كتابى المشتمل على هذه الرقعة بما لم يجُز لى فى عقد الدين ، وما جرى به الرسم من سياسة أنصار يستجلبون ؛ وضمّنت رقعتى ما لم يطلع عليه أحد من كتّابى وذوى المكانة عندى . وأرجو أن تردك صحة عزيمتك وحسن رأيك الى ما أدعوك اليه ؛ فقد شهد الله على ميلى اليك وإيثارى لك ، ورغبتى فى مشاطرتك ما حوته يمينى واحتوى عليه ملكى . وليس يتوجه لك العذر فى التخلف عن إجابتى ؛ لأنك قد استفرغت مجهودك فى مناصحة قوم لا يرون احسانك ولا يشكرون اخلاصك ، يخلفون وعدك و يخفرون ذمتك ؛ لم يعتقد منهم أحد حسن المكافأة ولا جميل المجازاة . وليس ينبغى لك أن تعدل عن مَنهج من نصحك وإيثار من

---

(١) ينبغى أن نشير الى الأعمال الدينية والسياسية التى قام بها الفاطميون بقولنا "الدعوة الفاطمية" ، لنميز بذلك بين طائفة الفاطميين وغيرهم من الطوائف الشيعية الأخرى ، لأن هذا التعبير أصح وأدق .

آثرك ، الى من يجهل موضعك ويضيع حسن سعيك . وأنا أعلم أن طول العادة فى طاعتهم قد كره اليك العدول عنهم . فان لم تجد من نفسك معونة على اتباع الحق ولزوم الصدق ، فاننى أرضى منك بالمودة والأمر والطاعة ، حتى تقيمنى مقام رئيس من أهلك ، تسكن اليه فى أمرك وتعول عليه بمثل ذلك . واذا تدبرت هذا الأمر ، علمت أن الذى يحملنى على التطاطى لك وقبول الميسور منك ، انما هو الرغبة فيك . وأنت حقيق بحسن مجازاتى على ما بذلته ؛ والله يريك حسن الاختيار فى جميع أمرك ؛ وهو حسبنا ونعم الوكيل"[1]

على أن هذا الكتاب لم يكن له من تأثير فى نفس الأخشيد الذى دافع رسول الخليفة الفاطمى وسوّف الرد يوما بعد يوم . غير أن أمورا حدثت فبدّلت صلة هذه المودة التى ربطت الأخشيد بالخليفة العباسى ، على أثر ما وصله من الأنباء بمسير ابن رائق[2] الى مصر بتولية البلاد من الخليفة العباسى نفسه . لهذا ثارت ثائرة الأخشيد ، فأمر بايقاف الخطبة لهذا الخليفة وذكر اسم الخليفة الفاطمى بدله .

ولقد روى لنا ابن سعيد ، نقلا عن عمر بن الحسن الخطيب العباسى فى مصر ، حكاية نعلم منها كيف أمر الأخشيد بذكر اسم الخليفة الفاطمى فى الخطبة ، وكيف كان ذلك خطوة مهد بها للاعتراف بسلطان الفاطميين ، وقد زاد عدد أتباعهم الذين أخذوا يدعون لهم جهارا ولا يبالون بذلك . وهاك نص هذه الحكاية :

" دعانى الأخشيد يوما فقال لى : إذا كان يوم الجمعة ، فاتم الدعوة لأبى القاسم صاحب المغرب واسقط الدعوة للراضى حتى يعلم محمد بن طغج ... فقلت : كما يأمر الأخشيد . فغدوت إليه ثانية واستأذنته ، وقلت لعله يرجع . فقال : نعم ! فلم أزل على هذا ثلاثة أيام الى يوم الخميس ؛ فاتهمت أن يكون أبو الحسين محمد بن عبد الوهاب — وكان رجلا جزلا جيد الرأى شيعيا — قد حسن له هذا الرأى ؛ لأنه أقام فى اعتقاله سبع سنين ، وكان لما أطلقه اختص به . فجئت الى ابن عبد الوهاب وخلوت به وحدثته فقال : إن السوداء ربما ثارت به ، أفعاودته ؟ فقلت : قد عاودته أربعة أيام . فقال لى : أنا أخلو به كل جمعة بالغداة ، فارفق به وقل أين أعمل الذى أمرتنى به ، فى جامع أسفل أو فى جامع ابن طولون ؟ وخلنى وإياه . فجئت اليه ورفقت به وقلت :

(١) ابن سعيد : كتاب المغرب (ص ٢٥ و ٢٦) .

(٢) هو محمد بن رائق وكان خزريا . انظر صلة تاريخ الطبرى لعريب بن سعد (ص ١٢) .

أيها الأمير ! الذى أمرتنى به أين أعمله ، فى الجامع العتيق أم جامع ابن طولون ؟ فقال لى : أنت فى الجامع العتيق وخليفتك فى جامع ابن طولون . فقال له ابن عبد الوهاب : إيش[1] هذا الذى فعل ؟ فقال الأخشيد : شيء . فقال ابن عبدالوهاب : الله المستعان ! شيء يعمل على المنبر يكتم ، وبعد ساعة يعلم به الجمهور ؟ فقال له : قد تأذيتُ بالراضى وبهذا الصبى ابن رائق ؛ وقد أمرت الخطيب أن يدعو لأبى القاسم صاحب المغرب . فقال له : وفق الله الأخشيد ! فلقد وضعت الضيعة فى موضعها ؛ ولقد أخبرتُ أنه فى الحزن على أبيه إلى الساعة ، وما جلس فى مرتبته إلا حزينا كائبا ، ولا جرد سيفا ، وهو من الشرف والملك على ما سمعت ؛ فالحمد لله الذى جعل رجوع هذا الأمر الى أهله على يدك وبك . فاستبشر الأخشيد وأسفر وجهه . ثم التفت ابن عبد الوهاب إلى الخطيب وقال له : اقرأ الذى عملت . قال : ماعملت شيئا . فقال ابن عبدالوهاب : تؤمر منذ خمسة أيام بهذا الأمر فلم تعمل فيه شيئا ؟ فقال الأخشيد : إيش يُعمل ؟ قال يحتاج إلى نحو خمسة آلاف كلاما معمولا فى فضل النبى صلى الله عليه وسلم ، وعليّ وفاطمة والحسن والحسين ، وأهل البيت عليهم السلام ، ويذكر أنهم أحق بالامامة ، ويقول ذلك والناس يسمعون ؛ فمن كان يشتهى هذا قويت نفسه ، ومن كرهه انحل . فقال له الأخشيد : اعمله . فقال لى ابن عبد الوهاب : تلحق اليوم ؟ فقلت : لا . فقال : الجمعة الأخرى . فقال الأخشيد : الجمعة الأخرى . فانصرفت ؛ فلما كان من الغد دخلت على ابن عبد الوهاب فقال لى : قلت له بعدك إنه رأيى وهواى فيما تعلمه . ولكنى أصدقك تكون أنت من أبرك الناس على ابن رائق ، لأنك اذا عملت هذا كاتبه من مصر من يكره هذا ، وكتب بذلك الى العراق . فان كان الراضى لم يقلده ، قلده وأنفذ إليه الأموال والعساكر ، وصيرت له شيعة وخاصة ؛ ولكن دع هذا الى وقت آخر"[2] .

على أن كتب التاريخ لم تذكر لنا اذا كانت الخطبة قد أقيمت فعلا للخليفة الفاطمى ؛ إذ أن الخطيب العباسى الذى تلقى الأمر بتنفيذ هذه السياسة لم يزد هذه المسألة بيانا . بيد أنه ينبغى أن لا يعزب عن أذهاننا أنه ، لو كان اسم الخليفة العباسى لم يذكر فى الخطبة على منابر مصر أيام الأخشيد ، لما ضن علينا المؤرخون بذلك ، على حين أنهم لم يضنوا بموافاتنا بنبأ سير ابن رائق لتسلم زمام الولاية من الأخشيد ، وظهور العداء بينه وبين الخليفة العباسى .

---

(١) بمعنى أى شيء . ولقد نقلنا هذه الحكاية بنصها بالرغم مما فيها من عبارات وألفاظ ركيكة ؛ وذلك حفظا لأمانة النقل .

(٢) ابن سعيد : كتاب المغرب (ص ٢٦ و ٢٧) .

غير أنه إذا ذكرنا أن هـذه الحوادث وقعت فى أواخر أيام الأخشيد ، فى وقت قد هـدد فيه بنو بويه سلطان الخليفة العباسى ثم استولوا على بغداد بعد قليل ، فلا نستبعد أن الأخشيد قام بتنفيذ ما اعتزمه ولو مدة قصيرة من الزمن . وكان من السهل أن تظل علاقة الصداقة بين الأخشيد والخليفة الفاطمى ، وأن تكون النتيجة الاعتراف بسـلطان الفاطميين على مصر قبل اسـتيلائهم عليها نهائيا (سنة ٣٥٨ هـ) بزمن طويل .

ولا شك فى أن النزعة السياسـية (والمذهبية) فى مصر أصبحت منـذ أيام الأخشيد فى جانب الفاطميين . ولقد قيل إن القائم الفـاطمى تسلم من الأخشيد كتابا يعرض فيه عليه زواج ابنته من المنصور بن القائم وولى عهده ، وأن القائم قرأ الكتاب على أنصاره ، فأشاروا عليه بالقبول ؛ فكتب الخليفة الفاطمى بذلك الى الأخشيد ، وبعث اليه بصـداقها وقدره مائة ألف دينار . على أن آمال الأخشيد لاقت الخيبة والفشل ؛ فقد استقل هذا المـال وطمع فى أن يحصل على صداق يفخر به ويباهى . ولم يحقق أمله فى تزويج ابنته ، وقد توترت العلائق بينه وبين الفاطميين[1] .

وسرعان ما اعترضت القائم هذه الثورة التى أذكى نارها أبو يزيد ؛ فتطلبت أحوال بلاد المغرب الداخليـة كل نشاط الخليفـة الفـاطمى الذى لقى حتفه وقـد بلغت الثورة أشـدها ، ثم لحق به الأخشيد بعد قليل ، وانقطعت العلاقات بين مصر وشمـال إفريقيـة طوال عهد الخليفة المنصور ٣٣٤ — ٣٤١ هـ (٩٤٥ — ٩٥٢ م) الذى قصر كل همه وأنفق موارد بلاده على القضاء على ثورة أبى يزيد . وبذلك خابت مسألة الزواج ، وفشل مشروع غزو مصر ، أو على الأقل اعتراف الأخشيديين بسلطان الفاطميين .

تولية كافور حكم مصر[2] :

مات الأخشيد فى دمشق فى الثانى والعشرين من شهر ذى القعدة سنة ٣٣٤ هـ (٩٤٦ م) ،

---

(١) ابن سعيد : كتاب المغرب (ص ٢٧ و ٢٨) .

(٢) قد اعتمدت فى العبارة التى كتبتها عن تاريخ مصر الى وفاة الأخشيد ، على ما كتبه الكندى المتوفى سنة ٣٥٠ هـ ، وابن سعيد المتوفى سنة ٦٧٣ هـ . وقد نقل ابن سـعيد ما ذكره الكندى وابن زولاق المتوفى سنة ٣٨٧ هـ عن الأخشيديين . وقد شك روفن جست (Rhuvon Guest) ، الذى نشر "كتاب الولاة وكتاب القضاة" (E. J. W. Gibb Memorial, Series XXX, 1912) ، فى اسم الكاتب الذى ذيل كتاب الكندى . هـذا ، وقـد نقل ابن زولاق كتاب الكندى الذى ينتهى الجزء الذى تكلم فيه عن ولاة مصر فى سنة ٣٣٤ هـ ، وهى السنة التى مات فيها الأخشيد . والكاتب الذى ذيل كتاب الكندى —

ودفن ببيت المقدس ؛ فخلفه ولده الأكبر أبو القاسم أنوجور (او أُنوجور)[1] ؛ فأصدر الخليفة العباسى المطيع[2] كتاب اقراره فى ولاية مصر والشام والحجاز . وكان أنوجور لا يزال طفلا فى ذلك الحين ، اذ كان فى الخامسة عشرة من عمره ؛ فقام بتدبير أمره كافور[3] الذى بقيت علاقته بهذا الوالى الجديد على ما كانت عليه من قبل ، وهى علاقة الأستاذ بالتلميذ ، وأصبح بذلك صاحب السلطان المطلق فى الامبراطورية الأخشيدية ، وظل على ذلك الى أن مات سنة ٣٥٧ هـ[4] .

ولما توفى الأخشيد وقبض كافور على زمام الأمور فى جميع البلاد الخاضعة لحكم الأخشيديين ، قام أهل مصر بثورة ، فنجح فى القضاء عليها ؛ فعلا شأنه وارتفع ذكره عند الموظفين على اختلافهم . وبعد ذلك بقليل وردت الأنباء باضطراب الأمور فى الشام واستيلاء أبى الحسن علىّ الملقب بسيف الدولة الحمدانى على دمشق ، وبأنه عوّل على المسير الى الرملة لأخذ مصر ؛ فنجح كافور أيضا فى الحيلولة دون مسيره الى مصر ، وغنم منه الغنائم الوفيرة ؛ فعظم شأنه وزادت شهرته ، واستطاع بذلك أن يقبض على زمام الأحكام من غير أن يكون له نفوذ شرعى ، وخاطبه علية القوم بالأستاذ ، وذكر اسمه فى الخطبة ، ودعى له على منابر مصر والشام والحجاز ، وأتيح له بما أغدقه من العطايا والهبات أن يكتسب محبة رؤساء الجند وكبار الموظفين[5] .

= هو ابن سعيد الذى يقول فى كتاب " المغرب " : " وقد ذيلت هذا الكتاب بسيرة أونوجور وأخيه علىّ وكافور وأحمد بن علىّ بن الأخشيد والقائد جوهر ، الى أن دخل المعز لدين الله عليه السلام مصر وصارت دار خلافة الخ " : كتاب المغرب (ص ٥) والكندى (ص ٢٩٣ — ٢٩٨) .

(١) ومعناه بالعربية محمود على ما ذكره ابن خلكان (ج ١ ص ٥٤٥) .

(٢) ذكر ابن خلكان أن خلع الولاية أرسلت لأنوجور فى عهد الراضى الذى مات قبل ذلك بخمس سنوات (أى فى ٧ شعبان سنة ٣٢٩ هـ) .

(٣) أبو المسك (أطلقت هذه الكنية من قبيل التمليح والمشاكلة ؛ لأن المسك أسود اللون ، وكان كافور كذلك . وكثيرا ما يستعمل العرب ذلك . قال عنترة العبسى :

فان أكُ أسوداً فالمسكُ لونى ... وما لسواد جلدى من دواء

ولكن تبعــدُ الفحشاءُ عنى ... كبعد الأرض من جوّ السماء

نعم ! الدعابة انما هى فى اطلاق لفظ كافور عليه ؛ لأن الكافور أبيض وكان هو أسود اللون) . وكافور كان عبدا خصيا . وكان قبيح الخلقة بدينا ثقيلا ، ورجلاه مشوهتان . وكان مملوكا لأحد أهل مصر ، فاشتراه أبو بكر محمد بن طغج الأخشيد سنة ٣١٢ هـ ، وكان اذ ذاك من رؤساء الأجناد . ولما آلت ولاية مصر للأخشيد ، ترقى كافور فى بلاطه .

(٤) مسكويه (ج ٢ ص ١٠٤) ، وابن سعيد : كتاب المغرب (ص ١٤٥) نقلا عن ابن زولاق .

(٥) ابن خلكان (ج ١ ص ٥٤٧) .

على أن أنوجور لما كبر وشعر بحرمانه من سلطته ، ظهرت الوحشة بينه وبين كافور ؛ وناصر كلا منهما فريق من الأهلين ، ووقف كل واحد للآخر بالمرصاد . وقد تفاقمت العداوة لهذا بين الجند فانقسم فريقين : الكافورية[١] والأخشيدية[٢] .

واتفق أن مات أنوجور فى سنة ٣٤٩ هـ ، فحملت جثته الى بيت المقدس ودفن بالقرب من أبيه[٣] . وبموت أنوجور أمن كافور الفتن والقلاقل وأصبح قادرا على تولية خلف للأمير المتوفى ؛ فخلفه أخوه علىّ بن الأخشيد ؛ فعين له كافور كما عين لأخيه من قبل أربعمائة ألف دينار كل سنة ، واستبد بالأمر دونه .

وكان هذا الأمير قد دخل فى الثالثة والعشرين من العمر ؛ الا أن هذا لم يمنع كافورا من التضييق عليه ، حتى منع أن يدخل عليه أحد . وظل على ذلك الى أن مات سنة ٣٥٥ هـ (٩٦٦ م) ، فحال كافور دون تعيين ابن الأمير المتوفى بحجة أنه غير صالح للحكم لصغر سنه ؛ فبقيت مصر بغير أمير نحوا من شهر . وفى المحرم سنة ٣٥٥ هـ أخرج كافور كتابا من الخليفة العباسى بتقليده واليا على مصر ؛ لكنه لم يغير لقبه — الاستاذ — ودعى له بعد الخليفة على المنابر . وفى العاشر من صفر (فبراير سنة ٩٦٦ م) لبس الخلعة على مرأى من الناس[٤] .

محاولة المعز الاستيلاء على مصر . تلقّى الأهلين دعاته بالقبول :

بقى كافور على رأس الحكومة المصرية زهاء سنتين (١٠ صفر سنة ٣٥٥ — ٢٠ جمادى الأولى سنة ٣٥٧) . وبعد توليته بقليل ، حاول الخليفة المعز الفاطمى اعادة الكرة لغزو مصر ، وسار بجيشه

---

(١) الكافورية هم مماليك كافور ، وقد رقاهم الى المناصب العالية فى الدولة .

(٢) الأخشيدية مماليك الأسرة الأخشيدية وأنصارها .

(٣) قيل ان كافور سم أنوجور .

(٤) ذكر ابن سعيد (كتاب المغرب ص ٤٦ و ٩٩) ، نقلا عن أبى عبد الله محمد بن سعد القرطى (لمعرفة اشتقاق هذا اللفظ راجع القاموس المحيط ، طبعة مصر سنة ١٣٠١ هـ ، وكتاب الأنساب للسمعانى ورقة ٤٤٧ ؛ وهذا اللفظ منسوب الى القرط الذى يعلق فى الأذن ، أو الى قروط ، وهو اسم يطلق على بعض أفخاذ بنى كلاب اخوة قُرط وقَريط وقُرَيط) . والقرطى الذى نحن بصدد الكلام عليه مشتق اسمه ، على ما ذكره ابن سعيد (كتاب المغرب ص ٩٩) ، من القرط الذى تأكله الدواب بمصر . وكان أبو عبد الله محمد بن سعد القرطى من ولد عمار بن ياسر ؛ وكان مولعا بالتاريخ ، رحل الى اليمن و بلاد الهند ، وصنف كتاب "تاريخ مصر" فى عهد العاضد آخر الخلفاء الفاطميين . وقد وقف عليه ابن سعيد واستعاره من رجل كان هذا الكتاب فى حوزته ، وقيد منه بعض ما أودع كتابه المغرب . ومحمد بن سعد القرطى هذا من أحفاد محمد بن جعفر القرطى . وكان معاصرا للاخشيديين فى مصر ، قلده مؤنس الحسبة بمصر ثم قلده الخراج (ابن سعيد ص ٨) ، ثم تقلد خراج مصر والشام فى عهد ولاية تكين (ص ٩) — ولى تكين ثلاث مرات (٢٩٧ — ٣٠٣ و ٣٠٧ — ٣٠٩ و ٣٢١ — ٣١١ هـ) .

الى حدود هذه البلاد الغربية ؛ فأوقف كافور تيار تقدمه ؛ ولكنه استقبل فى بلاطه بعض دعاة الفاطميين الذين أرسلهم المعز من قبله لدعوة كافور للاعتراف بسيادته بالقبول ، كما وعد معظم رجال بلاطه وكبار موظفى الدولة بتقديم الولاء للخليفة الفاطمى[١].

و تظهر لنا صحة ما ذكره المقريزى ؛ لأن ميول كافور تجاه أهل البيت تجلت على الدوام فى أجلى مظاهرها . ذلك أن سياسته كانت مطبوعة بطابع الاحترام لآل النبى . ولا غرو فقد اتصف كافور بالهمة ، كما كان عارفا بأقدار العلماء والوجوه والأشراف ، حتى لقد أثر عنه انه بينما كان راكبا فى موكبه ذات يوم سقط سوطه ، فناوله اياه أحد الأشراف[٢]؛ فقبل كافور يده وقال له : نعيتَ الىّ نفسى ، فما بعد أن ناولنى ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم سوطى غاية يتشرف لها . ومن ثم انهالت على الرجل هبات كافور وخلعه وعطاياه[٣] .

وتتبين لك سياسة كافور مع العلويين وشغفه بتوفير أسباب الراحة والسعادة لهم من هذه الحادثة التى تقص لك خبرها عن ابن سعيد . ذلك ان امرأة وقفت لكافور فى طريقه مرة وصاحت به : ارحمنى يرحمك الله ! فدفعها أحد رجاله دفعا عنيفا ، فسقطت ؛ فأخذ الغضب من كافور كل مأخذ وأمر بقطع يد الرجل ؛ فشفعت له المرأة حتى لاتكون شؤما عليه . فأعجب بها كافور وأمر أحد رجاله أن يسألها عن أصلها ونسبها ، فاذا بها علوية ؛ فشق ذلك على كافور وعزا الى الشيطان ما وقع واغفاله اياه هؤلاء الأشراف ؛ وأحسن الى العلوية وأدر عليها وعلى سائر أبناء الأشراف الهبات والأرزاق[٤] .

ومن هنا يتضح لنا أن عزمه على تحويل طاعته من العباسيين الى الفاطميين كان قد اختمر منذ ذلك الحين . هذا فضلا عن أن حالة مصر الداخلية فى السنين الأخيرة من حكم كافور قد دلت على ان حكم الاخشيديين قد آذن بالزوال ، مما سهل غزو مصر على أيدى الفاطميين .

الاضطراب والفوضى فى عهد كافور :

فى هذا العهد قاست مصر البؤس والشقاء بدرجة لم ترها من قبل . وكان أشد هذه المحن انخفاض النيل الذى بدأ سنة ٣٥١ ﻫ ، وما تلاه من قحط ووباء . وقد ظل هذا الانخفاض تسع سنين

---

(١) المقريزى : خطط (ج ٢ ص ٢٧) .

(٢) ذكر السيوطى (ج ٢ ص ١١) أن هذا الشريف هو أبو جعفر مسلم بن عبيد الله ، من سلالة الحسين بن علىّ ، وأحد الرسل الذين ندبوا لطلب الصلح من جوهر .

(٣) ابن سعيد (المغرب ص ٤٧) ، نقلا عن القرطى .

(٤) شرحه (ص ٤٧) .

حتى عام ٣٦٠ هـ . ويحدثنا المقريزى[1] بما كان متوقعا ، وهو ان القحط أعقبه الوباء ؛ ففشا الموت بسببه ، حتى عجز الناس عن تكفين الموتى وعن دفنهم ، فاضطروا الى القاء جثث موتاهم فى النيل[2] . وكان من أثر ذلك أن اشتد الغلاء وندر وجود القمح ، وأغار الأشرار على المزارع والحقول ، وعم السلب والنهب .

ومما زاد هذا البلاء الذى انصب على البلاد عجز كافور عن صد القرامطة الذين أغاروا على الشام سنة ٣٥٢ هـ ونهبوا حجاج مصر فى طريقهم الى مكة سنة ٣٥٥ هـ ، ثم عدم قدرته على الدفاع عن البلاد حين غزاها ملك النوبة ، حتى نهب البلاد الجنوبية فوصل الى إخميم[3] وعاد الى بلاده محملا بالأسلاب والغنائم . يضاف الى ما تقدم ما كان من عجز كافور أيضا عن دفع رواتب حرسه وأرزاقهم ، فثاروا عليه[4] .

مصر بعد وفاة كافور :

هذه حالة مصر عند وفاة كافور (٢٠ جمادى الأولى سنة ٣٥٧ هـ ٩٦٨ م) ، وما صارت البلاد اليه من الفوضى والبؤس .

وقد اجتمع رجال البلاط لاختيار والٍ يحل محل كافور ، على ماجرت به العادة فى هذا العهد . وليس من عجب فى ذلك ، فان الخليفة العباسى غدا فى عهد بنى بويه أشبه شىء بالعوبة ، ولم يعد له من أمر تعيين الولاة شىء ؛ وقد وقع الاختيار على أبى الفوارس أحمد حفيد الأخشيد ، وكان طفلا لم يبلغ الحادية عشرة من العمر[5] .

وقد صادف أن وصل مصر بعد ذلك أبو محمد الحسن بن عبيد الله الذى تركه أخوه محمد الأخشيد فى الشام سنة ٣٢١ هـ ؛ فأقام فيها نحو ثلاثين سنة ، ومرت به أطوار شتى ؛ ففر ابنه من وجه القرامطة ، فتلقاه أمراء الأتراك فى مصر بقبول حسن ووَلوه قيادة الجيش . لكنه ما لبث أن استبد بالأمر وقبض على الوزير ابن الفرات وصادر أمواله ، ثم عاد الى الشام[6] .

---

(١) خطط (ج ١ ص ٣٣٠)

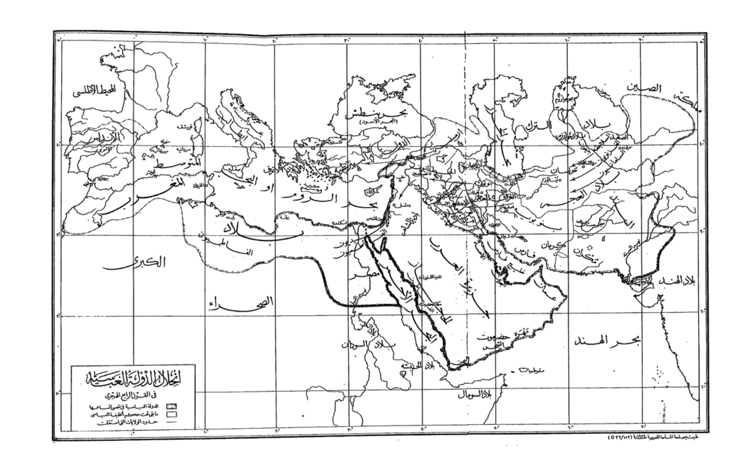
(٢) يؤكد لنا ابن خلكان أن ستمائة ألف من المصريين ذهبوا ضحية هذا الوباء .

(٣) مدينة واقعة على الضفة اليمنى للنيل فى مديرية سوهاج .

(٤) المقريزى : خطط (ج ١ ص ٣٣٠)

(٥) ابن خلكان (ج ١ ص ٤٥٧)

(٦) شرحه (ج ٢ ص ٥٥ و ٥٦)



طبعت بمصلحة المساحة المصرية

وبعد رحيل الحسن بن عبيد الله الى الشام سنة ٣٥٨ هـ ، ظلت مصر خمسة أشهر تحت سلطة الأخشيديين الاسمية ، فى حالة شديدة من الفوضى والاضطراب . وكانت ادارة البلاد فى يد الوزير ابن الفرات الذى لم يستطع أن يدفع رواتب الجند أو يخفف عن الأهلين ما أصبحوا فيه من بؤس وشقاء ؛ لهذا لا نعجب اذا عجزت البلاد عن صد هجمات المغيرين . وكانت هذه الحالة فرصة سانحة اتخذها الخليفة الفاطمى لغزو مصر . ولم تكن بغداد فى ذلك الوقت قادرة على أن ترسل جيشا يصد الفاطميين عن هذه البلاد .

عجز بغداد عن ارسال الجيوش :

سبق أن بينا ما كان من ضعف الدولة العباسية وانقسام المسلمين الى شيع وطوائف . والآن نجمل القول عن حالة الخلافة العباسية فى بغداد فى الوقت الذى تم فيه استيلاء الفاطميين على مصر ، لنبين كيف تعذر على السلطة المركزية فى بغداد أن تبعث لمصر بجيش يصد الفاطميين عنها ، كما فعلت ذلك مرارا من قبل .

ولا غرو فقد استقل الأمويون بالأندلس ١٣٨ — ٨٩٧ هـ (٧٥٦ — ١٤٩٢ م) على يد عبد الرحمن الأول ١٣٨ — ١٧٢ هـ (٧٥٦ — ٧٨٨ م) ، وتأسست دولة الأدارسة فى مراكش ١٧٢ — ٣١١ هـ (٧٨٨ — ٩٢٣ م) على يد ادريس بن عبد الله ، ودولة الأغالبة فى تونس ١٨٤ — ٢٩٦ هـ (٨٠٠ — ٩٠٨ م) على يد ابراهيم بن الأغلب ؛ كذا كانت سيادة الطولونيين ٢٥٤ — ٢٩٢ هـ (٨٦٨ — ٩٠٥ م) والاخشيديين ٣٢٣ — ٣٥٨ هـ (٩٣٥ — ٩٦٩ م) فى مصر . كل ذلك كان ضربة شديدة فتت فى جسم الدولة العباسية بتقلص نفوذها عن جزء كبير من ولاياتها فى الغرب .

(١) الهجوم على بغداد من الشرق :

هذا فى الغرب . أما فى الشرق فلم تكن الأمور أحسن حالا ؛ فقد قامت فى بلاد الفرس وبلاد ما وراء النهر دويلات عدة ، يرجع سبب قيامها الى انتعاش روح القومية التى ظهرت منذ أيام المأمون ١٩٨ — ٢١٨ هـ (٨١٣ — ٨٣٣ م) ؛ فقامت الدولة الطاهرية ٢٠٥ — ٢٥٩ هـ (٨٢٠ — ٨٧٢ م) فى خراسان ، ومنهم انتقلت السلطة الى أسرة جديدة هى الدولة الصفارية ٢٥٤ — ٢٩٠ هـ (٨٦٨ — ٩٠٣ م) التى تأسست على يد يعقوب بن الليث الصفار ، والدولة

السامانية ٢٦١ — ٣٨٩ هـ (٨٧٤—٩٩٩ م) التى تفرعت عنها الدولة الغزنوية ٣٦٦ — ٥٧٩ هـ (٩٧٦ — ١١٨٣ م) ؛ لأن ألبتكين مؤسس هذه الدولة كان من الموالى الأتراك الذين استخدموا فى البلاط السامانى .

ولقد تفاقم خطر كثير من هذه الدول ، فقويت شوكة بنى بويه ٣٣٤ — ٤٤٧ هـ (٩٤٥ — ١٠٥٥ م) ، وكانوا من الشيعة الغلاة ، وامتد شرهم إلى حياة الخلفاء أنفسهم . ومما يدل على مبلغ الضعف الذى وصلت إليه الدولة العباسية ، وعلى قوة هـذه الدولة التى آل إليها الحكم ، أنه لم يعد للخليفة من الأمر شىء ، سوى سلطته الدينية ممثلة بذكر اسمه فى الخطبة ونقشه على السكة ؛ ولم يكن ذلك إلا لأغراض سياسية غايتها احتفاظ هؤلاء الحكام بمراكزهم أمام الجمهور .

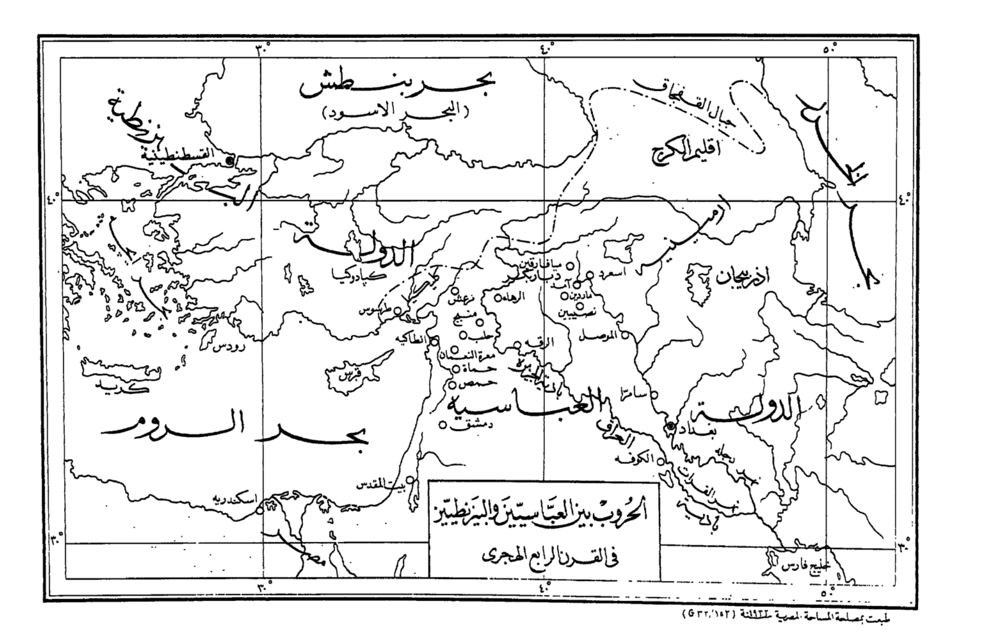
وقد وصف لنا المؤرخ جبون الحالة التى وصلت إليها الدولة العباسية فى ذلك العصر فقال : "لم تكن حالة الضعف التى وصلت إليها الخلافة العباسية راجعة إلى السياسة فحسب ، بل تعدتها إلى الدين أيضا . فقد نشأت من المذهب الشيعى على ممر الزمن مذاهب متعددة ، أهمها المذهب الفاطمى ، والمذهب الدرزى فى لبنان ، والمذهب البابى فى بلاد الفرس ، وقد ظهر فى الأزمنة الحديثة . كذلك ظهرت الاختلافات الدينية فى بغـداد ؛ فقام أنصار ابن حنبل[1] وانقضوا على بيوت الأمراء وذوى اليسـار ، وكسروا أوانى الخمر ، وحطموا الآلات الموسـيقية وضربوا المغنين ، وأهانوا الفتيان والفتيات وأساءوا بهم الظنون . ولم يكن من سـبيل للقضـاء على هذه الفئة إلا بقوة حربية ؛ ولكن من ذا الذى يمكنه أن يسد جشع طائفة المرتزقة أو يؤيد النظام بالقوة بين أفرادها ؟ هذا إلى ما كان من سل الحرس من الأتراك وأهل إفريقية السيوف كل فى وجه الآخر ؛ وأصبح فى يد أمير الأمراء[2] حبس الخليفة وخلعه وقتله . فكان هذا تعديا على سلطة الخليفة الدينية وما لها من حرمة فى النفوس ؛ ولم يكن عند الخليفة من سبيل يأمن به على نفسه الأذى إلا هربه إلى معسكر أحد الأمراء .

---

(١) ولد فى بغداد سنة ١٦٤ هـ (٧٨٠ م) ، ومات بها سنة ٢٤١ هـ (٨٥٥ م) . انظر ابن خلكان (ج ١ ص ٢٠ — ٢١)

(٢) أول من تلقب بهذا اللقب هرون بن غريب سنة ٣١٦ هـ . مسكويه (ج ١ ص ١٨٨ و ٣٥٠ و ٣٥١) . وقد قلد الخليفة العباسى الراضى محمد بن رائق " الإمارة ورياسة الجيش ، وجعله أمير الأمراء ، وورد إليه تدبير أعمال الخراج والضياع ، وأعمال المعاون فى جميع النواحى ، وفوض إليه تدبير المملكة ، وأمر بأن يخطب له على جميع المنابر فى الممالك وبأن يكنى " .

انظر كتاب " تجارب الأمم " لمسكويه (ج ١ ص ٣٥٠ — ٣٥١) ، وترجمته إلى العربية للاستاذ مرجوليوث (Prof. Margoliouth) (ج ٤ ص ٣٩٥) بمناسبة كلام مسكويه عن ابن رائق .


الحروب بين العباسيين والبيزنطيين
في القرن الرابع الهجري
بحر بنطش
(البحر الاسود)
بحر الروم
بحر الخزر
جبال القبق
اقليم الكرج
بيزنطية
القسطنطينية
الدولة البيزنطية
كبادوكيا
ارمينية
اذربيجان
الدولة العباسية
العراق
طرسوس
انطاكية
ميافارقين
ديار بكر
آمد
اسعرد
ماردين
نصيبين
الموصل
الرها
الرقة
مرعش
منبج
حلب
معرة النعمان
حماة
حمص
دمشق
سامرا
بغداد
دجلة
الكوفة
الفرات
بادية
بيت المقدس
اسكندرية
مصر
رودس
قبرص
كريد
خليج فارس
طبعت بمصلحة المساحة المصرية سنة ١٩٢٢ (G٣٢,١٥٢)

فكان إنقاذه تحولا عما كان فيه من مذلة إلى مذلة أخرى ، حتى دفعه اليأس إلى دعوة بنى بويه لمعونته وتخليصه مما هو فيه ؛ فاذا ما وقع تحت رحمتهم صار ألعوبة فى يدهم"[1] .

(٢) إغارة البيزنطيين على الولايات العباسية وعبثهم بها :

لم تكن الحالة فى الحدود الشمالية الغربية أقل سوءا واختلالا منها فى الجهات التى بيناها . فقد ساد العداء منذ ظهر الاسلام بين المسلمين والأغريق بحكم الجوار . على أنه كثيرا ما كانت كفة المسلمين راجحة إلى أن جاء الخليفة المعتمد (٢٥٦—٢٧٩ هـ و ٨٧٠—٨٩٢ م) ، فانكمشت الأمبراطورية العباسية فى عهده إلى حدود الجزيرة والعراق ، وفيهما أيضا قامت الثورات وعم الاضطراب ، مما أدى إلى قيام النزاع بين المسلمين والروم منذ ذلك الوقت ، وإن لم يكن قد أدى إلى نتيجة حاسمة .

ولقد قويت شوكة الأمبراطورية البيزنطية ، وانتشر الأمن والسلام فى أرجائها منذ اعتلاء باسيل الأول (Basil I.) العرش ؛ فتمكن بكل قوته من مقابلة جيوش بعض الأمراء ، وساعد على انتصار باسيل ما كان من ضعف أعدائه بسبب إغارة خصومهم على مؤخرة جيوشهم .

وفى عهد قسطنطين السابع (Constantine VII.) ، توطدت صلات السلام بينه وبين ما جاوره من البلاد ، إلا البلاد الاسلامية . فساد هذا السلام بينه وبين أرمينية فى الشرق ، والروسيا وبلغاريا فى الشمال ، والبندقية وألمانيا فى الغرب[2] .

وفى سنة ٣٥٠ هـ (٩٦١ م) استولى القائد نقفور فوكاس (Nicephorus Phocas) على جزيرة كريت . وبعد ذلك بقليل ، انتصر على سيف الدولة الحمدانى . وفى سنة ٣٥١ هـ استولى على كثير من مدائن الأناضول مثل مرعش ودبيق ؛ وبالقرب من منبج أسر أمير هذه المدينة أبو فراس الحمدانى الشاعر المشهور[3] ، وأخيرا استولى نقفور فى ديسمبر من السنة نفسها على حلب حاضرة الحمدانيين بعد حصار شاق[4] .

---

(١) Gibbon: Decline and Fall of the Roman Empire (4th ed.), vol. VI. pp. 54–55

(٢) Vasil'Ev., Cambridge Mediæval History, vol. IV. pp. 138, 139

(٣) ، (٤) مسكويه (ج ٢ ص ١٩٢ و ٢٢٠) ، ويحيى بن سعيد (ص ١١٨)

وبعـد موت رومانوس (Romanus) رابع أباطرة الدولة البيزنطية من سلالة باسـيل فى صفر سنة ٣٥٢ (مارس سنة ٩٦٣) ، تزوجت أرملته تيوفونيا (Theophonia) من نقفور فوكاس[١] ، ثم من قاتله چون زيميسكيس (John Tzimisces) ، بطلى ذلك العصر ، وإليهما آلت الوصاية على أولادها الصغار . وقد امتدت غزوات هـذين الامبراطورين من تلال كپادوكيا (Cappadocia) إلى صحراء بغداد . والاثنتا عشرة سـنة التى تولى فيهـا هـذان الرجلان قيادة الجيوش البيزنطية أبهى عصور الامبراطورية البيزنطية وأزهاها[٢] .

وفى سـنة ٣٥٤ هـ (٩٦٤ م) تقدم البيزنطيون إلى حدود سورية ، ووقعت فى أيديهم مدينتا المصيصة وطرسوس فى سنة ٣٥٥ هـ (٩٦٥ م) بعد أن نال منهما القحط والموت ، فلم تقويا بعـد على مواصـلة الدفاع : ذلك أنه فى ١٣ يونيه سـنة ٩٦٥ م وقعت المصيصة فى أيدى البيزنطيين ، وفى ١٦ أغسطس من السنة نفسها سلمت إليهم مدينة طرسوس[٣] .

هذا ، وقد عاث نقفور فوكاس فسادا فى البلاد السورية قبل الشروع فى محاصرة أعظم وأشهر مدينتين فى سورية ، وهمـا أنطاكية وحلب ، حصارا منظما ، حيث سلمت له مدائنهـا الواحدة بعد الأخرى[٤] .

أما نتيجة هذه الغزوات فقـد وصفها ڤاسيل إڤ فى هـذه الكلمات : ”لم يبلغ قط اخضاع العرب وإذلالهم فى وقت من الأوقات مثلما بلغه فى عهد نقفور فوكاس . فقد انتزعت من أيديهم كيلكيا[٥] وجزء من بلاد سورية ، واعترف شطر كبير من بلاد الدولة (العباسـية) بالتبعيـة للامبراطورية“[٦] .

---

(١) ذكر مسكويه (ج ٢ ص ٢٣٩) أن وفاة نقفور كانت فى سنة ٣٥٦ هـ . وقال يحيى بن سعيد (ص ١٣٧) إنه مات فى المحرم سنة ٣٥٩ . وعدد الذهبى (مسكويه ج ١ ص ٢٥٣ حاشية ١) انتصارات نقفور فى الشام عند كلامه على حوادث سنة ٣٥٧ هـ .

(٢) مسكويه (ج ٢ ص ١٣٩) ، ويحيى بن سعيد (ص ١٢٠ و ١٣٦) ، وأبو شجاع (ص ١٢ و ١٣) .
Vasil' Ev., Cambridge Mediæval History, vol. IV. p. 144. Gibbon, vol. VI. p. 58.

(٣) مسكويه (ج ٢ ص ٢١٠ و ٢١١) ، ويحيى بن سعيد (ص ١١٨)

(٤) يحيى بن سعيد (ص ١٤٧)

(٥) يراد من كيلكيا أو كيلكليا البلاد التى فوق زاوية خليج اسكندرونه ، وهى المعروفة عند العرب بقاليقلا .

(٦) Vasil'Ev., Cambridge Mediæval History, vol. IV, pp. 146–147

عبـــور الإغريق الفرات :

كان عبور الفرات فى الجهات الواقعـة أسفل جبال طوروس مستحيلا على الاغريق منذ أيام هرقل . ولكن زيميسكيس استطاع أن يكتسح كثيرا من المدن العريقة فى الشهرة ، من أمثال الرُّها وديار بكر وميّافارقين ونصيبين الواقعة عند حد الامبراطورية القديم على مقربة من نهر دجلة [١] .

ولقـد تفاقم رعب الناس بمـا أذاعه الفالة عن زيميسكيس وما كان يصحب ذكر اسمـه من خوف وهلع ، حتى إن المطيع العباسى لم يتمـالك ، على ماذكره مسكويه[٢] ، أن أعلن أن أسلحته وخراج دولته قد انتزع من يديه ، وأنه لم يعد قادرا على الدفاع عن بغداد

على أن مخاوف أهـل بغداد قد تبددت بانسحاب البيزنطيين ، الذين لم يقووا على تحمل العطش والجوع اللـذين تعرضوا لهما فى حربهم فى الصحراء[٣] ؛ ولم يتمكن العباسيون ، بالرغم ممـا تكبدوه من المشاق فى حربهم مع البيزنطيين ، إلا من استرجاع مدينة كيليكيا وجزيرة قبرص[٤] .

(٣) الأحوال التى ساعدت على استقرار سلطان الفاطميين فى مصر وفى الشرق عقب غزوهم مصر

على أن هذه الحالة التى سادت البلاد الخاضعة لسلطان القاهرة وبغداد قد سهلت — كما بينا من قبل — على الفاطميين القضاء على سلطان العباسيين فى كل من مصر والشام . إذ أنه بتوطيد نفوذهم فى مصر استطاعوا أن يمدوا هذا السلطان إلى الشرق ، أعنى إلى الشام والحجاز ، إن لم يكن إلى أبعد منهما ، لأن هذين القطرين كانا فى ذلك الحين خاضعين لحكم الأخشيديين .

إعداد المعز المعدات لفتح مصر :

وكان الاستعداد لفتح مصر قائمـا على قدم وساق منذ سنة ٣٥٦ هـ (٩٦٧ م) . فقد شرع المعز فى إنشاء الطرق وحفر الآبار ، وإقامة المنازل للاستراحة فى فترات منتظمة ؛ وبدأ فى نفس الوقت

---

(١) مسكويه (ج ٢ ص ٣٠٣ و ٣٠٤) ويحيى بن سعيد (ص ١٣٩ و ١٤٠ و ١٤٧ و ١٤٨ و ١٥٨ و ١٥٩) وأبو الفدا (ج ٢ ص ١١٨)

(٢) (ج ٢ ص ٣٠٦)

(٣) ابن الأثير (ج ٨ ص ٢١٤)

(٤) يحيى بن سعيد (ص ١٤٣)

يجمع الأموال لينفق منها على حروبه ، ويجزل الأموال على كتامة ليمدوه بجند من أنصارهم مجهزين بما يحتاجون اليه من معدات[١] .

وقد ساعد على فتح مصر ومد سلطان المعز منها الى الشرق ، ذلك الهدوء الذى انتشر فى أرجاء إفريقية ، وبخاصة بلاد مصر عند ما ظهر فيها الاضطراب وسوء النظام وانتشر فيها القحط والوباء بعد وفاة كافور ، وانه كان بمصر جماعة يُعتد بهم من أصحاب المناصب العالية الذين يدينون بمذهب الشيعة ، مما لم يَخْفَ على المعز لدين الله .

وقد أورد لنا المقريزى ، ولا ندرى من أى مصدر أخذ ولا من أى تاريخ استقى ، أن المعز كشف عن سياسته فى خطبة ألقاها على رؤساء كتامة ، لا بأس من نقلها هنا ، لأنها ولا شك وثيقة تاريخية متضمنة للخطة السياسية التى اعتزم المعز نهجها من الناحية السياسية والدينية والأدبية قال :

" واستدعى المعز وهو بالمنصورية فى يوم شات بارد الريح ، عدة شيوخ من شيوخ كتامة ، وأمر بادخالهم اليه من غير الباب الذى جرى الرسم به . فاذا هو فى مجلس مربع كبير مفروش باللبود على مطارح ، وحوله كساء ، وعليه جبة ، وحواليه أبواب مفتحة تفضى الى خزائن كتب . وبين يديه مرفع ودواة وكتب حواليه فقال : يا إخواننا ! أصبحت اليوم فى مثل هذا الشتاء والبرد فقلت لأم الأمراء ، وإنها الان بحيث تسمع كلامى : أترى إخواننا يظنون أنا فى مثل هذا اليوم نأكل ونشرب ، ونتقلب فى المثقل والديباج والحرير والفنك ، والسمور والمسك والخمر والغناء ، كما يفعل أرباب الدنيا ؟ ثم رأيت أن أنفذ اليكم فأحضركم لتشاهدوا حالى اذا خلوت دونكم واحتجبت عنكم . وانى لا أفْضُلكم فى أحوالكم الا فيما لابد لى منه من دنياكم ، وبما خصنى الله به من إمامتكم . وانى مشغول بكتب ترد علىّ من المشرق[٢] والمغرب ، أجيب عنها بخطى . وانى لا أشتغل بشىء من ملاذ الدنيا إلا بما صان أرواحكم ، وعمر بلادكم وأذل أعداءكم ، وقمع أضدادكم . فافعلوا ياشيوخ فى خلوتكم مثل ما أفعله ، ولا تظهروا التكبر والتجبر ، فينزع الله النعمة عنكم وينقلها إلى غيركم . وتحننوا

---

(١) ابن أبى دينار (ص ٦٢)

(٢) ذكر أبو المحاسن (طبعة Juynboll ج ٢ ص ٤٤٣) ، نقلا عن ابن عبد الجبار ، أن الشيعيين فى مصر أرسلوا الى المعز كتبا قالوا فيها " إذا زال الحجر الاسود (هو كافور الذى كان يتولى حكم مصر) ، ملك مولانا المعز الدنيا كلها " .

على من وراءكم ممن لا يصل الى كتحتنى عليكم ، ليتصل فى الناس الجميل ويكثر الخير وينتشر العدل . وأقبلوا بعدها على نسائكم والزموا الواحدة التى تكون لكم ؛ ولا تشرهوا الى التكثير منهن والرغبة فيهن ، فيتنغص عيشكم وتعود المضرة عليكم ، وتنهكوا أبدانكم ، وتذهب قوتكم ويضعف تمايزكم ؛ فحسب الرجل الواحد الواحدة . ونحن محتاجون الى نصرتكم بأبدانكم وعقولكم . واعلموا أنكم اذا لزمتم ما آمركم به ، رجوت أن يقرب الله علينا أمر المشرق كما قرب أمر المغرب بكم . انهضوا رحمكم الله ونصركم"[1] .

والسياسة التى جرى عليها المعز تظهر ظهورا بينا من هذه الخطبة البليغة ؛ وفيها عنى عناية خاصة ببعض المسائل . ولقد انتهز الخليفة الفاطمى هذه الفرصة ، فأوضح لأشياعه عيشة الزهد والتقشف التى يعيشها ؛ فبين لهم أنه خصص وقته وهمته لبلوغ غاية واحدة ، هى نشر نفوذه الدينى والزمنى فى المشرق .

وقد شرح لهم بعد ذلك الوسائل التى يستطيع بها أن ينفذ سياسته ، حتى يكون لها أثرها فتأتى بالغرض المطلوب منها : فصيانة أرواح رعاياه ، وتعمير بلاده ، واخضاع أعدائهم واذلالهم (يقصد بذلك قمع الثورات التى قد تذكى نارها الأحزاب المعادية لهم فى شمال إفريقية) ، كان هذا كله الخطوات التى لا بد له من أن يدرج فيها لاستتباب النظام ، عسى أن يتمكن بذلك من نشر ألوية السلام والطمأنينة فى كافة ربوع بلاده .

واذا ما تحققت هذه الغاية ، لم يفت الخليفة الفاطمى معنى المثل المشهور " العدل أساس الملك" . ولا غرو فقد عرف أن الظلم والاستبداد يثيران كامن السخط ويذكيان روح العصيان ، مما يؤدى الى القضاء على هذه المجهودات التى يبذلها لاستتباب الأمن والعدل فى بلاده .

ولا يعزب عن أذهاننا أن هذا الخليفة لم يقر أتباعه على التزوج من أكثر من واحدة . "فحسب الرجل الواحد الواحدة" ، عبارة تنطوى تحتها كراهة تعدد الزوجات كراهة تكاد تبلغ التحريم ، مما يؤدى بلا ريب الى انهاك أبدانهم وإضعاف عقولهم ؛ وبذلك يكون الخليفة قد أدرك أثره بنفسه . ونحن نستطيع أن نزيد على هذا القول بأن لهذا الأمر أثرا عظيما فى اضعافهم من الناحية الخلقية أيضا .

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا (ص ٦٠ — ٦١)

وقد وثق الخليفة من أنهم لو أخلصوا لأوامره ونواهيه ، لسهل عليهم أمر المشرق كما سهل عليهم أمر المغرب من قبل . وان ما جاء فى آخر هذه الخطبة التى نستطيع أن نعدها وثيقة من الوثائق التاريخية الهامة يمكّننا من أن نوازن — ولو بعض الشىء — بين المعز وعمر بن الخطاب ، من حيث سياسته التى تنطوى على الحزم وسمو الأخلاق والقدرة على تصريف الأمور — هذه الصفات كلها التى سهلت عليه فتح مصر والشام .

وفى الحق ، إن ما جاء فى بيان هذا الخليفة من أنه كان مشتغلا بما يرد عليه من الرسائل والكتب من المشرق والمغرب ، وأنه كان يجيب عليها بنفسه ، يبين لنا ما كان هنالك من علاقة بين الخلافة الفاطمية و بلاد المشرق حيث انتشرت الدعوة الفاطمية وتمكنت أصولها .

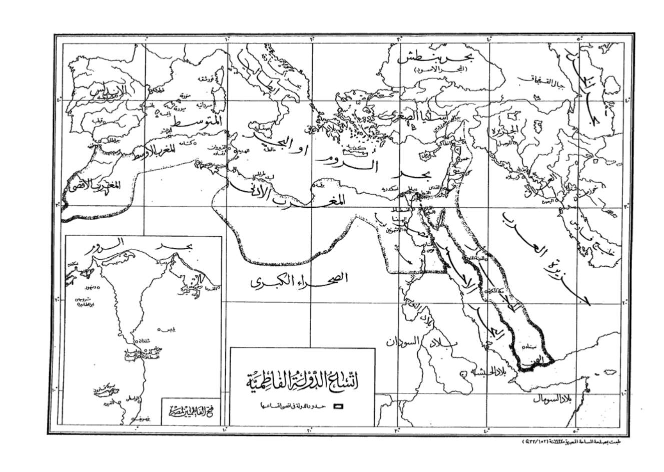
(٤) اختيار مصر مقرا لدعوة الشيعة

لوفرة ثروتها وقربها من الأمصار الإسلامية

لم تكن موارد بلاد المغرب مما يمكن المقارنة بينها و بين موارد مصر ؛ اذ لا شك فى أن مصر كانت تفضلها من حيث ثروتها وموقعها الجغرافى ، وبذلك كانت أكثر صلاحية لتكون مركزا لسلطان الامبراطورية الفاطمية . هذا فضلا عن أن مصر أقرب إلى المشرق الذى دأب المعز على إخضاعه كما دأب على ذلك أسلافه من قبل . فكأن نجاحه فى هذا المشروع يؤدى الى استيلائه على المراكز الاسلامية القديمة أو بعضها : وهى المدينة ودمشق ، وعلى بغداد التى قد استولى عليها بنو بويه سنة ٣٣٤ هـ (٩٤٥ م) .

أما السهولة التى لاقاها النفوذ الفاطمى ، وما كان من امتداد هذا النفوذ الى سورية والحجاز بعد فتح مصر ، فلم قد تحقق بالفعل ؛ على أن الأمل بأن تحو بغداد منحى دمشق والمدينة بعدُ ، أمر لم تحققه الأيام .

نعم ! لقد كان بنو بويه من الشيعيين المتحمسين لمذهب الشيعة ، كما كان الفاطميون أنفسهم ؛ وكانت مسألة تحويل الخلافة من العباسيين إلى العلويين من المسائل التى فكر فيها بنو بويه بادئ ذى بدء بعد انتقال السلطان اليهم . ولكن الميول فى اتحاد المذاهب قل أن يكون لها أثر إذا تنازعت مع المصالح السياسية .



اتساع الدولة الفاطمية
حدود الدولة في أقصى اتساعها
فتح الفاطميين لمصر
بحر بنطش
(البحر الأسود)
آسيا الصغرى
الأندلس
المتوسط
المغرب الأوسط
المغرب الأقصى
بحر الروم
المغرب الأدنى
الصحراء الكبرى
جزيرة العرب
بلاد السودان
بلاد الحبشة
بلاد السومال
الجزيرة

وكان معز الدولة كغيره من آل بويه شيعيا متمكنا فى مذهب الشيعة ؛ وقد اعتنق هذا المذهب على مبادئ الزيدية التى أدخلها فى بلاده الحسن بن زيد العلوى . وكان من أثر نشر عقائد هـذا المذهب أن اعتقد بنو بويه أن العباسيين قد اغتصبوا الخلافة من أصحابها وهم العلويون .

بيد أن معز الدولة بن بويه لمـا فكر فى تنفيذ هذه الفكرة، أشار عليه أحد أنصاره بالعدول عنها، كما يتبين لك ذلك من هذه الكلمات التى قالها له أحد هؤلاء الأنصار، ننقلها عن ابن الأثير حيث قال: „ فانك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهـل الخلافة ؛ ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه ؛ ومتى أجلستَ بعض العلويين خليفة ، كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته ؛ فلو أمرهم بقتلك لفعلوه“[1] .

ونحن نميل إلى ترجيح صحة هـذا القول ؛ فقد انتصح بنو بويه بهذا النصح ، فعدلوا عن مسألة تحويل الخلافة إلى العلويين . وسنقف من أعمـال الفتوح التى قام بهـا الفاطميون على أنهم جعلوا مصر المركز الذى انتشرت منـه دعوتهم فى الشرق والغرب . وسـندرك أيضا أن الفاطميين لم يفكروا فى الاستيلاء على بغداد حتى فى ذلك الوقت الذى ذكرت فيه أسماؤهم فى الخطبة على منابر الدولة العباسية .

ويحدثنا المقريزى[2] أنه عند ما رحل جوهر يريد مصر ، خطب المعز فى المشايخ الذين انضووا تحت لوائه بهـذه الكلمات : „ والله لو خرج جوهر هذا وحده لفتح مصر . ولتدخلن إلى مصر بالأردية من غير حرب ، ولتنزلن فى خرابات ابن طولون وتبنى مدينة تقهر الدنيا “ .

رحيل جوهر إلى مصر :

فى اليوم الرابع عشر من شهر ربيع الآخر سنة ٣٥٨ (فبراير سنة ٩٦٩) ، خرج المعز لوداع جوهر وجيشه عند رحيلهم لغزو مصر . وبعد أن قبَّل جوهر يد الخليفة وحافر فرسه ، أذن له الخليفة بالمسير . ولمـا عاد المعز إلى قصره ، بعث لجوهر كل ما كان عليه من لباس خارجى عدا خاتمه[3] .

وتقدم جوهر فى مسيره حتى وصل إلى الاسكندرية ؛ فسلمت هـذه المدينة له بعد أن أجاب اهليها إلى ما التمسوه من شروط ؛ ولم يشك أحد من الأهلين من عنف أو نهب . ولا غرو فقد

(١) ابن الأثير (ج ٨ ص ١٦٢)

(٢) خطط (ج ١ ص ٣٧٨)

(٣) ابن خلكان (ج ١ ص ١٤٨)

أستطاع جوهر أن يكبح جماح عساكره الذين أغدقت عليهم الأرزاق ، وكان النظام بين وحدات جيشه يدعو إلى الاعجاب[١].

وقد اضطرب أهل الفسطاط حين اتصل بمسامعهم نبأ وصول جوهر إلى الاسكندرية واستيلائه عليها ، فعولوا على ندب الوزير ابن الفرات لمراسلة جوهر بشأن الصلح وطلب الأمان على أرواحهم وأملاكهم ، وسألوا أبا جعفر مسلم بن عبيدالله — وكان من الأشراف ومن ذوى المكانة عند قومه ، ونسبته إلى الحسين بن علىّ أمر معترف به غير منازع فيه — أن يذهب بنفسه ويفاوض جوهرا فى الصلح . وقد رأوا أن سفيرا من العلويين قد يكون له شأن يذكر مع الشيعيين أمثاله ، فتجاب مطالب أهل مصر . فأجابهم أبو جعفر الى ذلك ، وشرط أن يكون معه جماعة من أهالى هذه المدينة [٢] .

وتوجه هذا الوفد فى يوم الاثنين الثامن عشر من شهر رجب سنة ٣٥٨ هـ (١٨ يونيه سنة ٩٦٩) ، وتلاقوا مع جوهر فى مدينة تروجة ، وهى قرية على مقربة من الاسكندرية ؛ فأدى الشريف الرسالة عنهم ؛ فأجابه جوهر الى ما التمسوه وكتب له عهدا بما طلبوه . وفى السابع من شهر شعبان عاد الوفد ومعه العهد إلى الفسطاط ؛ فركب الوزير ابن الفرات ولقى الناس وقرأ عليهم العهد ؛ فتناظروا فيه ، واختلفوا على قبوله ورجعوا عن الصلح .

وهنا اضطرب أهل المدينة اضطرابا شديدا ، وعول أنصار الأخشيديين والكافورية وجماعة من العسكر على عدم الإذعان لعهد الصلح وصد جوهر بحد السلاح ، وولوا نحريرا قيادتهم ؛ فسار على رأس جند المصريين الى الجيزة ، فنزلوا بها وحفظوا الجسور[٣] .

وفى الحادى عشر من شعبان وصل جوهر ، وقد علم بما اعتزمه أهل مصر من المقاومة ، وسار الى منية الصيادين واستولى على المخاضة بمنية شلقان ؛ فلم يجد جماعة من عسكر المصريين بدا من العبور فى القوارب والتسليم لجوهر وطلب الأمان منه ، ووقف غيرهم من العسكر المرابطين فى الجانب الآخر من الفسطاط على المخاضة لحفظها .

---

(١) يحيى بن سعيد (ص ١٣٢)

(٢) الكندى (ص ٥٨٤) ويحيى بن سعيد (ص ١٣٢)

(٣) يحيى بن سعيد (ص ١٣٢ و ١٣٣) وابن خلكان (ج ١ ص ١٤٩)

فلما رأى جوهر ذلك انتزع ملابسه الخارجيـة وعبر مع رجاله وهو فى مركب ، وخاض رجاله وأعملوا السيف فى الأخشيدية وأوقعوا بهم ؛ فهربت الفالة منهم فى غلس الظلام (١٦ شعبان سنة ٣٥٨ ، أول يوليه سنة ٩٦٩) ، وحملوا من منازلهم كل ما قدروا عليه .

ولم ير النسـاء بدا من طلب الأمان . فخرج بعضهن مشاة ودخلن على الشريف أبى جعفر ، وطلبن إليه مكاتبـة جوهر باعادة الأمان ؛ فكتب إليـه يهنئه بالفتح ويسأله الأمان من جديد . فقبل القائد الفاطمى ملتمسهم ، وأذاع على الجند منشورا يحرم فيه عليهم أن يقوموا بعمل من أعمال العنف والنهب . فهدأت المدينة وسكن الناس ، وعاد الأمن إلى نصابه ، وفتحت الأسواق وعادت الأعمال التجارية الى ما كانت عليه [١] .

ولقد أورد لنـا المقريزى شروط الصلح التى عرضها جوهر على المصريين فى بيان واف . ومع أن جوهرا منح المصريين الحرية التـامة فى أمورهم الدينية وإقامة شعائرهم — كل حسب المذهب الذى يدين بعقائده — فان أغراضه التى كانت ترمى إلى نشر عقائد المذهب الفاطمى قد سترت مع ذلك وراء ستار من الجهاد السرى الحكيم .

هـذا ، ويجمل بنا أن نورد هنا نص العهد الذى قطعه جوهر على نفسه ؛ لأنه يمدنا بوصف تام لحالة العالم الأسلامى وقت الفتح الفاطمى ، ويرسم لنا صورة واضحة للسياسة التى عول الفاطميون على الأخذ بها من الوجهة السياسية والدينية فى مصر خاصة والشرق عامة . وستعلم بعد إلى أى حد نجحت سياسة جوهر . والآن نأتى بهذا العهد نقلا عن المقريزى :

" بسم الله الرحمن الرحيم ! هـذا كتاب من جوهر الكاتب عبد أمير المؤمنين المعز لدين الله صلوات الله عليـه ، لجماعة أهل مصر الساكنين بها (من أهلها) ، ومن غيرهم ، أنه قد ورد من سألتموه الترسل والاجتماع معى : وهم أبو جعفر مسلم الشريف أطال الله بقاه ، وأبو اسمـاعيل الرسى أيده الله ، وأبو الطيب الهاشمى أيده الله ، وأبو جعفر أحمد بن نصر أعزه الله ، والقاضى أعزه الله ، وذكروا عنكم أنكم التمستم كتابا يشتمل على أمانكم فى أنفسكم وأموالكم وبلادكم وجميع أحوالكم ؛ فعرفتهم ما تقدم به أمر مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، وحسن نظره لكم . فلتحمدوا الله على ما أولاكم وتشكروه على ما حبـاكم ، وتدأبوا فيما يلزمكم ، وتسارعوا الى طاعته العاصمـة لكم العايدة

(١) ابن خلكان (ج ١ ص ٣٤٣)

بالسعادة عليكم وبالسلامة لكم ؛ وهو أنه صلوات الله عليه لم يكن إخراجه للعساكر المنصورة والجيوش المظفرة ، إلا لما فيه إعزازكم وحمايتكم والجهاد عنكم[١] ؛ إذ قد تخطفتكم الأيدى واستطال عليكم المستذل ، وأطمعته نفسه بالاقتدار على بلدكم فى هذه السنة ، والتغلب عليه وأسر من فيه والاحتواء على نعمكم وأموالكم حسب ما فعله فى غيركم من أهل بلدان الشرق ؛ وتأكد عزمه واشتد كلبه ، فعاجله مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه باخراج العساكر المنصورة ، وبادره بانفاذ الجيوش المظفرة دونكم ، ومجاهدته عنكم وعن كافة المسلمين ببلدان الشرق الذين عمهم الخزى وشملتهم الذلة ، واكتنفتهم المصائب وتتابعت الرزايا ، واتصل عندهم الخوف وكثرت استغاثتهم ، وعظم ضجيجهم وعلا صراخهم ؛ فلم يغثهم الا من أرمضه أمرهم ومضه حالهم وأبكى عينه ما نالهم ، وأسهرها ما حل بهم ، وهو مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، فرجا بفضل الله عليه وإحسانه لديه ، وما عوده وأرجاه عليه ، استنقاذ من أصبح منهم فى ذل مقيم وعذاب أليم ؛ وأن يؤمن من استولى عليه المهل ويفرخ روع من لم يزل فى خوف ووجل . وآثر إقامة الحج الذى تعطل وأهمل العباد فروضه وحقوقه لخوف المستولى عليهم ؛ وإذ لا يؤمنون على أنفسهم ولا على أموالهم ؛ وإذ قد أوقع بهم مرة بعد أخرى ، فسفكت دماؤهم وابتزت أموالهم ، مع اعتماد ما جرت به عادته من صلاح الطرقات وقطع عبث العابثين فيها ، ليطرق الناس آمنين ويسيروا مطمئنين ، ويتحفوا بالأطعمة والأقوات ، إذ كان قد انتهى إليه صلوات الله عليه انقطاع طرقاتها لخوف مارتها ، إذ لا زاجر للمعتدين ولا دافع للظالمين ؛ ثم تجويد السكة وصرفها الى العيار الذى عليه السكة الميمونة المنصورية المباركة ، وقطع الغش منها ، إذ كانت هذه الثلاث خصال هى التى لا يتسع لمن ينظر فى أمور المسلمين الا اصلاحها واستفراغ الوسع فيما يلزمه منها ؛ وما أوعز به سيدنا ومولانا أمير المؤمنين صلوات الله عليه الى عبده من نشر العدل وبسط الحق ، وحسم الظلم وقطع العدوان ، ونفى الأذى ورفع المؤن والقيام فى الحق ، وإعانة المظلوم مع الشفقة والاحسان ، وجميل النظر وكرم الصحبة ، ولطف العشرة واقتفاء الأحوال ، وحياطة أهل البلد فى ليلهم ونهارهم وحين تصرفهم فى أوان ابتغاء معاشهم ، حتى لا تجرى أمورهم الا على مالم شعثهم وأقام أودهم ، وجمع قلوبهم وألف كلمتهم

---

(١) قد تكون الاشارة هنا الى الغارات التى شنتها جيوش الامبراطورية البيزنطية ، وقد استولت على كيليكيا وقبرص ، وكانوا على وشك التقدم نحو بلاد الجزيرة وقلب الشام وتهديد مصر . وقد تقدم القول بأن الجيوش البيزنطية استطاعت أن تصل فى غزواتها الى بلاد الشام تحت قيادة نقفور فوكاس ، الذى وقعت فى يده انطاكية سنة ٣٥٩ هـ (٩٦٩ م) ، وأوقع الهزيمة بعساكر الشام والأساطيل المصرية التى كان قد بعث بها جوهر بعد أن تم له فتح مصر سنة ٣٥٨ هـ ؛ وكان قد عول على ارسالها لمحاربة الخليفة العباسى الذى كان ينظر اليه نظرة الخارج على الدين لاعتناق مذهب السنة ؛ وكذلك لمقاتلة القرامطة الذين هاجموا الحجاج وسلبوهم أمتعتهم .

على طاعة (وليه) مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، وما أمره به مولاه من إسقاط الرسوم الجائرة التى لا يرتضى صلوات الله عليه باثباتها عليكم . وأن أجيركم فى المواريث على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وأضع ما كان يؤخذ من تركات موتاكم لبيت المال من غير وصية من المتوفى بها ، فلا استحقاق لمصيرها لبيت المال . وأن أتقدم فى رم مساجدكم وتزيينها بالفرش والايقاد ، وأن أعطى مؤذنيها وقومتها ومن يؤم الناس فيها أرزاقهم ، وأدرها عليهم ولا أقطعها عنهم ولا أدفعها الا من بيت المال ، لا بإحالة على من يقبض منهم ؛ وغير ماذكره مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه مما ضمنه كتابه هذا ، من ترسل عنكم أيدهم الله وصانكم أجمعين بطاعة مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، من أنكم ذكرتم وجوها التمستم ذكرها فى كتاب أمانكم ، فذكرتها إجابة لكم وتطمينا لأنفسكم ؛ فلم يكن فى ذكرها معنى ولا فى نشرها فائدة ؛ اذ كان الاسلام سنة واحدة وشريعة متبعة ، وهى إقامتكم على مذهبكم ، وأن تتركوا على ما كنتم عليه من أداء المفروض فى العلم والاجتماع عليه فى جوامعكم ومساجدكم ، وثباتكم على ما كان عليه سلف الأمة من الصحابة رضى الله عنهم والتابعين بعدهم ، وفقهاء الأمصار الذين جرت الأحكام بمذاهبهم وفتواهم ؛ وأن يجرى الأذان والصلاة وصيام شهر رمضان وفطره وقيام لياليه ، والزكاة والحج والجهاد على ما أمر الله فى كتابه ونصه نبيه صلى الله عليه فى سنته ؛ وأجرى أهل الذمة على ما كانوا عليه . ولكم علىّ أمان الله التام العام الدائم المتصل الشامل الكامل المتجدد المتأكد على الأيام وكرور الأعوام فى أنفسكم وأموالكم ، وأهليكم ونعمكم وضياعكم ورباعكم ، وقليلكم وكثيركم ، وعلى أنه لا يعترض عليكم معترض ولا يتجنى عليكم متجن ولا يتعقب عليكم متعقب ، وعلى أنكم تصانون وتحفظون وتحرسون ، ويذب عنكم ويمنع منكم ؛ فلا يتعرض إلى أذاكم ولا يسارع أحد فى الاعتداء عليكم ولا فى الاستطالة على قويكم فضلا عن ضعيفكم ؛ وعلى ألا أزال مجتهدا فيما يعمكم صلاحه ويشملكم نفعه ، ويصل اليكم خيره وتتعرفون بركته ، وتغتبطون معه بطاعة مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه . ولكم علىّ الوفاء بما التزمته وأعطيتكم اياه ، عهد الله وغليظ ميثاقه وذمته وذمة أنبيائه ورسله ، وذمة الأئمة موالينا أمراء المؤمنين قدس الله أرواحهم ، وذمة مولانا وسيدنا أمير المؤمنين المعز لدين الله صلوات الله عليه ، فتصرحون بها وتعلنون بالانصراف اليها ، وتخرجون الىّ وتسلمون علىّ ، وتكونون بين يدى الى أن أعبر الجسر وأنزل فى المناخ المبارك ، وتحفظون وتحافظون من بعد على الطاعة وتثابرون عليها وتسارعون الى فروضها ، ولا تخذلون وليا لمولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، وتلزمون ما أمرتم به . وفقكم الله وأرشدكم أجمعين ! [١] " .

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٦٧ — ٧٠

وإن ما تضمنته هذه الخطبة التى ألقاها المعز على شيوخ كتامة قبل مسير جوهر الى مصر ، توضح لنا اشتغال الخليفة بما كان يرد عليه من مكاتبات تأتيه من الشرق . وهى حقيقة يؤيدها الواقع من أن جيوش الفاطميين لم تلاق مقاومة ذات بال من جانب السواد الأعظم من المصريين . فمن الجلى أن جوهرا تقدم فى السير من تروجة الى الجيزة من غير قتال ولا حرب ؛ بل ولم نسمع أيضا عن أية مقاومة لاقاها جوهر من حامية الاسكندرية التى سلمت اليه بشروط مقبولة لديهم .

أجل ! لقد مهد السبيل أمام جوهر السلطات المصرية برياسة الوزير ابن الفرات ، الذى بعث الى جوهر بوفد يمثل المصريين جميعا على اختلاف طوائفهم الدينية ونزعاتهم السياسية . وقد عهد برياسة هذا الوفد الى أبى جعفر مسلم ، وكان —كما تقدم— ذا مكانة عالية ، ومن سلالة الحسين بن علىّ . وقد دفع الوزير الى اختياره أنه من العلويين ، مما جعل له شأنا يذكر فى انجاح المفاوضات . ولقد ظهرت الحكمة التى أوحت الى الوزير باختياره ؛ فسرعان ما تعاقد معهم جوهر على هذه الوثيقة التى نقلناها عن المقريزى .

ويحدثنا ابن خلكان أن فتح الفاطميين لمصر كان أمرا منتظر الوقوع لدى العساكر المصريين وبعض رجالات مصر من أصحاب المراتب العالية ، وأنهم كتبوا الى المعز يطلبون اليه أن يرسل جيشا يستولى على العاصمة[١] .

ولا غرو فان المقاومة الوحيدة التى تكلم عنها المؤرخون لم يقم بها الا أشياع الأخشيديين والضباط الذين كانوا فى خدمة كافور ؛ على أن هؤلاء وأولئك لم يكونوا الا أقلية ضئيلة من العساكر المصريين . وإن اعتزال بعض رجالهم الذين عبروا فى القوارب واستأمنوا لجوهر ، جعل القضاء على مقاومة الجيوش المصرية أسهل وأيسر .

ولم يعارض المصريون فى تحويل طاعتهم من خليفة عباسى الى خليفة علوى ، لأنهم كانوا يدركون الادراك كله ان انتقال السلطة من عباسى الى فاطمى ، أو من سنى الى شيعى ، ليس من شأنه أن يحدث أى تغيير فى حالتهم السياسية ، لأنهم سيخضعون فى كلتا الحالتين لسلطان هذا الحاكم أو ذاك .

---

(١) ابن خلكان (ج ١ ص ٣٤٨) .

على أن تغيير الحكم قد يصحبه تحسين فى أحوالهم الداخلية . فقد وصلوا تحت حكم العباسيين الى الدرك الأسفل من البؤس والشقاء . وقد جعل هذا العهد الذى أعطاه جوهر للمصريين تحقيق هذه الآمال أمرا محتمل الوقوع . ذلك أن تأمينهم على أرواحهم وأموالهم ، وحمايتهم مما لحقهم من ظلم حكامهم السابقين ، ومن غارات القرامطة الذين طالما تعدوا على حجاجهم ، ومن غزوات الاغريق ، وقد وقع فى أيديهم أقليم كيليكيا ، وكانوا على أهبة المسير الى الشام ، كل ذلك قد أقره الخليفة الفاطمى فى هذا العهد على لسان قائده .

يضاف الى ذلك أن المصريين قد رحّبوا بهذه الدعوة التى كانت ترمى الى اصلاح المساجد وتحسين السكة والغاء السخرة ، ومنحهم الحرية التامة — مسلمين كانوا أو ذميين — فى اقامة شعائرهم الدينية ، كل حسب دينه ومذهبه .

وقد قصد من هذه السياسة التى تجلى لك من بيان جوهر العمل لصالح مصر ؛ ودأب جوهر على تنفيذها هو ومن جاء بعده من الخلفاء الفاطميين ، اللهم الا اذا استثنينا من ذلك ما كان من وعده منح الحرية التامة فى اقامة شعائر الطوائف الدينية على اختلاف نحلها ومذاهبها ، لأن جوهرا قد أقر فى بيانه ما للعلويين من حقوق ؛ حتى اذا ما تم الفتح ، أصبحت السيادة للمذهب الشيعى . وسيتضح لك ذلك فى الباب الآتى .

تأسيس القاهرة[1] :

وضع جوهر أساس القاهرة عاصمة الفاطميين الجديدة ، والتى لا تزال الى اليوم ، فى ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ بعد أن استولى على مدينة مصر (كانت تطلق على الفسطاط والعسكر والقطائع) . وكانت هذه المدينة الجديدة محاطة بسور من آجر كبير الحجم ، شاهد المقريزى بقاياه سنة ٨٠٢ هـ (١٤٠٠م) ؛ وقد تخلل هذا السور فضاء متسع أطلق عليه فيما بعد " بين القصرين " ، وكان يسع عشرة آلاف من الجند ، ولا زال بعضه يعرف اليوم بسوق النحاسين . والى الشرق منه يقع قصر الخليفة ؛ ويعرف جزء منه الآن بخان الخليلى ، وآخر بمسجد الحسين ، وهذا (بين القصرين) أطلق على الميدان فيما بعد ، بعد أن بنى العزيز بالله قصرا أصغر من القصر الذى بناه جوهر لمولاه المعز على جانبه الغربى ، عند مبدأ هذه الحديقة الغناء التى أنشأها كافور ، واستحوذ عليها الخلفاء الفاطميون فيما بعد .

---

(1) Prof. Margoliouth : Cairo, Jerusalem and Damascus, p. 21.

• راجع كتاب الخطط التوفيقية لعلى مبارك باشا الجزء الأول (ص ٤ — ٢٢)

وقد اختط طريق عام يخترق وسط القاهرة من باب زويلة جنوبا ، و يتصل بمدينة الفسطاط مارا فيما بين القصرين حتى باب الفتوح ، وكان يوصل الى الفضاء الواقع فى الشمال . والى الجنوب الشرقى من قصر الخليفة يقع الجامع الأزهر الذى شرع جوهر فى بنائه (فى ٢٤ جمادى الأولى سنة ٣٥٩) بعد أن وضع أساس العاصمة الجديدة . وقد تم بناء السور المحيط بالقاهرة سنة ٣٥٩ هـ . والى الجنوب والشرق منه كانت تقع مدينة الفسطاط التى ظلت مركز الحركة التجارية وموطن الأهلين حتى نهاية عهد الفاطميين .والى الغرب تقع المقس ، وكانت تمتد الى النيل ؛ وظلت ميناء القاهرة الى أن تحول مجرى النيل فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر للميلاد ، فمهد ذلك السبيل لتأسيس بولاق .

وكانت القاهرة وقت إنشائها تمتد من منارة جامع الحاكم الى باب زويلة ؛ وكانت حدودها الشرقية هى بنفسها حدود القاهرة الحالية . وأما من الجهة الغربية فلم تتجاوز شارع الخليج .

وقد ذكر على مبارك باشا أن طول كل جانب من جوانب المدينة التى أسسها جوهر (القاهرة) كان يبلغ ألفا ومائتى متر . ومساحة هذا المكان ٣٤٠ فدانا (الفدان ٤٢٠٠ متر مربع) ، كان القصر يشغل منها مساحة مقدارها سبعون فدانا ؛ وكانت حديقة كافور تشغل خمسة وثلاثين ؛ وخمسة وثلاثين للمكان المخصص لاستعراض الجند ، والباقى وقدره مائتا فدان لسكنى العساكر . وقد زاد السور الذى أقامه أمير الجيوش بدر الجمالى فى مساحة المدينة ستين فدانا . وقد بنى هذا السور من الحجر الكبير الحجم ؛ وكان به ثلاثة أبواب لا تزال باقية الى اليوم ، وهى باب زويلة وباب الفتوح وباب النصر .

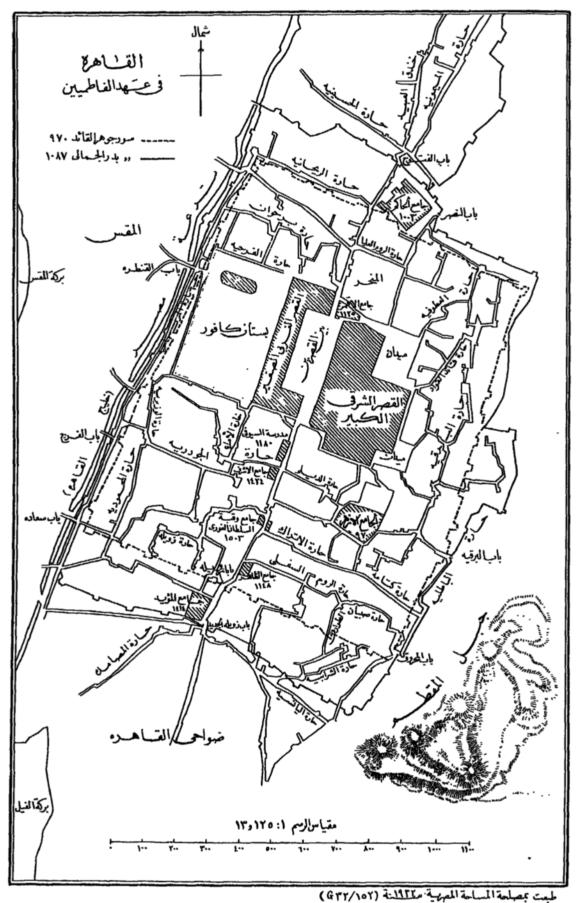
استقرار سلطان الفاطميين فى الشام والحجاز :

رأى جوهر بحكم ولايته على مصر ضرورة التدخل فى أمور الشام السياسية . وكان بعض جهاتها جزءا من أملاك الدولة الأخشيدية ؛ وكانت تدين لها بالتبعية الاسمية على الأقل . وقد استقل بولاية حلب أمراء من الشيعة ، كما استقل الحسن الأخشيدى (الذى عاد الى الشام بعد أن صادر الوزير ابن الفرات) بولاية الرملة . وبعث جوهر الى الحسن هذا جيشا تحت إمرة أحد قواده جعفر ابن فَلَاح[1] ؛ فشن الغارة على بلاده وأوقع به (ذو القعدة سنة ٣٥٨ سبتمبر سنة ٩٦٩) [2] .

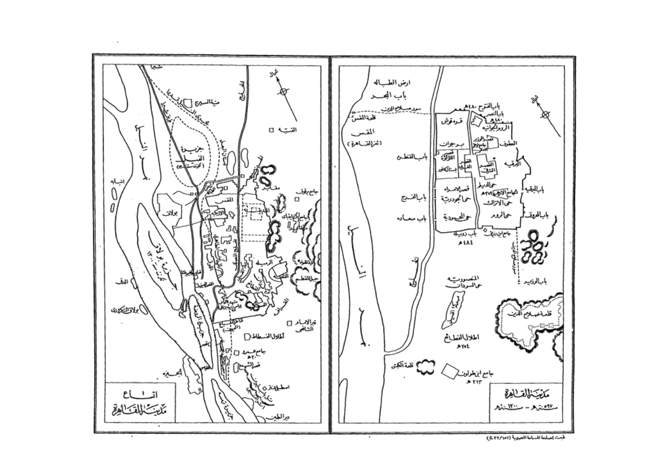
---

(١) كان جعفر بن فلاح من قبيلة كتامة من البربر ، ومن قواد المعز ، وقد بعث به فيمن أرسلهم مع جوهر لغزو مصر .

(٢) أسر الحسن وسيق الى الفسطاط ، ثم حبس فى شمال إفريقية حيث مات بها سنة ٣٧١ هـ .



طبعت بمصلحة المساحة المصرية سنة ١٩٣٢ (G٣٢/١٥٢)



طبعت بمصلحة المساحة المصرية (١٥٢/٣٢ ع.)

وقد واصل جعفر مسيره الى طبرية حيث علم أن الدعوة قد أقيمت للخليفة الفاطمى ، ثم استأنف المسير الى دمشق ، ودخلها فى المحرم سنة ٣٥٩ بعد أن لاقى من الأهلين قليلا من المقاومة . وفى يوم الجمعة التالى حذف من الخطبة اسم الخليفة العباسى ، وأقيمت للخليفة الفاطمى[١] .

على ان استيلاء الفاطميين على دمشق قد أوقعهم فى نزاع مع القرامطة ؛ وذلك ان دمشق كانت تدفع الجزية لزعيم القرامطة ردحا من الزمن ؛ فغدت هذه الجزية لا تدفع اليهم بعد استيلاء الفاطميين على هذه المدينة. وقد سار جعفر الى الدكة[٢] ، الواقعة على نهر يزيد بالقرب من دمشق ، لملاقاة الحسن القرمطى الملقب بالأعصم ، وكان قد خف للزحف وشن الغارة عليه . ولما دارت رحى الحرب ، أسر جعفر وقتل ، ووقع كثيرون من أتباعه صرعى فى حومة القتال (يوم الخميس ٦ ذو القعدة سنة ٣٦٠ وسبتمبر سنة ٩٧١ م)[٣] .

وقد أسرع الحسن بالسير نحو الجنوب بعد استيلائه على دمشق ؛ فمر بالرملة وانقض على مصر ، وهاجم القلزم (السويس) والفرما على غرة ، وتحكم بذلك على برزخ السويس ، فاعترفت بسلطانه مدينة تنيس . ومن ثم تقدم فى داخل البلاد ، وعسكر برجاله فى عين شمس (هليوبوليس) وهدد القاهرة .

ولما تلقى جوهر نبأ وصول الحسن الى برزخ السويس ، شرع فى اعداد وسائل الدفاع ، وبعث فى الحال رجالا من عنده الى معسكر القرامطة ، فاندسوا بينهم وتظاهروا بالسخط على الفاطميين ؛ وما زالوا بهم حتى أوقعوا بينهم الفساد . وبعد قليل حاول الحسن الاستيلاء على الخندق عنوة ؛ ولكنه ارتد على أعقابه وقد تكبد خسائر فادحة ، بفضل ما أظهره المتطوعون من المصريين الذين انضووا تحت لواء جوهر وحاربوا فى صفوفه من بلاء لم يكن يتوقع منهم ؛ وأسر من عساكر

---

(١) ذكر أبو الفدا (ج ٢ ص ١١٥) أن أهالى دمشق ثاروا على الخلافة الفاطمية وقطعوا الخطبة للمعز ، وسرعان ما قضى جعفر بن فلاح على الثائرين وأعاد سلطان الفاطميين .

(٢) راجع هذا اللفظ فى معجم البلدان لياقوت .

(٣) بعد موت جعفر وجدت هذه الأبيات مكتوبة على باب قصره :

يا منزلا عبثَ الزمانُ بأهله ... فأبادهم بتفرقٍ لا يُجمَعُ

أين الذين عهدتهم بك مرةً ؟ ... كان الزمان بهم يضر وينفع

ابن خلكان (ج ١ ص ١٤١)

الأخشيديين خلق كثير، وكانوا قد انضموا الى الحسن وقاتلوا فى صفوفه . وبذلك أرغم القرامطة على الرجوع الى القلزم، تاركين المصريين ينهبون أمتعتهم [١] .

وكانت أخبار القرامطة وما كان من حروبهم فى مصر قد اتصلت بمسامع الخليفة الفاطمى . ولما وقعت الهزيمة بالحسن القرمطى، وصلت الامداد من القيروان تحت إمرة ابن عمار؛ فتقوى بذلك جوهر وزحف الى تنيس، وعفا عن هفوات أهلها التى ارتكبوها بانضمامهم الى العدو .

وسرعان ما ارتد أسطول القرامطة من النيل، تاركا وراءه سبعة مراكب حربية وخمسمائة أسير. وبهذا كله استطاع جوهر أن يقضى على هذه الحروب التى شنها القرامطة على مصر، وما لبث أن اقتفى آثارهم وخلص يافا من أيديهم؛ أما الحسن فانه عاد الى دمشق وأخذ فى التأهب للقتال من جديد .

ويحدثنا أبو الفدا[٢] أن قرعوية، الذى آلت اليه ولاية حمص وحلب بعد موت مولاه سيف الدولة الحمدانى، أقام الخطبة للعز؛ وأقيمت الدعوة فى المدينة للطيع العباسى، وفى مكة للعز[٣] .

رحيل المعز الى مصر :

ورأى جوهر فى ذلك الحين أن الوقت قد حان لحضور المعز بنفسه وتسلم زمام الحكم . ويذكر ابن خلكان[٤] أن جوهرا كتب بذلك للعز غير مرة، ثم بعث اليه رسولا يحمل خبر خضوع مصر والشام والحجاز[٥] لسلطانه، وأن الدعوة قد أقيمت له فى كافة أرجاء هذه البلاد؛

---

(١) أبو الفدا (ج ٢ ص ١١٧ و ١١٨)

(٢) (ج ٢ ص ١١٧)

(٣) ذكر المقريزى (خطط ج ١ ص ٣٥٣) أن الحسن بن جعفر الحسنى أقام الدعوة للعز على أثر فتح مصر على يد جوهر، فبعث جوهر بالخبر للعز، فقلده ولاية مكة وخلع عليه . ويقول ابن الأثير (ج ٨ ص ٢٢٠) إن الدعوة كانت تقام فى مكة سنة ٣٦٠ هـ للخليفة العباسى، وفى المدينة للعز الفاطمى . هذا، ولم تقم الدعوة للخلفاء الفاطميين الا فى عهد العزيز سنة ٣٦٦ هـ، "حيث خطب للعزيز بمكة والمدينة، ولم يخطب للطائع" .

تاريخ ابن الجوزى — مكتبة بودليان بأكسفورد، مخطوط (Pocock) ٣٧٠، ورقة ٨٧ أ .

(٤) (ج ٢ ص ١٣٤)

(٥) يعلم مما أورده أبو الفدا (ج ٢ ص ١١٧) أن سلطان الفاطميين لم يستقر فى الشام والحجاز حيث كانت الدعوة تقام باسم الخليفة العباسى .

فسر المعز بذلك سرورا عظيما . ولما تقررت قواعد ملكه فى مصر، استخلف بُلُكِّين بن زيرى ابن مناد الصنهاجى على إفريقية،[١] "وتوجه الى مصر بأموال جليلة المقدار ورجال عظيمة الأخطار، وحمل معه جثث آبائه الثلاثة الذين تولوا الخلافة قبله" .

وخرج المعز من المنصورية[٢] دار ملكه يوم الاثنين ٢١ شوال سنة ٣٦١ (٥ أغسطس سنة ٩٧٢)، ومر فى طريقه على برقة ودخل الاسكندرية يوم السبت ٢٣ شعبان سنة ٣٦٢[٣] (٢٩ مايو سنة ٩٧٣) وهو ممتط جواده، فقدم عليه القاضى أبو الطاهر محمد بن أحمد وأعيان البلاد وسلموا عليه .

وجلس الخليفة عند المنارة ذلك اليوم، وخطبهم خطبة طويلة؛ فقال إنه لم يرد دخول مصر لزيادة فى ملكه ولا لمال، وانما أراد اقامة الحق وحماية الحجاج واعلان الجهاد ضد الكفار، وأن يختم حياته بالأعمال الصالحة، ويعمل بما أمر به جده صلى الله عليه وسلم، ووعظهم وأطال فى الوعظ حتى استدر دموع بعض الحاضرين؛ وخلع بعد ذلك على القاضى وبعض من كان فى جماعته، وحملهم على الخيل المطهمة، ثم انصرفوا[٤] .

ثم غادر المعز الاسكندرية فى أواخر شعبان، فوصل الى ساحل مدينة مصر المقابل للجيزة؛ فخرج اليه القائد جوهر، وترجل عند لقائه وقبّل الأرض بين يديه . وأقام المعز فى الجيزة ثلاثة أيام؛ ثم أخذت عساكره فى العبور الى ساحل مصر . وفى يوم الثلاثاء الخامس من شهر رمضان، عبر المعز النيل ودخل القاهرة من غير أن يمر على مصر فى طريقه، وقد أقام له الأهلون معالم الزينة على جانبى الطريق، ظنا منهم أنه سيشرفها بزيارته .

---

(١) ذكر ابن خلكان (ج ١ ص ١١٥) أن ذلك كان يوم الأربعاء ٢٢ ذى القعدة سنة ٣٦١ (سبتمبر سنة ٩٧٢) . وقد أمر المعز الناس بطاعة بلكين الذى أصبحت له ولاية هذه البلاد، وجبى باسمه الخراج .

(٢) أطلق اسماعيل بن المنصور ثالث الخلفاء الفاطميين هذا الاسم على مدينة صبرة، وتتصل بالقيروان . وقد بناها المنصور الفاطمى فى سنة ٣٣٧ هـ واستوطنها وسماها المنصورية . (انظر البكرى ص ٢٥)

(٣) خالف ابن خلكان فى ذلك ما أجمع عليه المؤرخون، وهو أن رحيله كان سنة ٣٦٢ هـ .

(٤) ابن خلكان (ج ٢ ص ١٣٤)

ولما وصل القاهرة ودخل القصر الذى بناه له جوهر وصار فى احدى ردهاته ، خر ساجدا لله تعالى ؛ ثم صلى ركعتين ، وانصرف الناس عنه . وقد أطلق على المدينة التى بناها جوهر للعز اسم القاهرة المعزية ، نسبة الى الخليفة المعز[١] .

وفى يوم الجمعة السابع عشر من المحرم سنة ٣٦٤ (٧ أكتوبر سنة ٩٧٤) تسلم المعز من جوهر دواوين مصر وجباية أموالها والنظر فى أحوالها . وقد تولى جوهر[٢] أمور مصر زهاء أربع سنين وعشرين يوما حتى دخل المعز القاهرة واستقر فى قصره[٣] .

وهكذا ثبتت قواعد الخلافة الفاطمية فى مصر ، وأصبحت القاهرة ، بدل القيروان ، مركز هذه الامبراطورية الشاسعة الأرجاء[٤] .

---

(١) ابن خلكان (ج ٢ ص ١٣٥)

(٢) كان جوهر محسنا الى الناس الى أن توفى يوم الخميس العشرين من ذى القعدة سنة ٣٨١ هـ (يناير سنة ٩٩٦ م) ولم يبق شاعر الا رثاه وذكر مآثره .

(٣) ابن خلكان (ج ١ ص ١٤١ و ١٤٢)

(٤) إن الاسهاب فى بيان العلاقات التى كانت بين مصر والشام والعالم الاسلامى عامة فى عهد الفاطميين مما لا يتسع له هذا البحث . على أنى لن أغفل الاشارة الى ذلك كلما دعت الحالة اليه . هذا وقد نجح الفاطميون فى تأسيس سلطانهم فى القاهرة التى اتخذوها حاضرة لامبراطوريتهم ؛ فغدت المركز الذى منه انتشرت شعائر المذهب الفاطمى الذى لم يدخر الفاطميون جهدا فى نشره وتأييده . ولقد خطب للعزيز سنة وفاته (٣٨٦ هـ ٩٩٦ م) فى مصر والشام والحجاز ، وأقيمت الدعوة فى الموصل على يد أبى دؤاد محمد بن المسيب أمير هذه البلاد الملقب بحسام الدولة ، وفى اليمن أقيمت الخطبة باسم هذا الخليفة (ابن خلكان ج ٢ ص ٢٠١) .

الباب الثالث

تنظيم الدعوة الفاطمية فى مصر

الدعاية العلميـــة

خطوات الفاطميين الأولى لنشر دعوتهم

لقد آل الملك للفاطميين ونجحوا فى تأسيس خلافة علوية مستقلة باسم الدين وبفضـل انتسابهم الى النبي ، مؤيدين دعواهم بمـا نشروه من عقائد ذات صبغة دينية بحتة ؛ ودللوا على صحة هـذه الدعوة بأنهم خلفاء النبي حقا ، وأن حقهم المقدس فى الخلافة قد اغتصب منهم اغتصابا .

ومنذ النصف الأخير من القرن الثالث للهجرة تأثر مذهب الشـيعة الأول بمـا طرأ عليه من تغيرات عظيمة ؛ وذلك من تأثر بعض هؤلاء بالفلسفة الإغريقيـة وأخذهم ببعض العقائد المبنية على الرجعة والتناسخ ؛ ومن ثم غدا مذهب الشيعة فى عهـد الفاطميين خليطا من الدين والفلسفة . وكان من نتيجة هذا المظهر الجديد أن نشأ من الشيعة مذاهب أخرى كالدروز والحشاشين ، لكل منهما عقائده الخاصة .

وقد حدت هذه الأمور كلها بدعاة الفاطميين وغيرهم ممن دخل هـذا المذهب الى رفع أئمتهم ونسبة صفات التقديس اليهم ، هذه الصفات التى رفعتهم الى مستوى الخلود والألوهية .

ولم يكد يستقر سلطان الفاطميين فى مصر حتى رأينا جوهرا لايدخر وسعا فى بث الدعوة للمعز خاصة وللعلويين عامة . بيد أنه لم يكن من السهل عليه أن يجعل المصريين جميعا يعتنقون المذهب الفاطمى ؛ لأن السواد الأعظم كان يدين بالمذهب السنى على اختلاف درجاتهم فى الاخلاص له . أما الشـيعة فانهم كانوا بالنسبة الى المصريين أقلية صغيرة ، تحملت قبل فتح الفاطميين لهذه البلاد

شيئا غير قليل من الاضطهاد وسوء المعاملة . ولا غرو فان المصريين قاموا فى وجه نفوذ الإخشيديين ودانوا بالطاعة للفاطميين لأسباب سياسية لا غير .

نعم ! لقد ساعدوا على إحداث هذا التغيير ورغبوا فيه ، لما حاق بالبلاد فى أواخر أيام الاخشيديين من مصائب متتابعة ، فى وقت لم تتمكن فيه السلطة المركزية فى بغداد من صد غزو الفاطميين .

وكانت أولى المشاكل التى جابهت جوهرا فى هـذه البلاد ، العمل على تخفيف وطأة القحط والمجاعة التى انتابتها . وكان من حسن حظه ، أن المعز لما علم بفتح هـذه البلاد بعث إليه بعدد من السفن المحملة بالحبوب ، مما خفف على أهل مدينة مصر كربهم ردحا من الزمن . كذلك أنشأ جوهر فى الوقت نفسه مخزنا عاما للحبوب عهد برقابته الى المحتسب[١] ، ومهمته منع احتكار هذه الحبوب والانفراد بتقدير أثمانها ، وجلد كل من لم ينزل عند أوامره من أصحاب المطاحن .

على أن هذه الوسائل لم تؤد الى انفراج الأزمة نهائيا ، وان كان لها أثرها فى اكتساب الفاطميين محبة الأهلين ورضاهم . وقد استمرت المجاعة والوباء حتى نهاية سنة ٣٦٠ هـ (٩٧٠ — ٩٧١ م) ؛ ولم تنته المجاعة الا فى الشتاء التالى ، فى غضون الشهور الأولى من سنة ٣٦١ هـ (أكتوبر وما يليه من سنة ٩٧١) ، حيث بدأت البلاد تسترد نشاطها أثر زوال الوباء[٢] .

و بعد أن وضع جوهر أساس مدينة القاهرة حاضرة هـذه البلاد الجديدة ، بعث الى مولاه المعز بكتاب ينبئه فيه بفتح مصر ؛ ثم أمر بقطع الخطبة للعباسيين على كافة منابر مصر ، وأن تضرب السكة باسم الخليفة الفاطمى دون الخليفة العباسى ؛ فضرب على أحد وجهيها "باسم مولاى المعز" . وذكر المقريزى أنه ضرب على أحد وجهيها " دعا الامام معد بتوحيد الاله الصمد " ، وفى السطر الثانى " المعز لدين الله أمير المؤمنين " ، وفى السطر الثالث " (بسم الله !) ضرب هذا الدينار[٣] بمصر سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة " ؛ وضرب على الوجه الآخر "لااله الا الله ، محمد رسول الله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، علىّ أفضل الوصيين وزير خير المرسلين "[٤] .

---

(١) سنفرد فى الباب الخامس كلمة خاصة لبيان واجبات المحتسب

(٢) يحيى بن سعيد (ص ١٢٩ و ١٣٠)

(٣) ذكر ابن ميسر (ص ٤٥) أن قيمة الدينار المضروب باسم الخليفة العباسى الراضى تزلت الثلث ، وأن الدينار المضروب باسم الخليفة الفاطمى المعز بلغت قيمته خمسة عشر درهما ونصفا .

(٤) المقريزى : اتعاظ (ص ٧٦)



جامع عمرو بن العاص — منظر عام للأيوان الشرقي

كذلك أمر جوهر بالكف عن لبس السـواد شعار العباسيين [١] ، وأمر الخطباء بارتداء الملابس البيضاء ، ونهى عن التكبير بعد صلاة الجمعة ، وكان من العادات المألوفة عند السنيين [٢] . وكان جوهر يعقد فى أيام السبت مجلسا للظالم [٣] يحضره الوزير والقاضى وكبار الفقهاء [٤] ، وكان يصدر الأحكام بنفسه [٥] .

---

١ — الدعوة الفاطمية فى المساجد

---

(١) الدعوة الفاطمية فى الجامع العتيق

دخل الاسلام مصر سـنة ٢٠ هـ (٦٤٠ م) . ولم يكن الباعث على بنـاء المساجد منذ ذلك الوقت مقصورا على الأغراض الدينية وحدها ، بل كان ذلك راجعا أيضا إلى أسباب سياسية واجتماعية. " وكانت هذه الأمكنة وأمثالها تستخدم منذ ظهر الاسلام لاجتماع العلماء فيها ، كما اتخذها علمـاء التفسير والحديث مقرا لهم . ولـما لم يكن من الممكن الفصل بين السياسة والدين ، كان المسجد المكان الذى تذاع فيه الأخبار الهامة التى تتعلق بالصالح العام" [٦] .

---

(١) كان يلبس هذا الزى أعضاء الأسرة العباسية وغيرهم من كبار الموظفين .

أنظر دى ساسى (De Sacy : Chrestomathie Arabe, Tome II. pp. 263-266)

(٢) المقريزى : اتعاظ (ص ٧٦)

(٣) " كان الأمير أو أحد كبار موظفيـه يرأس مجلس النظر فى المظالم ويحكم فى القضايا . ومـا دعا إلى إنشاء هـذا المجلس ما كان يعترض تنفيذ أحكام القاضى من عوائق ومصاعب ، ولا سيما اذا كان المدعى عليه من أصحاب المراتب العالية ، أو كان يشغل وظيفة من وظائف الدولة . فلم يكن أحد يجرؤ على عدم الخضوع لـما يصدره هذا المجلس من أحكام ، ولم يكن أحد من القوة بحيث يستطيع التخلص من بطشه وشدة أحكامه " De Slane : Ibn Khallikan's Biographical Dictionary, English Translation, vol. I. pp. 346-347, n. 14.

أنظر المـاوردى ، الأحكام السلطانية (ص ١٢٨ — ١٦٤)

(٤) لابد أن يكون الفقهاء من الشـيعيين ، اللهم الا اذا استثنينا القليل من الفقهاء السنيين الذين كان يعهد اليهم بالمناصب العـالية فى الدولة .

(٥) ابن خلكان (ج ١ ص ١٤٩)

(٦) Prof. Margoliouth: Cairo, Jerusalem and Damascus, p. 40

بعد ذلك أستخدمت المساجد معاهد للتعليم، يتلقى فيها الأطفال اللغة العربية وأصول الدين [١]. ومن الأمثلة الصادقة على ذلك الجامع الأزهر، الذى كان مركزا للتعاليم الاسلامية قرونا عدة، ولا تزال شهرته باقية الى اليوم .

وأقدم هذه المساجد جامع عمرو[٢] . وقد بنى عام ٢١ هـ ، بعد أن فتح مصر عمرو بن العاص مؤسس الفسطاط العاصمة الاسلامية . وقد زاد عدد سكان الفسطاط أيام فتح الفاطميين لمصر عما كانت عليه مدينتا العسكر[٣] والقطائع[٤] ، حيث أقيم فيهما مسجدا العسكر وابن طولون .

وقد أقيمت صلاة الجمعة فى المسجد العتيق ، وخطب فيه للعز فى التاسع عشر من شعبان سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩ م) ، بعد استيلاء جوهر على الفسطاط بأيام قليلة ؛ وبذلك تحققت الفكرة التى كانت ترمى إلى بث الدعوة الفاطمية باسم الفاطميين[٥]. وقد خطب فى هذا اليوم هبة الله بن أحمد خليفة إمام الجامع ، وأدخل العبارة الآتية فى الخطبة بدل ما كان يقال عن العباسيين :

" أللهم صل على عبدك ووليك ، ثمرة النبوة ، وسليل العزة الهادية المهدية ، عبد الله (الامام) معد أبى تميم المعز لدين الله أمير المؤمنين ، كما صليت على آبائه الطاهرين وأسلافه الأئمة الراشدين . اللهم ارفع درجته ، وأعل كلمته ، وأوضح حجته ، واجمع الأمة على طاعته والقلوب على موالاته . واجعل الرشاد فى موافقته ، وورثه مشارق الأرض ومغاربها ، وأحمده مبادئ الأمور وعواقبها ؛ فانك تقول وقولك الحق (ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون[٦]) . فقد امتعض لدينك ، ولما انتهك من حرمتك ، ودرس من الجهاد فى سبيلك ، وانقطع عن الحج إلى بيتك وزيارة قبر رسولك صلى الله عليه وسلم ؛ فأعد للجهاد عدته وأخذ

---

(١) كانت بعض المساجد بمثابة قلاع محاطة بأسوار عالية سميكة .

(٢) لما كان هذا المسجد أقدم مساجد مصر ، أطلق عليه المسجد العتيق وتاج الجوامع والمسجد الجامع — ابن دقماق (ج٤ ص ٥٩)

(٣) أسس هذه المدينة سنة ١٣٣ هـ (٧٥٠ — ٧٥١ م) صالح بن علىّ بن عبد الله بن عباس ، بعد أن تعقب مروان آخر خلفاء الأمويين ، وقبض عليه وقتله . وكان موضع هذه المدينة فضاء قاحلا ، أطلق على جزء منه جبل يشكر . وقد استقر فيه صالح بعسكره ؛ ومن هنا اشتق لفظ العسكر . ابن دقماق (ج ٤ ص ٣٤)

(٤) أسس القطائع أحمد بن طولون (٢٥٤ — ٢٧٠ هـ ٨٦٨ — ٨٨٣م) سنة ٢٥٤ هـ فى سفح جبل المقطم ، حين قضت عليه زيادة عساكره من النوبيين والاغريق وغيرهم باقطاعهم اقطاعات خاصة . وقد بدأ ابن طولون فى بناء مسجده سنة ٢٦٣ هـ (٨٧٦ — ٨٧٧م) ؛ وخطب فيه لأول مرة فى رمضان سنة ٢٦٥ هـ (ابن دقماق ج ٤ ص ١٢١ و ١٢٢).

(٥) ابن خلكان (ج ١ ص ١٤٩) .

(٦) سورة ٢١ ، آية ١٠٥

لكل خطب أهبته ؛ فسير الجيوش لنصرتك ، وأنفق الأموال فى طاعتك ، وبذل المجهود فى رضاك ؛ فارتدع الجاهل وقصر المتطاول ، وظهر الحق وزهق الباطل . فانصر اللهم جيوشه التى سيرها ، وسراياه التى ندبها لقتال المشركين وجهاد الملحدين والذب عن المسلمين ، وعمارة الثغور والحرم ، وإزالة الظلم وبسط العدل فى الأمم . اللهم اجعل راياته عالية مشهورة وعساكره غالبة منصورة ؛ وأصلح به وعلى يديه ، واجعل لنا منك واقية عليه"[١] .

وفى جمادى الأولى سنة ٣٥٩ (٩٧٠ م) زيد فى الأذان "حى على خير العمل" ، وقرئت البسملة بصوت مرتفع ؛ وذلك فى الجامع العتيق ، بعد أن انقضى ثمانية شهور على فتح الفاطميين مصر وقراءة الخطبة باسم الخليفة الفاطمى المعز . وفى رمضان سنة ٣٥٩ أمر جوهر بأن تنقش جدران الجامع العتيق باللون الأخضر شعار العلويين[٢] .

وكان ذكر اسم المعز فى خطبة الجمعة فى التاسع عشر من شعبان عام ٣٥٨ هـ بدل اسم الخليفة العباسى حادثا هاما فى تاريخ الخلافة الفاطمية فى مصر . وهذا يبين لك ما كان من رواج الدعوة الفاطمية فى عهدهم ؛ وإقامة الخطبة للخليفة الفاطمى هى صورة موجزة من هذا البيان الذى أذاعه جوهر على المصريين ، يعرض فيه عليهم السلام والطمأنينة .

ولقد ألقى الخطيب خطبته بصورة شاد فيها بفضائل العلويين — الأئمة الصالحين — الذين انتهك الخارجون من السنيين حقهم ، على ما جاء فى كلام الخطيب ، وكان ينتمى إلى المذهب السنى . أما كلمة الجهاد التى وردت فى الخطبة ، فانه ينطوى تحتها ما عقد الفاطميون النية عليه من فتح المشرق والمغرب .

وهذا الدعاء للخليفة الفاطمى يبين لنا ذلك المظهر الدينى الجلى الذى تذرع به العلويون للوصول إلى أغراضهم الدنيوية . ولقد بدأ النزاع الدينى بين الشيعيين والسنيين — كما تقدمت الاشارة إلى ذلك — فى عصر متقدم ؛ ولكن هذا النزاع ظهر بصورة أشد عداء فى الأجيال التالية ، حين أخذ كل حزب يلعن الحزب الآخر ويحط من قيمته ، حتى إن الشيعيين أرغموا أحيانا على دفع الجزية[٣] ، كما أرغم السنيون على دفعها حينا آخر فى عهد الفاطميين[٤] .

---

(١) المقريزى : اتعاظ (ص ٧٥ — ٧٦)
(٢) شرحه : اتعاظ (ص ٧٦) .
(٣) رسائل بديع الزمان الهمذانى (ص ٤٢٤) .
(٤) رسائل الحاكم بأمر الله ، المكتبة الملكية بالقاهرة ، مخطوطات الشيعة ، رقم ٢٠ ، ورقة ١١ أ . انظر العبارة التى كتبتها عن الدعوة الفاطمية فى مكتبة القصر .

وقـد وجدت العقائد الشـيعية فى مصر مرعى أكثر خصبا ونمـاء منـه فى شمال إفريقيـة ؛ وسرعان ما ترعرعت وعم أثرها . وفى يوم الجمعة الثـامن عشر من ذى القعدة من السـنة نفسها ، دعا الخطيب لآل البيت ، وزاد فى الخطبـة العبـارة الآتية : "أللهم صـل على محمد المصطفى ، وعلى علىّ المرتضى ، وعلى فاطمة البتول ، وعلى الحسن والحسين سبطى الرسول ، الذين أذهبت عنهم الرجس وطهرتهم تطهيرا ؛ اللهم صل على الأئمة الراشـدين آباء أمير المؤمنين ، الهادين المهديين[1]" .

وفى عهـد الخليفة العزيز ٣٦٥ — ٣٨٦ هـ (٩٧٥ — ٩٩٦ م) اسـتبدل بمنبر الجامع العتيق فى ربيع الأول سنة ٣٧٩ هـ (٩٨٩ م) منبر آخر مذهب ، بقى الى أن اسـتبدل به منـبر أكبر منه سـنة ٤٠٥ هـ (١٠١٤ م) فى عهد الخليفة الحاكم ٣٨٦ — ٤١١ هـ (٩٩٦ — ١٠٢١ م) ؛ ولا يزال هذا المنبر باقيا الى اليوم[2] .

كان من أثر سـيادة المـذهب الفاطمى أن عزل بنو عبـد السميع ، وكانت اليهم الخطبـة زهاء ستين سنة ؛ فحل محلهم جعفر بن الحسن الحسينى ، وعهد اليه باقامة الخطبة فى جامع عمرو كما عهد الى أخيه باقامتها فى الجامع الأزهر[3] .

ويحدثنـا المقريزى[4] نقلا عن المسبحى ، أنه فى سـنة ٤٠٣ هـ نقل من القصر الى الجـامع العتيق أجزاء من المصحف الشريف مختلفة الشكل والحجم ، مكتوب بعضها بالذهب ؛ وفى هذا الجامع سمح للعامة بالقراءة فى هذه المصاحف . وفى السنة نفسها وضع الحاكم تنورا فيه من الفضة ما يقوم بعشرة آلاف درهم ؛ هذا فضلا عما وقفه هذا الخليفة أيضا على هذا الجامع من الأوقاف والعطايا . وقـد زاد بعض أمراء مصر فى بنـاء الجامع العتيق مذ شـيد للمرة الأولى ، كما وقف عليه الخلفـاء الفاطميون الأوقاف والعطايا .

---

(١) المقريزى : اتعاظ (ص ٧٧) ، وأبو المحاسن (طبعة Juynboll) (ج ٢ ص ٤٠٨) .

(٢) ابن دقماق (ج ٤ ص ٦٤) .

(٣) شرحه .

ذكر ابن دقماق (ج ٤ ص ٦٤) أن أولاد عبد السميع عزلوا نهائيا سنة ٣٧٩ هـ ، عزلهم الخليفة العزيز .

(٤) خطط (ج ٢ ص ٢٥٠) .

جامع ابن طولون — إيوان الجامع وصحنه ، تعلوه المنارة ، وتظهر فيه قبة الميضأة

SURVEY OF EGYPT

وفى سنة ٥٦٤ هـ (١١٦٨ — ١١٦٩) أصبح الفاطميون فى حالة من الضعف لم يتمكنوا معها من مقاومة جيوش الصليبيين التى استولت على القاهرة وأوقعت الهلع والرعب فى قلوب الأهلين ، حتى إن شاور وزير العاضد آخر الخلفاء الفاطميين أمر باحراق الفسطاط ، فظلت النار تلتهمها التهاما زهاء أربعة وخمسين يوما ؛ فحل بالجامع العتيق شيء من التلف غير قليل . ولما جاء صلاح الدين وتسلم زمام الأمور فى مصر بعد سقوط الدولة الفاطمية ، عمر هذا الجامع وزاد فيه سنة ٥٦٨ هـ[١] .

(ب) الدعوة الفاطمية فى جامع ابن طولون

فى يوم الجمعة الثامن عشر من شهر ربيع الثانى سنة ٣٥٩ هـ ، أى بعد ثمانية شهور من إقامة أول خطبة فى جامع عمرو ، تطورت الدعوة الشيعية فى أيام الفاطميين بما طرأ عليها من زيادات فى جامع ابن طولون ؛ وذلك بأن أدخل المؤذنون على الأذان "حى على خير العمل"، وهى من العبارات التى يمتاز بها الأذان عند الشيعيين ؛ ومن ثم زيدت هذه العبارة فى الأذان فى مساجد العسكر ، ومنها انتقلت الى جامع عمرو فى شهر جمادى الأولى من السنة نفسها .

كانت هذه الأمور كلها مما أرضت جوهرا ؛ فبعث للعزيز يزف اليه هذه الأنباء . وقد حضر الصلاة فى جامع ابن طولون فى ذلك اليوم عدد غير قليل . وقد أشاد عبد السميع فى خطبته بذكر أهل البيت وعدد مآثرهم ؛ كما أنه دعا للقائد جوهر[٢] . ولم يجهر بالبسملة[٣] فى الخطبة . وقرأ بعد سورة الفاتحة سورة الجمعة[٤] وسورة المنافقين[٥] ، ثم قرأ القنوت[٦] بعد الركعة الثانية . ولما هم بالسجود كان قد فاته أن يركع ، فصاح به علىّ بن الوليد قاضى عسكر جوهر : "بطلت الصلاة ، أعد ظهرا أربعا"[٧]

---

(١) ابن الأثير (ج ١١ ص ١٣٦) وأبو شامة (طبعة القاهرة ص ١١٥) .

(٢) لم يقر جوهر ذكر اسمه فى الصلاة ، وقال ان مولاه المعز لم يأمر بشيء من ذلك . المقريزى خطط (ج٢ص٢٧٠)

(٣) لا يجهر الحنابلة والحنفية بالبسملة لأنهم لا يعتبرونها جزءا من كل سورة من القرآن . أما الشافعية والمالكية والشيعة فكانوا على العكس يجهرون بها . ولم يرض جوهر أن تحذف البسملة من كل سورة ؛ والمعروف أنها مكتوبة قبل كل سورة منذ كتب المصحف .

(٤) القرآن سورة ٦٢

(٥) القرآن سورة ٦٣

(٦) يقرأ الدعاء الذى يطلق عليه القنوت بعد الركعة الأولى ، أوقبل الركوع مباشرة ، أوعند الوقوف بعد الركعة الثالثة من الوتر بعد صلاة العشاء . ويتركب القنوت فى أبسط صورة منه من هذه الكلمات : " إنا لك قانتون" .

Muhammad 'Ali : The Holy Qur'ân, Preface, pp. XXIV, XXV.

(٧) المقريزى : خطط (ج ٢ ص ٢٧٠) واتعاظ الحنفا (ص ٧٩) .

(ج) الدعوة الفاطمية فى الجامع الأزهر

كان بناء مسجد يجتمع فيه المسلمون للجمعة أول ما كانت ترمى اليه سياسة أمراء المسلمين ، وخاصة عند تأسيسهم عاصمة جديدة لما يفتحونه من بلاد . وكان الفاطميون قد رأوا من الحزم ألا يأخذوا السنيين على غرة فى المساجد فى مبدأ حكمهم ، بإضافتهم الى الخطبة هذه العبارة وهى : " السلام على الأئمة آباء أمير المؤمنين المعز لدين الله " .

وما كاد جوهر يضع أساس القاهرة حتى شرع فى بناء مسجد يتلقى الناس فيه عقائد المذهب الفاطمى ؛ وقد شرع فى بناء الأزهر[1] فى الرابع والعشرين من جمادى الأولى سنة ٣٥٩ هـ ، وأقيمت الصلاة فيه أول مرة فى اليوم السابع من رمضان سنة ٣٦١ هـ[2] .

أما ما كان هنالك من زيادة فى الأذان والخطبة منذ أقيمت الصلاة فى الأزهر الى أن وصل المعز الى القاهرة ، فشىء لم يكشف لنا التاريخ الستار عنه . ويلوح لنا أن ما زيد فى الخطبة والأذان فى الجامع العتيق ومسجد ابن طولون هو الذى أدخل على الخطبة والأذان فى الأزهر ؛ وقد ظلت الحال على ذلك الى أن وصل المعز الى القاهرة ، ومن ثم تطورت الحالة تطورا محسوسا من حيث تنظيم الدعوة الفاطمية على يد الخلفاء أنفسهم .

وقد ذكر لنا المقريزى أن المعز والعزيز كانا يقيمان الخطبة فى الأزهر الى أن فتح مسجد الحاكم سنة ٣٨٠ هـ ؛ ومن ثم أصبحت الخطبة تقام بانتظام فى مساجد عمرو وابن طولون والحاكم والأزهر على التوالى . وفى عهد الفاطميين زين الأزهر ومناراته بأفخر زينة ، وأنير بالأنوار الساطعة فى أيام المواسم العامة ، مما حدا بالمعز الى بناء منظرة فى قصره ليشاهد منها هذه الزينات ، فأطلق عليها منظرة الجامع الأزهر[3] .

---

(١) أطلق عليه هذا الاسم لأنه كان يحيط به قصور فخمة ، ولأنه كان أكثر الجوامع فخامة ورواء . وقد ذهب بعض المؤرخين إلى القول بأنه سمى باسم فاطمة الزهراء التى ينتسب إليها الفاطميون .

(٢) و(٣) المقريزى : خطط (ج ٢ ص ٢٧٣)



الجامع الأزهر ــ الباب الخارجي للجامع

SURVEY OF EGYPT

وفى خلافة المعز تطورت الدعوة الفاطمية فى الأزهر تطورا عظيما ؛ فقد أمر هذا الخليفة على أثر وصوله الى مصر بأن تنقش العبارة الآتيـة على جدران مصر القديمة[١] وهى : " خير الناس بعـد رسول الله صلى الله عليه وسلم أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب" [٢] .

وفى غرة المحرم سـنة ٣٦٣ هـ (٩٧٣ م) أقام الخليفة المعز صلاة العيـد فى مصلى القاهرة[٣] ؛ وقرأ فى الركعة الأولى الفاتحة ، ثم سورة الغاشية[٤] ، ثم كبر . وقد أطال الركوع والسجود ، وسبح فى كل ركعة وسجدة ثلاثين تسبيحة[٥] . وذكر لنا المقريزى نقـلا عن ابن زولاق الذى أدّى صلاة الجمعة خلف الخليفة ذلك اليوم ، أنه سبح نيفا وثلاثين تسبيحة فى كل ركعة وسجدة ؛ وكان القاضى محمد بن النعمان يبلغ عنه التكبير .

(١) نستطيع أن نفهم من قصر هـذه الأوامر على مصر القديمة ، أن القاهرة كانت لا تزال صـغيرة جدا بالنسبة الى الفسطاط ؛ اذ كانت تشمل قصر الخليفة والجامع الأزهر وبعض المساكن الأخرى . أضف الى ذلك أن سكان القاهرة كانوا من الشيعة قلوا أو كثروا ، فقد كانوا يؤلفون حرس الخليفة ورجال الحاشية .

(٢) ذكر المقريزى (خطط ج ٢ ص ٢٧١) نقلا عن النسابة الشريف محمد بن سـعد ، أن علىّ بن محمد بن على بن اسماعيل بن الحسن الزيدى هو الذى زاد فى الأذان العبارة الآتية : "محمد وعلىّ خير البشر" ؛ وهى تشبه العبارة التى أمر العزيز بزيادتها ، وكان ذلك سنة ٣٤٧ هـ (٩٥٨ م) . وقد زيد فى الأذان فيما بعد على منابر حلب "حى على خير العمل" و"محمد وعلىّ خير البشر" المـألوفة لدى الشيعيين . وظلت الحـال على ذلك الى أيام نور الدين محمود صاحب حلب ، فأمر بالغائها ، وأمر الفقهاء فصعدوا المنارة وقت الأذان وقال لهم : "مروهم يؤذنوا الأذان المشروع ، ومن امتنع كبوه على رأسه".

(٣) وقد عين المقريزى (ج ١ ص ٤٥١) و(ج ٢ ص ٤٧ و ٣٦٤) موضع هذا المصلى فقال انه خارج باب النصر ، وان جوهرا أنشأه فى رمضان سنة ٣٥٨ لصلاة العيد . وقال بعد ذلك ان المعز ركب يوم عيد الفطر لصلاة العيد فى مصلى القاهرة (الذى هو مصلى العيد أيضا) .

(٤) القرآن سورة ٨٨

(٥) التسبيح فى الصلاة هو أن يقال فى الركوع : "سبحان ربى العظيم" مرة أو أكثر ، كما يقال فى السجود : "سبحان ربى الأعلى" مرة أو أكثر كذلك . وأما ما ذكره المقريزى من ترديد عبارة "سمع الله لمن حمـده" ، ووصفه بأن هـذا تسبيح فهو خطأ ؛ اذ هذا هو التسميع . وأول ما عرف عن التسميع أن موسى بن عمران هو أول من ابتدعه ؛ وسار عليه الناس حتى ظهرت المسيحية . وكانوا يسبحون فى الهزيع الأخير من الليـل ، فيعظمون الله بكلام منزل بالوحى حتى مطلع الفجر ، ويضربون عند ذلك بالآلات الموسيقية كالعود والدف والمزمار ونحوها . أما فى الاسلام فكان بدء استعمال التسبيح فى مصر فى ولاية مَسلمة بن مُخَلد (٤٧ — ٦٢ هـ) . فقد بنى مسلمة هذا منارا فى جامع عمرو واعتكف فيه ، فسمع أصوات النواقيس ذات ليلة ، فشكا الى عريف المؤذنين ، فأشار عليه أن يأمر بمنع ضرب الناقوس اذا أذن من نصف الليل حتى مطلع الفجر . فلما ولى أحمـد بن طولون مصر ، أفرد بمنزله حجرة أقام فيها اثنى عشر مكبرا ؛ فكانوا يكبرون ويسبحون ، ويقرءون القرآن ويؤذنون . وكان يقوم بذلك فى كل ليلة أربعة منهم ، يجعلون الليل نوبا بينهم ، وأغدق على هؤلاء الأرزاق والعطايا . ولما خلف ابن طولون ابنه خمارويه ٢٧٠ — ٢٨٢ هـ (٨٨٣ — ٨٩٥ م) ، أقر المكبرين على ما كانوا عليه أيام أبيه ، وأجرى عليهم أرزاقهم . عرف الأذان بعد ذلك بالتسبيح ، وبقى على ذلك الى أن آلت مصر الى حكم الفاطميين ، فغدا مألوفا عند الشيعيين . المقريزى خطط (ج ٢ ص ٢٧٢ — ٢٧٣) ، بتصرف واختصار .

وفى الركعة الثانيـة قرأ الخليفة الفاتحة ثم سورة الضحى[١] ، وكرر ما قرأه فى الركعة الأولى ؛ ثم جهر بالبسملة ، وقد حذا فى ذلك حذو علىّ بن أبى طالب . ولما فرغ من الصلاة صعد المنبر وسلم على الناس يمينا وشمالا فقال : " السلام عليكم ورحمة الله ! " وكان فى أعلى المنبر وسادة من ديباج مثقل أعدت لجلوس الخليفة بين الخطبتين . وكان معه على المنبر جوهر وابن عمار من رؤساء كتامة ، وشفيع صاحب المظلة .

بعد ذلك نشر العلمان اللذان كانا على المنبر ، وقرأ الخليفة خطبة أخرى من خلفهما ، فبدأها بالبسملة جهرا ، وأعقبها بالتكبير مرتين . وقد ألقى الخطبة بخضوع وخشوع ؛ وكانت من الفصاحة والتأثير بحيث استدرت دموع المصلين .

ولما فرغ الخليفة من خطبته وأتم صلاته ، انصرف فى عساكره وخلفه أولاده الأربعة بالجواشن والخوذ ، ممتطين الخيل ، وهم فى أحسن زى ، يحف بهم فيلان . فلما وصل الخليفة الى القصر سمح للناس بالدخول ، فمدت لهم الموائد فأكلوا ما يشتهون[٢] .

وفى عهد الفاطميين أدخل على الدعوة الشيعية مظاهر جديدة لم تكن معروفة فى مصر من قبل؛ وكان أول ماعرف ذلك فى الجامع الأزهر . ذلك أنه لما مات بعض بنى عم المعز ، صلى عليه هذا الخليفة فى الجامع الأزهر وكبر عليه سبعا ، وكبر على ميت آخر خمسا فقط ، مقتفيا فى ذلك أثر علىّ ابن أبى طالب الذى كان يكبر على الميت بقدر ما يتناسب مع مكانته ؛ وهذا يخالف مذهب السنة ، اذ يكبرون على الميت أربعا فقط[٣] . يضاف الى ذلك ما كان من احتفال المعز بعيد الغدير[٤] أول مرة فى مصر .

---

(١) القرآن الكريم ، سورة ٩٣

(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا (ص ٩٢)

(٣) المقريزى — خطط (ج ٢ ص ٣٥٣)

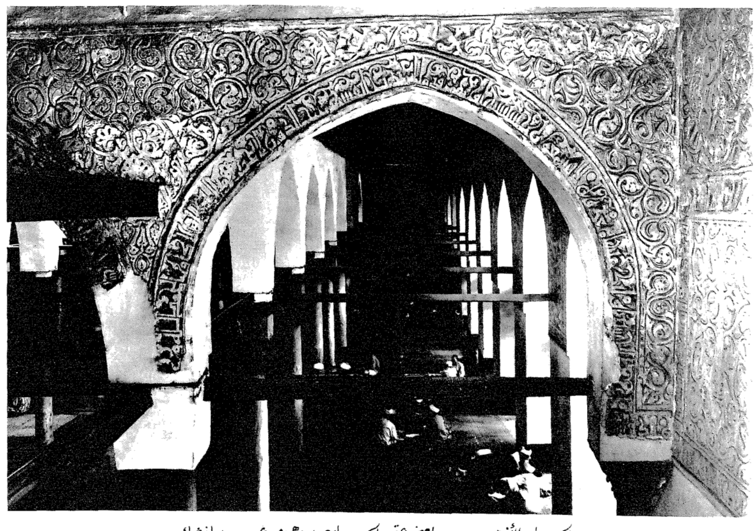
(٤) قد أثر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " علىّ منى بمنزلة هارون من موسى ؛ اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه ، وانصر من نصره ، واخذل من خذله " . ويروى الشيعيون هذا الحديث عن النبي ، ويقولون انه قاله فى الثامن عشر من ذى الحجة سنة عشر للهجرة ، وهو العام المعروف بحجة الوداع ، أى العام الذى ودع فيه النبي مكة وحج فيه لآخر مرة . فنزل بغدير خم (ويقع بين مكة والمدينة) ، وآخى علىّ بن أبى طالب . ومن ذلك الوقت أصبح يوم غدير خم عيدا يعتنى به الشيعيون عناية عظيمة ويحتفلون به .

شرف الدين الحدوى ، مكتبة المتحف البريطانى ، القسم الشرقى . رقم ٣٨٦٨ ، ورقة ٣٣١ أ وابن خلكان (ج ٢ ص ١٣٦) والمقريزى ، خطط (ج ١ ص ٣٨٨)

هذا ما رواه بعض المؤرخين . ولكنى لا أشك فى أن مسألة غدير خم من مخترعات الشيعة ، يريدون بها إثبات أمر ، وهو أن عليا ولى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويبنون على ذلك أن أبا بكر وعمر وعثمان غاصبون للخلافة . ولو أن هذه =



الجامع الأزهر — صحن الجامع وبه القبلة الوسطى



الجامع الأزهر — بعض عقود الجامع ، وهي من عهد إنشائه

وأهم خصائص الأزهر أنه وان بدأ كغيره من المساجد ، الا أنه لم يلبث أن أصبح جامعة يتلقى فيها طلاب العلم ورواده من كل صوب وحدب الكثير من مختلف العلوم والفنون . وأول من فكر فى تحويل هذا الجامع الى جامعة هو يعقوب بن كلس ، وكان يدين باليهودية أولا ، ثم تحول عنها الى الاسلام ؛ وهو الذى أشار على المعز الفاطمى بفتح مصر .

ولما صارت الوزارة الى ابن كلس ، سار على ما كان عليه الوزراء من قبله من حيث تشجيع العلوم والآداب[1] . وفى سنة ٣٧٨ هـ وقف العزيز الجامع الأزهر على العلم ، فأصبح نبراسا للجامعات الاسلامية . ولقد رغب الخلفاء الفاطميون فى جعله من الأهمية وعظم الشأن بحيث يجتذب طلاب العلم من كافة أرجاء البلاد الاسلامية . ولكى يشجع الطلاب وطنيين وأجانب ، كان يقدم اليهم المأكل والمسكن وكل ما يوفر عليهم وسائل المعيشة وأسباب الراحة من غير أجر .

ولقد تعاقبت الزيادات على البناء الأصلى ، وزيد فى العين الموقوفة عليه عاما بعد عام ؛ وتحول الأزهر من مسجد صغير الى مركز عظيم للعلم ، وغدا يشغل مساحة قدرها ١٢٠٠٠ متر مربع ، وبلغ عدد أعمدته ثلاثمائة وخمسة وسبعين .

وقد زاد فى بناء هذا الجامع كثير من الأمراء الذين ولوا مصر بعد المعز ، فاستغنى بما أغدقوه عليه من هبات وأوقاف . وكان العزيز الفاطمى أول من حول الأزهر الى جامعة ، وأول من ابتنى بجواره دارا لجماعة من الفقهاء عدتهم خمسة وثلاثون ؛ فكانوا يجتمعون فيه بعد صلاة الجمعة ويقرءون القرآن الى صلاة العصر . وقد أجرى عليهم هذا الخليفة الأرزاق ، وأغدق عليهم وزيره ابن كلس الصلات .

ولقد أمر الخليفة الحاكم بنقل الكتب التى كانت بدار الحكمة[2] الى مساجد الأزهر والحاكم

= العبارة كانت صحيحة لاحتج بها على ، واستشهد الصحابة على ذلك ، ولما طالبا الأنصار وهم شهود ليلة الغدير ؛ وفى ذلك يقول المعرى :

ضمنت وفائى للعشائر كلها وأمسكت لما عظموا الغار أوخما

وقد ذكر المقريزى (خطط ج ١ ص ٣٨٨) أن معز الدولة بن بويه احتفل لأول مرة بهذا العيد سنة ٣٥٢ هـ (٩٦٣ م) ، فاتخذه الشيعة عيدا يحتفلون به كل عام .

(١) Prof. Margoliouth : Cairo, Jerusalem and Damascus, p. 40

(٢) وتسمى دار العلم أيضا . وقد وزعت معظم الكتب التى كانت بدار العلم ، على ما ذكره المقريزى (خطط ج ٢ ص ٢٧٣ — ٢٧٥) ، على المساجد الثلاثة التى ذكرناها قبل .

والمقس ، فخص الأزهر منها بما يقرب من النصف . وقد أورد لنا المقريزى[١] وثيقة تاريخية نتبين منها ما كان يجرى على المؤذنين وغيرهم من خدام المساجد ، وما وقف عليها من العين والمال ؛ وقد اتخذت كل الوسائل الممكنة للمحافظة على حرمة هذا المكان .

وفى الوقت نفسه نقل الى جامعى راشدة والأزهر ثلاثة تنانير وتسعة وثلاثون قنديلا ، فخص الأزهر منها تنوران وسبعة وعشرون قنديلا . وكان فى محرابه منطقة من الفضة على مثال المنطقة الموجودة بمحراب المسجد العتيق ، فاقتلعهما صلاح الدين وغيرهما من المناطق فى كافة المساجد ، وذلك فى ١١ ربيع الأول سنة ٥٦٩هـ (١١٧٣ م) ، أى بعد سقوط الدولة الفاطمية بسنتين[٢] .

وقد زاد الخليفة الحاكم الفاطمى ٣٨٦ — ٤١١هـ (٩٩٦ — ١٠٢٠م) فى بناء الأزهر ، وزاد على ما وقفه عليه أبوه من قبل من أوقاف وما قدم له من هبات[٣] .

وفى سنة ٥١٩ هـ (١١٢٥ م) بنى الخليفة الآمر فى الجامع الأزهر مقصورة عليها كتابة منقوشة حفرا . وفى عهد الأيوبيين حل بهذا الجامع الدمار ، لما قام به هؤلاء السنيون الغلاة من إزالة آثار الفاطميين الشيعيين ؛ فأبطل صلاح الدين الخطبة فى الأزهر ، كما انتزع كثيرا من الأوقاف التى وقفها عليه الحاكم الفاطمى ؛ وظلت صلاة الجمعة معطلة فى هذا الجامع نحوا من قرن ، الى أن أمر الملك الظاهر بيبرس باقامة الخطبة فيه من جديد ؛ وقدم اليه الهبات واتخذه معهدا للعلم ، وذلك سنة ٦٦٥ هـ (١٢٦٦ م) .

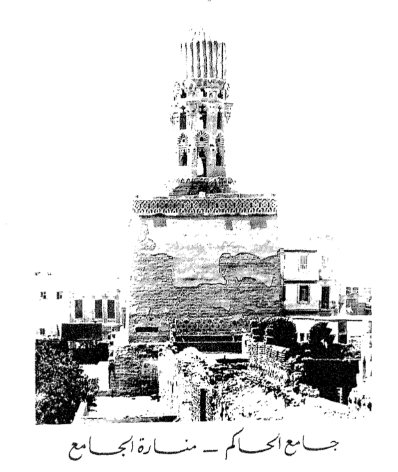
وقد سار بعض الأمراء على مثال الظاهر . ومنذ ذلك الحين غدا الأزهر مسجدا ودارا للعلم كما كان أيام الفاطميين ، فأزهر وأينع . وفى سنة ٧٠٢ هـ (١٣٠٢ م) أضر به الزلزال الذى كان بمصر فى ذلك العهد ، فسقط الجامع ؛ فتولى الأمير سلار عمارته ، وجدد ما تصدّع من بنيانه ؛ ومن ثم بنيت حوله المدارس التى ألحقت به فيما بعد ، ولا تزال تابعة له الى اليوم[٤] .

---

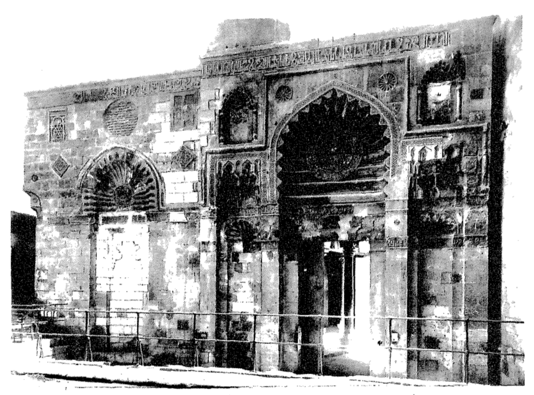
(١) و(٢) المقريزى (خطط ج ٢ ص ٢٧٣ — ٢٧٥)

(٣) وزعت هذه الهبات حصصا على جوامع الأزهر والحاكم وراشدة وعلى دار العلم — المقريزى ، خطط (ج ٢ ص ٢٧٣ و ٢٧٤)

(٤) المقريزى (خطط ج ٢ ص ٢٧٦)



جامع الحاكم ـ منارة الجامع



جامع الأقمر ـ واجهة الجامع الذى بناه الآمر باحكام الله سنة ٥١٩ هـ

(د) الدعوة الشيعية فى المساجد الأخرى

(١) فى مسجد الحاكم :

أسس مسجدَ الحاكم الخليفةُ العزيز أبو الحاكم سنة ٣٧٩ هـ (٩٨٩ م) تحت إشراف وزيره يعقوب بن كلس . وقد وضع أساسه العزيز فى العاشر من شهر رمضان من هذه السنة خارج باب الفتوح ؛ ولكنه أصبح داخل القاهرة بعد أن وسع بدر الجمالى هذه المدينة . ولما كمل بناء هذا المسجد ، انتقلت اليه الخطبة وقراءة القرآن بعد ان كانت مقصورة على الجامع الأزهر ؛ فكان يطلق عليه جامع الخطبة .

ويحدثنا المقريزى[١] عن المسبحى أن الخليفة العزيز صلى الجمعة وخطب فى هذا المسجد فى الرابع عشر من رمضان سنة ٣٨١ هـ ، وذلك قبل أن يتم بناؤه ؛ وسار فى ركابه ذلك اليوم ثلاثة آلاف ، وعليه طيلسان وبيده الصولجان .

وزاد المسبحى أن الحاكم أمر سنة ٣٩٣ هـ (٩٠٥م) باتمام بناء هذا الجامع . فتم ذلك فى سنة ٤٠٣ هـ (١٠١٢م) ؛ وعلق على سائر أبوابه الستور ، ووضع فيه أربعة تنانير من الفضة وكثيرا من القناديل الفضية أيضا ، ونصب فيه المنبر وفرش بالحصر . وفى يوم الجمعة السادس عشر من رمضان من هذه السنة أذن فيه المؤذن أذان الصبح ، وصلى فيه الحاكم صلاة الجمعة ، وهى أول صلاة أقيمت فيه بعد الفراغ من بنائه ؛ وفى سنة ٤٠٤ هـ حبس الحاكم عليه الأوقاف مع ما وقفه على المساجد الأخرى ، فخصه الشىء الكثير منها[٢] .

وفى سنة ٧٠٢ هـ تخرب هذا المسجد مع ما تخرب من المساجد من جراء الزلزال الذى حدث بمصر فى ١٣ذى القعدة من هذه السنة ؛ فأعاده الى ما كان عليه سنة ٧٠٣ هـ (١٣٠٣ — ١٣٠٤م)[٣] الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير ، ووقف عليه أوقافا ، وعين فيه فقهاء لتعليم الفقه على المذاهب الأربعة والحديث والنحو والقراءات السبع ؛ وجعل فيه من يقوم بتلقين القرآن الكريم ، وطائفة من القراء يتناوبون قراءة القرآن ، ومعلما يعلم أولاد المسلمين ، وجعل فيه خزانة كتب جليلة[٤] .

---

(١) (خطط ج ٢ ص ٢٧٧)

(٢) شرحه

(٣) ذكر المقريزى (خطط ج ٢ ص ٢٧٨) أنه سقط فى هذا الزلزال كثير من بدنات الجامع ، وخرب أعالى المئذنتين وتشققت سقوفه وجدرانه .

(٤) شرحه (ج ٢ ص ٢٧٨ — ٢٨٢) .

(٢) فى جامع راشدة :

اشتق اسم هذا الجامع من اسم الخطة التى بنى فيها ، وهى خطة راشدة . وقد روى لنا ابن دقماق والمقريزى أنه بدئ ببناء هــذا الجـامع فى ١٧ ربيع الثـانى سنة ٣٩٣ هـ (١٠٠٣ م) . وكان فى المكان الذى بنى فيـه كنيسة حولهـا مقابر لليهود والنصارى . وفى رمضان سـنة ٣٩٥ هـ تم بناؤه وفرش وعلقت فيه القناديل وأصبح معدا للصلاة[١] .

وفى رمضان سـنة ٣٩٨ هـ (١٠٠٨ م) صلى الحـاكم الجمعة وأقام الخطبة فى جامع راشدة . وفى سـنة ٤٠٠ هـ علق فيـه تنور من الفضة وقناديل من الفضة الثقيلة الوزن . وفى رمضان سنة ٤٠٣ هـ صلى الحاكم الجمعة فى هذا الجامع ، وعليه عمامة خالية من الجواهر ، وكان يحمل سيفا محلى بالفضة البيضاء الدقيقة الصنعة . ومشى الناس فى ركابه ؛ فكان يتناول بيده شكاياتهم ويقف لبحثها واستقصاء أسبابها[٢] .

ومن أعجب ماحدث بجامع راشدة ما كان من إقامة خطبتين على منبره فى يوم الجمعة ١١ جمادى الآخرة سنة ٤١٤ هـ ، وذلك أن أبا طالب علىّ بن عبد السميع العباسى استقر فى الخطابة بأمر قاضى القضاة أبى العباس أحمد بن محمد العوام ، بعد سفر خطيب هــذا الجامع الى الشام ؛ فعهد الخليفة الظاهر (٤١١ — ٤٢٧ و ١٠٢٠ — ١٠٣٥) الى ابن عصفورة أن يقيم الخطبة فيه .

وكان من تعيين رجلين على هذه الصورة لإقامة الخطبة فى هــذا الجامع أن صـعدا المنبر فى آن واحد ، ووقف أحدهمـا دون الآخر وخطبا معا ؛ ولمـا علم بذلك الخليفـة وقاضى القضـاة أقرا أبا طالب فى إقامة الخطبة ، وجعلا ابن عصفورة خليفة له[٣] .

(٣) فى جامع المقس[٤] :

بنى هـذا الجـامع الخليفـة الحـاكم بأمر الله على شاطئ النيـل بالمقس ، وكانت ميناء مصر فى ذلك الحين . وقد بينـا أن الأوقاف التى وقفها الحـاكم شملت جامع الحـاكم والجـامع الأزهر ودار العـلم وجامع المقس ؛ وذكر المقريزى أن الكتاب الذى تضمن وقفية الحاكم نص على

---

(١) ابن دقاق (ج ٤ ص ٧٨ و ٧٩) والمقريزى (خطط ج ٢ ص ٢٨٢) .

(٢) و (٣) المقريزى خطط (ج ٢ ص ٢٨٢)

(٤) المقس أو المكس أو المكسم (لفظ يحتمل أن يكون مشتقا من رجل رومانى اسمه مكسيموس (Maximus) ، هو ميناء القاهرة على النيل .

أن يصرف جميع ما يتبقى مما تصدق به الخليفة على هذه الأماكن فيما يتطلبه جامع المقس ؛ هذا عدا ما وقفه الخلفاء الفاطميون عليه من النخل الكثير[١] .

وفى الثامن عشر من ذى الحجة سنة ٣٦٢ هـ احتفل لأول مرة فى مصر بعيد غدير خم . وفى هذا اليوم ركب الخليفة المعز الى منظرة المقس[٢] ؛ فعرض الأسطول ثم عوّذه[٣] ، ليحفظه الله سبحانه وتعالى من السوء . وقد بنى صلاح الدين قبة شامخة على أطلال هذه المنظرة ، أطلق عليها قلعة المقس ، بقيت الى سنة ٧٧٠ هـ (١٣٦٨ م) ؛ وأنشئ فى مكانها حديقة [٤] .

لقد أتينا عند كلامنا على تطور الشعائر الفاطمية فى المساجد على طائفة من هذه المساجد التى كانت تقام فيها هذه الشعائر ، وبينا أن هذه الشعائر كانت تقام فى جميع المساجد . على أنه ينبغى ألا يفوتنا أن نذكر أنه كانت هناك فترات من الزمن أبطل فيها بعض عبارات من هذه الشعائر ، أى من الخطبة أو الأذان .

ذلك أنه فى سنة ٤٠٠ هـ (١٠٠٩م) أبطلت عبارة "حى على خير العمل" التى أمر جوهر بأن تزاد على الأذان بعد أن استقر سلطان الفاطميين فى مصر . وقد دعا الحاكم فى نفس هذه السنة (٤٠٠هـ) المؤذنين فى قصره وفى المساجد الأخرى الى اجتماع حضره قاضى القضاة ، وأصدر مرسوما يحرم ذكر هذه العبارة فى الأذان ، وأن يقول مؤذنو القصر بدلها عبارة " الصلاة خير من النوم " ، فيذكرها المؤذنون عند ذكر عبارة " السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله " .

---

(١) المقريزى (خطط ج٢ ص٢٨٣)

(٢) ذكر المقريزى أنه كان بالمقس ثلاث مناظر : إحداها تقع بين باب الذهب وباب البحر ، والثانية على قوس باب الذهب ، وأما الثالثة فكان يقال لها الزاهرة والناضرة والفاخرة . وكان الخليفة يجلس فى إحدى هذه المناظر لعرض العساكر يوم عيد الغدير ؛ ويقف الوزير فى قوس باب الذهب (خطط ج ١ ص ٤٠٤) .

(٣) يطلق لفظ "معوذتان" على سورتين من سور القرآن الكريم ، لأن كلا منهما تبتدئ بعبارة (قل أعوذ) ؛ أولأن قراءتهما تحفظ القارئ من كل سوء . والمعوذة الأولى (وهى سورة الفلق — القرآن الكريم سورة ١١٣) هى كما يلى : (قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق ، ومن شر غاسق اذا وقب ، ومن شر النفاثات فى العقد ، ومن شر حاسد إذا حسد) . والمعوذة الثانية كما يلى : (قل أعوذ برب الناس ، ملك الناس ، إله الناس ، من شر الوسواس الخناس ، الذى يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس) .

(٤) المقريزى اتعاظ (ص ٩٤) وخطط (ج ٢ ص ٢٨٣) .

وفى ربيع الثانى سنة ٤٠١ هـ (١٠١٠ م) عاد المؤذنون الى ذكر "حى على خير العمل"؛ وفى سنة ٤٠٥ هـ (١٠١٤ م) أمر هذا الخليفة مؤذنى الجامع الأزهر بألا يستعملوا عبارة "السلام على أمير المؤمنين" فى الأذان، وأن يقولوا بدلها عبارة "الصلاة رحمك الله"[١].

وقد أبطل الحاكم عادة تقبيل الأرض بين يديه ولثم يديه وركابه[٢]؛ وعلل المقريزى سبب العدول عن هذه العادة بأنها كانت من عادات البيزنطيين[٣]. كذلك أمر هذا الخليفة ألا يزاد على السلام "السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته!"[٤]، وأن يقتصر فى مكاتبته على هذه الكلمات "سلام الله وتحياته ونوامى بركاته على أمير المؤمنين!" وأن يقتصر الخطباء على ذكر العبارة الآتية: "اللهم صل على محمد المصطفى، وسلم على أمير المؤمنين علىّ المرتضى، اللهم وسلم على أمراء المؤمنين آباء أمير المؤمنين، اللهم اجعل أفضل سلامك على عبدك وخليفتك"[٥].

---

(١) روى المقريزى عن البلاذرى (لم نقف على هذا فى كتاب فتوح البلدان للبلاذرى) أن بلالا مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقف ببابه ويقول: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته، حى على الصلاة، حى على الفلاح، الصلاة يارسول الله! فلما ولى أبو بكر كان المؤذن يقف ببابه ويقول: السلام عليك ياخليفة رسول الله ورحمة الله وبركاته، حى على الصلاة، حى على الفلاح، الصلاة ياخليفة رسول الله! وفى خلافة عمر بن الخطاب كان المؤذن يردد هذه الكلمات مبتدئا بقوله: السلام عليك ياخليفة خليفة رسول الله... الخ. ومنعا لتكرار لفظ خليفة بالنسبة إلى من يتولى أمور المسلمين من الخلفاء بعد أبى بكر، أمر عمر بن الخطاب أن يستبدل هذا اللفظ بعبارة أمير المؤمنين، وأن تزاد عبارة رحمك الله على الأذان (ذكر المقريزى أن عثمان هو الذى أمر باضافة هذه العبارة — الخطط ج ٢ ص ٢١٧). ويقول ابن خلدون (مقدمة، طبعة بيروت سنة ١٩٠٠ ص ٢١٧ — ٢١٩) ان المؤذنين كانوا يختمون الأذان بعبارة: "السلام عليك"، يعنون بذلك الخليفة أو أحد عماله. وظلت الحال على ذلك طوال عهد الأمويين وفى الصدر الأول من أيام العباسيين، حين تولى الخلفاء والولاة الصلاة بأنفسهم. على أن الخلفاء تخلفوا عنها فى أواخر أيام العباسيين، لوقوعهم تحت سلطان الأتراك؛ فتخلى الخلفاء عن إقامة الصلاة بأنفسهم، فبطل استعمال هذه الكلمات؛ وحذا حذوهم الخلفاء الفاطميون ممن لم يقيموا الصلاة، فلم تذكر هذه الكلمات الا فى أذان الفجر. الأحكام السلطانية للماوردى (ص ٩٦ — ٩٩) وابن خلدون، مقدمة (ص ١٩٧ — ١٩٩).

وقد أورد لنا كاتب "محاسن الملوك" (ورقة ٢٥ — ٢٧، وهو مخطوط بالمكتبة الملكية بالقاهرة — راجع كتاب التاج طبعة أحمد زكى باشا ص ٨٨ — حاشية ٣ ص ٨٦ — ٨٨) عن هذا الاستعمال منذ أيام عمر مانصه: "قال المغيرة لعمر رضى الله عنهما: ياخليفة الله! فقال عمر: ذاك نبى الله داود. قال: يا خليفة رسول الله! قال: ذاك صاحبكم المفقود. قال: ياخليفة خليفة رسول الله! قال: ذاك أمر يطول. قال: ياعمر! قال: لا تبخس مقامى شرفه؛ أنتم المؤمنون وأنا أميركم. فقال المغيرة. يا أمير المؤمنين!".

(٢) يحيى بن سعيد (ص ٢٠٥)، وابن ميسر (ص ٧٥)

(٣) خطط (ج ٢ ص ٢٨٨)

(٤) يحيى بن سعيد (ص ٢٠٥)

(٥) المقريزى: خطط (ج ٢ ص ٢٨٨)

وقد قال المقريزى عند كلامه على الدعوة الفاطمية أيام الوزير الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالى : "وكان الأفضل أبطل الموالد الأربعة : النبوى والعلوى والفاطمى والإمام الحاضر ، فأعيدت فى سنة ست عشرة وخمسمائة"[1] .

وفى سنة ٥٢٤ ﻫ (١١٣٠ م) تقلد أبو علىّ بن الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالى الوزارة فى خلافة الحافظ ، فقبض على الخليفة وحبسه ، واستولى على ما فى القصر من الأموال والذخائر ، وقبض على زمام الأمور . وكان إماميا مغاليا ، فأظهر الدعاء للامام المنتظر ، وأزال من الأذان "حى على خير العمل" وقولهم "محمد وعلىّ خير البشر" ، وأسقط ذكر اسماعيل بن جعفر الذى تنسب اليه الاسماعيلية . ولما قتل فى السادس عشر من المحرم سنة ٥٢٦ ﻫ عاد الأمر الى الخليفة الحافظ ، وعاد الأذان الى ما كان عليه[2] .

ولما استبد صلاح الدين يوسف بن أيوب بالأمر فى مصر أبطل شعائر الفاطميين ، فأعاد سنة ٥٦٧ ﻫ (١١٧١ م) الى أذان الفجر "السلام عليك يارسول الله !" .

٣ — الدعوة الفاطمية فى مكتبة القصر

رغب الفاطميون فى الحصول على أكبر عدد من الكتب ابتغاء نشر تعاليم مذهبهم . وقد حمل المهدى معه ، على ما ذهب اليه ابن الأثير[3] ، من سلمية جميع الكتب والوثائق التى كانت لآبائه ؛ ولكنها سرقت منه وهو فى طريقه الى سجلماسة ، فى مكان يقال له الطاحونة بالقرب من طرابلس . ويزيد هذا المؤرخ على ما تقدم أن أبا القاسم بن المهدى استعاد هذه الوثائق حال مسيره لغزو مصر للمرة الأولى سنة ٣٠٠ ﻫ (٩١٢ م) .

أما كون هذه الكتب أو بعضها قد حملها المعز معه الى القاهرة ، فشىء لا يمكننا الجزم به . ولقد كان مذهب السنة هو المذهب السائد فى مصر قبل أن يتم فتحها على يد الفاطميين ؛ ولهذا نشك

---

(١) المقفى الكبير ، مكتبة الجامعة بليدن ، مخطوط ١٣٦٦ ، المجلد الثانى ، ورقة ٢٠٦ ب .
انظر كتاب "تاريخ الخلافة الفاطمية" لوستنفلد Geschichte der Fatimiden—Chalifen, pp. 270-289

(٢) ابن ميسر (ص ٧٥) ، وأبو الفدا (ج ٣ ص ٥ و ٦) ، والمقريزى (خطط ج ٢ ص ٢٧١) .

(٣) (ج ٨ ص ١٤) .

فيما إذا كان فى مكاتب الفسطاط والقطائع شىء من الكتب التى تتناول الكلام عن المذهب الشيعى ، اذ ليس هناك دليل واضح يشير الى أنه كانت هناك مكاتب عامة . ولهذا نرجح أن المعز قد حمل معه الى مصر عددا عظيما من الكتب التى كانت فى مكتبته الخاصة بالقيروان مع ما حمله من الأثقال عند رحيله الى هذه البلاد .

وقد ولع خلفاء الفاطميين ووزراؤهم منذ العصر الأول من خلافتهم باقتناء الكتب الخطية النادرة فى مختلف العلوم . وقد تحققت أغراضهم ، ففاقت مكتبة القصر فى القاهرة غيرها من مكاتب العالم الاسلامى .

وكان للوزير يعقوب بن كلس[1] نصير العلوم والآداب مركز رفيع بين وزراء الفاطميين . فقد كان يحب العلم ويجمع بداره العلماء ؛ وكان يعقد مجلسا فى كل ليلة جمعة يقرأ فيه مصنفاته على الناس ؛ وتحضره القضاة والفقهاء والقراء والنحاة وغيرهم من وجوه الدولة وأصحاب الحديث . وكان فى داره قوم يكتبون القرآن الكريم ، وآخرون ينسخون كتب الحديث والفقه والأدب حتى الطب ؛ وكانوا يعارضونها[2] ويشكلونها وينقطونها .

وقد صنف يعقوب نفسه كتابا فى الفقه أخذه عن المعز وابنه العزيز ، يتناول فيه الكلام على العقائد الفاطمية ، ويعرف بالرسالة الوزيرية . وفى رمضان سنة ٣٦٩ (مارس — أبريل سنة ٩٨٠)

---

(١) كان يعقوب بن كلس يهوديا . ولد فى بغداد ونشأ بها ، وسافر مع أبيه الى الشام ، فأنفذه منها الى مصر سنة احدى وثلاثين وثلاثمائة للهجرة ، فاتصل ببعض خواص كافور ، فعهد اليه بعمارة داره ، ورأى فيه النجابة والنزاهة ، فعينه فى ديوانه الخاص . ولم تزل حظوته تزداد مع كافور حتى أمر أصحاب الدواوين ألا يصرف شىء من المال الا بتوقيع ابن كلس (سنة ٣٣٦) . وفى شعبان سنة ٣٥٦ هـ أظهر ابن كلس إسلامه وصلى فى الجامع ، فزادت حظوته عند كافور . بعد ذلك لزم ابن كلس الصلاة وقراءة القرآن ، ورتب لنفسه شيخا من أهل العلم يعرف القرآن ويجيده ، ويحفظ كتاب السيرافى فى النحو (ياقوت : ارشاد ج ٣ ص ٨٤ ، وابن خلكان ج ٢ ص ٤٦١) فكان يبيت عنده ويصلى به ويقرأ عليه . وظل ابن كلس على حظوته عند كافور الى أن مات . وكان الوزير ابن الفرات يحسد ابن كلس ويحقد عليه فحبسه ، فتدخل بعض الناس فى الأمر ، وبذل ابن كلس له الأموال حتى أطلق من اعتقاله ، فاقترض من أخيه وغيره مالا ، ثم سار مختفيا يريد بلاد المغرب . وقيل انه لقى جوهرا وهو فى طريقه لغزو مصر فعاد معه ، وقيل أيضا انه سار الى بلاد المغرب واتصل بخدمة المعز ، ثم عاد معه الى مصر . ومهما يكن من الأمر فان ابن كلس ظل فى خدمة المعز ، واكتسب حظوة ابنه العزيز وتولى أموره ، ثم ولى الوزارة فى رمضان سنة ٣٦٨ هـ (١٩ أبريل سنة ٩٧٩ م) ، وأدار شؤون الدولة الفاطمية بمهارة وهمة الى أن مات سنة ٣٨٠ هـ . ابن منجب (ص ١٩ — ٢٢) ، وابن ميسر (ص ٤٥ و ٥١) .

(٢) يقابلون بين نسخ الكتاب الواحد .

دعا ابن كلس الناس على اختلاف مراتبهم الى اجتماع وقرأ عليهم من تصانيفه ؛ وكان يعقد المجالس بالجامع العتيق ، فيقرر المسائل الفقهية على حسب المذاهب التى وضعها[١].

ولا غرو فقد استفادت مكتبة القصر أيما استفادة من غيرة ابن كلس وولعه بجمع الكتب . هذا اذا صح القول بأن عددا عظيما منها قد نقل من داره الى هذه المكتبة بعد وفاته .

وقد روى المقريزى عن ابن الطوير أن المكتبة كانت فى المارستان العتيق فى القصر الشرقى ؛ وكان بها عدد من الرفوف مقسم الى أقسام ، لكل قسم منها باب . وزاد هذا المؤرخ أن هذه المكتبة كانت تحتوى على مائتى ألف كتاب مجلد ، عدا الكتب الأخرى . وقد اشتملت هذه الكتب على مصنفات فى الفقه فى جميع المذاهب ، واللغة العربية والحديث والتاريخ والسير ، والفلك والدين والكيمياء ؛ هـذا عدا المصاحف التى احتوتها المكتبة ، ومجموعة القوائم المكتوبة بخط ابن مقلة وابن البواب[٢] وغيرهما من مشاهير الخطاطين .

وكان من عادة الخليفة إذا زار المكتبة أن يترجل ، ثم يسير الى دكة مرتفعة فيجلس عليها ؛ فيأتيه الخازن بنسخ من المصحف مختلفة الحجم ، وبكتب أخرى فى مواضيع مختلفة لمصادقة الخليفة على اقتنائها[٣] .

وقد روى المقريزى عن مؤلف كتاب "الذخائر" أنه كان فى القصر أربعون خزانة ، من جملتها خزانة بها ١٨,٠٠٠[٤] مجلد فى العلوم القديمة[٥] . وذكر أبو شامة ، نقلا عما أورده ابن أبى طىّ عن القصر بعد سقوط الخلافة الفاطمية ، أن مكتبة الخلفاء كانت من بين محتويات القصر التى باعها الأيوبيون فى عهد صلاح الدين .

---

(١) ابن منجب (ص ٢٢)
وقد أتى المقريزى (خطط ج ٢ ص ٣٤١) ببيان موجز عن هـذا الكتاب الذى صنفه ابن كلس ، وقال انه كان فى حوزته ، وانه يتكلم عن أصول المذهب الاسماعيلى .

(٢) ذكر ياقوت (ارشاد ج ٥ ص ٤٤٥ — ٤٥٣) وابن خلكان (ج ١ ص ٤٣٥ و ٤٣٦) وأبو الفدا (ج ١ ص ١٦٠) ترجمة علىّ بن هلال الكاتب المعروف بابن البواب ؛ وهو شاعر وخطاط مشهور مات ببغداد سنة ٤١٣ هـ

(٣) المقريزى : (خطط ج ١ ص ٤٠٩)

(٤) لا بد أن يكون هـذا العدد أكثر من ١٨,٠٠٠ مجلد ، لأن بعض هـذه الكتب كان يقع فى أكثر من مجلد واحد .

(٥) المقريزى : (خطط ج ١ ص ٤٠٩)

وقد وصف هذا المؤرخ مكتبة القصر بأنها كانت من عجائب الدنيا فقال : "ويقال إنه لم يكن فى جميع بلاد الاسلام دار كتب أعظم من التى كانت فى القاهرة فى القصر . ومن عجائبها أنه كان فيها ألف ومائتان وعشرون نسخة من تاريخ الطبرى ؛ ويقال انها كانت تشتمل على ٦٠٠,٠٠٠ كتاب ، وكان فيها من الخطوط المنسوبة أشياء كثيرة[١]" .

ولقد دأب الخلفاء الفاطميون فى جمع أكثر ما يمكن الحصول عليه من نسخ كتاب واحد ، حتى لا يتاح لمكاتب بغداد وقرطبة اقتناء هذه الكتب ؛ لذلك نجح الفاطميون فى جمع عدد عظيم من نسخ بعض الكتب التى لم يكن لها وجود فى المكاتب الأخرى . ويحدثنا المسبحى أن كتاب العين للخليل بن أحمد[٢] ذكر عند الخليفة العزيز ؛ فأمر خازن مكتبته فأخرج من خزانته نيفا وثلاثين نسخة من هذا الكتاب ، منها نسخة من خط الخليل نفسه .

وفى مناسبة أخرى أحضر رجل الى الخليفة نسخة من تاريخ الطبرى كان قد اشتراها بمائة دينار ؛ فأمر الخليفة خازن مكتبته أن يحصل على نسخ أخرى من هذا الكتاب ، فحصل على أكثر من عشرين ، منها نسخة بخط الطبرى نفسه . وذكر عنده أيضا كتاب الجمهرة لابن دريد ، فأحضر فى الحال أكثر من مائة نسخة منه[٣] .

أما ما كان من مقتنيات المكتبة الملحقة بقصر الخلفاء الفاطميين ، وما كان لها من شهرة فى أنحاء العالم الاسلامى ، فقد دلل عليه أسامة بن منقذ فيما أورده لنا من حقائق رواها عن أبيه فقال ما نصه : "وكان الوالد السعيد مجد الدين أبو سلامة مرشد بن علىّ بن مقلد بن نصر بن منقذ رضى الله عنه ، حدثنى أنه لما توجه الى خدمة السلطان ملك شاه رحمه الله ، وهو اذ ذاك بأصفهان ، قصد القاضى الامام الصدر العالم أبا يوسف القزوينى رحمه الله ، عائدا ومسلما بمعرفة قديمة كانت بينهما ، ويد كانت عنده للجد سديد الملك ذى المناقب أبى الحسن علىّ بن مقلد رحمه الله . وذاك أن القاضى المذكور سافر الى مصر فى أيام الحاكم صاحب مصر ، فأحسن اليه وأكرمه ، ووصله بصلات سنية ، فاستعفى منها وسأله أن يجعل صلته كتبا يقترحها من خزانة

---

(١) كتاب الروضتين لأبى شامة (طبعة القاهرة) (ج ١ ص ٢٠٠) . وقد روى هذا الكاتب عن عماد الدين الأصفهانى ان عدد كتب هذه المكتبة يبلغ ٢,٠٠٠,٠٠٠ كتاب .

(٢) انظر ترجمته فى ارشاد الأديب لياقوت (ج ٤ ص ١٨٠ – ١٨٢) وابن خلكان (ج ١ ص ٢١٦ – ٢١٨) . وقد مات الخليل سنة ١٦٠ هـ أو ١٧٠ هـ على ما ذهب اليه ياقوت (ارشاد ج ٢ ص ١٨٠) . وأتى لنا ابن خلكان بتاريخين لوفاته هما ١٧٠ و ١٧٥ هـ .

(٣) المقريزى : (خطط ج ١ ص ٤٠٨)

كتبه ، فأجابه الى ذلك ؛ فدخل الخزانة واختار منها ما أراد من الكتب ، ثم ركب فى مركب وتلك الكتب معه يريد بلاد الاسلام التى فى الساحل ؛ فتغير عليه الهواء ، فرمى بالمركب الى مدينة اللاذقية وفيها الروم ، فبعل بأمره وخاف على نفسه وعلى ما معه من الكتب ، فكتب الى جدى سعيد الملك رحمه الله تعالى كتابا يقول فيه : قد حصلت بمدينة اللاذقية بين الروم ومعى كتب الاسلام ، وقد وقعت لك رخيصا ، فهل أجدك حريصا ؟ فسير اليه من يومه ولده عمى عز الدولة أبا المرهف نصرا رحمه الله ، وسير معه خيلا كثيرا من غلمانه وجنده وظهرا لركوبه وحمل أثقاله ، فأتاه وحمله وما معه ؛ فأقام عند جدى رحمه الله مدة طويلة "[1] .

دار العلم :

ولع الخلفاء الفاطميون بتشجيع المشتغلين بنشر المذهب الشيعى ؛ فكان من ذلك أن جعل العزيز الجامع الأزهر مقرا للطلاب تحت إشراف وزيره الكبير يعقوب بن كلس ، فنقل اليه والى غيره كثيرا من المصاحف والكتب .

وفى جمادى الآخرة سنة ٣٩٥ هـ (١٠٠٥ م) أنشأ الحاكم جمعية علمية " أكاديمية " على مثال " الأكاديميات " الموجودة ببغداد وغيرها من البلاد ، وأطلق عليها دار الحكمة . فالتحق بها عدد من القراء والفقهاء والمنجمين والنحاة واللغويين والأطباء ؛ وألحق بدار الحكمة مكتبة أطلق عليها دار العلم ، حوت ما لم يجتمع مثله فى مكتبة من المكاتب . وأجرى هذا الخليفة ومن جاء بعده من الخلفاء على خدامها ومن بها من الفقهاء الأرزاق السنية ، وجعل فيها ما يحتاج اليه المطالعون والنساخ من الحبر والأقلام والمحابر والورق[2] .

وفى سنة ٤٠٣ هـ عقد الحاكم فى قصره مجلسا من مشاهير العلماء فى الرياضة والمنطق والفقه والطب وغيرها من العلوم ، فتناظروا فى شتى المسائل . وعند ارفضاض هذا المجلس منح الخليفة هؤلاء العلماء الخلع والجوائز الثمينة [3] .

---

(١) Derenbourg : Vie d'Ousâma, pp. 503,504.

(٢) المقريزى : (خطط ج ١ ص ٤٥٨ وج ٢ ص ٣٤٢) ، عن المسبحى .

(٣) لم تلبث أن انقطعت هذه الاجتماعات من دار الحكمة فى القصر . وهذا التغيير من جانب الحاكم مما لا ندهش له ، اذا علمنا أن موظفيه توقفوا عن تنفيذ أوامره بعد ما أصاب عقله من خبل وسياسته من اضطراب .

وقد ظلت هذه المكتبة مفتوحة ينتفع الجمهور بما فيها من الكتب الى سنة ٥١٦ هـ (١١٢٢م) ، حيث أمر الوزير الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالى باغلاقها ، اذ نمى اليه أن رجلين يعتنقان عقائد الطائفة المعروفة بالبديعية التى يدين أشياعها بمذاهب السنة الثلاثة : وهى الشافعى والحنفى والمالكى ، يترددان على هذا المكان ، وأن كثيرين من الناس أصغوا اليهما واعتنقوا هذا المذهب .

وقد اعتنق هذا المذهب شيخان من الأساتذة المحنكين فى القصر . لهذا وذاك أمر الأفضل باغلاق هذه المكتبة ، لأن وجودها أصبح لا يتفق مع الغرض الذى أنشئت من أجله ، وهو بث عقائد المذهب الشيعى لا غير . وكان من أثر ذلك أن قتل نفر ممن دانوا بعقائد هذا المذهب[١] .

وبعد وفاة الأفضل أصدر الخليفة الآمر ٤٩٥ — ٥٢٤ هـ (١١٠١ — ١١٣٠ م) أمرا باعادة دار العلم الى ما كانت عليه ؛ فتردد عليها حامد القصار أحد زعماء البديعية ، وادعى الربوبية ؛ ونمى الى الخليفة أنه دان بمذهب أبى الحسن الأشعرى[٢] ، ثم انسلخ عن الاسلام . ويقول المقريزى[٣] ان حامدا هذا سلك طريق الحلاج[٤] فى التمويه ، فاستهوى من ضعف عقله وعميت بصيرته .

أما المكتبة الكبرى التى كانت فى القصر وما أودع فيها من الكتب الجليلة المقدار ، فقد كان لها أن تعانى ماعاناه غيرها من المصائب والبلايا التى حلت بالخلافة الفاطمية فى عهد المستنصر (٤٢٧ — ٤٨٧ هـ ١٠٣٥ — ١٠٩٤ م) وانتهت بسقوط الفاطميين .

ولقد تلاشى أغلب الكتب التى كانت فى القصر وفى دار العلم فى غضون الشدة التى حلت بالبلاد سنين طويلة فى عهد المستنصر[٥] ؛ ونزع من هذه المكتبة ما يقرب من ألفين وأربعمائة "ختمة" مكتوبة بخط محلى بالذهب والفضة ؛ وذهب ذلك كله فيما أخذه الأتراك فى مقابل ما كان متأخرا لهم من الأرزاق ، فلم يبق فى خزائن القصر الخارجية شىء مطلقا . أما الخزائن الداخلية التى يتعذر الوصول اليها ، فقد عثر فيها على صناديق ملأى بالأقلام ، براها وشذب أطرافها ابن مقلة وابن البواب وغيرهما من الخطاطين[٦] .

---

(١) المقريزى : (خطط ج ١ ص ٤٦٠)

(٢) وهو إمام من أئمة التوحيد ، ومن أساطين مذهب السنة .

(٣) خطط (ج ١ ص ٤٦٠)

(٤) وهو أحد المتصوفين . ويروى عنه أنه قال ما فى الجبة غير الله — يعنى جبته — وقد قتل من أجل ذلك .

(٥) سنتكلم عن هذا القحط فى الباب السابع .

(٦) المقريزى (خطط ج ١ ص ٤٠٨)

ويحدثنا المقريزى عن مؤلف كتاب "الذخائر" الذى زار هذه المكتبة فيقول : " وكنت بمصر فى الفسطاط فى العشر الأول من المحرم سنة إحدى وستين وأربعمائة ، فرأيت فيها خمسة وعشرين جملا موقّرة كتبا مرسلة إلى دار الوزير أبى الفرج محمد بن جعفر المغربى ؛ فسألت عنها ، فعرفت أن الوزير أخذها من خزائن القصر هو والخطير بن الموفق فى الدين[1] عما يستحقانه وغلمانهما" .

هذا ، ويستطرد بعض من شاهد ذلك بنفسه فيقول: " إن الكتب التى نقلت الى دار الوزير وفاء لخمسة آلاف دينار ، بلغت قيمتها أكثر من مائة ألف دينار " .

أضف الى ذلك أن الكتب التى كانت بدار العلم وغيرها من الكتب التى صارت الى عماد الدولة بن أبى الأفضل بن المحترق والتى حملها معه الى الاسكندرية[2] ، وكذا الكتب التى ظفرت بها بنو لَواتة ، كان خسارة فادحة لحقت بدور الكتب .

ذلك أن عددا عظيما من هذه الكتب قد بيع أو نهب ، أو حمل فى النيل الى الاسكندرية سنة ٤٦١ هـ (١٠٦٨ — ١٠٦٩ م) وما بعدها . ويقول هذا المؤرخ إن عددا غير قليل "من الكتب الجليلة المقدار المعدومة المثل فى سائر الأمصار صحة وحسن خط وتجليدا وغرابة" ، قد اتخذ من جلودها عبيدهم وإماؤهم نعالا وأحذية ، ثم أحرقوا أوراقها ، زعما منهم أنها تحوى كلام المشارقة الذى يخالف مذهبهم[3] (يعنى أهل السنة) .

وقصارى القول ، فان الكتب التى كانت بمكتبة القصر ودار العلم ، إما أن تكون قد سرقت أو أغرقت فى النيل ، أو حملت الى سائر الأقطار ، أو آلت الى الإحراق . أما ما تعرض منها للجو فقد سفت عليه الرياح التراب ، فصار تلالا عرفت بتلال الكتب[4] .

وقد بدأت هذه المحن التى حاقت بمجموعتى الكتب (بمكتبة القصر ودار العلم) سنة ٤٦١ هـ ، وتوالت عليها سنون عدة . على أنه فى الوقت الذى سقطت فيه الدولة الفاطمية ، أى بعد هذه الفترة التى تخللت سنتى ٤٦١ و ٤٦٥ هـ بنحو قرن ، كانت لا تزال هناك مكتبة كبيرة فى قصر العاضد آخر الخلفاء الفاطميين .

(١) يحدثنا ابن ميسر أن أبا غالب عبد الظاهر بن فضل بن الموفق فى الدين تولى الوزارة ثلاث مرات ، وقتل فى نفس اليوم الذى قتل فيه ابن حمدان .

(٢) نقلت هذه الكتب الى بلاد المغرب بعد وفاته .

(٣) المقريزى (خطط ج ١ ص ٤٠٩)

(٤) شرحه .

ويظهر ان هـذه المكتبة قد استعادت شيئا من سابق عظمتها وروائهـا ، إما باسترجاع بعض كتبها التى ضاعت فى هذه المحن ، أو باضافة كثير من الكتب الجديدة . يؤيد هـذا القول ما أجمع عليـه المؤرخون من أنه كانت هناك سـنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) مكتبة عظيمة فى قصر آخر الخلفاء الفاطميين ، وأن هذه الكتب قد تم بيعها شيئا فشيئا على يد رجل خبير يدعى ابن صورة ، واستغرق هذا البيع بضع سنين .

ولم يبق من هذه الكتب شيء كثير : فمنها ما حمل الى المدرسة الفاضلية التى أسسها القاضى الفاضل عبد الرحيم بن على البَيْسانى[١] سنة ٥٨٠ هـ . ويحدثنا المقريزى أن المكتبة التى كانت بهذه المدرسة قد اشتملت من الكتب على ما يقدر بمـائة ألف مجلد ، آلت كلها الى الضياع سنة ٦٩٤هـ (١١٩٤ — ١١٩٥ م) فى غضون المجاعة التى أصابت البلاد فى ذلك الوقت ، اذ باع طلبة هذه المدرسة جميع ما كان فيها من الكتب ، وكانوا يبيعون كل مجلد برغيف[٢] .

وقد اختلف المؤرخون فى مسألة عدد الكتب التى كانت بمكتبـة القصر فى ذلك الوقت : فذكر أبو المحاسن [٣] أنها بلغت مليون مجلد ؛ وقال ابن واصل إن هذه المكتبة اشتملت على مائة وعشرين ألف مجـلد[٤] ؛ وبذلك خالف ابن واصل وأبو المحاسن غيرهما من المؤرخين من أمثـال ابن أبى طيّ وابن الطوير وعماد الدين الأصفهانى[٥] ؛ فقد ذكروا أن هذا العـدد بلغ مائتى ألف (٢٠٠,٠٠٠) وستمائة ألف (٦٠٠,٠٠٠) ومليونين (٢,٠٠٠,٠٠٠) على التوالى .

---

(١) كان شافعى المذهب . تقلد أبوه قضاء بيسان (وهى بلدة من بلاد الأردن بين حوران وفلسطين) ، ومن هذا اللفظ اشتق اسمه (البيسانى) نسبة الى هذه المدينة . قدم القاهرة ، وخدم فى ديوان الانشاء فى أيام الخليفة الحافظ الفاطمى (٥٢٤ — ٥٤٤ هـ ، ١٠٣٠ — ١٠٤٩ م) ، وترقى حتى صار صاحب هذا الديوان . ولما قدم أسد الدين شيركوه الديار المصرية ، اتخذه كاتبا له (سكرتيرا) . فلما مات أسد الدين وآلت الوزارة الى صلاح الدين ، استخلص البيسانى واستعان به فى إزالة الدولة الفاطمية ، ثم جعله وزيرا له ومشيرا ؛ فظل فى الوزارة الى سنة ٥٩٦ هـ (١١٩٩ م) ، حيث مات وهو فى طريقه لقتال الملك العادل بن أيوب ، وكان اذ ذاك يسير لأخذ مصر . ابن خلكان (ج ١ ص ٣٥٧ — ٣٥٩) والمقريزى (خطط ج ٢ ص ٣٦٦ — ٣٦٧)

(٢) شرحه (ج ٢ ص ٣٦٦)

(٣) طبعة جوينبول (ج ٢ ص ٤٨٢)

(٤) ابن واصل ، المكتبة الأهلية بباريس ، مخطوط ١٧٧٠ ، ورقة ٣٢ ب .

(٥) ذكر أبو شامة ، نقلا عن عماد الدين الأصفهانى ، أن بيع مقتنيات القصر استغرق عشر سنين ، وأنه قد خصص يومان فى الأسبوع لبيع الكتب بطريق المساومة ، فبيعت بأبخس الأثمان . وتبعثرت المجلدات — وبعضها يشتمل على خمسين جزءا فى شتى الأماكن — حتى استحال جمع كل أجزاء الكتاب الواحد . ويزيدنا عماد الدين الأصفهانى أن هذه الكتب كانت تباع بالوزن (أبو شامة ، طبعة القاهرة ج ١ ص ٢٦٨)

هـذا ، ولا يعزب عن أذهاننا ماسبق أن أوردناه عن المقريزى : وهو أنه بعد سقوط الدولة الفاطمية ، حمل من مكتبة القصر مائة ألف مجلد الى المدرسة الفاضلية التى تأسست سنة ٥٨٠ هـ (١١٨٤ م)[١] .

وهـذا ما يجعل ذلك التقـدير الذى أتى به ابن واصل غير صحيح . بيد أن العدد الذى ذكره ابن الطوير هو ثلاثة أمثال العدد الذى ذكره ابن أبى طىّ ، فى حين أن العـدد الذى أورده عماد الدين الأصفهانى يبلغ عشرة أمثال ماأتى به ابن أبى طىّ .

لكننا لو طرحنا عدد الكتب التى حملها البيسانى من هذه المكتبة ، وهو ١٠٠,٠٠٠ مجلد ، من مجموع الكتب الذى ذكره ابن أبى طىّ ، وهو ٢٠٠,٠٠٠ مجلد ، لما بقى لابن صورة الا عدد قليل جدا يتولى بيعه على مر السنين . وكيف يعقل هذا اذا علمنا أن مدرسة واحدة وهى الفاضلية كان نصيبها نصف مجموع هذه الكتب ؟ أضف الى ذلك ما ذكره ابن ميسر[٢] ، وهو أنه لما مات الوزير الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالى سـنة ٥١٥هـ (١١٢١م) ، صادر الخليفة الآمر كافة ممتلكاته ، فكان من ضمنها خمسمائة ألف مجلد (٥٠٠,٠٠٠)[٣] نقلت كلها الى مكتبة القصر .

وليس من السهل أن نأتى باحصاء دقيق لهذه الكتب ، اذا عرفنا أن هـذا التقدير الذى أتى به المؤرخون على اختلافهم يشـير الى ظروف عدة ، أى قبل هـذه المجاعة التى انتابت البلاد فى أيام الخليفة المستنصر (٤٦١ — ٤٦٥ هـ) و بعدها ، وكذا قبل سقوط الخلافة الفاطمية (٥٦٧ هـ) و بعـده .

و يظهر لنـا أن العدد الذى أورده ابن الطوير : وهو ٦٠٠,٠٠٠ ، يقرب من العدد الحقيق لهذه الكتب ، الذى كان فى هذه المكتبة فى هذه الظروف كلها .

ومهما يكن من الأمر ، فلا شك فى أنه كان فى القصر وفى دار العلم مجموعة عظيمـة من الكتب ، الغرض منها تعضيد نشر عقائد الفاطميين وتلقينها الناس . ولا غرو فقد عنى الفاطميون

---

(١) المقريزى (خطط ج ٢ ص ٣٦٦)

(٢) تاريخ مصر (ص ٥٧)

(٣) ذكر ياقوت فى كتابه ارشاد الأديب (ج٥ ص ١٥٠) أن مكتبة الوزير أبى القاسم بن عبّاد المتوفى سنة ٣٨٥ هـ (٩٩٥ م) (ابن خلكان ج ١ ص ٩٣ — ٩٥) اشتملت على ٢٠٦,٠٠٠ مجلد .

عناية خاصة بازدياد عدد الكتب والحصول على النسخ الفريدة النادرة كما قلنا ، حتى أتيح لمكتبة القصر فى القاهرة أن تنافس وتبذ غيرها من المكاتب فى العالم الاسلامى[١]

على أن ضياع هذه المجاميع جعل من الصعب ، إن لم يكن من المستحيل ، على الباحثين فى تاريخ الفاطميين فى مصر أن يقفوا وقوفا تاما على تاريخ الأمبراطورية الفاطمية العظيمة . فالأيوبيون السنيون الغلاة ، الذين كانوا أعداء ألداء للشيعة ، لم يحاولوا القضاء على الشعائر الشيعية فحسب ، بل عملوا على إزالة كل معالم الحضارة الفاطمية وثقافتها .

التعاليم الفاطمية فى القصر :

كان داعى الدعاة فى عهد الفاطميين من كبار الموظفين ؛ وكان يلى قاضى القضاة فى الرتبة ويتزيا بزيه . وكانت وظيفتا قاضى القضاة وداعى الدعاة تسندان فى كثير من الأحيان الى رجل واحد . وقد خصص لداعى الدعاة قسم كبير من قصر الخليفة . وكان يساعده فى نشر التعاليم الفاطمية اثنا عشر نقيبا ، كما كان له نواب ينوبون عنه فى البلاد .

وكان فقهاء الدولة تحت نفوذه ، ولهم مكان خاص بالقصر : هو دار العلم ؛ فكانوا يتصلون به ويتلقون عنه الأوامر ، ويقدمون اليه فى يومى الاثنين والخميس ما أعدوه للحاضرة فى أصول المذهب . ويجدر بنا أن نلاحظ أن هذه المحاضرات كانت تعرض قبل القائها على الخليفة ، فيقرها ويذيلها بامضائه ، ثم تبلغ اليهم عن طريق داعى الدعاة الذى كان يعرضها بنفسه[٢] .

وكان داعى الدعاة يعقد المجالس ويقرأ على الناس من مصنفاته ، ويجلس على كرسى الدعوة فى الإيوان الكبير فيحاضر الرجال ، ويعقد للنساء مجلسا خاصا هو مجلس الداعى ، وفيه يلقنهن أصول مذهب الاسماعيلية .

لم يكن ذلك كل ما قام به الفاطميون فى هذا السبيل . فقد ذكر لنا المقريزى نقلا عن ابن عبد الظاهر ، أن هذه المجالس كانت تفود للناس كل حسب طبقته : فكان لآل علىّ مجلس ،

---

(١) ذكر الأستاذ نيكلسن فى كلامه عن مكتبة الحَكَم الثانى فى أسبانيا : "كان القرن العاشر الميلادى عصر إزهار وبهاء فى تاريخ الأندلس ... ... وكان الحكم محبا للكتب شغوفا باقتنائها . وكان يرسل عماله الى مختلف النواحى لابتياع المخطوطات ، بجمع من وراء ذلك أو بمائة ألف مجلد أودعها قصره الذى غص بخازنى الكتب وبالنساخ والمجلدين" .

(Literary History of the Arabs, p. 419).

انظر أيضا ابن خلدون (ج ٤ ص ١٤٦) والمقرى : نفح الطيب (ج ١ ص ١٨٢)

(٢) المقريزى (خطط ج ١ ص ٣٩١)

وللخاصة وشيوخ الدولة مجلس ، ولمن يتصل بالقصور من الخدم وغيرهم مجلس ، وللعامة والطارئين من البلاد الأجنبية مجلس . وللحرم وخواص نساء القصور مجلس خاص بهن . وكان النساء يحضرن فى الجامع الأزهر[١] .

واذا فرغ داعى الدعاة من إلقاء محاضرته على المؤمنين والمؤمنات ، أقبلوا عليه يقبلون يده ، فيمسح على رؤوسهم بالجزء الذى عليه إمضاء الخليفة . ومن خصائص داعى الدعاة جمع النجوى[٢] من الاسماعيلية ، وأن يدوّن اسم من يدفع اليه أكثر من المال المقرر ؛ وفى عيد الفطر كان يجمع مال كثير يودع بعضه فى بيت المال[٣] .

ويظهر أن الفاطميين هم أول من أفرد لداعى الدعاة مكانا كبيرا فى القصر : ذلك أنه فى ربيع الآخر سنة ٣٨٥ هـ (٩٩٥ م) فى خلافة العزيز ، قُلد قاضى القضاة محمد بن النعمان وظيفة الدعوة الى مذهب آل البيت فى القصر ، كما كان أخوه الحسين فى القاهرة وأبوه فى بلاد المغرب . ويحدثنا المقريزى عن المسبحى أن الزحام اشتد بالناس فمات منهم أحد عشر رجلا[٤] .

وقد لاقت الدعوة الفاطمية السياسية منها والدينية نجاحا عظيما فى خلافة الحاكم بأمر الله ؛ فقد بذل مجهودا كبيرا فى سبيل نشر هذه الدعوة ، حتى لقد أرغم كثيرا من الناس على اعتناق المذهب الفاطمى بما سنه من القوانين الجائرة . كما كان من أثر إقبال الناس على الدخول فى هذه الدعوة أن جعل لهم يومان فى الأسبوع لتلقى تعاليم هذا المذهب[٥] . وفى السادس عشر من رجب سنة ٣٩٧ هـ (٩٣٨ م) صرف قاضى القضاة عبد العزيز بن النعمان ، وأقر فى الدعوة مكانه مالك ابن سعيد الفارقى ؛ فتسلم منه كتب الدعوة التى كانت تقرأ على الناس فى القصر[٦] .

أما كتب الدعوة التى يشير اليها المقريزى ، فهى من غير شك الكتب التى ألفها رجال من أمثال أبى حنيفة النعمان المغربى ويعقوب بن كلس ؛ وقد وصف لنا المقريزى نسخة من كتاب ابن كلس

---

(١) المقريزى (خطط ج ١ ص ٣٩١) .

(٢) زاد المقريزى (خطط ج ١ ص ٣٩١) على هذا فقال : إن النجوى كانت ثلاثة دراهم وثلث ؛ ومن مراة الاسماعيلية من دفع النجوى ثلاثة وثلاثين دينارا وثلثى دينار ، فيمتاز بذلك عن غيره فى المحول ، ويعطى رقعة مذيلة بإمضاء الخليفة ، وفيها ما يأتى : " بارك الله فيك وفى مالك وولدك ودينك ! " ، فيدخر ذلك ويفخر به .

(٣) شرحه (ج ١ ص ٣٩١)

(٤) المقريزى (خطط ج ١ ص ٣٩١ وج ٢ ص ٣٤١ — ٣٤٢)

(٥) و (٦) شرحه (ج ٢ ص ٢٨٦)

كانت فى حوزته . هذا ، ويجب أن نشير هنا الى وثيقة أخرى لها أهمية عظيمة ، وهى الرسائل المخطوطة بدار الكتب الملكية بالقاهرة[١] وعنوانها : " رسائل الحاكم بأمر الله والقائمين بأمر دعوته ".

وأنا أشك فى أن هذه الرسائل الموجودة بدار الكتب الملكية بالقاهرة هى نسخة ثانية من المجلد الأول للمخطوطات الأربعة التى اعتمد عليها دى ساسى فى كتابيه Exposé de la Religion des Druzes و Chrestomathie Arabe . فقد ذكر لنا دى ساسى فى الكتاب الأول أنه لم يطلع من المخطوطات التى تتناول الكلام على الدروز الا على ما يوجد منها بمكاتب أوربا فقط .

"Je ne puis dispenser de faire connaître sommairement ces différents écrits ; et d'indiquer les manuscrits des diverses bibliothèques de l'Europe dans les quels ils se trouvent." [٢]

وليست هذه المسألة مما يحط من قدر بحث هذه الرسائل الموجودة بدار الكتب الملكية بالقاهرة ؛ لأننى اقتصرت فى بحثها على اقتباس بعض العبارات التى لم يتصد دى ساسى ولا غيره من المؤرخين لترجمتها أو بحثها بشئ من الإسهاب . والمخطوط الذى اطلع عليه دى ساسى هو بالمكتبة الأهلية بباريس تحت أرقام ١٥٨٠ و١٥٨١ و١٥٨٢ و١٥٨٣ (Ancien fonds, ie. 1408, 1415, 1419, 1427) على التوالى ؛ وعنوانه : " كتاب المشاهد والأسرار التوحيدية لمولانا [الحاكم] "[٣] .

والمجلد الأول من مجلدات هذا المخطوط يشتمل على ست وعشرين رسالة ؛ ويكاد يتفق فى ست عشرة منها مع مثيلاتها من رسائل المخطوط الموجود بدار الكتب الملكية بالقاهرة . على أن دى ساسى اقتصر على ترجمة أربع من هذه الرسائل[٤] ؛ أما الأخرى فانه تناول الكلام عليها بشىء كثير من الإيجاز ؛ فذكر خلاصة كل منها ، وشرح موضوعها ، وذكر التاريخ الذى دونت فيه[٥] .

---

(١) هذا المخطوط الذى يحتوى على ٦٤ ورقة يشتمل على عشرين رسالة ، ويوجد بدار الكتب الملكية بالقاهرة (مخطوطات الشيعة) رقم ٢٠

(٢) De Sacy : Exposé, Tome I. pp. CCCC.LIV.

(٣) Ibid : Tome I. pp. CCCC.LIX.

(٤) Chrestomathie Arabe, Tome II. pp. 209–226

(٥) Exposé, Tome I. pp. CCCCXXII—CCCCXXXII

قد ذكرت هذه التواريخ حسب تقويم حمزة بن على ولى الزمان وقائم الزمان (De Sacy : Chrestomathie Arabe, Tome II. p. 246, n. 71).

والسنة الأولى من تقويم حمزة توافق سنة ٤٠٨ هـ (Tome II. p. 246, n. 73) . ويسمى حمزة أيضا الامام حمزة ابن على . المكتبة الملكية بالقاهرة ، مخطوط ٢٠ ، ورقة ٢١ (ب) . وهذه الألقاب الخاصة بقائم الزمان ووليه ، أعنى حمزة بن على ، قد ذكرت بوضوح فى الرسالة التاسعة عشرة من المخطوط الموجود بالقاهرة ، ورقة ٤٩ ب) حيث يقول : " توسلت اليه بوليه قائم الزمان حمزة بن على ".

وسنبحث الآن فى الأساليب التى اتخذها الخلفاء الفاطميون فى سبيل تأييد عقائدهم ، والطرق التى انتهجها أشياعهم فى هذا السبيل ، معتمدين فى ذلك على مخطوط القاهرة ؛ ومنها يتجلى للقارئ ما ادعاه الحاكم من صفات الألوهية . ولا غرو فقد أصبح قسم كبير فى القصر مركز حركة الدعوة الفاطمية . وفى هذا المكان كان داعى الدعاة وأعوانه يلقنون الناس تعاليم هذا المذهب فى أوقات منتظمة .

أما اللهجة التى كتبت بها هذه الرسائل ، فانها تدلنا على ما توقعه الفاطميون من مقاومة الأهلين ، وما تنبأوا به أيضا من معارضة من الجانب الأعظم من المصريين . يؤيد هذا القول ما جاء بهذه الرسائل عن الحاكم وأهل مصر : "وتنزه عن سوء الظنون ؛ إشارة ذلك أنه لما غاب ، ظنوا به ظن السوء من العجز والعدم والظلم" [١]

هذا ، وقد قرئت هذه الرسالة بعد أن قام الدرزى (حمزة بن علىّ) بتعليم العقائد الجديدة التى انتحلها الحاكم الذى ظهر سنة ٤٠٨ هـ (١٠١٧ م) بصورة التوحيد ، على ما يتبين من هذه العبارة : " فلما غاب مولانا الحاكم بصورة التوحيد انكشف المكنون : الإشارة الى قيامه فى الكشف سنة ثمان وأربعمائة ، انكشف المكنون ، يعنى التوحيد ، واستمر مكنونا من غيبة البارى"[٢] .

وهذه الرسائل قد بنيت على آراء فلسفية مصدرها عقائد الباطنية والمعتزلة ؛ لأن الفلسفة ، وهى أساس الشريعة عند الفاطميين ، قد حلت فى عهد الحاكم محل القرآن والسنة . ومما تختص به هذه الرسائل ما جاء فيها من أن داعى الدعاة كان يعاونه مائة وواحد وخمسون داعيا ، فضلا عما قام به المؤذنون وخطباء المساجد فى سبيل نشر الدعوة الفاطمية [٣] .

والرسالة الأولى ليس لها عنوان يدل على موضوعها ؛ ولكنها بمثابة تمهيد لما تلاها من الرسائل ؛ وهى تعرض للكلام على ما استجد فى عهد الحاكم من عقائد . ويقول كاتب هذه الرسالة :

---

(١) رسائل الحاكم بأمر الله ، مخطوطات الشيعة ، المكتبة الملكية بالقاهرة ، مخطوط ٢٠ ، ورقة ٤٣ أ

(٢) يدل لفظ "كشف" على الفترة التى كانت من اختفاء الحاكم الى وقت دعوته واظهار دينه الجديد للناس . وقد ذكر دى ساسى (Chrestomathie Arabe, Tome II. p. 275, n. 144) أن هذه الفترة يعبر عنها فى كتب الدروز بالكشف .

(٣) شرحه ، ورقة ٤ (ب) .

" العالِمُ ناطق الشريعة ، لأن ناطق الحقيقة الإمام ؛ وهو مبدع الكل ، يعنى العشرة : الخمسة[١] حدود[٢] الحق (الحقيقة) ، والخمسة حدود الشريعة" ، وعالّ علتهم[٣] ؛ والعلة العقل الكلى ، ومصدر صورتهم الدينية[٤] .

" أما موضوع هذا الكتاب ، فهو بيان الدقائق بالاختصار فى إبطال قول من قال إن مولانا هو الناطق والأساس ، ثم ذكر هذه الحجج العظيمة التى هى السجلات"[٥] .

---

(١) كان الخمسة حدود الحق عبدالرحيم ولى عهدالخليفة ، وعباس ، وختكين الداعى ، وجعفر ، وأحمد بن العوام قاضى القضاة . المكتبة الملكية بالقاهرة ، مخطوط ٢٠ ، ورقة ٢ (ب) . وذكر دى سامى عن الرسالة السابعة عشرة (المكتبة الأهلية بباريس ، مخطوط ١٤٠٨) ، وعنوانها "التنزيه" ، أن الخمسة حدود هم : عبدالرحيم بن الياس ، وعباس بن شعيب ، والداعى ختكين ، وجعفر الملقب بالضرير ، وأحمد بن العوام قاضى القضاة (Exposé, Tome I, pp. CCCCLXXII seq.)

(٢) ذكر دى سامى أن كلمة "حدود" فى اصطلاحات الدروز الدينية تشير — بطريق المجاز لما جاء فى القرآن — إلى الحدود التى لها السلطة الدينية حسب أصول هذا المذهب . وعلى ذلك ، فان "إقامة الحدود" معناها الشرائع التى أوجدها الأئمة (الحدود) فى طائفة الدروز (Chrestomathie, Tome II. pp. 199, 242, n. 45) . وقد أوضح دى سامى فى كتابه Chrestomathie Arabe, Tome II. p. 275, n. 147) كلمة حدود ، فزعم أن المؤلف يشير بقوله "شرح الحدود" الى الرسالة الثامنة عشرة من المخطوط الموجود بالمكتبة الملكية (اذ ذاك) بباريس تحت رقم ١٥٨١ (Ancien fonds, No. 1415, Bibliothèque Nationale) ، وعنوانها : " ذكر معرفة الإمام وأسماء الحدود العلوية روحانيا وجسمانيا " .

(٣) ذكر دى سامى (Chrestomathie, Tome II. pp. 219, 274, n. 136) أن حمزة بن علىّ هو علة الوجود . ويسمى فى شرائع الموحدين تارة بالعقل ، وتارة أخرى بعلة العلل ؛ وتدين له بوجودها الأشياء كافة . ويزيد دى سامى هذه المسألة بيانا فيقول : إن الحاكم هو الاله الأعلى ، ويسمى أحيانا العلة الفعالة لعلة العلل (La cause efficiente de la cause des causes) . بيد أن دى سامى لم يجزم بذلك حيث يقول : "إن هذه الآراء ليست خاصة بالدروز ، بل قال بها الاسماعيليون أيضا ؛ وأعتقد أنها شائعة عند من يقولون بما وراء الطبيعة بين بعض الطوائف الاسماعيلية" .

(٤) المكتبة الملكية بالقاهرة ، مخطوط ٢٠ ، ورقة ١ أ .

(٥) قال دى سامى إن النبى أو الناطق يخلفه سبعة من الأئمة ، أولهم يدعى الأساس أو السوس ، وهو خليل الناطق والأمين على تعاليمه فى الزهد . والناطق والأساس هما محمد وعلىّ ، وهما خادما الحاكم ليس غير . وينوب عنهما عبدالرحيم بن الياس وعباس بن شعيب . ويزيد دى سامى هذا الموضوع بيانا فيقول : ونقرأ عبارة تستحق الذكر فى كتاب آخر ألفه حمزة فى نفس هذه السنة (٤٠٩ هـ) وعنوانه رسالة التنزيه (أى تنزيه الحاكم) . ويريد هذا الكاتب أن يدلل على أن مولانا — أى الحاكم — لايشترك فى شىء ما مع الناطق والأساس ، وهما محمد وعلىّ ، بل ولا فى عقائدهما ، أى الاسلام أو التنزيل ، وعقيدة مولانا المجازية التى يمثلها عبدالرحيم بن الياس وعباس بن شعيب ("Dans un autre ecrit de Hamza, daté de la même année—A.H. 409— et intitulé "رسالة التنزيه" , on lit un passage remarquable. L'autour veut prouver que notre Seigneur, c'est-à-dire Hakem, n'a rien de commun avec le Natek et l'Asas, c'est-à-dire Mahomet et Ali, ni avec leurs doctrines, c'est-à-dire le Mahométisme littéral ou Tenzil, et la doctrine allégorique, serviteur de notre-Seigneur, représentés par Abd-Arrahim, fils d'Elyas, et Abbas, fils de Schoaib (Chrestomathie Arabe, Tome II. p. 238, n. 23)."

ويشير المؤلف فى رسالة النساء (المكتبة الملكية بالقاهرة ، مخطوط ٢٠ ورقة ١٠ (ب) الى عبد الرحيم وعباس كالناطق والأساس . شرحه ورقة (١ ب) .

بعـد ذلك يفسر لنـا الداعى كلمة إمام التى تقوم مقام " ذو معـة " ، وهو العقل الكلى الذى يربى الدعاة ، وعنه يتلقون العلم (لأن السابق الحقيق هو الإمام الأعظم... الذى هو العقل الكلى .. أن الامام الكلى هو الذى يربى الدعاة ... يأخذون العلم ، يعنى الدعاة) .

وفى الرسالة الثانية (رسالة النساء) يؤكد الداعى خطر تعدد الآلهة ، ويدافع عن ضرورة الاعتقاد بوحدانية الحـاكم (الخالق الرازق)[١] و (علام الغيوب)[٢] ؛ ثم يستطرد الداعى فى الكلام فيقول : "والمراد بالدين هنا المجالس والسجلات"[٣] . ومن هذا يتبين أن الدين الاسلامى قد عطل فى عهد الحاكم ، وعمـل بدين جديد مبنى على التعاليم التى قام بهـا دعاته ، والتى شرحها الشراح فى مجالس الحكمة ، وفى الوثائق التى قامت مقام القرآن والحديث .

والرسالة الثانيـة تبين لنا أيضا أن مجالس الحكمة إنمـا كانت تنعقد لتعليم طائفة من الناس أصول مذهب الباطنية ، لكى يتجنبوا بذلك معارضة السواد الأعظم من المصريين . ومع ذلك فانه يظهر لنا من نفس هذا الكتاب أن روح السخط قد ظهرت بين المصريين ، بل ولم تلاق هذه السياسة قبولا عند قاضى القضاة عبد العزيز بن النعمان ، فكان نصيبه أن عزله الخليفة سنة ٣٩٨ هـ (١٠٠٧ م) ، وأقر مكانه مالك بن سعيد .

وكان من عزل ابن النعمان أن لعن فى هـذه الرسالة . على أن الفـارقى لم يصادف من النجاح شيئا ، فلحق بسلفه بحجة أنه لم يعتقـد بصحة مذهب الحاكم ، ولأنه اغتصب أموال اليتامى . ويتبين ذلك ممـا جاء فى هذه الرسالة حيث يقول الداعى الذى كتبها :

"لأن المجالس الباطنية لا تقرأ على كل الناس" ... وعبد العزيز كان قاضى مصر ، ثم بعده تولى مالك بن سعيد قضاء مصر... فنظرنا الى قولهم تيس من تيوس بنى أمية ... وجدناه عبد العزيز محمد بن النعمان ... ولد عبد العزيز فى أيام العزيز أيضا الى أيام الحاكم ، وعزله سـنة ثمـان وتسعين وثلثمائة ، وولى مكانه مالك بن سعيد آكل أموال اليتامى والمتبرئ من دين الرحمن"[٤]

---

(١) رسائل الحاكم بأمر الله ، ورقة ١٢ (ب) .

(٢) شرحه ورقة ١١ (ب) .

(٣) شرحه ورقة ١٠ (ب) .

(٤) شرحه ورقة ٨ (ب) .

لقد كان من أثر هـذه السياسة التى سار عليها الحاكم ان أبطلت مجالس الحكمة سنة ٤٠٣ هـ (١٠١٢ م)[١] . نعم ! قد حال دون نجاح الفاطميين ما كان من مقاومة السواد الأعظم من الأهلين واستهجان فريق من علية القوم لهم . ولا عجب فى ذلك ، فقد بلغت الجرأة بالحاكم أن أبطل الأديان كافة ، وطلب الى الناس اعتناق مذهبه الذى بنى عليه هـذه الكتب التى كانت تتلى فى مجالس الحكمة .

وقد جاهر دعاة الفاطميين بهذا المذهب الجديد (وانقطعت المجالس... أهل التأويل والأقاويل الباطلة من جهة المقام جل ذكره والكتاب...[٢] وهذه الفصول التى تقدمت جميعها تشير إلى بطلان الشرائع ودحض الألوهية من الأساس[٣]... والمراد بالدين هنا المجالس والسجلات[٤]) .

أما الرسالة الثالثة عشرة وعنوانها "المناجاة" ، فهى تشتمل على الدعاء الذى كان يقوله المؤمنون فى مجلس الحكمة . أما الداعى فانه يبث الدعوة بين الناس ، مؤيدا ألوهية الحاكم وسرمديته (سرمدى الثبات)[٥] ، وغيرها من الصفات التى هى من صفات الله سبحانه .

فكأن الحاكم فى نظر هـذا الداعى هو رب العرش[٦] (فأنت صاحب العاجلة ، أى الدنيا ، واليك حكم الآجلة ، أى الآخرة)[٧] ، و (بارى البرايا)[٨] . ولا شك فى أن غرض الداعى كان حث الناس على اعتناق مذهب الحاكم ونبذ غيره من المذاهب (التى هى باطل وزور)[٩] .

والرسالة الرابعة عشرة ، وعنوانها "الدعاء" ، كتبت بنفس الأسلوب والروح الذى كتب به ما سبقها من الرسائل ، وفيها يوضح الداعى الاصطلاحات التى كان يلقنها من يدين بمذهب الحاكم . وبحذف هذه الشروح المطولة التى لا حاجة الى نقلها لطولها يصبح الدعاء كما يأتى :

---

(١) المقريزى (خطط ج ١ ص ٤٥٨) .
(٢) المكتبة الملكية بالقاهرة ، مخطوط ٢٠ ورقة ٨ (ب) .
(٣) شرحه ، ورقة ١٠ (أ) .
(٤) شرحه ، ورقة ١٠ (ب) .
(٥) شرحه ، ورقة ٢٠ (أ) .
(٦) شرحه ، ورقة ٢٢ (أ) .
(٧) شرحه ، ورقة ٢٥ (أ) .
(٨) شرحه ، ورقة ٢٧ (ب) .
(٩) شرحه ، ورقة ٢١ أ وما يتبعها .

"سبحانك يامبدع الأشياء ، يامخترع العالمين ، يا صفوة العالمين! سبحانك يامن تعزز بالكبرياء والجبروت ! سبحانك يامن تعاظم أن يكون كمثله شيء ، أو يلحقه وصف واصف ! سبحانك يامن تعالى عن المساوئ ! سبحانك يا من لا تلحقه صفة ولا له صفة ! شهدت وآمنت وأيقنت بأنك الله المبدع العزيز الواحد الأحد ، وأنك بارى لا بارى لك ، وخالق لا ضدّ لك ، وقادر لا مقدور عليك ، وحاكم لا محكوم عليك . أسألك يا مولانا وسيدنا بعظيم جلال قدرتك ونور سلطانك ؛ أسألك يا مولانا بأول شيء ظهر من توحيدك وتنزيهك ونفى التشبيه عنك ، أن تمنّ علىّ بخالص معرفتك وحميد طاعتك ، والبلوغ الى مرضاتك والثبات على أمرك والتجنب لنهيك ، والصبر على ما ينالني فى عبادتك من شدائد المحن والبلوى . يا أرحم الراحمين ! بحقك على من يصرف هويته عن تسبيحك وتمجيدك الى سواك . لا أصرف ذاتى الى غيرك ، تائب اليك معترف بألوهيتك ، متبرئ من كل عدو لك ؛ لا شريك لك ولا دافع لأمرك ؛ تجاوز عنى واغفر ذنبى ، واجعل معرفتك التى مننتً بها علىّ مخلدة فى نفسى . لا إله غيرك ولا معبود سواك[1]".

وهكذا كان الدعاء الذى قام به الداعى فى القصر والمؤمنون بوحدانية الحاكم . ومع ذلك فقد أنكر كثير من الناس هذه الصفات ، على ما يشير اليه كاتب هذه الرسالة . بيد أن هذا الكاتب قد ذكر أن الحاكم ظهر فى صورة إنسان ، وتسمى باسم إنسان ، وقام بأفعال البشر ، ثم تجرد عن صفاتهم . وأخيرا دعا الناس الى الاعتقاد بألوهيته وتنزيهه ، اذ صار البرهان المطلق . ويتضح ذلك من هذه العبارة التى ننقلها بنصها :

" يعنى أنهم أنكروا بعد أن ظهرت الصورة عند الإثبات المحض ، يعنى وجوده فى صورة مرئية ظاهرة مكشوفة حيث صورنا ؛ وتسمى بأسمائنا وظهر بجميع أفعالنا ، ثم تجرد عن صفات البشر ، ودعا الخلق الى معرفته ووجوده وتنزيهه ، فصار إثباتا محضا ، أى خالصا [2] "

---

(١) رسائل الحاكم بأمر الله ، ص ٢٧ (ب) — ٣١ (أ) .

(٢) شرحه ، ورقة ٣١ (ب) .

الباب الرابع

الدعاية الأدبيـــة

تشجيع الشعراء والعلمـاء والكتّاب بالصلات والمناصب

١ ــ الكتّاب والعلمـاء

لقـد عُنى الفاطميون عناية عظيمة بالشـعراء والكتّاب وغيرهم من رجال الادب لنشر مذهبهم وإذاعة ما بلغته خلافتهم من أبهة وسلطان . وكان من بين هؤلاء عدد غير قليـل من الكتّاب ومن طبقة الموظفين المتصلين بديوان سر الخليفة (السكرتيرية) أو بدار العلم ؛ وكان الخلفـاء يجزلون لهم الأموال الكثيرة ويجودون عليهم بالخلع .

ولقد أتى لنـا القلقشندى ببيان رواتب الموظفين ، ومنه يتبين لنـا أن الكتّاب كانوا يتقاضون رواتب كبيرة ، فضلا عما كان يغدق عليهم من هبات ويدفع لهم من ارزاق . فكان صاحب الانشاء والمكاتبات يتقاضى راتبا شهريا قدره مائة وخمسون دينارا ؛ وكان يتقاضى كل كاتب من الكتّاب الذين يعملون تحت ادارته ثلاثين دينارا[١] .

ويلى صاحبَ الانشـاء[٢] فى الرتبـة صاحبُ القلم الدقيق الذى كان يوقع على المظـالم ويجالس الخليفة فى خلوته ، فيذاكره ما يحتاج اليـه من كتاب الله أو سير الأنبياء والخلفـاء وعظماء الرجال ، ويحدثه عن مكارم الأخلاق ويعلمـه تجويد الخط . وكان راتبه مائة دينار فى كل شهر .

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى (ج ٣ ص ٤٩٠)

(٢) زاد القلقشندى على ذلك أن هذا الكاتب كان يطلق عليـه أيضا اسم صاحب الدَّست الشريف ؛ ومن واجباته تسلم المكاتبات الواردة ، ثم عرضها على الخليفة لبحثها واعتمادها . ويستشيره الخليفة فى أكثر أموره (ج ٣ ص ٤٩٠) . وقد ذكر ابن ميسر (ص ١١٣) أن كاتب الانشاء كان يطلق عليـه كاتب السر ، وأن أبا الفرج محمد بن جعفر المغربى كان أول من تلقب بهذا اللقب فى عهد المستنصر الفاطمى سنة ٤٥٤ هـ (١٠٥٩ م) .

وإذا جلس وضعت أمامه دواة محلاة بالذهب والفضة ؛ فإذا انتهى المجلس ألقى فى هذه الدواة كاغدة فيها عشرة دنانير ، وقرطاس فيه ثلاثة مثاقيل ند (ممزوج بالمسك) ليتبخر به عند دخوله على الخليفة فى المرة التالية .

وفى الشطر الأخير من الخلافة الفاطمية ، حين اصبح الوزير صاحب السيف والقلم ، كان يجلس الوزير للمظالم ، والى جانبه صاحب القلم الدقيق يقوم مقام كاتب السر ، وكانت له سلطة التوقيع تحت توقيع الوزير ، بل والنظر فى الشكاوى قبل انعقاد الجلسة[١] .

ويلى صاحبَ القلم الدقيق فى الرتبة صاحبُ القلم الجليل[٢] ، ومهمته تسلم رقاع المظالم من صاحب القلم الدقيق ووضعها فى الصيغة القانونية قبل أن تعرض على الخليفة للتصديق عليها[٣] .

وكان الكتّاب يختارون عادة ممن اشتهروا بسعة الاطلاع فى الأدب ، ويمتازون بالمقدرة فى فن الانشاء ، كما كانوا من كبار رجال الدولة ممن تُجرى عليهم الصلات والهبات .

---

٢ — الشعراء

(أ) الشعراء فى الصدر الأول من عهد الفاطميين
(٣٦٢ — ٤٦٦ هـ ، ٩٧٢ — ١٠٧٣ م)

(١) الشعراء فى عهد المعز :

أكثَرَ رجال الأدب فى قول الشعر لمدح الخلفاء الفاطميين ، لما كان يغدقه هؤلاء من العطايا الجزيلة والخلع والجوائز والأرزاق المخصصة لهم . ولقد دفعت الرغبة فى الحصول على هذه الجوائز والهبات بالشعراء من أهل السنة الى محاكاة الشعراء الشيعيين ، فاتصل بعضهم ببلاط الخلفاء الفاطميين . على أن الشعراء السنيين ، وان كانوا فى مدحهم أكثر اعتدالا من الشيعيين كابن هانئ وغيره ، فقد انتشر الغلو فى شعرهم للاشادة بمجد الفاطميين . وكثيرا ما دفع بهم هذا الغلو الى الكفر والإلحاد .

---

(١) القلقشندى (ج ٣ ص ٤٩١)

(٢) ولو أن هذه العبارة تدل على أن هذا الموظف كان أعلى فى المرتبة من صاحب القلم الدقيق ، الا أن مرتبته كانت فى الواقع أدنى من مرتبة صاحب القلم الدقيق ، إذ كانت تسمى الخدمة الصغرى .

(٣) شرحه (ج ٣ ص ٤٩١ و ٤٩٢)

ولما كان ابن هانئ[١] أول من ضرب المثل فى ذلك لغيره من الشعراء الذين جاءوا بعده ، رأينا أن نأتى بشىء من سيرته ، عسى أن نتبين تلك العناية العظيمة بالشعر والشعراء التى كانت تظهر لدى الخلفاء الفاطميين فى نشر دعوتهم ونجاح سياستهم . ولقد ناط المعز بابن هانئ الآمال الكبار ، عساه أن يحاكى الشعراء العباسيين ويبذهم . يؤيد هذا القول أنه لما بلغت المعز وفاة ابن هانئ وهو بمصر ، أسف عليه أسفا شديدا وقال : "هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يقدر لنا ذلك"[٢] .

ولا شك فى أن المعز قد أصاب فيما قاله ؛ لأننا إذا تصفحنا ديوان ابن هانئ الذى يقع فى مائتين وست وأربعين صفحة ، ألفينا أن أكثره قد نظم فى مدح المعز وأسرته . وليس لدينا دليل تاريخى على أن ابن هانئ قد اعتنق مبادئ المذهب الشيعى فى صباه . غير أنه لا بد أن تكون نفسه قد أشربت روح العطف على هذه العقائد ؛ يدلك على هذا ما كان من إظهار هذه العواطف حال وصوله الى بلاد المغرب .

ويظهر لنا أن ابن هانئ أصبح شيعيا متحمسا لهذا المذهب استدرارا لكرمهم ، لا حبا فى عقائدهم واستمساكا بها ، حتى لقد ذهب به هذا التحمس إلى أن ينسب لحسامه من صفات التشيع ما نسبه إلى نفسه . وقد تكلم عن ذلك فى هذين البيتين :

---

(١) أبو القاسم ، ويلقب بأبى الحسن أيضا ، هو محمد بن هانئ ، من قبيلة أزد . ولد فى إشبيلية فى بلاد الأندلس فقضى بها أيام صباه . وكان أبوه هانئ من قرية من قرى المهدية فى شمال إفريقية (فى بلاد تونس الآن) . وقد تجلت مواهبه فى الشعر والفلسفة ، وانتقل إلى الأندلس ، فولد له محمد الذى اتصل فيما بعد بصاحب إشبيلية وحظى عنده ، وانهمك فى الملاذ واتهم بمذهب الفلاسفة . ولما اشتهر عنه ذلك ، نقم عليه أهل هذه المدينة وأخذوا يسيئون الظن بالملك بسببه ، حتى اتهمه الناس باعتناق مذهب هانئ ، فأشار عليه الملك بالبعد عن هذه المدينة ريثما ينسى الناس ما كان من أخباره . فرحل عنها وله من العمر سبع وعشرون سنة (سنة ٣٤٧ أو ٣٥٣ هـ ، ٩٥٨ أو ٩٦٤ م) ، فلق جوهرا القائد ومدحه ، ثم ارتحل إلى جعفر ويحيى ابنى على بن أحمد بن حمدان الأندلسى أمير المسيلة وإقليم الزاب ، ومن أنصار العلم والعلماء ، فبالغا فى إكرامه والأحسان إليه ، فنمى خبره إلى المعز فطلبه منهما . فلما وفد عليه بالغ فى الانعام عليه . ثم توجه المعز إلى الديار المصرية ، فشيعه ابن هانئ ورجع الى المغرب لأخذ عياله والحاق بمولاه . وقد أعد ابن هانئ معداته للرحيل وسار يريد مصر . فلما وصل برقة أضافه شخص من أهلها ، فأقام عنده أياما فى مجالس الأنس والطرب . ويقول ابن خلكان إنهم عربدوا عليه فقتلوه . وفى رواية أخرى أنه خرج سكران ، فنام فى الطريق فوجد ميتا فى الصباح ، فلم يقف الناس على سبب وفاته . وكان ذلك صبيحة الأربعاء الثالث والعشرين من رجب سنة ٣٦٢ (٣٠ أبريل سنة ٩٧٣) ، وعمره ست وثلاثون سنة ، وقيل اثنتان وأربعون (ياقوت — إرشاد (ج ٧ ص ١٢٦ و ١٢٧) ، ابن خلكان (ج ٢ ص ٥) ، المقرى — نفح الطيب (ج ٢ ص ١٠١٠) ، أبو المحاسن — طبعة جوينبول (ج ٢ ص ٤٣٧ — ٤٣٨)

(٢) ابن خلكان (ج ٢ ص ٥)

لى صارمٌ وهـــو شيعىٌ كحامله   يكاد يسبق كراتى إلى البطـــل
إذا المعزُّ معز الدين سلَّطه   لم يرتقب بالمنـايا مـدة الأجل [١]

وربمـا كان أمر اعتناقه المذهب الشيعى راجعا إلى ما لقيـه من عطف المعز وكرمه ، كما يتبين لنـا من إحدى قصائده فى مدح المعز ، حيث يذكر لنا كيف أخذ يتلمس السبيل الى المعز طمعا فى صِلاته وعطاياه ، فيقول :

٢٧   وطفقتُ أسأل عن أغرّ [٢] محجّلٍ [٣]   فاذا الأنامُ جِبِـلّةٌ [٤] دهمـاءُ [٥]
٢٨   حتى دُفعتُ إلى المعز خليفـةً   فعلمتُ أن المطلب الخلفـاءُ
٢٩   جـودٌ كأنَّ اليَمّ [٦] فيـه نفـاثةٌ [٧]   وكأنمـا الدنيـا عليـه غُثـاءُ [٨]

ويقول ابن هانئ فى قصيدة أخرى رائعة ، قيل إنها أول ما أنشد بالقيروان فى مدح المعز :

٢١   قد كان رشحُ حديده أجلا وما   صاغت مضاربَهُ الرقاقَ قيونُ [٩]
٢٢   وكأنمـا يَلْـقَ الضريبـةَ دونه   بأسُ المعز أو اسمـه المخزون
٢٣   هـذا مَعَـد والخـلائق كلها   هـذا المعـز متوَّجا والدين
٢٤   هـذا ضمـير النشـأة الأولى التى   بدأ الاله وغيبهـا المكنون
٣٨   وصواهلٌ ، لا الهُضب يوم مغارها   هضب ، ولا البيض الحَزون حزون
٤٢   عُرفت بساعة سبقها لا أنهـا   عَلِقَت بهـا يوم الرِّهان عيون
٤٣   وأجلُّ عـلم البرق فيهـا أنهـا   مرّتْ بجانحتيه وهى ظنون

---

(١) ديوان ابن هانئ (ص ١٨٢)

(٢) الأغر السيد فى قومه .

(٣) التحجيل بياض يكون فى قوائم الفرس ، وقيل هو أن يكون البياض فى ثلاث منهن دون الأخرى فى رجل ويدين

(٤) الجبلة بمعنى الطبيعة والخليقة والغريزة .

(٥) من الدهمة وهى السواد .

(٦) أليم البحر .

(٧) النفاثة البصقة .

(٨) الغثاء الزبد — ديوان ابن هانئ (ص ٧)

(٩) القيون الحدادون .

ملاحظة : الأرقام التى على يمين الأبيات تشير الى ترتيبها فى قصائدها .

٤٤ فى الغيث شِبْهٌ من نداك كأنما مسحتْ على الانواء منك يمينُ

٤٥ أما الغِنى فهــو الذى أوليتنا فكأن جودَك بالخلود رهينُ

٥١ وأُذنْ له يُغرق أميــةَ معلنًا ما كلُّ مأذونٍ له مأذونُ

٧٦ النــورُ أنت وكلُّ نور ظلمــة والفَوْقُ أنت وكل فوق دونُ

٨٣ فارزُقْ عبادك منكَ فضلَ شفاعة واْقرُبْ بهم زُلفى فأنت مكينُ(١)

وعلى هــذا النحو نظم ابن هانئ مدائحه فى المعز معليا مآثره مشيدا بأحقية الفاطميين بالخلافة . وقد غلا فى ذلك فنسب الى مولاه بعض صفات النبوة والألوهية . وبهذا مهد ابن هانئ السبيل لمن جاء بعده من الشعراء . يدل على ذلك هذه القصيدة الطويلة التى أنشدها فى حضرة المعز، نقل منها هذه الأبيات :

٣١ هو علةُ الدنيا ومن خُلقت له ولعــلةٍ ما كانت الأشــياءُ

٦٨ ولك الجــوارى المنشآتُ مواخرًا(٢) تجــرى بأمرك والرياح رُخاءُ(٣)

٨٦ فَعَنَتْ لك الأبصارُ وانقادت لك الـ أقدارُ واســتحيت لك الأنــواء

٩٩ لا تسألنَّ عن الزمان فانه فى راحتيك يدور حيث تشــاءُ(٤)

هــذا ، ولم يفتر ابن هانئ عن مواصلة مدحه للمعز ، ولكنا رأينــاه يُغرق فيجعله فى مــنزلة عيسى ومحمد ، بل وينسُب اليــه بعض صفات الألوهيــة ، كما يتضح ذلك فى قصــيدة أخرى حيث يقول :

---

(١) ديوان ابن هانئ (ص ٢١١ — ٢١٦)

صدّر ناشر ديوان ابن هانئ هذه القصيدة بمقدمة ننقلها فيما يلى :

" وقيل إن هذه القصيدة أول ما أنشده بالقيروان ، وأنه (المعز) أمر له بدست قيمته ستة آلاف دينار ، فقال له : "يا أمير المؤمنين ! مالى موضع يسع الدست اذا بسط " ، فأمر له ببناء قصر ، فغرم عليه ستة آلاف دينار ، وحمل اليه آلة تشاكل القصر والدست ، قيمتها ثلاثة آلاف دينار".

(٢) مقتبسة من القرآن سورة ٥٥ آية ٢٤

(٣) شرحه سورة ٣٧ آية ٣٦

(٤) ديوان ابن هانئ (ص ٧ — ١١)

١٩ ندعوه منتقما عــزيزا قــادرا غفّــارَ موبقة الذنوب صـفوحا

٥٨ أقسمتُ لولا أن دعيتَ خليـفةً لدعيتَ من بعـد المسيح مسيحا

٥٩ شهدتْ بفخرك السمواتُ العلى وتنزل القرآن فيــك مسيحا[١]

وفى قصيدة أخرى يصف المعز فيشبهه بمحمد ، ويشبه أشياعه بأنصار النبى حيث يقول :

١ ما شئتَ لا ما شاءت الأقدار فاحكمْ فأنت الواحــدُ القهـار

٢ وكأنمـا أنت النــبىُّ محمــدٌ وكأنمـا أنصـارك الأنصـار

٦ هذا الذى تُجـدى شفاعته غدا حقا وتَخْمُـدُ أن تراه النـار[٢]

ولم يفت ابن هانئ أن يعلى من شأن الانتصار الذى حازته جيوش المعز على جنـد البيزنطيين فى سورية حيث يقول :

١ يوم عريضٌ فى الفَخَار طويل ما تنقضى غررٌ له وحجــولُ

٢٠ لو أبصرتك الرومُ يومئذ دريتْ أن الإله بمـا تشاء كفيل

٢١ يا ليت شعرى عن مقاولهم اذا سمعتْ بذلك عنك كيف تقول

٢٢ ودّوا ودادا أن ذلك لم يكنْ صـــدقا وكلٌّ ثاكلٌ مثكول

٢٥ قل للدمُستُقِ مورِ الجمع الذى ما أصـدرته له قنًـا[٣] ونُصول

٢٦ سلْ رَهط منويلٍ وأنت غررته فى أى معركة ثوى منــويل

٢٧ منع الجنودَ من القفول رواجعا تبًـا له بالمثنيـات قُفــول

١٠٣ من يهتـدى دون المعز خليفــةً إن الهـدايةَ دونهـا تضليل[٤]

ومما قاله فى عيد النحر يمتدح المعز ويذكر هذا العيد :

١٩ هذا ابنُ وحى الله تأخذ هديها عنـه المـلائكُ بكرةً وأصــيلا

---

(١) ديوان ابن هانئ (ص ٣٤ — ٣٦)

(٢) شرحه (ص ٩٦)

(٣) القنا الرمح

(٤) شرحه (ص ١٤٧ — ١٥٣)

٣٠ ذَعَرت مواكبُه الجبالَ فأعلنت هضباتُها التكبيرَ والتهليلا

١٠٨ وعلمتَ من مكنون سر الله ما لم يؤتَ فى الملكوت ميكائيلا

١١٢ لو كان آتى الخلقَ ما أوتيته لم يخلق التشبيه والتمثيلا[1]

هذا ، ولقد بلغ تمجيد ابن هانئ للعز أقصى حد يمكن أن نتصوره ، حيث ينسب اليه القدرة على إتيان المعجزات فيقول :

١٤ فقد شهدتُ له بالمعجزات كما شهدتُ لله بالتوحيد والأزل[2]

ويغلب على ظننا أن ابن هانئ تأثر فى عقائده بآراء الفلاسفة اليونان ، وأن كرم المعز أوحى اليه أن يشيد بذكر مآثر الفاطميين ، وأن يأخذ بنصيبه فيما قاموا به فى سبيل نشر دعوتهم ، كما يتجلى ذلك فى هذين البيتين من قصيدة قد تكون آخر ما نظمه هذا الشاعر ، وقد بعث بها الى المعز وهو بمصر فيقول :

٣١ وروحُ هدًى فى جسم نور يمده شُعاعٌ من الأعلى الذى لم يُجسَّم

٣٦ فأُقسم لو لم يأخذ الناسُ وصفَه عن الله لم يُعقَل ولم يُتوهم[3]

(٢) الشعراء فى عهد العزيز والحاكم (٣٦٦—٤١١هـ ، ٩٧٥—١٠٢١م) :

لقد قدمنا لك ما كان من أثر هذه الأموال التى كان يغدقها الوزير ابن كلس والخليفة العزيز على الشعراء ، مما دفع بهم الى نظم القصائد الرائعة . والآن نأتى بأمثلة قليلة تبين أعمالهم فى هذا السبيل :

من هؤلاء أبو عبد الله محمد بن أبى الجرّع ، وهو من الشعراء الذين عاشوا فى زمن العزيز الفاطمى . ولقد بلغ هذا الشاعر مرة أن الوزير كان يشكو من ألم فى يده ، فنظم ابن أبى الجرع

(١) ديوان ابن هانئ (ص ١٥٣ — ١٦٠)

(٢) شرحه (ص ١٦٤)

(٣) شرحه (ص ١٨٨)

قصيدة يُظهر فيها شديد حزنه لمرض الوزير ، ويصف ما كان لمنح العزيز عليه من أثر . وفى ذلك يقول :

يدُ الوزير هى الدنيا فان ألمت   رأيتَ فى كل شىء ذلك الألما
تأمل الملكَ وانظر فَرْط علته   من أجله واسأل القرطاسَ والقلما
وشاهدِ البيضَ فى الأغماد حائمةً   إلى العدا ، وكثيرا ما رُوِينَ دما
وأنفسُ الناس بالشكوى قد اتصلت   كأنما أشعرت من أجله سَقما
هل ينهض المجدُ الا أن يؤيده   ساقٌ تقدَّم فى إنهاضه قدما
لولا العزيزُ وآراءُ الوزير معا   تَحيَّفَتْنا خطوب تُشْعِبُ[1] الأمما
فقلْ لهذا وهذا أنتما شرفٌ   لا أوهن اللهُ ركنيه ولا انهدما
كلاكما لم يزلْ فى الصالحات يدا   مبسوطةً ولسانا ناطقا وفما
ولا أصابكما أحداثُ دهركما   ولا طَوَى لكما ما عشتما علما
ولا انمحتْ عنك يا مولاى عافيةٌ   فقد محوتَ بما أوليتنى العدما[2]

يضاف الى ذلك ما أورده لنا ابن خلكان[3] ، وهو أنه غداة وفاة ابن كلس زار الشعراء قبره ، فرثاه مائة شاعر ، فأجيز كل منهم .

ولم تقتصر هذه المنح على الخلفاء والوزراء ، بل كان لغيرهم من كبار رجال الدولة يد فى ذلك أيضا . ومن هؤلاء القائد الفضل بن صالح ، وكان من الأمراء الذين يسيرون فى ركاب الخليفة العزيز اذا خرج فى الموكب . ولقد نظم أبو القاسم عبد الغفار شاعر الحاكم قصيدة يمدح فيها الفضل ، نذكر منها هذه الأبيات :

إنما الفضلُ غُرةٌ   فى وجوه المدائح
أريحىٌّ رياحُه   عبقاتُ الروائح

(١) تشعب بمعنى تصدع .
(٢) المقريزى (خطط ج ٢ ص ٧)
(٣) (ج ٢ ص ٤٤٣)

كعبةُ الجود كفه بين غاد ورائح
إنما تصلح الأمو ر برأى ابن صالح[1]

ومع ذلك فان ما أظهره الوزراء من جود وكرم لم يكن الا صورة مصغرة لهبات الخلفاء أنفسهم ، وعلى الأخص فى الصدر الأول من أيام الفاطميين ، حين كانت سطوة الخلفاء لا تزال فى أشدها . يدلك على صحة ما نقول هذه الأبيات التى نوردها من هذه القصيدة التى أنشدها الشاعر المشهور أبو حامد الأنطاكى[2] يمتدح فيها العزيز ووزيره ابن كلس . ومن هذه الأبيات نتبين أن الوزير كان يستمد نفوذه من نفوذ مولاه وتعضيده :

لم يدعْ للعزيز فى سائر الأر ض عدوا إلا وأخمد ناره
كلَّ يوم له على نُوَب الدهـ ـر وكرِّ الخطوب بالبذل غاره
ذو يد شأنُها الفِرار من البخـ ـل وفى حومة الندى كرّاره
قد أقلَّت عن العزيز عداه بالعطايا وكثَّرت أنصاره
هكذا كلُّ فاضل يده تُمـ ـسى وتُضْحى نفَّاعةً ضرّاره
فاستجرْه فليس يأمنُ الا من تفيَّأ ظلاله واستجاره
واذا ما رأيتَه مطرقا يعـ ـمل فيما يريدُه أفكاره
لم يدعْ بالذكاء والذهن شيئا فى ضمير الغيوب إلا أثاره
لا ، ولا موضعا من الأرض الا كان بالرأى مُدركا أقطاره
زاده الله بَسْطة وكفاه خوفه من زمانه وحذاره[3]

(١) الثعالبى ، يتيمة الدهر (ج ١ ص ٣٤٧)

(٢) كان أبو حامد أحمد الأنطاكى من أهل أنطاكية بالقرب من مدينة حلب ، وكان من مشهورى الشعراء . وقد تكلم عنه الثعالبى فى كتابه "يتيمة الدهر" (ج ١ ص ٢٣٨) فقال : "هو نادرة الزمان وجملة الاحسان . . . . وهو أحد المداح المجيدين والشعراء المحسنين ، هو بالشام كابن حجاج بالعراق" وذكر ابن خلكان أنه أقام بمصر زمانا طويلا ، وأن معظم شعره قد نظم فى مدح أمرائها ورؤسائها ، فدح من الخلفاء الفاطميين المعز والعزيز والحاكم ، وشاد بذكر جوهر وابن كلس وغيرهما . وقد ذكره المسبحى فى كتابه "تاريخ مصر" فقال إن وفاته كانت سنة ٣٩٩ هـ (١٠٠٨ — ١٠٠٩ م) — ابن خلكان (ج ١ ص ٤٨ — ٤٩)

(٣) الثعالبى ، يتيمة الدهر (ج ١ ص ٢٣٩)

ولم ينقطع تشجيع الخلفاء للشعراء الى آخر أيام خلافتهم . ويحدثنا المقريزى[١] فى عبارة شائقة أوردها فى سياق كلامه عن المنظرة التى كانت تطل على بركة الحبش ، التى شيدها الخليفة الآمر فيقول : " فى هذه المنظرة طاقات ، وعليها صور الشعراء ، كل شاعر واسمه وبلده . وعلى جانب كل من هذه الطاقات قطعة من القماش ، كتب عليها قطعة من شعر الشاعر فى المدح . وعلى الجانب الآخر رف لطيف مذهب . فلما دخل الخليفة وقرأ الأشعار ، أمر أن توضع على كل رف صرة مختومة فيها خمسون دينارا ، وأن يدخل كل شاعر ويأخذ صرته بيده " .

(٣) الشعراء فى عهد الظاهر (٤١١—٤٢٧ هـ ١٠٢٠—١٠٣٥ م) :

هكذا كان تشجيع الشعر والشعراء على يد الفاطميين ، مما دفع بكثير من الشعراء إلى هجرة أوطانهم والاستقرار فى مصر رجاء التمتع بسخاء الفاطميين ورجال بلاطهم . ولا غرو فانهم لم يلقوا من تشجيع فى بلاط الخلفاء العباسيين فى بغداد ، وقد ذهب ما كان لهم من حول وطول . بيد أن بلاط الفاطميين كان يرحب بمن يفد عليه من الشعراء النابهين ، سنيين كانوا أو شيعيين .

فقد كان عبد الوهاب بن نصر المالكى من أهل بغداد ، وكان فقيها مالكيا مبرّزا ، كما كان أديبا وشاعرا . وقد وصفه أبو بكر البغدادى فى كتابه " تاريخ بغداد " فقال إنه كان ثقة فى الحديث ، وانه لم يلق من المالكيين أحدا أفقه منه[٢] . وكان عبد الوهاب هذا من كبار الشعراء الذين تركوا بغداد وارتحلوا الى القاهرة .

ولقد تولى ابن نصر القضاء ببادرايا وباكسايا ، وهما مدينتان تقعان على مقربة من النهروان . وقد روى ياقوت عن ابن بسّام ، أنه تولى القضاء أيضا بمدينة إسْعِرْد الواقعة فى أرض الجزيرة ، على مقربة من نهر دجلة ، على مسيرة يوم ونصف يوم جنوبى ميافارقين . وخرج فى أخريات أيامه الى مصر بعد أن نبذته بغداد[٣]

---

(١) خطط (ج ١ ص ٤٨٦ — ٤٨٧)

(٢) ابن خلكان (ج ١ ص ٣٨٢) والكتبى (ج ٢ ص ٢٧).

(٣) ياقوت : معجم البلدان ، انظر لفظ بغداد .

ويحدثنا ياقوت أنه فى اليوم الذى رحل فيـه ابن نصر المـالكى عن بغداد ، خرج كبار رجالها يودعونه ، فقال هذا الفقيه والشاعر الكبير ، معبرا عما كان يشعر به من ألم الفراق ، إنه ما فارق هذه المدينـة "عن كره لهـا ، بل لأن الأرزاق فيها لم تساعفه " ، ثم ختم كلامه بهذه الكلمات : "لو وجدتُ بين ظهرانيكم رغيفين كل غداة وعشية ، ماعدلت عن بلدكم لبلوغ أمنية"(١)

ولقد أصاب ابن بَسَّام حيث يقول هذه الكلمات التى تنطوى على غاية الاحتقار : "والخبز يومئذ كل ثلثمائة رطل بدينـار . وهذا فى غاية الذم لهم ، لأنه أراد أن يخبرهم بسقوط (بسقـاطة فى الأصل) همتهم وخسة نفوسهم"(٢)

وقد أظهر ابن نصر ما كان يخالج نفسه من حزن لمفارقة بغداد فى إحدى قصائده ، وفيها يودع بلده ويشير الى هذه الأحوال التى أحاطت برحيله حيث يقول :

سلامٌ على بغدادَ من كل منزل ... وحقٌّ لها منى السلامُ المضاعفُ
فوالله مافارقتها عن قِلًى(٣) لها ... وانى بشطَّىْ جانبيها لعـارف
ولكنها ضاقت علىَّ برُحبها ... ولم تكن الأرزاقُ فيها تساعف
وكانت كخل كنت أهوى دنوه ... وأخلاقُه تنأى به وتخـالفُ(٤)

ويصف لنا ابن نصر فى قصيدة أخرى معيشته فى بغداد فيقول :

بغـدادُ دارٌ لأهـل المـال طيبة ... وللمفـاليس دار الضنك والضيـق
أصبحتُ فيهـا مُضاعا بين أظهرهم ... كأننى مصحفٌ فى بيت زنديق(٥)

هكذا كان ما عاناه هذا الفقيه الكبير ، والقاضى والشاعر المشهور ؛ فقد بلغت معاملة الناس له إلى هذا الحد من الإهمال ، حتى هام على وجهه فى شوارع عاصمة العباسيين ، حيران لا يلوى على شىء . وقد لجأ فى النهاية إلى القاهرة عاصمة الخلافة الفاطمية الشيعية واتخذها مقرا ووطنا ثانيا له .

---

(١) ابن خلكان (ج ١ ص ٣٨٢)

(٢) ابن الجوزى ، مكتبة بودليان بأكسفورد ، مخطوطات پوكوك ، القسم الشرقى ، مخطوط ٣٧٠ ، ورقة ١٦ (أ)

(٣) القِلى البغض

(٤) ابن خلكان (ج ١ ص ٣٨٣)

(٥) ياقوت : معجم البلدان ، انظر لفظ بغداد .

رحل ابن نصر إلى مصر[١] ، واجتاز فى طريقه معرة النعمان[٢] ، وبها يومئذ أبو العلاء المعرى ؛ فأضافه عنده ، ثم أشار إلى هذا الحادث فى قصيدته الى خازن دار العلم ببغداد حيث يقول :

والمالكى ابنُ نصرٍ زار فى سفر ... بلادنا فحمِدنا النأى والسفرا

إذا تفقه أحيا مالكا جدلا ... وينشر الملك الضِّلّيل[٣] إن شعرا[٤]

ولما وصل إلى مصر ، استقبله الناس أحسن استقبال . وقد وصف ذلك ابن خلكان[٥] فى هذه العبارة حيث يقول : "فحمل لواءها ، وملأ أرضها وسماءها ، واستتبع ساداتها وكبراءها ، وتناهت اليه الغرائب وانثالت فى يديه الرغائب" . وقد زاد هذا الكاتب فذكر أن ذلك كان فى خلافة الظاهر سنة ٤٢٢ هـ (١٠٣٠ م) ، وهى نفس السنة التى مات فيها . وذكر لنا ابن خلكان سبب موت ابن نصر فقال : إنه ما كاد يصل مصر حتى مات من أكلة اشتهاها ، وقال وهو على فراش الموت : "لا اله الا الله ، إذا عشنا متنا !" .

(ب) الشعراء فى الشطر الأخير من أيام الفاطميين

(٤٦٦—٥٦٧ هـ و ١٠٧٣—١١٧١م)

لقد أمدنا كاتب من الكتاب المعاصرين لهذا العهد ، وهو عماد الدين الأصفهانى[٦] ، بمادة غزيرة استعنا بها فى كتابة هذه الكلمة عن أثر الشعراء فى الشطر الأخير من أيام الدولة الفاطمية .

---

(١) أيد ابن الجوزى (مكتبة بودليان بأكسفورد ، مخطوطات پوكوك ، القسم الشرقى ، مخطوط ٣٧٠ ، ورقة ١٦ "أ") هذا القول ، مستندا الى ما ذكره ابن عساكر من أن ابن نصر وصل الى دمشق فى طريقه الى مصر سنة ٤١٩ هـ . ويظهر لنا عدم صحة هذا القول لأن ابن نصر وصل الى مصر سنة ٤٢٢ قبل وفاته بقليل . وغير محتمل أن يكون قد أقام سنتين فى دمشق والمعرة ، لأن عبارة "مجتازا الى مصر" تفيد أن إقامته كانت قصيرة الأمد . "وذكره الحافظ بن عساكر وقال : قدم دمشق سنة تسع عشرة وأربعمائة مجتازا الى مصر"

(٢) هى مدينة من أعمال حمص ، وتقع بين مدينتى حلب وحماه .

(٣) الملك الضليل لقب لامرئ القيس الذى عده النبى صلى الله عليه وسلم أشعر الشعراء . وقد روى الكتبى (ج ٢ ص ٢٧) هذه الأبيات الأربعة التى ذكرها فى كلامه عن ابن نصر .

(٤) أبو العلاء المعرى : ديوان سقط الزند (ص ١٣٤)

(٥) ج ١ ص ٣٨٣

(٦) ولد أبو عبدالله محمد بن الرجاء ... هبة الله الأصفهانى الملقب عماد الدين بأصبهان سنة ٥١٩ هـ (١١٢٥ م) ؛ وكان فقيها شافعى المذهب ، تفقه بالمدرسة النظامية ببغداد وتخرج فيها ، وأتقن المجادلة وفنون الأدب ، واتصل بخدمة الوزير عون =

على أن هناك كثيرين من الكتاب المعاصرين غير عماد الدين ، من أمثال عمارة اليمنى وأسامة بن منقذ ، وكانا يتصلان بغيرهما من شعراء هذا العصر بروابط المودة والصداقة . وقد أمدنا كل منهما بمعلومات عن هذا الموضوع . وكذلك الحال مع ابن مُيَسَّر الذى استق أخباره من بعض الكتاب المعاصرين للفاطميين .

والعصر الذى يتكلم عنه عماد الدين فى كتابه يمكن تقسيمه إلى قسمين :

الأول — ويبحث فى الشعراء الذين عاشوا فى المدة التى تتخلل سنتى ٤٨٦ و ٥٤٩ هـ (١٠٩٣ — ١١٥٤ م) ، وذلك فى عهد الخلفاء المستعلى ٤٨٧ — ٤٩٥ (١٠٩٤ — ١١٠١) والآمر ٤٩٥ — ٥٢٤ هـ (١١٠١ — ١١٣٠ م) والحافظ ٥٢٤ — ٥٤٤ هـ (١١٣١ — ١١٤٩ م) والظافر ٥٤٤ — ٥٤٩ هـ (١١٤٩ — ١١٥٤) .

الثانى — ويتناول الكلام على الشعراء الذين عاشوا فى عهد الخليفتين الأخيرين من الخلفاء الفاطميين ، وهما الفائز ٥٤٩ — ٥٥٥ (١١٥٤ — ١١٦٠ م) والعاضد ٥٥٥ — ٥٦٧ هـ (١١٦٠ — ١١٧١م) .

لقد بينا فيما تقدم أن كثيرين من الشعراء هاجروا إلى مصر رغبة فى التمتع بتعضيد الخلفاء الفاطميين ووزرائهم وغيرهم من كبار رجال الدولة ، وضربنا لذلك مثلا هذا الشاعر الكبير عبد الوهاب بن نصر المكى . ولقد أمدنا عماد الدين الأصفهانى بفوائد عظيمة عن غير من ذكرنا من الشعراء الذين غادروا بلادهم إلى مصر فاتخذوها دار اقامة .

= الدولة بن هبيرة ، فأحسن اليه وقربه وشمله بعطفه . فلما توفى الوزير رحل عماد الدين الى دمشق ، فوصلها سنة ٥٥٢ هـ (١١٦٥ م) ، وهناك عهد اليه بادارة البريد . وفى سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) ، فوض اليه التدريس بالمدرسة فى دمشق . فلما توفى نور الدين ذهب الى الموصل حيث مرض بها مرضا شديدا ، وبقى فيها حتى سنة ٥٧٠ هـ (١١٧٤ م) . ولما عاد إلى دمشق ، رحل الى حلب واتصل بخدمة صلاح الدين ، فاز بثقته . ولما توفى صلاح الدين عاد الى دمشق ، وكرس بقية حياته على الأدب حتى توفى سنة ٥٩٧ هـ (١٢٠٠ م) .

أنظر ياقوت ، ارشاد الأديب (ج ٨ ص ٨١ — ٩٠) ، وابن خلكان (ج ٢ ص ٩٧ — ١٠٠) ، وأبا الفدا (ج ٨ ص ١٠٥)

(١) الشعراء بين سنتى (٤٨٦—٥٤٩ هـ ، ١٠٩٣—١١٥٤م) :

نزل مصر أبو الفتيان مفضّل بن حسن بن خضر العسقلانى ، فتمتع بما أغدقه عليه الأفضل بن أمير الجيوش من صلات . ولقد امتدحه ابن خضر فى قصيدة نقتطف منها هذه الأبيات :

١ أقولُ والنجمُ مرقومٌ بغـرته سطرا نظرتُ وضوءُ الصبح مبتسم

٣ أماءُ خديه أضحى فى زجاجته يدير أم ماؤها فى وجنتيه دم ؟

٤ صبغ الصباح ضياءً من مياسمه فاستنبطت حلكا فى شعره الظُّلَم[١]

هذا ، وقد اجتذب جود الأفضل وكرمه إلى مصر شاعرا آخر ، هو أبو الحسن على بن ابراهيم الملقب بابن العَلانى ، من أهل معرة النعمان منبت الشاعر أبى العلاء المعرى . أتى ابن العلانى إلى مصر ففاز تشجيع الأفضل ونَعِم بما أغدقه عليه من صلات . يدل على ذلك هذه الأبيات القليلة التى ننقلها من قصيدة يمدح فيها ولى احسانه ونعمه حيث يقول :

٣ فمكةُ مصـرٌ والحجيج وفوده ويمناه ركنُ البيت والنيلُ زمزم

٤ وشاكرُ ما تولى مقـرٌ بعجزه ولو أنه فى كل عضـو له فم[٢]

وهناك طائفة أخرى من الشعراء الذين وفدوا على مصر ، رجاء الحصول على ما حصل عليه غيرهم من تشجيع الخلفاء الفاطميين ووزرائهم . ومن بينهم أبو الحسن علىّ بن جعفر بن البُوَين[٣] ، وهو من أهل المعرة أيضا . ولقد اعتمد عماد الدين فى عبارته على ما ذكره أسامة بن منقذ[٤] ، وهو أن ابن البوين "حازثقة الأفضل ونال حظوته ، وأنه أفاض عليه من سحائب إحسانه ، وأدر عليه حلوبة إنعامه ، ولقبه بأمين الملك واستخلصه" .

---

(١) عماد الدين الأصفهانى ، المكتبة الملكية بباريس ، مخطوط ٣٣٢٨ ، ورقة ١٨١ (ب) .

(٢) شرحه ورقة ١٣٣ (ب)

(٣) ذكر أسامة بن منقذ (Derenbourg, Vie d'Ousâma, p. 504) اسم ابن البوين فقال : ان جده سديد الملك أبا الحسن على بن مقلد اتخذه كاتبا له . وزاد على ذلك أنه تقابل معه فى بيت أبيه ببغداد ، فلم يعرفه أبوه لكبر سنه . لكنه لما سمع اسمه عرفه واحتفى به وقال له : أنت الشاعر النحوى الكاتب ؟

(٤) لم يذكر أسامة شيئا عن ذلك فى كتبه . ونحن نظن أن عماد الدين دوّن هذه العبارة بعد أن التقى بأسامة فى سورية أو فى غيرها من البلاد .

ويحسن بنا أن ننقل هنا بضعة أبيات من قصيدة يمدح فيها الأفضل :

يا مَن تنافس فيه السمعُ والبصر كما تغاير فيه الشمس والقمر
ومن تحكَّم فى الأرواح فاحتكمت ألَّا يحكم فيها بعده بشر[١]

وقد أمدنا أيضا عماد الدين بمعلومات نافعة عن أبى الحسن علىّ بن محمد الأخفش ، وهو شاعر من أشراف المغاربة ، أجاد فى مدح الخليفتين الآمر والحافظ وغلا فى تمجيد الفاطميين و إعلاء شأنهم . يدل على صحة ذلك هذا البيت الذى ننقله من قصيدة يمدح فيها الخليفة الآمر :

إلى ذروة النور العَلائى[٢] إنه إلى ذروة النور الإلهى يُنْسب[٣]

وقال هذا الشاعر فى قصيدة أخرى يمتدح فيها الخليفة الحافظ :

بَشَرٌ فى العين إلا أنه من طريق العقل نورٌ وهدى
جَلَّ أن تدركَه أعيننا وتعالى أن تراه جسدا[٤]

هذا كان حال الشعراء الذين وفدوا على مصر فى ذلك العصر . أما غيرهم من الشعراء المصريين الذين رحلوا عن بلادهم ، فانهم لم يلقوا ما لقيه هؤلاء من رعاية وتقدير فى عاصمة العباسيين . وجعفر ابن أبى زَبيد مثال صالح لما ذكرنا ؛ فقد عبر عما خالج ضميره من أسى بعد مغادرته مصر إلى بغداد فى قصيدة نذكر منها هذين البيتين :

وما قصْدُنا بغدادَ شوقا لأهلها ولا خفيت مذ قط أبصارنا عنا؟
ولا أننا اخترنا على مصرَ بلدةً سواها ، ولكنّ المقادير ساقتنا[٥]

وقد يتبين مبلغ جود الخلفاء الفاطميين وكرمهم من هذين البيتين اللذين نظمهما أبو العباس أحمد بن مفرِّج ، أحد الشعراء الذين عاشوا فى عهد الخليفة الحافظ ، الذى أمر الشعراء أن يختصروا قصائدهم إذ يقول :

---

(١) عماد الدين الأصفهانى شرحه ، مخطوط ٣٣٢٩ ، ورقة ١٤٣ (أ)
(٢) ذكر هذا اللفظ فى المخطوط " العلانى " . و يظهر أنه نسخ خطأ بدل لفظ العلائى .
(٣) شرحه ، ورقة ١١٨ (أ)
(٤) شرحه ، ورقة ١٤٢ (أ)
(٥) شرحه ، مخطوط ٣٣٢٨ ، ورقة ١١٠ (أ)

أمرتنا أن نصوغَ المدح مختصرا   لِمْ لا أمرتَ ندا كفيك يختصر؟
والله لا بد أن تجرى سوابقُنا   حتى يبينَ لها فى مدحك الأثر[١]

والآن نسوق اليك مثلا آخر من الشعراء الفاطميين الذين كان لهم أثر عظيم فى نشر العقائد الفاطمية ، مثل أبى الحسن بن الزُّبد[٢] الذى وصفه عماد الدين ، نقلا عن القاضى الفاضل ، فقال : "وإنه فى فنه لم يسمح الدهر بمثله" . وقد قال يهنئ الخليفة الحافظ بالانتصار على الصليبيين : "الحمد لله الذى فضَّل دولة أمير المؤمنين على سائر الدول ... وجعل أيامه واضحة الحجول والغرر ، مخصوصة بالفتوح والظفر ، يخفق النصر على بنوده ، وتسير السعادة أمام جنوده ، نسأل الله أن يجعل الأرض قبضة يده ، والأفلاك الجارية من أعوانه وعُدده[٣]" .

ولم تقتصر مدائح ابن الزبد على الخلفاء الفاطميين وحدهم ، بل تعدتهم إلى غيرهم من الوزراء وكبار رجال الدولة ، فتراه يمدح الأفضل فى قصيدة يقول فيها :

خلع الزمانُ علىّ حُلة مَفخر   شرفا بمدح الأفضل المفضال
يَلقى المدائحَ بالمنائح واهبا   ويصدق الأقوالَ بالأفعال[٤]

ويمدح ابن الزبد هذا الوزير فى قصيدة أخرى فيقول :

لولا وجودُك فى الزمان وجودك ا   مُحيى المكارمَ بعد بُعْد وفاتها
لم يُعرف المعروفُ فى الدنيا ولو   طفنا عليه فى جميع جهاتها[٥]

وقد ذكر عمارة[٦] ابن الزبد عند كلامه عن الكتاب فى عهد الوزير ابن رزيك ، فوصفه بأنه كان من رجالات الدولة الذين نالوا حظوة لدى الوزير ، وأنه كان يتردد عليه ؛ وزاد أنه كان فاطميا مغاليا . وقد بلغ من وفائه لبنى رزيك أن خاطر بحياته فى الدفاع عن هذا الوزير ، وقاتل عنه أشد قتال ، ولم يزل يضرب بسيفه حتى انقطع من وسطه . وهنا ألقى بنفسه على الوزير ووقاه من الضربات التى انهالت عليه ، وبذلك هيأ السبيل لنجاة الوزير .

---

(١) عماد الدين الأصفهانى ، مخطوط ٣٣٢٨ ، ورقة ١٠٨ (ب)

(٢) أطلق عليه عماد الدين (مخطوط ٣٣٢٨ ، ورقة ١١٠ "ب") اسم أبى على حسن بن زُبَيْد . وخالفه فى ذلك عمارة اليمنى (ص ٣٥) حيث أطلق عليه على بن الزبد ، وسماه فى مكان آخر (ص ١٤٤) المكرم علىّ بن الزبد .

(٣) شرحه ، مخطوط ٣٣٢٨ ، ورقة ١١٠ (ب)

(٤) شرحه ، ورقة ١١٨ (ب)

(٥) شرحه ، ورقة ١٢١ (ب) .

(٦) (ص ٣٥ و ١٤٤ و ١٤٥)

فليس من عجب اذا ارتفعت مرتبة ابن الزبد وعلت منزلته فى عين الوزير، فأمر الشعراء أن ينظموا القصائد فى مدحه[1] . ولقد أشار عمارة اليمنى الى ذلك فى بعض قصائده حيث يقول :

أوجَبْتَ فى ذمة الأشعار والخطب دَينـا أبا حسنٍ يبقى على الحِقب

أيامُك البيضُ لا تُحصَى ، وأفضلها يومٌ خُصصتَ به فى قاعة الذهب

وفَيتَ للصالح الهادى وقد غدرت به الصنائعُ من ناء ومقترب[2]

و بالرغم مما قام به ابن الزبد فى سبيل نشر الدعوة الفاطمية ، فقد ختمت حياته بمأساة محزنة . فقد روى عماد الدين عن القاضى الفاضل ، أن رجلا يدعى ابن قادوس[3] نظم بيتين من الشعر هجا فيهما الحسن بن الخليفة الحافظ ، ثم دسهما ضمن أوراق لابن الزبد وسعى به الى الحسن فأمر به فقتل[4] .

ولقد أتى عماد الدين بعبارة أخرى رواها عن علىّ بن عَبَّاد[5] ، وهو من أهل الاسكندرية ، وكان شاعرا نابها ، نال فى بلاط الحافظ الفاطمى حظوة كبيرة . ولما اعتقل أبو علىّ بن الوزير الأفضل الخليفةَ الحافظ ، نظم ابن عباد قصيدة يهنئ فيها الوزير وفيها يقول :

تبسم الدهر لكن بعد تعبيس وقَوَّض الدهر لكن بعد تعريس

اذا دعونا بأن تبقى لأنفسنا دعاؤنا : فابق يا ابن السادة السوس

وقد أعاد إليه الله خاتمه[6] فاسترجع الملك من صخر[7] بن ابليس

---

(١) عمارة اليمنى ، النكت العصرية (ص ٦٣ — ٦٥ و ٤٦ و ٤٨ و ٥٠ — ٥٣ و ١٤٦ و ١٤٧)

(٢) شرحه (ص ١٤٦)

(٣) ذكر عمارة (ص ٣٥) أبا الفتح محمد بن قادوس فى سياق كلامه على رجال الأدب الذين اتصل بهم فى مصر ، فوصفه بأنه من مشهورى شعراء هذا العصر . ويسميه ابن ميسر (ص ٩٧) القاضى المفضل أبا الفتح محمود بن قادوس ، ويذكر أنه توفى فى ٧ المحرم سنة ٥٥٣

(٤) عماد الدين الاصفهانى ، مخطوط ٣٣٢٨ ، ورقة ١١٠ (ب).

(٥) اللفظ الذى جاء فى المخطوط هو ابن عُبادة . ومع ذلك فقد ذكر هذا اللفظ ثلاث مرات : عبادة وعباد وعباد . وواضح أن اللفظ الأخير خطأ ، اذ لا يتسمى به غير القبط . أما لفظ عباد فهو الصحيح (مخطوط ٣٣٢٨ ورقة ٩٧ (ب) وما يتبعها) . انظر ابن ميسر (ص ٨١)

(٦) هو اسم الجن الذى أخذ الخاتم من سليمان بن داود ، الذى يوازن هذا الشاعر فى قصيدته بينه وبين الوزير . (انظر تفسير الجلالين — طبعة القاهرة سنة ١٣٤٢ هـ ، ج ٢ ص ١٣٨) . وهذه الأبيات عبارة عن مقارنة بين الوزير الأفضل وسليمان الذى فقد خاتمه وملكه ، ولكنه استرده بعد أربعين يوما (أنظر الباب الثامن من هذا الكتاب) .

(٧) شرحه ، ورقة ٩٨ (أ) . =

وهذا البيت الذى هجا فيه ابن عباد الخليفة كان سببا فى قتله بعد أن أطلق الخليفة من اعتقاله ، واسترجع ملكه بعد وفاة هذا الوزير .

ولم تقتصر مدائح الشعراء على الخلفاء الفاطميين ووزرائهم ؛ فقد كان لغير هؤلاء من كبار رجال الدولة نصيب وافر من مدائح هؤلاء الشعراء الذين طمعوا فى صلاتهم . ومن الأدلة على هذا أبو الفضل جعفر بن المفضَّل الملقب بالمهذب ، وكانت معظم قصائده فى مدح الوزير الأفضل .

وقد بين لنا عماد الدين ما كان بين المهذب ووالى الاسكندرية من علاقات ، ويقول إن أحد الحاضرين سأل المهذب أن ينظم شعرا يصف فيه خاتم الأمير وقد ضاق عن خنصره ، فقال مرتجلا :

قصَّر فى أوصافك العالِمُ　　فاعترف الناثر والناظم

من يكن البحرُ له راحةً　　يضيق عن خنصره الخاتَمُ [(١)]

فأمر له الأمير بعطاء فأخذه ، فسئل أن يصف غزالا قد استأنس فى حجر الأمير ، فأنشد على الفور :

عجبتُ لجرأة هذا الغزال　　وأمرٍ تخطى له واعتمدْ

وأعجبْ به إذ بدا جاثيا　　فكيف اطمأنَّ وأنت الأسدْ [(٢)]

فأمر له الأمير بعطاء آخر ، فسأله الرجل ممتحنا أن ينظم فى هذه الشبكة المسدولة على هذه الدار فقال :

رأيتُ ببابك هذا المنيف　　شباكا فأدركنى بعضُ شك

وفكرت فيما جرى لى فقلت　　مكانَ البحار يكون الشبك

فقال الأمير لممتحنه : دعه وإلا أخذ ما علىّ ! [(٣)] .

= ذكر ابن ميسر (ص ٨١) الشطر الأول من البيت الأول ، وذكر البيت الرابع كما يلى :

هذا سليمانكم قد رُد خاتمه　　واسترجع الملك من صخر بن ابليس

وزاد ابن ميسر على ذلك أن عبادا لما أنشد البيت الرابع فى حضرة الوزير ، قام القاضى عبد الله محمد بن ميسر طربا لهذا البيت ، فكان ذلك سببا لصرفه عن القضاء وقتله بعد أن أطلق الخليفة من اعتقاله .

(١) عماد الدين الأصفهانى ، مخطوط ٣٣٢٨ ، ورقة ٨٧ (ب) .

(٢) شرحه ، ورقة ٨٧ (ب) .

(٣) » ، » ٨٧ (ب) .

وهكذا كان كرم الخلفاء الفاطميين ووزرائهم وقادة عصرهم . فلا ندهش اذا غلا بعض هؤلاء الشعراء فى مدحهم ، حتى أدى بهم ذلك الى الإلحاد والمروق عن الدين . وكان عماد الدين — كما بينا — سنيا ، يرى أن الشعر الذى يتعرض لهذه المسائل يؤدى بصاحبه الى الخروج عن الدين . لذلك لا نجد فى هذا الكتاب القيم الذى خلفه لنا عماد الدين ، إلا أمثلة قليلة من هذه القصائد التى نظمها غلاة شعراء الفاطميين .

هذا ، وكان ابن الضيف ، وهو من شعراء الفاطميين الذين عاشوا فى عهد الخليفة الآمر ، ملحدا فى نظر عماد الدين ، الذى أبى أن يودع كتابه بعض القصائد التى نظمت فى مدح الفاطميين ، معللا ذلك بهذه الكلمات :

" ابن الضيف كان من دعاة الأدعياء ، المغالين لهم فى الولاء . وكان فى حدود سنة خمسمائة فى عهد آمرهم . وله فيه مدائح كثيرة ... وكنت عازما على حطه ، لأنه أساء شرعا وان أحسن شعرا ، بل أظهر فيه كفرا ... لكننى لم أر أن أترك كتابى منه صفرا ؛ لأن البحر الزاخر يركبه المؤمن والكافر ، ويقصده البرّ والفاجر "[1] .

(٢) الشعراء بين سنتى (٥٤٩—٥٦٧ هـ ، ١١٥٤ — ١١٧١م) :

والمهذَّب أبو محمد الحسن بن علىّ بن الزبير[2] ، الذى وصفه عماد الدين بقوله : " ولم يكن فى زمانه أشعر منه "[3] ، مثل بيِّن للشعراء الذين جذبهم تعضيد الخلفاء الفاطميين ووزرائهم وغيرهم من علية القوم ، آملين فى نيل عطاياهم والتمتع بصلاتهم .

---

(١) عماد الدين الاصفهانى ، مخطوط ٣٣٢٨ ، ورقة ٥٢ ب وما يتبعها .

(٢) ذكر عمارة (ج ١ ص ٨٦ و ٩٦ و ١٨٤ و ٢٦٨) و (ج ٢ ص ٥١٤ و ٥٥٥ و ٥٧٣ و ٦٠٠ و ٦٠٢ و ٦٣٦ و ٦٣٧) الرشيد بن الزبير وولديه أحمد والحسن . ووصف ولديه (ج ١ ص ١٨٤) بأنهما شاعران نابهان ، عاشا فى زمن الوزير الصالح بن رزيك . وفى احدى قصائده (ج ١ ص ١٨٤) يمدح عمارة أحد هذين الشاعرين (البيت الأخير من هذه الصفحة هو فى مدح الحسن) . ويقول فى " النكت العصرية " (ص ٣٥) إن الحسن كان من مشهورى شعراء هذا العصر ، ممن كانوا يحضرون مجلس الوزير ابن رزيك . وقد سماه عمارة المهذب فى موضع آخر (ص ٤١٥) .

وقد اقتصر أسامة بن منقذ (سيرة أسامة (ص ١٨ حاشية ٢) و (ص ٢٠٧ و ٢٨٩ حاشية ٦) و (ص ٤١٩ و ٥٣٢ و ٦٢١) وعماد الدين (المكتبة الأهلية بباريس مخطوط ٣٣٢٨ ورقة ٣٥ ب) وابن ميسر (ص ٩٥) وابن خلكان (ج ١ ص ٦٣) على ذكر ابى الحسين الملقب بالقاضى الرشيد أحمد بن الزبير .

وقد أورد لنا الكتبى (ج ١ ص ١٥٩ — ١٦١) نبذة عن الحسن بن علىّ بن الزبير ، وقال انه اتصل بالوزير ابن رزيك ، فاستفاد كثيرا من وراء اتصاله به (شرحه ص ١٥٩) .

(٣) عماد الدين الأصفهانى ، المكتبة الأهلية بباريس ، مخطوط ٣٣٢٨ ، ورقة ٣٧ (ب) .

وإليك ما قاله فى قصيدة طويلة يخاطب بها الوزير الصالح طلائع بن رزيك ويصفه بأنه بطل من أبطال المسلمين حيث يقول :

أفارسَ المسلمين اسمعْ ، فلا سمعتْ عداكَ غيرَ صليل البيض فى القُلَلِ
مقال ناءٍ غريب الدار قد عدم الـ أنصـار ، لولاك لم يسمع ولم يقل
يشكو مصـائبَ أيام قد اتّسعت فضاق منهـا عليـه أوسـعُ السبل
وكيف ألقى من الأيام مُرْزية حلَّتْ ولى من بنى رزيك كلُّ ولى؟[1]

هذا من جهة الوزراء . أما من جهة الخلفاء الفاطميين ، فان الشعراء كانوا يدركون ما بينهم وبين وزرائهم من تباين فى الرتبة ؛ يدل عليه ما قاله هذا الشاعر فى إحدى قصائده يمدح فيهـا رضوان ابن الولَخْشى حيث يقول :

ما كان بَعْدَ أمير المؤمنين فتًى فيه الشجاعةُ إلا أنت والنبلُ[2]

ويمدح ابن الزبير هذا الوزير فى البيت الآتى مترنمـا بجوده وكرمه حيث يقول :

لا يرتضى فى الجود سبق سؤال مَن يرجـــوه حتى يســبقَ الآمالا

وإن هذا البيت الذى نرويه لابن الزبير ، ليدلنا على مبلغ ما كان يلقاه الشعراء فى مصر من حفاوة وإكرام .

حيثُ اغتربتُ فلى من عفتى وطنٌ آوى اليه وأهلٌ من ذوى الأدبِ[3]

وقد شاد بعض الشعراء بذكر الفاطميين وأنصارهم ، وهم فى بلادهم لم يفدوا الى مصر فى وقت من الأوقات . ومن بين هؤلاء المهذب بن أسعد . وكان من أهل الموصل ، ثم اشتغل بالتدريس فى مدرسة حمص . وقد كان من الفقهاء الأعلام ومن الشـعراء النابهين . استمع الأصفهانى لشعره عنـد ما لقيه بحمص سنة ٥٦٣ هـ (١١٦٧ — ١١٦٨ م) . وهو مثل ى لهؤلاء الشعراء الذين بعثوا بقصائدهم رغبة فى عطاء الوزراء ونوالهم .

---

(١) عماد الدين الاصفهانى ، مخطوط ٣٣٢٨ شرحه ، ٣٩ (أ)

(٢) شرحه ، ٤٢ (أ)

(٣) شرحه ، مخطوط ٣٣٢٩ ، ورقة ١٧٧ (ب) .

وقد قال عماد الدين إن ابن أسعد نفسه أنشده فى سنة ٥٦٥ هـ (١١٦٩ — ١١٧٠ م) قصيدة يمدح فيها الوزير ابن رزيك ، وكان قد نظمها وبعث بها اليه ، فأتته من هذا الوزير جائزة سنية . ومن هذه القصيدة الأبيات الآتية :

٩ هادى الدعاةِ أبو الغارات خيرُ فتى أدنى عطياته أدنى أمانيكا

١٤ يشكو اليك بنو الآمال فقرهم فيَنثنون وبيتُ المال يشكوكا

١٥ يخافك المَلْكُ ناءٍ عنك منزله ويُقتَرُ المرء عن بعدٍ فيرجوكا

٣٠ مَنْ أرتجى يا كريمَ الدهر تنعشنى جدواه إن خاب سعيى فى رجائيكا ؟

٣١ أأمدحُ التركَ أبغى الخيرَ عندهم والشعر مازال عند الترك متروكا ؟[١]

ولما دالت الدولة الفاطمية وغدا الأيوبيون أصحاب النفوذ فى مصر ، نظم ابن أسعد قصائده فى مدح نورالدين وصلاح الدين. ولقد زاد عماد الدين أن صلاح الدين لما رحل عن مصر الى بلاد الشام سنة ٥٧٠ هـ (١١٧٤ م) وعسكر بظاهر حمص ، قصده ابن أسعد ومدحه . وكان القاضى الفاضل لا يزال يذكر هذا البيت الذى نظمه ابن أسعد عن الترك (سطر ٣١) ، فأنشده صلاح الدين وقال له : " فعجل جائزته لتكذيب قوله وتصديق ظنه " ، فأجابه الى ذلك صلاح الدين[٢] .

ولقد ساعد ما بذله الفاطميون من عطاء وما أغدقوه من صلات على زيادة أنصارهم وأشياعهم . ولا غرو فان هذا الاطراء الذى صاغه قلم شاعر نابه كابن أسعد فى مدح الفاطميين ، قد اشتهر أمره وذاع خبره فى كافة الأقطار الاسلامية . ويتبين لنا ما كان من إغداق الفاطميين الهبات على الشعراء من هذا البيت الذى نظمه ابن أسعد[٣] يعبر فيه عن أمنيته فى العودة الى وطنه — الموصل — ويذكر أن تحقيق هذه الأمنية يتوقف على جود ابن رزيك وكرمه :

ثق بإيابى عن قريبٍ فاننى بجود ابن رزيكٍ على القرب واثقُ[٤]

---

(١) المكتبة الأهلية بباريس ، مخطوط ٣٣٢٩ ، ورقة ١٧٧ (ب)—١٧٨ (ب)

(٢) المكتبة الأهلية بباريس ، مخطوط ٣٣٢٩ ، ورقة ١٧٨ (ب)

(٣) ذكر ابن خلكان (ج ١ ص ٢٩٨ — ٢٩٩) المهذب عبد الله بن أسعد ، وهو من أهل الموصل ونزيل حمص ، فى العبارة التى أوردها عن الوزير ابن رزيك .

(٤) عماد الدين ، مخطوط ٣٣٢٩ ، ورقة ١٨١ (ب) .

ولم يكن لهـذا الجود الذى أظهره الفاطميون إلا غرض واحد ، هو تعظيم خلافتهم وإكبارهم سلطان دولتهم . وكان ذلك هو الغرض الذى كانت ترمى اليه أعمالهم .

ولقد عرف الوزير ابن رزيك ما للشعراء من أثر . فكان يؤثر هؤلاء الشعراء على نفسه ويُنزلهم منزلة أصدقائه . ولا غرو فقد كان بعض وزراء الفاطميين شعراء (بطبيعتهم) . فكان طبعيا أن ينصروا الشعر والشعراء ، بدليل ما كان هنالك من روابط بين ابن رزيك وهـذا الفقيه والشاعر المشهور ، وهو نصر بن عبد الرحمن ، وكان من أهل الاسكندرية ، وقد لقيه عماد الدين فى بغداد سنة ٥٦٠ هـ (١١٦٤ — ١١٦٥ م) . وقد أورد لنا عماد الدين قصيدة نظمها ابن رزيك ، يرد بها على قصيدة أخرى يمدحه فيها هذا الشاعر . وفيها يقول الوزير :

أهدى لِىَ القاضى الفقيه عرايسا ... فيـه بديعُ الوشى من تنميقه
فأجَلتُ طرفى فى بديع رياضه ... من ورده وبهاره وشقيقه
فكأنما اجتمع الأحبةُ فانبرتْ ... يد عاشـقٍ تهوى الى معشوقه
نَزَّهت فى بستان نظمك ناظرى ... فحظيتُ من زهر الرُّبا بأنيقه
وأنا أرى تقـديمَ حاجة صاحبى ... من دون حاجاتى أقـلَّ حقوقه
وكذا الـكريمُ فمهملٌ لحقوقه ... لا مهمل أبدا حقوقَ صديقه[١]

ولم تقتصر جميع قصائد ابن نصر على امتداح الوزير ، فقد خص بعضها بالاشادة بذكر الخلفاء الفاطميين . بيد أننا ، لسوء الحظ ، نرى عماد الدين لم يضرب لنا أمثلة مما قاله هذا الشاعر فى مدح الخلفاء . ويحتمل أن يكون ذلك لما كان من غلو هذا الشاعر فى تعظيم الفاطميين والاشادة بذكرهم ، كما يتجلى ذلك من وصف عماد الدين الأصفهانى لابن نصر حيث يقول : " وما أكمله ، لولا أنه من مُدّاح المصرى والله له غافر ! "[٢] .

ولقد روى لنا عماد الدين بضعة أبيات نظمها أحد الشعراء ، وقد اتصل به أن رجلا من أنصار الشعراء بعث اليه مع رسول بنصف دينار فلم يوصله اليه :

---

(١) المكتبة الأهلية بباريس ، مخطوط ٣٣٢٨ ، ورقة ٦٩ (أ)

(٢) المكتبة الأهلية بباريس ، مخطوط ٣٣٢٨ ، ورقة ٥٩ (أ)

أتانا نصفُ دينارٍ سماعًا　　　فهمّمنا له فى نصف شكرِ

وهذا ممسكٌ لوصول هذا　　　فتوصلُ مثله قدرا بقدر

ولو زدتم على الأحسان زدنا　　　وأحسنا لواحدةٍ بعشر[١]

ولقد أمدنا أبو محمد هبة الله بن عليّ بن عرام السديد[٢] بمثل آخر لشاعر عبر عن استيائه وسخطه ، وقد خابت آماله فى اكتساب جائزة رجل من أنصار الشعر بعد أن مدحه على غير جدوى فقال :

أتعبتُ نفسى وفكرى　　　فى مدح قومٍ لئامْ

وغرّنى حسنُ بشرٍ　　　منهم وطيبُ كلام

فما حصلتُ لديهم　　　الا على الإعدام

ولو جعلتُ قريضى　　　مراثيا فى الكرام

لحزتُ ذكرا جميلا　　　يبقى على الأيام[٣]

ويقول ابن عرام من قصيدة أخرى يمدح فيها الوزير رضوان بن الولخشى ويشيد فى بعض أبياتها بذكر الأسرة الحاكمة ويصفها بأنها عامل قوى من عوامل تمكين قوة الاسلام فيقول :

جدّدتَ بعد دروسه الإسلاما　　　ومحوتَ عنه الظلم والإظلاما

وطويتَ راياتِ الضلال مجاهدا　　　ونشرتَ فى غُرّ الهدى أعلاما[٤]

---

(١) عماد الدين الأصفهانى ، المكتبة الأهلية بباريس ، مخطوط ٣٣٢٨ ورقة ١٤٢ (ب) . وقد زاد هذا الكاتب أن هذا الشاعر عاش فى أيام الوزير ابن رزيك (شرحه ورقة ١٤٣ " أ ") .

(٢) نقل عماد الدين الأصفهانى (شرحه ، ورقة ١٧٦ "ب") عن قاضى اسوان الذى أهدى اليه ابن عرام ديوانه ، فنقل عنه عبارته التى يصف فيها هذا الشاعر . وقد مات ابن عرام سنة ٥٥٠ هـ (١١٥٥ م) ؛ ووصفه الأصفهانى بأنه كان شاعرا نابها .

(٣) شرحه ، مخطوط ٣٣٢٨ ، ورقة ١٧٦ (ب) .

(٤) شرحه ، مخطوط ٣٣٢٩ ، ورقة ١٨١ (ب) .

عمـارة اليمنى[1] :

لقد كان لنفوذ الخلفاء الفاطميين الأدبى ، ذلك النفوذ الذى عملوا على تأييده بعطفهم على الشعراء وتشجيعهم رجال الأدب ، أثرعظيم فى نفس عمارة اليمنى ، حتى أصبح من أنصارهم ومن الشعراء المالثين لهم . وكان عمارة هذا شاعرا سنيا شافعى المذهب ؛ ظهرت له أعمال عظيمة فى تاريخ الخلافة الفاطمية . ولكنه قتل فى آخر أمره لاشتراكه فى المؤامرة التى قامت لتقويض سلطان الأيوبيين .

وهو من الأمثلة الواضحة على تعلق الفاطميين بالشعراء والاستفادة من شعرهم . ويحسن بنا أن ننقل بعض أبيات من أولى قصائده ، وقد أنشدها فى قاعة الذهب فى قصر الخلفاء الفاطميين :

١ الحمـدُ للعيس بعـد العزم والهمم — حمْدا يقوم بما أولَتْ من النعم

٣ قرَّبن بُعد مزار العز من نظرى — حتى رأيتُ إمام العصر من أمم

٤ ورُحن من كعبـة البطحاء والحرم — وفْـدا الى كعبـة المعروف والكرم

٦ حيث الخلافةُ مضروبٌ سُرادقُها — بين النقيضين من عفوٍ ومن نَقَم

٧ وللامامــة أنــوارٌ مقــدسةٌ — تجلو البغيضين من ظُلْم ومن ظُلَم

٨ وللنبـــوة آياتٌ تنص لنـــا — على الحقيقين من حُكْم ومن حِكَم

٩ وللمكارم أعــلامٌ تعلمنـا — مدْحَ الجزيلين من بأسٍ ومن كرم

١٠ وللعُــلى ألسن تثنى محامدهـا — على الحميـدين من فعـل ومن شيم

---

(١) لقد خلف لنا عمارة بن أبى الحسن الحكمى نجم الدين أبو محمـد سيرته ، وكان من أهل تهامة باليمن (النكت العصرية ص ٧ و ٨) . وفى سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٤ — ١١٥٥ م) حج الى مكة ، وبعث به القاسم بن فُلَيْتَه أمير مكة رسولا من قبله الى مصر ، فدخلها فى غرة ربيع الأول سنة ٥٥٠ (١١٥٥ م) ؛ فتلقاه الخليفة الفائز ووزيره الصالح طلائع بن رزيك بالعطف والقبول على أثر انشاده أولى مدائحه فى قاعة الذهب بالقصر . وقد أقام فى مصر الى شوال سنة ٥٥٠ (شرحه ص ٣٢ — ٣٤ و ٤١) . ثم عاد الى مكة ، ومنها أنفذه أميرها بمهمة أخرى فى صفر سنة ٥٥١ (أبريل سنة ١١٥٦) (ص ٤٢) . ومن ثم أقام فى القاهرة وصار من مشاهير شعراء البلاط فى عهد الخليفتين الفائز والعاضد ، آخر خلفاء الفاطميين . وقد شنق فى اليوم الثانى من شهر رمضان سنة ٥٦٩ (أبريل سنة ١١٧٤) .

أنظر أيضا عماد الدين الأصفهانى ، المكتبة الأهلية بباريس ، مخطوط ٣٣٢٩ ، ورقة ٢٥٧ (أ) وما يتبعها ، وعمارة اليمنى (ج ١ ص ٣٩٥ و ٣٩٦) ، وابن خلكان (ج ١ ص ٤٧٥ — ٤٧٧) وابن دقماق (ج ٥ ص ٩٣ — ٩٤) .

١٢	أقسمتُ بالفائز المعصوم معتقدا	فوزَ النجاة وأجر البر فى القَسَم
١٣	لقد حمى الدينَ والدنيا وأهلَهما	وزيرُه الصالح الفراج للغمم
١٤	اللابسُ الفخرَ لم تنسج غلائلَهَ	إلا يدُ الصانعَين السيفُ والقلم
١٥	وُجودُه أوجد الأيام ما اقترحت	وَجوده أعدم الشاكين للعدم
١٦	قد ملّكته العوالى رِقَّ مملكة	تُعيرُ أنفَ الثريا عزة الشمم
١٧	أرى مقاما عظيم الشأن أوهمنى	فى يقْظتى أنها من جملة الحلم
١٩	ليت الكواكبَ تدنو لى فأنظمَها	عقودَ مدحٍ فما أرضى لكم كلمى
٢٠	ترى الوزارةَ فيه وهى باذلةٌ	عند الخلافة نصحا غير متهم
٢٢	خليفةٌ ووزير مَد عدلهما	ظلا على مَفرَق الاسلام والأمم
٢٣	زيادةُ النيل نقصٌ عند فَيْضهما	فما عسى يتعاطى مِنّةُ الديم [١]

ولقد ذهب الخليفة الفائز ووزيره فى استحسان هذه القصيدة كل مذهب ، كما يحدثنا بذلك عمارة نفسه ، حيث يقول إنه بعد أن أنشد قصيدته خلعت عليه الخلع الموشحة بالذهب ، ودفع اليه الوزير خمسمائة دينار ، وأتته مثلها من السيدة أخت الخليفة . يضاف الى ذلك هذه الرسوم التى أطلقت له من دار الضيافة فى مناسبات كثيرة مما لم يطلق لأحد قبله ، وما كان أيضا من الولائم التى أقامها أمراء الدولة فى بيوتهم تكريما له ، ومن نظمه فى سلك جلساء الوزير ؛ يدل عليه ما ذكره عمارة وهو : " فأوسعنى إكرامهما توقيرا وإنعامهما توفيرا "[٢] .

بقى عمارة فى مصر يمرح فى بحبوحة الرفاهة والمجد . وقبل رحيله بزمن قصير ، أنشد قصيدة يودع فيها الخليفة ووزيره ، فنفحه الخليفة وأخته ألف دينار ، ومنحه الوزير ابن رزيك مائتى دينار لقصيدة أخرى أنشدها له فى داره . كما كان لتدخل هذا الوزير أثر فى إعفاء عمارة من دفع ثلاثة آلاف دينار كانت عنده لداعى اليمن السابق وقد مات ، فأشير على ولده وورثه أن يعدل عن دعواه فى المطالبة بها . ويحدثنا عمارة عن هذه المسألة فيقول : " فلما وقف عليه (كتاب الوزير اليه) صاحب عدن ، أسقط عنى الآلاف الثلاثة وأبرأنى منها " .[٣]

---

(١) النكت العصرية ، (ص ٣٢ — ٣٤)

(٢) « ، (ص ٣٧)

(٣) « ، (ص ٣٨ و ٤٠)

ولما مات ابن رزيك آلت الوزارة الى شاوَر (١) ، فتقلد أعباءها تسعة أشهر (٢) . فقرب هذا الوزير عمارة اليه ، وأولاه رعايته وضمه إلى جماعته ؛ فصار يتردد على داره ويجلس الى مائدته مرتين فى كل يوم ، ونال الخير الكثير على يديه .

ولقد أحصى لنا عمارة هبات الوزير ابن رزيك (٣) وذوى قرباه وغيرهم من الأمراء ، وختم هذا الشاعر قوله بهذه الكلمات : " ذكر الله أيامهم بحمد لا يَكِلُّ نشاطه ولا يُطوى بِساطه ، فقد وجدت فقدهم وهُنت بعدهم " (٤) .

ولما عاد عمارة الى مصر فى شوّال سنة ٥٥٠ (ديسمبر سنة ١١٥٦) ، أحسن اليه الوزير الصالح بن رزيك وبنوه وأهله كل الاحسان ، وصحبوه لما امتاز به من حسن الصحبة وسمو المواهب ، بالرغم من اختلافه عنهم فى العقائد المذهبية (٥) .

ولقد أبى عمارة اعتناق عقائد الفاطميين ، وأشار الى ذلك فى ديوانه بأبيات خاطب بها الوزير الذى ألح عليه فى التحول الى المذهب الشيعى ، ومنحه ثلاثة آلاف دينار ، ووعد أن يزيد فى إغداقه عليه إن هو أجاب الى ما طلبه منه . ولكن عمارة لم يكن بالرجل الذى تنفع معه الحيلة . فرفض فى شىء من الحصافة ، ولم يتأثر بنصح الوزير (٦) . ويشير عمارة الى هذا الاختلاف فى العقيدة الذى كان بينه وبين الفاطميين فى هذا البيت :

مذاهبهم فى الجود مذهبُ سُنَّةٍ ... وإنْ خالفونى فى اعتقاد التشيع (٧)

ولما مات ابن رزيك فى ١٩ رمضان سنة ٥٥٦ (سبتمبر سنة ١١٦١) ، أصبح حزن عمارة على وفاته مثارا لنظم أشعاره ، وظل على ولائه للفاطميين حتى بعد أن زال سلطانهم وسقطت دولتهم . وقد نظم فى هذا الحادث قصيدة طويلة تناقلها عنه الكتّاب ، من أمثال ابن واصل

---

(١) النكت العصرية ، (ص ٦٨)
(٢) « ، (ص ٧٣)
(٣) « ، (ص ٩٣ — ١٢٠)
(٤) « ، (ص ١٢٠)
(٥) ابن خلكان (ج ١ ص ٤٧٦)
(٦) النكت (ص ٤٥)
(٧) ديوان عمارة (ص ٢٨٨ و ٤٩٣)

والقلقشندى والمقريزى . ولقـد نظم عمـارة شعرا كثيرا فى الإشادة بذكر صلاح الدين وغيره من أهل بيته . ولكن إخلاص هذا الرجل للفاطميين أقصاه عن عطف هذه الدولة الجديدة . ونستطيع أن نقف على مبلغ ما لحقه من بؤس وشقاء من هـذه القصيدة التى وجه بهـا الى صلاح الدين ، وعنوانها : " شكاية المتظلم ونكاية المتألم "(1) .

ولا غرو فان تحـيز عمارة للفاطميين قد جلب عليه كراهة الأيوبيين ، وانتهت حيـاته الحافلة بشنقه فى رمضان سنة ٥٦٩هـ (١١٧٤م) لاتهامه بالاشتراك فى التآمر لإعادة سلطان الفاطميين (2)

---

(1) ديوان عمارة اليمنى (ص ٢٨٧ — ٢٩١)

(2) » » (ص ٢٨٧ — ٢٨٨)

ابن دقماق (ج ٥ ص ٩٣ — ٩٤) ، نقلا عن ابن المتوج (+ ٧٣٠ هـ ، ١٣٣٠ م) فى كتابه خطط مصر المسمى ايقاظ المتغفل واتعاظ المتأمل . انظر الحاشية التى كتبها مسيو درنبور (سيرة عمارة ج ٢ ص ٥٥٢) .

الباب الخامس

إسناد المناصب إلى المتشيعين خاصة — عمل الفاطميين على حمل المصريين على اعتناق المذهب الفاطمى

قد بينا أنه بعد أن تم للفاطميين فتح مصر، لم يلبث جوهر أن أمر بإبطال الخطبة للعباسيين على كافة المنابر فى أرجاء هذه البلاد، وحرّم لبس السواد شعار العباسيين، وأمر بأن تضرب السكة باسم الخليفة الفاطمى بدل اسم الخليفة العباسى؛ وأدخلت مراسم المذهب الشيعى فى المساجد لتحل محل مراسم المذهب السنى. ولقد خطا الفاطميون خطوات واسعة فى سبيل تحويل جميع المصريين إلى جماعة واحدة تعتنق المذهب الفاطمى وتدين بعقائده.

على أن نجاح هذه السياسة نجاحا تاما لم يكن بالأمر السهل، وبخاصة فى أوائل حكم الفاطميين؛ فقد كان السواد الأعظم من السكان سنيا، على حين كان الشيعيون أقلية ضئيلة، تتألف من بعض المصريين ومن مقاتلة المغاربة. ولهذا لم يكن بدّ من أن تسند أمور الدولة الى هؤلاء المغاربة، وإلى الكتاميين منهم بوجه خاص.

ولا يعزب عن بالنا أن الفاطميين قد اعتبروا مصر إقليما آل اليهم بطريق الفتح والغزو. فكان طبيعيا إذاً أن تؤول أكثر وظائف الدولة إلى أنصارهم — وهم المغاربة كما قدمنا — كما كانت الحال فى الدولة العباسية، حين أسند المنصور كثيرا من أمور الدولة إلى الخراسانيين لما بذلوه من مساعدة فى إقامة دولتهم، وكما فعل المأمون معهم بعد أن وقعت بغداد فى يده بفضل مساعدتهم ومعونتهم.

ولقد أخذ كل أثر من آثار قوانين المذهب السنى وتقاليده، سواء أكان من الوجهة الدينية أم المدنية، يزول وينهار شيئا فشيئا. ولا عجب فى ذلك، فقد كان الفاطميون ينظرون الى السنيين نظرة الخارج على الدين. ولقد فعلت هذه السياسة التى انتهجها الفاطميون فعلها فى الناس؛ فلعنوا أبا بكر وعمر وعثمان، بل والصحابة من أمثال طلحة والزبير ومعاوية وعمرو بن العاص، ممن قاتلوا عليا بعد مقتل عثمان.

ومنـذ بدأ سلطان الفاطميين يسود ربوع هذه البلاد ، أمر الفاطميون فنقشت فضائل على وأولاده من بعـده على السكة ، وعلى جدران المساجد والمنازل والحوانيت . على أن هـذا لم يكن كل ما قام به الفاطميون فى سبيل نشر دعوتهم . فقد عملوا أيضا على نقش السباب فى لعن الصحابة ، كما حاولوا أن يبثوا عقائدهم ، وعملوا على أن يعتنق الناس مذهبهم ، لا فى مصر فحسب ، بل فى كافة أرجاء العالم الاسلامى .

على أنه لم يكن من المنتظر أن تصـادف هـذه السياسـة شيئا من النجاح فى مصر لو كان القائمون على تنفيذها من أهل السنة . فكان طبعيا اذاً أن تسند المناصب الكبرى — كما قدمنا — الى رجال ممن يعتنقون مذهبهم ويدينون بنحلتهم فى التشيع .

ولمـا كان السنيون يشغلون أكثر مناصب الدولة فى العهد السابق ، كان من شأن كل تغيير فجائى فى حالة هؤلاء الموظفين كافة أن يحدث ارتباكا فى سير الأعمـال الادارية . ولقد فطن جوهر نفسه الى هذه السياسة ، فأقر جعفر بن الفرات فى وزارته .

بيـد أنه يلوح لنـا أن ابن الفرات لم يكن له من مركز الوزارة إلا الاسم فقط . يدلك على ذلك ما ذكره المقـريزى[1] من أن جوهرا عين خادما فرض عليـه أن يلازم الوزير فى داره ، وأن يسـير فى ركابه أنى سـار ، ليكون عينا عليه يراقب حركاته وسكناته . وهذه العبارة التى أدلى لنا بها المقريزى لا تترك مجالا للشك فى أن سلطة الوزير قد زالت أو كادت ، وأنه انمـا سمح له بالبقاء فى مركزه لإرضاء شعور السنيين لا غير .

ولقـد ذكر ياقوت أن الخليفـة الفاطمى المعز عرض الوزارة على ابن الفرات ، فاعتـذر عن قبولها ، فأظهر له الخليفة رغبتـه فى ضرورة بقائه فى هـذه البلاد بعد اعتزاله ، ليستأنس برأيه فى مهام الأمور ، فأجابه الى ذلك[2] .

وفى المحرم سنة ٣٦٣ هـ أسند الخليفة المعز الى ابن كلس وعُسلوج بن الحسن ادارة شئون الدولة الحربية والمدنية . ولاريب فى أن اسناد ادارة شئون الدولة الى هـذين الرجلين قد آذن بانتهاء سلطة ابن الفرات .

---

(١) إتعاظ الحنفا (ص ٥٨) .

(٢) ارشاد الأديب (ج ٢ ص ٤١٢) .

ومع ذلك فقد بقى اسم ابن الفرات ذائعاً بعد هذه السنة ، كما ذكر ابن خلكان فى عبارته التى أوردها عن الوزير يعقوب بن كلس،[١] أن ابن الفرات هذا كان يغدو اليه ويروح ، وأن الوزير قد أولاه ثقته ، وكان يعوّل عليه فى محاسبة العمال ؛ ويجالس الوزير ، فيدعوه الى تناول الطعام معه[٢] . ومن المدهش أن تكون هذه العلاقة بين الرجلين على هذا النحو الذى ذكره ابن خلكان ، بالرغم مما كان بينهما من العداوة القديمة التى كان منشؤها التنافس على الوزارة .

ويتضح لنا مما ذكره ابن ميسر عن وزراء العزيز الفاطمى ، أن ابن الفرات تقلد الوزارة فى عهد هذا الخليفة ، وأن وزارته فى عهد الفاطميين لم تدم أكثر من سنة واحدة ، وأنه تقلد بعض المناصب الحكومية مرتين فى عهد العزيز : فقد تقلد الخراج فى سنة ٣٨٢ هـ ، بعد أن قبض على الوزير أبى الحسن على بن عمر العداس لاتهامه بتبديد أموال الدولة ؛ ثم أسندت اليه الوزارة فى ربيع الأول من السنة التالية [٣] .

ويقول ابن ميسر[٤] أن ابن الفرات بقى فى دَست الوزارة سنة واحدة . وفى سنة ٣٩١ هـ[٥] توفى هذا الوزير العظيم ، بعد أن تقلد الوزارة فى عهد العباسيين والأخشيديين والفاطميين .

---

١ — إسناد المناصب العالية للمتشيعين

بعد أن تم للفاطميين فتح مصر ، أصبح أكثر المناصب العالية فى أيدى المتشيعين ؛ حتى اذا ما دخلت سنة ٣٦٣ هـ ، كان من بين كبار الموظفين الذين شغلوا هذه المناصب فى عهد المعز ، القائد جوهر ، وكانت إليه إدارة الدواوين وجباية الخراج والإشراف على أمور الدولة ؛ وأبو الطاهر ،

---

(١) ١٨ رمضان سنة ٣٦٨ (ابن خلكان ج ٢ ص ٤٤٠) . وقد ذكر لنا ياقوت أن أبا العباس الفضل بن الوزير ابن الفرات تزوج بابنة الوزير ابن كلس . وقد كان لهذا الزواج أثر كبير فى تمكن أواصر الصداقة بين هذين الوزيرين .

(٢) ابن خلكان (ج ٢ ص ٤٤١) .

(٣) ابن منجب (ص ٢٤ و ٢٥) .

(٤) (ص ٥١) .

(٥) ياقوت : ارشاد الأديب (ج ٣ ص ٤٠٥) . وقد ذكر ابن خلكان (ج ٣ ص ١٣٩) أنه توفى فى يوم الأحد الثالث عشر من صفر ؛ وذكر فى رواية أخرى أن وفاة هذا الوزير كانت فى شهر ربيع الأول من هذه السنة . وقد أورد ابن سعيد (كتاب المغرب ص ٨٧) أنه توفى فى صفر سنة ٣٩١ ، وفى رواية أخرى فى سنة ٣٩٢

وكان على القضاء ؛ وعبد السميع بن عمر العباسي ، وكانت إليه إمامة الجامع العتيق وخطابته ؛ والحسن بن موسى الخياط ، وكان إماما للصلوات الخمس ؛ وشفيع الصقلبي ، وكان صاحب المظلة ؛ وموسى بن العازار ، طبيب الخليفة الخاص .

أما جباية الخراج فقد جعلت قسمين : أحدهما فى يد على بن محمد بن طَباطَبا وعبد الله بن عطاء الله ، وثانيهما فى يد الحسن بن عبد الله والحسين بن أحمد الروذْبارى[1] . وكان صاحب بيت المال محمد بن الحسين بن مهذب ؛ كما قسمت الشرطة قسمين : (أ) الشرطة العليا[2] ، وقد أُسندت الى جبر (ب) والشرطة السفلى ، وقد أُسندت الى عَروبة بن ابراهيم وشبل المعرضى[3]

ولم يمض قليل من الزمن حتى أدخل على ادارة المناصب الحكومية تغيير كبير . فقد ذكر ابن ميسر[4] أن يعقوب بن كلس وعُسلوج بن الحسن قد عهد اليهما سن نظام جديد للضرائب ، وقلدهما الخليفة فى منتصف المحرم سنة ٣٦٣ الخراج وجميع وجوه الأعمال والحسبة[5] والسواحل

---

(١) كان هؤلاء الموظفون تحت اشراف يعقوب بن كلس وعُسلوج بن الحسن ، ينوبون عنهما فى جباية الخراج .

(٢) ذكر ابن دقماق (ج ٤ ص ١١) أن الموظف الذى كان يشغل هذا المنصب قد توفى فى اليوم الذى وصل فيه جوهر الى مصر .

أما عن الشرطتين ، فانه بعد فتح مصر على يد عمرو بن العاص ، كانت دار الشرطة فى مدينة الفسطاط . ولما تأسست مدينة العسكر أنشئت فيها دار أخرى للشرطة أطلق عليها دار الشرطة العليا ؛ كما أطلق على دار الشرطة الأولى الشرطة السفلى . وفى أيام الفاطميين انقسمت الشرطة قسمين :

(أ) الشرطة العليا ومقرها القاهرة .

(ب) والشرطة السفلى ومقرها الفسطاط .

(٣) المقريزى : اتعاظ الحنفا (ص ٩٥)

ذكر ابن ميسر أن جوهرا صرف عن ادارة هذه المناصب فى يوم الجمعة ١٤ المحرم سنة ٣٦٣ ؛ ولا بد وأن يكون اسناد الأعمال الادارية الى يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن قد أثر فى نفوذ جوهر .

(٤) (ص ٤٥)

(٥) كانت أعمال المحتسب ، على ما ذكره الماوَردى (ص ٢٢٧ — ٢٣٠) ، متعددة مختلفة . فكان اليه النظر فى الأسواق ، والمحافظة على الآداب والفضيلة ، وادارة الشرطة . وكانت وظيفته واسطة بين القاضى وصاحب النظر فى المظالم (ص ٢٢٩) . ومن أهم أعماله المحافظة على الآداب وعلى الفضيلة والأمانة ، وايقاف مضايقة الجمهور ، والاشراف على الموازين والمكاييل ، وعلى استيفاء الديون ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والحيلولة دون بروز الحوانيت مما يعوق نظام المرور . =

والأعشار(١) والجوالى(٢) والأحباس(٣) والمواريث والشرطتين وكل ما يضاف الى ذلك فى مصر وسائر الأعمال(٤).

٢ — جباية الخراج

بقى علىّ بن يحيى بن العرمرم قائما على جباية الخراج ؛ ولكنه لم يمض شهر حتى شاركه فى ذلك رجل آخر، هو رجاء بن صولاب (٥) . ومع أن المقريزى لم يذكر لنا أكان هـذا العامل الجديد مصريا سنيا أو شيعيا، أو مغربيا، فانه من المحقق لدينا أنه كان مغربيا، كما يؤخذ من العبارة التى تنقلها عن المقريزى (اتعاظ ص ٨٧) وهى : " أن جوهرا لم يدع عملا الا جعل فيه مغربيا شريكا لمن فيه " .

= وقد ارتقى نظام الحسبة فى عهد الفاطميين ؛ فكان المحتسب ، على ما رواه المقريزى عن ابن الطوير (خطط ج ١ ص ٤٦٣ و ٤٦٤) ، ينتخب من وجوه المسلمين وأعيان المعدلين ، لأن وظيفته كانت دينية الى حد كبير . وكان ينوب عنه فى القيام بهذه الأعمال نواب فى القاهرة ومصر وغيرها من المدن . وكان يجلس للحكم فى جامعى القاهرة ومصر يوما بعد يوم، ويطوف نوابه على أرباب الحرف وعلى التجار ، ويفتشون قدور الأطعمة ويختمون اللحوم ، ويباشرون محال الجزارة والمطاعم ، ويحولون دون مضايقة الجمهور ، ويلزمون رؤساء المراكب بألا يحملوا أكثر مما يجب حمله من السلع . وكانوا كذلك يشرفون على السقائين لضمان تغطيتهم القرب ، ويرقبون لبسهم السراويل حتى لا يخرجوا على الآداب العامة ، ويراعون عيار القرب (وهو أربعة وعشرون دلوا) ، ويمنعون معلمى الكتاتيب من ضرب صغار الأولاد ضربا مبرحا ، ويحولون دون تغرير معلمى السباحة بالصغار ، وينظرون الموازين والمكاييل . وللمحتسب النظر فى ضرب العيار . وكان يخلع عليه ويقرأ سجله بمدينة مصر (الفسطاط) والقاهرة على المنبر ؛ فغدت سلطته من الاتساع بحيث لا يحال بينه وبين ما يريد ؛ كما كان له أن يستعين بالشرطة على تنفيذ أحكامه للمحافظة على الآداب والنظام . وكان يتقاضى مرتبا قدره ثلاثون دينارا فى كل شهر .

أتى ابن خلدون (" مقدمة " ، طبعة بيروت سنة ١٩٠٠ ص ٢٢٥ و ٢٢٦) على كثير من أعمال المحتسب التى ذكرها المقريزى .

(١) كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه أول من فرضها على التجار من غير المسلمين ، لأنهم كانوا يأخذون فى بلادهم عشر ما مع المسلمين من التجارة ؛ ففرض عليهم عمر العشر ، وعلى أهل الذمة نصف العشر ، وعلى المسلمين ربع العشر .

(٢) الجوالى هى اختيار الأحسن من كل شىء ، سواء أكان من الممتلكات أو من الشاء ، الهزيل منها والصغير . وربما كانت هذه هى وظيفة العامل فى الزكاة .

(٣) الأحباس هى كل ما يوقف على جهة من جهات الخير ؛ وما تحصل من أموالها يصرف فيما أراده الواقف .

(٤) ابن ميسر (ص ٤٥)

(٥) أورد القضاعى (المكتبة الأهلية بباريس ؛ مخطوط ١٤٩١ ، ورقة ١١٧ ب) هذا اللفظ " رجا ". وقد أتى لنا نفس مؤلف هذا المخطوط على أسماء خمسة من الموظفين تقلدوا هذا المنصب فى عهد جوهر فقال : "تولى الخراج منذ دخل =

وقد أبطل نظام جباية الضرائب القديم ، وأنشئ نظام جديد فى تقدير الأملاك وتعيين مايخص كلا منها من الضرائب ، وجمعت كل دوائره فى مركز واحد وفحصت مصادر الضرائب على اختلافها ، وتشددت الحكومة الجديدة فى تحصيل ما تأخر منها ، كما اهتمت بالنظر فى كل ما تقدم اليها من الالتماسات والشكاوى . وسلكت الحكومة فى تنفيذ نظام الضرائب الجديد سبيل الحزم ، وحمت دافعى الضرائب من دفع الأموال كرها وعسفا . فكانت نتيجة هذه السياسة الرشيدة أن زادت موارد الدولة زيادة كبيرة ؛ فبلغ ما كان يستخرج من الفسطاط فى يوم واحد مقدارا يتراوح بين خمسين ألفا ومائة وعشرين ألف دينار ، واستخرج من تنيس ودمياط والأشمونين فى يوم واحد أكثر من مائتين وعشرين ألف دينار .

---

٣ — الوزير

ولم يكن سلوك الوزير ابن الفرات إزاء هذه الدولة الشيعية أقل أثرا من سلوك غيره من المتعصبين السنيين . فلقد أبى فى بادئ الرأى أن يستقبل المعز فى الاسكندرية ، غير مكترث بما قد يجره هذا الامتناع عليه وعلى السنيين جميعا من اضطهاد الحكومة الفاطمية . ولكن تدخل كبار السنيين من المصريين ، ونصحهم للوزير بالعدول عن هذا العمل ، قد حال دون الوقوع فيما كانوا يخشونه من أعمال العنف والقوة . فقد أتوا اليه فى الليلة السابقة ليوم وصول المعز القاهرة ، واتهموه بتعريض أرواح السنيين للخطر وتهيئة الأسباب للفاطميين لحملهم على الانتقام والتشفى .

فلم يكن بد اذاً من أن يذعن الوزير لهم ؛ حتى اذا ما بزغ صبح اليوم التالى ، دخل فيمن دخلوا على الخليفة المعز . وقد حاول الخليفة أن يتلمس وسيلة للايقاع به واتخاذ الشدة والعنف معه ، فسأله قائلا : "أحَجَّ الشيخ ؟ قال : نعم ! فقال الخليفة : وزرتَ قبر الشيخين (أبو بكر وعمر) ؟" .

= جوهر على بن العرمرم ، أبو محمد الروذبارى ، رجاء بن صولاب ، عبد الله بن عطاء الله ، أبو الحسن الكرخى" . على أن هذه العبارة لا تدل على أن هؤلاء الموظفين الخمسة تقلدوا هذا المنصب فى وقت واحد ، فان المؤلف أو الناسخ لم يضع علامة العطف الدالة على الترتيب بين كل اسم وآخر . هذا الى أن لفظ " منذ " يقرب الى الذهن أن هؤلاء الخمسة قد تقلدوا هذه الوظيفة بالتعاقب ، أو شغلها واحد منهم أو اثنان أحيانا ، وذلك منذ استولى جوهر على مصر سنة ٣٥٨ هـ ، الى أن وصل المعز الى هذه البلاد سنة ٣٦٢ هـ ، وأسند كافة أمور الدولة الى يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن .

وكان الوزير ذكى الفؤاد حاضر البديهة ، فأجابه على الفور : "شغلنى عنهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما شغلنى أمير المؤمنين عن السلام على ولى العهد ؛ السلام عليك يا ولى عهد المسلمين ورحمة الله وبركاته ! " .

وقد زادنا ياقوت[1] أنه كان من أثر هذا الحديث أن عرض المعز على ابن الفرات أن يستمر فى الوزارة ، فاعتذر . وبذلك انتهت مدة وزارته فى عهد الدولة الفاطمية بدخول المعز .

وكان لعسكر المغاربة قاض يدعى علىّ بن الوليـد ، وكل اليه النظر فى قضاياهم . ولا شك فى أن هذا القاضى كان اليه النظر أيضا فى كثير من القضايا التى نشأت من هـذا العداء الذى ظهر بينهم وبين المصريين .

---

٤ — حالة مصر الداخلية

لم تكن الحالة الداخلية قد استتبت بعد فى مصر ؛ لأن أنصار الاخشيديين وجماعة الكافورية لم يكن قد تم القضاء عليهـم . أضف الى ذلك الحمـلات التى وجهها القرامطة الى هـذه البلاد ، وانتصار كثيرين من المناوئين لسلطان الفاطميين لهذا العدو الطارئ[2] .

ولإيضاح ذلك نقول ، انه فى سـنة ٣٦١ هـ ثار عبد العزيز بن هيج الكلابى فى الصعيد ودعا للعباسيين . فأرسل اليه جوهر جيشا قضى على الثوار وأسر رئيسهم ، وبعث به الى القاهرة مكبلا فى قفص ، فسلخ جلده وصلب جسمه[3] .

وطالمـا أثار المغاربة الفتن والقلاقل بمـا أتوا من أعمال العنف والشدة ضـد الأهلين . فـلم يكن بد من أن يعدهم هؤلاء من أعدائهم ، لاختلافهم فى المذهب ، ولاغتصابهم ما كان لهم من حقوق سياسية . ويتضح ذلك من هذه الحوادث التى نأتى بها للقارئ على سبيل التمثيل : ففى شهر ذى الحجة

---

(١) ارشاد الأديب (ج ٣ ص ٤١٠ ، ٤١١)

(٢) ابن القلانسى (ص ٣)

(٣) المقريزى : اتعاظ الحنفا (ص ٨٧)

من سنة ٣٦١ ، نهبت المغاربة بعض أحياء مدينة مصر ؛ فثار الأهلون ، ونشب بين الفريقين القتال . فأنفذ اليهم جوهر سعادة بن حيّان فى الحال ؛ لحسم النزاع وعوّض جوهر الناس ما نهب منهم[١] .

ويظهر لنا أن سلوك المغاربة قد استثار الأهلين ودفعهم إلى إعلان ماجاش فى نفوسهم من الاستياء والسخط فى مناسبات مختلفة . ففى ربيع الأول من سنة ٣٦٢ أنب المحتسب جماعة من الصيارفة ، لسبب لم يكشف لنا التاريخ اللثام عنه . وكانت نتيجة ذلك أن شغب غيرهم من الصيارفة احتجاجا على ما أتاه هـذا المحتسب وصاحوا بهذه الكلمات : "معاوية ابن عم على بن أبى طالب" ؛ كما أن شـعور الكره الذى أضمره السنيون نحو الشـيعة يكشف لنـا عما كان يضمره السنيون فى مصر للفاطميين .

ولم يبين لنا المقريزى[٢] السبب الذى أدى إلى إثارة هذا الشغب ؛ وإنمـا اقتصر على القول بأن جوهرا فكر فى إحراق رحبـة الصيارفة . وكان المحتسب الى عهد الفاطميين مصريا ، فأُقيل (ربيع الثانى سنة ٣٥٩) على أثر الفتح — كما تقدم — وحل محله رجل آخر من المغاربة .

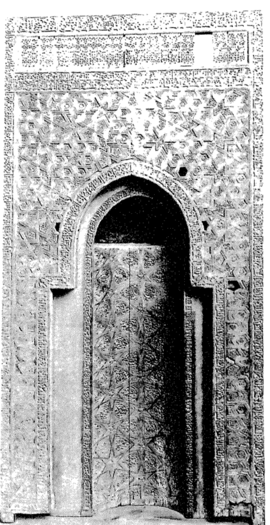
أما سليمان بن عَشْرَة الذى حدث هـذا الشغب فى عهد ولايته الثانية على الخراج ، فقد أعيد إلى الحسبة بعد موت المحتسب المغربى . ونستطيع أن نستخلص من أقوال المقريزى أن المحتسب كان مصريا سنيا ؛ لأنه لو كان شيعيا ، لأقره جوهر فى منصبه .

ولم تنقطع القلاقل والاضطرابات بعد وصول المعز . فمن ذلك ما حدث عند الاحتفال بعيد غدير خُمّ (١٨ ذى الحجة سـنة ٣٦٢) . ولم يُدْلِ لنا المقريزى[٣] بشىء جلى عمن كانوا سـبب إثارة هـذه القلاقل . وكل ما قاله أن جوهرا قتل جماعة ، لأنهم نهبوا بعض جهات القرافة . إلا أن هذا لا يمنعنا أن نقول إن المغاربة كانوا السبب فى إثارة هذا الشغب الذى آل إلى التطاحن ، وأن جوهرا أمر بجماعة منهم فضُربت أعناقهم ليضع بذلك حدا لمـا أتوه من ضروب التعدى[٤] .

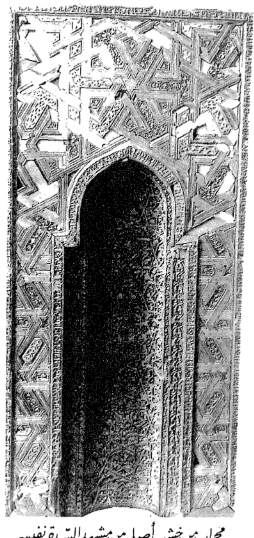
هذا ، وإن مسألة قيام المتشيعين من المصريين بنصرة المغاربة ، أو وقوفهم فى صف بنى وطنهم وأبناء جلدتهم دفاعا عن أملاكهم ، مسألة جديرة بالنظر والاعتبار . وإنه وإن لم يكن فى المصادر

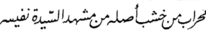
---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا (ص ٨٧)
(٢) شرحه .
(٣) شرحه (ص ٩٤)
(٤) ابن ميسر (ص ٤٥) ، والمقريزى : اتعاظ الحنفا (ص ٩٤)



محراب من خشب أصله من مشهد السيدة رقيه





محراب من خشب أصله من مشهد السيدة نفيسه

SURVEY OF EGYPT

التى رجعنا اليها ما يرجح أحد هذين الرأيين ، فلا شك فى أن المغاربة إنما قاموا بنهب أملاك الأهلين ، غير آبهين بأى حزب أو دين ينتمى اليه أى شخص ، وأن الأهلين — سنيين وشيعيين وغير مسلمين — هبوا يدفعون عن أنفسهم هذا التعدى الذى كان قوامه السلب والنهب . وإن إظهار الشيعيين شعورهم العدائى نحو أهل السنة ، أمر كان يتجلى فى احتفالاتهم ببعض أعيادهم ومواسمهم.

وفى سنة ٣٦٣ هـ تفاقم شر هذا العدوان الذى أضمره المتشيعون للمصريين . وعاد المغاربة سيرتهم الأولى فى القرافة ؛ فاحتلوا الدور وأجلوا سكانها عنها ؛ فشكا الأهلون الى المعز واستغاثوا به — وكان قد أمر المغاربة أن يسكنوا أطراف المدينة — فأصدر الأوامر الى المغاربة باخلاء هذه الدور والتحول إلى الخندق الكائن على مقربة من عين شمس ؛ وركب هو بنفسه فعين مواضع لنزولهم ، وأقر المال المطلوب للبناء ، كما جعل لهم واليا وقاضيا عهد اليهما النظر فى أحوالهم[1] .

على أن هذه الاجراءات لم تكفل للمصريين الاطمئنان على أنفسهم وأموالهم من المغاربة ؛ فقد ظلوا يخالطون أهل مصر حتى يتم إعداد مساكنهم الجديدة . أما المتشيعون من المصريين فكان عددهم قليلا ؛ غير أنهم كانوا أقوياء بالمغاربة الذين كانوا يشدون أزرهم ، وبوجود حكومة شيعية تعضدهم ، ولا سيما بعد وصول المعز .

وطالما كان يثور بركان العداء المستحكم بين هاتين الطائفتين فى مناسبات كثيرة ، وبخاصة عند الاحتفال ببعض الأعياد والرسوم الشيعية . أما الشيعيون فكانت تناصرهم الحكومة طوال العهد الفاطمى ، كما كان المغاربة يشدون أزرهم .

وكثيرا ما كان يصحب هذا العداء الذى أضمره السنيون للشيعيين الفتن والقلاقل . ففى العاشر من المحرم سنة ٣٦٣ هـ — وهو ذكرى اليوم الذى قتل فيه الحسين بكربلاء — انصرف جماعة من المصريين المتشيعين ، ومعهم فريق من فرسان المغاربة ورجالتهم من مشهدى أم كلثوم (بنت محمد بن جعفر الصادق) ونفيسه[2] ، وساروا فى موكبهم ينوحون ويبكون على الحسين ؛ وحملوا الناس على مشاركتهم فى الحزن حملا ؛ فكسروا أوانى السقائين فى الأسواق ، وسبوا من ظهر بغير مظاهر الحزن والأسى فى هذا اليوم . فأغلقت الدكاكين وتعطلت حركة الأسواق ، وكثرت القلاقل

(١) ابن ميسر ص ٤٥

(٢) هى نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن على بن أبى طالب . دخلت مصر مع زوجها اسحق بن جعفر الصادق ؛ وكانت صالحة تقية ، سمع منها الشافعى الحديث . ولما مات أدخلت اليها جنازته فصلت عليه ؛ وتوفيت فى شهر رمضان سنة ثمان ومائتين .

بين السنيين والشيعيين . فخرج ابن عمار — وكان من زعماء المغاربة — على جناح السرعة ، وتم على يديه انفصال الفريقين بعضهما عن بعض[١] .

وكانت تقوم هذه الاضطرابات فى مصر عند الاحتفال بهذا العيد ، حتى قبل أن يتم فتح هذه البلاد على يد الفاطميين . ففى عهد الدولة الأخشيدية ، كان يتجمع السودانيون الذين أتى بهم كافور — وقد عرفوا بالتعصب ضد مذهب الشيعة — فى الطرقات ، وكانوا يسألون كل من يمر عليهم : من خالك؟ فان قال معاوية ، أكرموه وسمحوا له بالمسير ، وإن سكت لقى المكروه ، وانتزعت ثيابه وأخذ ما معه . ولقد حاول كافور أن يحول دون وقوع هذا العدوان ، فكان يعين فى هذا اليوم حراسا على أبواب المدينة المؤدية إلى الصحراء ، فيمنعون الناس من الخروج[٢] .

وقد تم عزل المغاربة عن أهل مصر بانشاء الأحياء الخاصة بهم ؛ فحظرت عليهم السكنى مع المصريين والمبيت فى المدينة . وكان ينادى كل عشية ، ألا يبيتن فى المدينة أحد من المغاربة[٣] . ولم يُسمع بعد موت المعز بشيء من أعمال العنف الكثيرة التى كنا نسمع بها من قبل ، اللهم إلا عند إقامة بعض الأعياد الدينية ، حيث كانت تتجدد الشحناء بين السنيين والشيعيين .

---

٥ — قاضى القضاة

كان جوهر ينوب عن الخليفة الفاطمى فى حكم بلاد دخلت فى حوزة الفاطميين منذ أمد قريب ؛ وكانت سياسته تنطوى على كثير من الحكمة وبعد النظر . ولقد رمى جوهر من وراء هذه السياسة إلى إفساح المجال أمام المغاربة ، ليلموا بالنظم الادارية التى كانت تسير عليها الحكومة المصرية . ولكنه رأى بصائب نظره أن يكون تنفيذ هذه السياسة تدريجيا ؛ لأن العلاقات التى كانت بين السنيين والشيعيين ، وبين المغاربة والمصريين ، لم تكن على صفاء دائما .

يؤيد هذا القول أن صيام شهر رمضان عند السنيين ينتهى بمجرد ظهور القمر ، سواء أكان شهر شعبان تسعة وعشرين يوما أم ثلاثين ، وذلك عملا بقوله صلى الله عليه وسلم : ”صوموا لرؤيته

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا (ص ٩٦)

(٢) شرحه (ص ٩٧)

(٣) ابن ميسر (ص ٤٥)

(هلال رمضان) وأفطروا لرؤيته (هلال شوّال)؛ فان غُمّ عليكم (يعنى إذا لم يكن من الممكن رؤية الهلال فى نهاية اليوم التاسع والعشرين من شعبان بسبب تكاثف الغيم فى السماء)، فاكملوا عدة شعبان ثلاثين يوما" .

ولكن جوهرا لم يرتض السير وفق هذه الطريقة التى لا تتفق مع أصول المذهب الشيعى . ففى سنة ٣٥٨ هـ أبطل الصوم بعد اليوم التاسع والعشرين من رمضان ، وصلى العيد قبل رؤية الهلال . فاعترض أهل الفسطاط على ما فعل ، وصاموا اليوم الثلاثين حسب أصول المذهب السنى ، ثم جعلوا العيد بعد ذلك بيوم ، أى بعد رؤية الهلال ؛ واتبعوا فى ذلك قاضيهم السنى الذى تلمس الهلال جريا على هذه العادة فوق سطح الجامع العتيق ، وأعلن انقضاء شهر الصوم . ولما بلغ ذلك جوهرا أنكر على القاضى ما فعل وتهدده [1] .

وظل أبو الطاهر — الذى تقلد القضاء قبل وصول الفاطميين — فى منصبه حتى سنة ٣٦٦ هـ . ولكن سلطة القاضى قد ضعفت ضعفا شديدا على أثر وصول المعز إلى القاهرة ؛ وكان فى ذلك أشبه بالوزير الذى أقر فى منصبه لاعتبارات سياسية لاغير .

وأولى هذه الاعتبارات هى أن المصريين لم يكن ينتظر منهم أن يسارعوا الى اعتناق المذهب الشيعى . لذلك كان بقاء أبى الطاهر رغم كونه سنيا من الأمور السياسية التى لا مندوحة عنها ، وإن كان ذلك صوريا ، ولاسيما أن جوهرا أخذ على نفسه العهود والمواثيق بأن يطلق للمصريين الحرية التامة فى اعتناق مذهبهم . فكان عزل هذا القاضى الذى ظل فى منصب القضاء منذ ربيع الأول سنة ٣٤٨ وإحلال قاض من الشيعة محله ، مما يثير شعور الجمهور .

وإن سلوك أبى الطاهر عند وصول المعز ليدل على مقدار ما كان يضمره المتعصبون من السنيين من عداء للتشيعين فى شخص هذا الحاكم الشيعى ؛ فقد نزل جميع المستقبلين عن مطاياهم وقبّلوا الأرض بين يديه ما عدا أبا الطاهر . يدلك على ذلك ما أورده لنا المقريزى فى مخطوطه المقفى الكبير حيث يقول :

" لما ورد المعز مصر ، استقبله الناس على طبقاتهم مشاة ؛ فلما رأوه ، قبلوا الأرض بين يديه كلهم ، سوى القاضى أبى الطاهر ، فإنه كان راكبا . ولما قرب ترجل وسلم عليه ، ولم يقبل الأرض . فالتفت المعز إلى خواص حجابه وقال : من هذا الذى خالف الناس كلهم ؟ فقيل قاضى

(١) الكندى ص ٥٨٤ ، والمقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٧٦

مصر ، وهو من أهـل العلم والدين . ثم لامه أحد الحجاب سرا (هكذا) فيما فعل ؛ فرفع صوته وقال جهرا بحيث يسمع المعز : وما (هكذا) هـذا ؟ (أ) هو الشمس التى قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم ، من علامات الساعة طلوع الشمس من مغربها ، وقال الله تعالى (ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر، لا تسجدوا للشمس ولا للقمر ، واسجدوا لله الذى خلقهن ان كنتم إياه تعبدون)؟ ، فأرضاه بذلك ، واستحسن قوله ؛ فرجع وهو قاض وعلت منزلته "[١]

وليس ما يمنعنا من أن نظن أن هـذا القاضى انمـا بقى فى منصبه طبقا لهذه السياسة العامة التى جرى عليها الفاطميون ؛ لا لأن الخليفة قد اقتنع بخطابه الذى نتبين من ثناياه ما أضمره هـذا الفقيه من كراهة لأهل الشيعة ؛ فان سلطة أبى الطاهر ما لبثت أن اضمحلت ، وألزم فى أواخر عهده فى القضاء أن يصدر أحكامه وفق قوانين المذهب الشيعى[٢] .

---

٦ — تضـاؤل نفوذ القـاضى

ظل القضاء والإمامة والخطـابة فى يد رجال من السنيين الذين تقلدوا هـذه المناصب فى أواخر أيام الأخشيديين . ثم ظهر تضاؤل نفوذ القاضى فى سنة ٣٦٣ هـ ، بل أُلزم — كما قلنا — أن يُصدر أحكامه طبقا لأصول المذهب الشيعى الذى ساد البلاد فى ذلك الوقت ، كما اشترك معه فى منصبه قاضيان من المغاربة .

ويحدثنا ابن ميسر[٣] أن أبا سعيد عبدالله بن أبى ثَوْبان ، الذى صحب المعز الى مصر ، تقلد فى شوال سنة ٣٦٢ النظر فى المظالم[٤] الخاصة بالمغاربة . ولم تلبث أن ازدادت سلطة ابن أبى ثوبان هذا ، فلم تقتصر على النظر فى قضايا المغاربة وحدهم ، أو فى القضايا المشتركة بينهم وبين المصريين ،

---

(١) المقريزى : المقفى الكبير ، مكتبة الجامعة بليدن ، مخطوط ١٣٦٦ ، المجلد الأول ، ورقة ١٨٢ أ .

(٢) الكندى ص ٥٨٤

وقد خالف ابن زولاق ذلك فقـال ، انه بعد أن وصل الخليفة المعز الى الاسكندرية ، خلع على أبى الطاهر الذى سـار معه الى القـاهرة وهو ممتط جواده ، وقـد سأله المعز وهو فى الطريق : " كم رأيتَ يا قاضى خليفـة ؟ " فقال القاضى : " واحدا والبـاقى ملوك ! " .

(٣) (ص ٤٤)

(٤) هى محكمة عليا كانت تعقد من قبل رياسة الخليفة نفسه .

بل آل اليه النظر أيضا فى قضايا المصريين أنفسهم ، وغدا يطلق عليه اسم قاضى مصر والاسكندرية[١] .

كذلك نُصِّب من المغاربة قاض آخر — صحب المعز الى مصر أيضا — وشارك القاضى أبا الطاهر فى سلطته . وهذا التنصيب يدل على ما ظهر فى سياسة الفاطميين من تغير جديد بعد أن تم لهم فتح مصر ، حيث أصبح القضاء يقلد لاثنين من الموظفين ، أحدهما سنى والآخر شيعى . وليس معنى ذلك زوال سلطة القاضى السنى تدريجا فحسب ، بل ذلك ايذان أيضا بانتهاء عهد تقلد السنيين منصب القضاء[٢] .

---

(١) الكندى (ص ٣٨٧)

(٢) نعم ! كان منصب القضاء يعهد به لبعض السنيين أحيانا ، اذ أن الفاطميين فى أواخر عهدهم لم يسيروا دائما على قاعدة اسناد القضاء الى المتشيعين خاصة . ولنضرب لذلك مثلا ما كان من اسناد الحاكم بأمر الله هذا المنصب فى العشرين من شعبان سنة ٤٠٥ لرجل من أهل السنة ، بق فيه اثنى عشرة سنة وسبعة أشهر ، ثم مات فى عهد الخليفة الظاهر . ويحدثنا ابن حجر (رفع الإصر ، ورقة ٢١٤ ب) أن القاضى مالك بن سعيد الفارقى قتل لأربع بقين من شهر ربيع الأول سنة ٤٠٥ هـ ، فخلا منصب القضاء ثلاثة أشهر وثلاثة وعشرين يوما ، أى الى العشرين من شعبان ، فتقلده أبو العباس ابن العوام الحنبلى المذهب . وان خلو هذا المنصب طوال هذه المدة يؤيد ما ذهبنا اليه ، من أنه لم يكن من السهل العثور على فقيه من الشيعيين يصلح لتولى هذا المركز . ولقد أدلى لنا ابن حجر (رفع الإصر ورقة ٤٣ ب وما يتبعها) بالظروف التى أدت الى تقلد ابن العوام أعباء هذا المنصب فقال : "وكان قد قدم مصر رجل مكفوف يقال له أبو الفضل جعفر ، من أهل العلم بالنحو واللغة ، قدم على الحاكم فأعجب به وخلع عليه ، وأقطعه اقطاعا ولقبه عالم العلماء ، وجعله يجلس فى دار العلم التى أنشأها ، ليدرس للناس اللغة والنحو . فخلا به الحاكم فجعل يسأله عن الناس واحدا واحدا ، من يصلح منهم للقضاء ؛ وكان الحاكم عارفا بهم ... ... فلم يزل يذكر ، حتى وقع الاختيار على أبى العباس ، فقيل للحاكم : ليس هو على مذهبك ، ولا على مذهب من سلف من آبائك ، فقال : هو ثقة مأمون مصرى ، عارف بالقضاء وبأهل البلد ، وما فى المصريين من يصلح لهذا الأمر غيره" .

ومن المهم أن نلم بما ذكره ابن حجر (رفع الإصر ، ورقة ٤٥ أ) من أن ابن العوام قد شهد عند القاضى محمد بن النعمان (الكندى طبعة رومة ، سنة ١٩٠٨ ، ص ١٦٢) فى سنة ٣٨٤ هـ . ومن هنا يتضح ما كان لمنصب القضاء من حرمة وقداسة ، حيث يقف رجل سبق له تولية هذا المنصب أمام القاضى . ويغلب أن يكون ذلك فى القضايا الهامة التى قد يكون هذا القاضى أعلم بها من غيره .

ويزيدنا ابن حجر (رفع الإصر ورقة ٤٤ ب) أن ابن العوام تقلد القضاء وخلع عليه (وأضيف اليه فى الأحكام مصر وبرقة وصقلية والشام والحرمان ، ماعدا فلسطين ، فان الحاكم كان قد ولاها أبا طالب بن بنت الزيدى الحسينى ، وجعل للعباس النظر فى العيار ودار الضرب والصلاة والمواريث والمساجد والجوامع) بسبب ما كان لأبى الفضل من نفوذ لدى الخليفة الحاكم . ولكنه لما لم يكن هذا القاضى يدين بعقائد المذهب الشيعى ، اشتمل سجله الذى قرئ فى القصر وعلى منبر الجامع العتيق على فقرة شرط فيها عليه أن يصدر أحكامه طبقا لقانون الشيعة ، وأن يكون معه فى مجلس القضاء أربعة من القضاة (الشيعيين بلا مراء) يعينون من قبل الخليفة . ومن ذلك يتضح أن تعيين غير الشيعيين كان قليلا حدوثه ، وعلى شريطة خضوعهم لأحكام مذهب الشيعة .

ولم يذكر لنا المؤرخون تاريخ تقلد على بن النعمان القضاء . غير أنه يظهر مما ذكره ابن ميسر (ص ٤٤) أنه بدأ حياته فى القضاء منذ سنة ٣٦٣ هـ ، أى بعد أن تقلد ابن أبى ثوبان منصبه بأشهر قلائل .

ولما اقتسم القضاءَ ابن النعمان وأبو الطاهر ، كان لكل منهما شهوده الذين يستعين بهم فى أحكامه . وجلس أولهما للحكم فى الجامع العتيق ، وثانيهما فى الجامع الأزهر[١] ؛ وظلت الحال على ذلك الى شهر صفر سنة ٣٦٦ ، وفيه اضطلع علىّ بن النعمان بالقضاء عامة .

وتظهر لنا صحة ما رواه ابن حجر عن استقالة هذا القاضى . وهو يختلف عما ذكره القضاعى[٢] والمقريزى ؛ فقد أيد كل منهما القول بأن القاضى قدم استقالته الى الخليفة العزيز[٣] لأسباب صحية . وزاد المقريزى أن العزيز ركب فى صفر سنة ٣٦٦ الى الموضع المعروف بالجنان فى جزيرة الرّوضة على مقربة من جامع عمرو ، حيث يعقد أبو الطاهر مجلس الحكم . وهناك استقبل أبو الطاهر وشهوده الخليفةَ العزيز ، وسأله أن يأذن له فى استخلاف ولده[٤] بسبب ضعفه . ولقد قبلت استقالة القاضى على الفور ، وكأن الخليفة كان ينتظرها بتلهف .

ونحن نعلم أن سياسة الفاطميين كانت ترمى الى إضعاف نفوذ السنيين تدريجيا ، بحيث لا يقف معها دولاب الأعمال الحكومية أو يتكدر صفاء البلاد بتذمر السنيين وسخطهم . ولم تنقض ثلاثة أيام على تقديم القاضى استقالته ، حتى قلد العزيز علىّ بن النعمان الشيعى المذهب[٥] .

ويحدثنا الكندى[٦] أنه قرئ على منبر الجامع العتيق سجل بتقليد ابن النعمان القضاء . وزاد ابن حجر[٧] فقال إنه "ولى القضاء على مصر وأعمالها ، والخطابة والإمامة والقيام فى الذهب والفضة". ويستطرد هذا المؤلف الكلام فيقول إن أبا الطاهر امتنع عن العمل مع ابن النعمان ، فاستخلف

---

(١) ابن حجر : رفع الإصر ، المكتبة الملكية بالقاهرة ، مخطوط ٢٢١٥ ورقة ١٩٤ ب .

(٢) المكتبة الأهلية بباريس ، مخطوط ١٤٩١ ، ورقة ١١٩ ب .

(٣) ذكر المقريزى (المقفى الكبير ، ليدن ، مخطوط ١٣٦٦ ورقة ٨١ أ) أنه الخليفة المعز (المتوفى سنة ٣٦٥ هـ) . ويرجح عندنا أن ذكر لفظ العزيز خطأ من الناسخ ، بدليل ايراده بعد ذلك فى سياق أقوال هذا المؤرخ .

(٤) قد أورد ابن زولاق هذه الحقيقة التاريخية (الكندى ص ٥٨٧) .

(٥) الكندى ص ٥٨٥

(٦) شرحه .

(٧) رفع الإصر ورقة ١٩٤ ب .

هـذا أخاه محمدا والحسن بن خليل الفقيه الشافعى ، وشرط عليـه أن يصدر أحكامه وفق المذهب الشيعى الذى يدين بعقائده الفاطميون .

ولقد ظل القضاء فى يد الشيعيين من الاسماعيلية ، و بقى أولاد النعمان يتقلدون هذا المنصب الى سنة ٣٩٨ هـ ؛ ففى صفر سنة ٣٩٣ ، تقلد الحسين بن على بن النعمان القضاء فى مصر وما يتبعها من الأعمال ، وأسـندت مقاليد الدعوة أول مرة لقـاضى القضاة ؛ فغدا يطلق على ابن النعمان لقب "قاضى القضاة وداعى الدعاة" .

أما عن الخطابة ، فقد أقيل بنو عبد السميع بعد أن تقلدوها نحو أر بع وستين سنة ، وأسندت الى جعفر بن الحسن الحسينى فى الجامع العتيق ، والى أخيه فى الجامع الأزهر[1] .

وفى سـنة ٣٧٩ هـ كانت أ كثر أمور الدولة المدنيـة والحربية والدينيـة قد تحولت الى أيدى الشيعيين ، وكان لزاما على الموظفين السنيين الذين ظل فى أيديهم بعض المنـاصب الصغيرة ، أن يسيروا وفق أحكام مذهب الاسماعيلية . وأصبح عزل كل من رمى منهم بالتقصير فى مراعاة هذه الأحكام أمرا لا مفر منه ؛ وقد يكون ذلك خشية العزل أو الاضطهاد ، أو لرغبة الناس فى تقلد مناصب الحكومة أو الترقى فى سلكها ، مما دفع الكثيرين من الموظفين السنيين وغيرهم الى اعتناق مبادئ المذهب الفاطمى .

وكذلك كانت الحال بالنسبة الى غير المسلمين من النصارى واليهود ؛ فقد دفع بهم الخوف من سوء معاملة الحكومة الى سلوك الطريق الذى سلكه غيرهم من المصريين .

٧ — قانون الوراثة فى عهد الفـاطميين

لقد ذكر لنا ابن حجر قضيـة رجل ادعى ملكية حمام كان لجده ، وكان ينبغى أن ينتقل الى أمه حسب قانون الشيعة . وكان القاضى أبو الطاهر قد حكم فى هـذه القضية بأنه لم يكن لهـذا الشخص حق فى ادعاء الملكية ، لأن جده قد وقف هذا الحمام على الأعمال الخيرية . ولقد أثارت هذه القضـية شعور القاضيين السنى والشيعى ، وهـذا الأخير قد حكم للمدعى ، وأبطـل بذلك ما حكم به أبو الطاهر .

(١) ابن دقـاق ج ٤ ص ٦٤ ، والمقريزى خطط ج ٢ ص ٢٤٨ . كان ذلك فى سنة ٣٧٩ هـ ، على ما ذكره ابن دقـاق (ج ٤ ص ٦٤) .

ويظهر أن هــذه المسألة قد أحدثت اهتماما خاصا ؛ لأنها أفضت الى الخلاف فى وجهــة نظر كل من القاضيين اللذين حكم كل منهــما حسب قانون المذهب الذى يدين بعقائده . ويحــدثنا ابن حجر نقــلا عن ابن زولاق (المتوفى سنة ٣٨٧ هـ) أن المــدّعى شكا الى الخليفــة المعز، فأمر قاضيَه الشيعى بأن ينظر هذه القضية ثانية [١] .

ولقــد ذكر ابن زولاق أن هــذه الحوادث هاجت شــعور التمرد فى نفوس الشهود الذين كانوا يعمــلون مع ابن أبى ثوبان ، حتى ان الخليفــة المعز أمر أخيرا بابطــال الحكم الذى أصدره ابن أبى ثوبان ، ليزيل السخط الذى دب فى نفوس الشهود السنيين فى ذلك الوقت على الأقل [٢] .

وكانت نتيجة هــذه الحوادث أن امتنع الشهود عن حضور مجــالس الحكم التى كانت تعقــد برياسة ابن أبى ثوبان ؛ فبدلهم هــذا بشهود آخرين ، ولعلهم كانوا من الشيعيين . على أن هؤلاء اضطروا الى الاســتقالة . وكان غضب أبى الطــاهر والشهود ســببا فى علة ابن أبى ثوبان التى أودت بحياته [٣] .

ونستطيع ممــا أدلى به ابن حجر أن نقول إن العلاقات بين أبى الطاهر وابن أبى ثوبان لم تكن تنطوى على شىء من الود والصداقة . وهذا أثر الخلاف المذهبى الذى أدّى بهذين الرجلين الى الحالة التى وصفناها . فقــد أصــدر القاضى الشيعى أحكامه طبقا لعقائد مذهب الشــيعة الذى يخــالف مذهب القاضى السنى .

ويجيز قانون الشــيعة للبنت أن ترث كل ما يــترك أبواها ، إذا لم يكن لهــا أخ أو أخت . وهــذا يخالف قانون مذهب السنة الذى يقضى بألا ترث البنت أكثر من نصف الثروة . ولقــد تمسك القاضى الشيعى بتطبيق قانون الشــيعة على أحكامه ، وغدا فى استطاعته نقض ما يصــدره أبو الطاهر من أحكام .

---

(١) الكندى ص ٥٨٧ و ٥٨٨

(٢) شرحه ص ٥٨٨

(٣) شرحه .

وللقريزى كلام مستفيض عن قانون الوراثة فى عهـد الفاطميين ، عنـد كلامه عن الفقيه المـالكى محمد بن الوليـد الطُرطوشى . ويحـدثنا ياقوت أن الطرطوشى ينتسب الى مدينـة طرطوشة(١) التى ولد فيها سـنة ٤٥١ هـ (١٠٥٩ م) . وهى مدينـة بالأندلس تقع الى الشرق من مدينة بَلَنْسِيَة التى تتصل بالكورة المسماة باسمها .

وقد تنقّل الفقيه الطرطوشى فى الحجاز والشام والعراق ، وتلق العـلم على أئمة العلمـاء والفقهاء فى أمهات العواصم الاسلامية ، من أمثال مكة و بيت المقـدس وبغداد والبصرة ؛ ثم رحل أخيرا لمشاهدة مصر ، ونزل الاسكندرية واستوطنها ، و بقى بها الى أن مات سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) . ولم يلبث أن تقرّب الى الوزير المأمون ، وأهدى اليه كتابه "سراج الملوك"(٢) .

وكان من مظاهر سرور الوزير باهـداء الطرطوشى له هـذا الكتاب ، أن رتب له خمسة دنانير فى كل يوم من مال الجوالى ؛ فلم يقبـل منهـا غير دينارين كان الوزير الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمـالى قد أجراهما عليه .

وقد عدّلت القاعدة التى تجيز للبنت بمقتضى قانون الشيعة أن تستولى على جميع الثروة التى يخلفها أبواها(٣) اذا انفردت بالميراث . "وكان الداعى لحضور الطرطوشى أمر المواريث ما يأخذه أمناء الحكم من أموال الأيتـام ، وهو ربع العشر ، وتوريث البنت نصف المـال ، وكانوا يورثونهـا جميع المـال مع وجود ذوى العصبية ، كما هو مذهب آل البيت . فاعتذر المأمون (البطائحى) بأن هذه قضية لم يقل بهـا ، وأن أمير الجيوش بدرا هو الذى ابتكرها . . . . . واستمرّت المناقشة الى أن

---

(١) ذكر هذا اللفظ السمعانى فى كتاب الأنساب (ورقة ٣٧٠ أ) ، وابن خلكان (ج ١ ص ٦٠٧) . وخالفه فى ذلك ياقوت ، فذكره فى "معجم البلدان" طَرطوشه .

(٢) ذكر ابن خلكان (ج ١ ص ٦٠٦) أن هذا الكتاب ليس "سراج الملوك" ، وانما هو كتاب "سراج الهدى" .

(٣) السر فى أن الشيعة يورثون البنت كل المـال و يجعلونها حاجبة للاعمام أمران : أحدهما أن أبا بكر أخذ فدك (قرية بخيبر) من يد فاطمة ، وكان رسول الله أعطاها تلك الضيعة للارتفاق بها ، فادعت أنهـا ترث ذلك ؛ فاحتج أبو بكر بأن الأنبياء لا يورثون ، واستدل بحديث سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك . ثانيهما أن بنى العباس يدعون أيلولة ميراث رسول الله من امامة المسلمين لهم ، لأنه عم رسول الله والوارث له يوم وفاته ، لأن ابنته فاطمة لا تحرز كل المـال ، وعلىّ أنزل من العباس . فقالوا هم انها تحرز كل الميراث ، ليمنعوا بنى العباس من دعواهم . والى ذلك يشير شاعر بنى العباس بقوله :

أنَّى يكون وليس ذاك بكائن لبنى البنات وراثةُ الأعمام ؟

قال المأمون للفقيه : أنا لا أرى مخالفتك . . . . . ، وكتب توقيع شملته العلامة الآمرية والمأمونية ، وهذا نصه بعد البسملة :

(١) يخلُص لحرم ذوى الشيع الوارثات جميع موروثهم ، وهو المنهاجُ القويم لقوله تعالى (وأولوا الأرحام بعضُهم أولى ببعض فى كتاب الله ، إن الله بكل شيء عليم)[١] .

(٢) إن كل دارج من الناس على اختلاف طبقاتهم وتباين مذاهبهم واعتقاداتهم ، يحمل مايترك من موجوده على حكم مذهبه فى حياته ، والمشهور من اعتقاده الى حين وفاته . . . . . ويحمل من سواهم على مذهب مخالفيهم ، ويشترك معهم بيت مال المسلمين فى موجودهم ، ويُحمل اليه جزء من أموالهم التى أحلها الله لمن بعدهم .

(٣) إن أخذ ربع العشر من أموال الأيتام يعود الى ما كانت عليه الحال .

(٤) أن يعوّض أمناء الحكم عن ربع العشر من مال المواريث الحَشْرية .

(٥) من لا وارث له ، حاضرا أو غائبا ، فموجوده لبيت المال ، إلا ما يستحقه زَوْجٌ أو دَيْنٌ عليه .

(٦) وإن كان للمتوفى وارث غائب، فليحتفظ الحكام والمستخدمون بتركته . وإذا حضر وأثبت استحقاقه فى مجلس الحكم بالباب على الأوضاع الشرعية الخالصة من الشبه والارتياب ، فليخرج الأمر بتسليمه اليه .

(٧) يعتمد القاضى ذلك بالباب ، ويصدر الإعلام به الى سائر النواب . وبعد تلاوة هذا التوقيع بالمسجدين الجامعين[٢] ، بالمعزية القاهرة المحروسة ومدينة مصر على رءوس الأشهاد ، ترسل نسخ منه الى جميع النواب عنه فى البلاد ، وليُخلَّد فى مجلس الحكم بعد ثبوته فى ديوانى المجلس والخاص الآمرى .

لليلتين بقيتا من ذى القعدة سنة ٥١٦ هـ[٣]"

ومما هو جدير بالذكر أن تغير قانون الوراثة أوائل القرن الرابع فى حكم العباسيين قبل هذا التغيير الذى حصل فى عهد الفاطميين . وذلك أنه فى سنة ٣١١ هـ (٩٢٣ م) مات ببغداد رجل من أصحاب اليسار يدعى أبا عيسى أحمد ، ولم يخلف ولدا ، فآلت ثروته الى بيت المال بمقتضى قانون الوراثة المعمول به فى ذلك الحين[٤] .

(١) سورة ٨ آية ٧٦

(٢) جامع عمرو والجامع الأزهر .

(٣) المقفى الكبير للمقريزى ، ليدن ، مخطوط ١٦٤٧ ، المجلد الثالث ، ورقة ١٩٥ أ — ١٩٧ ب .

(٤) هلال الصابئ ، تاريخ الوزراء ص ٢٤٦

حدث ذلك فى خلافة المعتمد العباسى ٢٥٦ — ٢٧٩ هـ (٨٦٩—٨٩٢ م)، فأمر خلفه المعتضد ٢٧٩ — ٢٨٩ هـ (٨٩٢ — ٩٠٢ م) بارجاع القانون الى ما كان عليه من قبل . وظل الحال على ذلك الى عهد المكتفى ٢٨٩ — ٢٩٥ هـ (٩٠٢—٩٠٨ م)[١]، فصدرت الأحكام فى الميراث على حسب التعديل الذى أدخل على هذا القانون[٢] .

ولقد أنكر هذا التعديلَ الوزيرُ أبو الحسن علىّ بن محمد بن الفرات، وعدّه مخالفا لما جرى به قانون مذهب السنة، فحصل على موافقة الخليفة بتعديل قانون الوراثة، وصدر مرسوم مذيل بامضاء الخليفة المقتدر يقضى[٣] :

١ — بأن يُصْرَف القائمون بأعمال المواريث فى سائر النواحى ويبطل أمرهم، ويرد النظر فى أعمال المواريث الى الحكام على ما كان يجرى عليه قبل أيام المعتمد على الله .

٢ — وبأن يُرَدَّ على ذوى الأرحام ما أوجب الله عز وجل، ورسوله صلى الله عليه وسلم، وعمر بن الخطاب وعلىّ بن أبى طالب، ومن اتبعهم من أئمة الهدى .

٣ — وبأن ترد تركة من مات من أهل الذمة ولم يخلف وارثا على أهل ملته .

٤ — وأن يعمل على اذاعة ما أمر، وإظهاره وقراءته على الناس فى المسجدين الجامعين بمدينة السلام (بغداد)، ليكون مشهورا متعارفا، والخبر به الى الأدانى والأقاصى واصلا[٤] .

ولنشرع الآن فى الكلام عن حالة غير المسلمين من المصريين فى عهد الفاطميين .

كان الأقباط عادة أعرف من مواطنيهم المسلمين بالأعمال الكتابية والحسابية والتحرير فى ديوان الخليفة، وكانوا هم وبعض النصارى الملكيين يستخدمون فى كافة فروع الادارة، وتدرجوا فى المناصب حتى أُسندت إليهم الوزارة .

---

(١) هلال الصابئ ص ٢٤٧ — ٢٤٨

(٢) شرحه ص ٢٤٨

(٣) شرحه ص ٢٤٨

(٤) شرحه ص ٢٤٨ — ٢٥٣

ولقد حازت هذه السياسة القبول من الوجهة العملية . إلا أنه قد دبت الكراهة لهم فى النفوس عند ما أصبح منهم كل جباة الضرائب والقائمون على أموال الدولة .

ويقول أوليرى (O'Leary) : "ان النظام الأدارى للشئون المالية فى الشرق قد أمد القبط واليهود بفرصة أظهروا فيها ما انطوت عليه نفوسهم من الظلم والخيانة ، تلك العواطف التى لم يستطيعوا كبح جماحها ؛ حتى لقد قام الدليل على صحة ما رُموا به من التهم الكثيرة . على ان استخدام النصارى واليهود فى المناصب المدنية هو عُرف شائع قليلا أو كثيرا فى البلاد الاسلامية ، فقد بالغ الفاطميون أنفسهم فى استعماله أكثر مما جرت به العادة من قبل"[1] .

والآن نبحث فى سياسة الفاطميين مع المصريين . ويمكن تقسيم هذا الموضوع الى ثلاثة أقسام من حيث العلاقة التى كانت بينهم وبين : (١) أهل الذمة — وهم النصارى واليهود (٢) أهل السنة (٣) السكان عامة .

---

(1) O' Leary De Lacy, p. 114

الباب السادس

سياسة الفاطميين للمصريين

١ – سياسة الفاطميين للنصارى واليهود

سنبين فى هذا الباب كيف كانت أعمال الفاطميين السياسية والدينية موجهة الى غاية واحدة ، هى العمل بكل جد لحمل الناس على اعتناق مذهبهم وجعل المذهب الفاطمى سائدا فى كافة أنحاء الديار المصرية وغيرها من البلاد التى كانت تحت حكمها .

لقد كان العزيز يعطف على النصارى واليهود كما كان أبوه قبله . ولكن العزيز كان أكثر عطفا على النصارى لما كان بينه و بينهم من صلة النسب ؛ فانه تزوج بنصرانية وعمل على تعيين أخويها بطريرقين ملكيين – أعنى بطريرقين للكنيسة التابعة للكنيسة الاغريقية الأرثوذكسية المخالفة لكنيسة اليعاقبة – وجعل أحدهما فى الاسكندرية ، والآخر فى بيت المقدس[١] .

ولقد توالى عطف الخليفة على الكنيسة القبطية ، كما توالى أيضا على جماعة الملكيين التى كانت تتبعها زوجته ، وسمح للبطريرق القبطى إفراهام باعادة كنيسة أبى سَيْفَيْن المخربة بظاهر الفسطاط[٢] .

ورفع العزيز عيسى بن نَسْطُورس الى كرسى الوزارة ، كما عين مِنَشَّا اليهودى واليا على الشام . فأظهر ابن نسطورس ومنشا محاباة جلية لبنى ملتهم ؛ فعينوهم فى مناصب الدولة بعد أن أقصوا المسلمين عنها[٣] ؛ ومن ثم عاد شعور الكراهة نحو أبناء الطائفتين اليهود والنصارى . ولقد تجلى

---

(١) يحيى بن سعيد ص ١٤٤ – ١٤٥

(٢) أبو صالح ص ٤٥ و٤٦

(٣) أبو شجاع ص ١٨٦ Mann : The Jews in Egypt, etc., pp. 19, 20

ذلك الشعور ، فقدّم المسلمون الاحتجاجات على تلك المحاباة التى أظهرها الخليفة لغير المسلمين .
وبلغ من حال هؤلاء الساخطين أن كتب أحدهم شكاية وأعطاها امرأة [١] ، ورغبها بالمال لتقف فى سبيل الخليفة العزيز[٢] وتقدمها اليه ، وفيها : " بالذى أعزّ النصارى بعيسى ابن نسطورس ، واليهود بمنشا بن ابراهيم القزّار ، وأذل المسلمين بك ، إلّا نظرتَ فى أمرى " ؟

ويقول أبو شجاع إن العزيز أمر بالبحث عن هذه المرأة ، فلم يعثروا عليها . فأمر فى الحال بالقبض على ابن نسطورس[٣] وسائر الكتّاب من النصارى ، وكتب إلى الشام بالقبض على منشا وغيره من الموظفين اليهود ؛ وأمر برد الدواوين والأعمال إلى الكتّاب المسلمين ، وعين القضاة للإشراف على أعمالهم فى جميع أنحاء الامبراطورية الفاطمية . ولكن الأميرة ست الملك ابنة الخليفة شفعت له ، فرد العزيز الوزارة إلى ابن نسطورس ثانيا ، وشرط عليه استخدام المسلمين فى دواوين الحكومة[٤] .

---

(١) روى أبو الفدا (ج ٢ ص ١٣٨) وابن اياس (ج ١ ص ٤٧ و ٤٨) عن المسبحى ، أن هذه المرأة التى اعترضت العزيز لم تكن امرأة حقيقية ، وانما هى صورة مصنوعة من الورق على هيئة امرأة . ويقول ابن اياس إن الصورة كانت عبارة عن مبخرة حديدية فى زى امرأة ، ويدها ممتدة بالشكوى ؛ وهذا يخالف ما ذكره أبو شجاع وغيره من الكتّاب الذين عاشوا قبله كابن القلانسى (ص ٣٣) ، بل وغيره من المؤرخين الذين جاءوا بعده كالسيوطى (ج ٢ ص ١٧) .

(٢) ذكر أوليرى (ص ١٤٣) أن هذه الحادثة كانت فى خلافة الحاكم ؛ وربما كان ذلك لأن أبا الفدا ، الذى روى أوليرى عنه هذه الحكاية ، قد ذكرها عند كلامه على سنة ٣٨٦ هـ ، وهى السنة التى توفى فيها العزيز وتولى الحاكم . ويظهر لنا أن رواية أبى الفدا لا تعتمد على مرجع صحيح ؛ لأن هذه الحادثة وقعت فى سنة ٣٨٠ هـ (انظر " أبو شجاع " ص ١٨٦ وابن القلانسى ص ٣٣) .

(٣) ذكر ابن زولاق (المكتبة الأهلية بباريس ، مخطوط ١٨١٧ ، ورقة ٥٠ أ) أن العزيز " أرسل من وقته وساعته وصلب النصرانى على باب القصر ، وأرسل لليهودى بدمشق ، وصلبه على باب المدينة " . ولكن ابن زولاق لم يبين لنا ان كانت هذه المدينة هى القاهرة أو دمشق . على أنه يظهر من كلام ابن زولاق أن الصلب كان على باب القاهرة ؛ لأن قوله " أرسل لليهودى بدمشق " (رسولا يحضره) تقرب الى الذهن أن الصلب كان على باب مدينة القاهرة ، وأن صلب ابن نسطورس لا يقتضى موته ، لأنه عاش بعد ذلك ما يقرب من سبع سنين . وموته مع ابن زولاق فى سنة واحدة ، وهو عمدتنا فى هذه المسألة ، مما يجعل هذه الرواية أقرب الى الصحة من غيرها ؛ فان رواية ابن إياس (ج ١ ص ٤٩) التى نقلها عن المسبحى بأن ابن نسطورس ومنشا شنقا ، وأن الأول شنق على باب القصر والثانى على أحد أبواب دمشق ، بعيدة عن الصحة ؛ لأن ابن نسطورس عاش بعد ذلك عدة سنوات .

(٤) أبو شجاع ص ١٨٧

غير أن رد ابن نسطورس إلى الوزارة لم يحز رضى المسلمين ، بل زاد فى كراهتهم ؛ فسرعان ما انفجر بركان هذه الكراهة عند ما ارتقى الحاكم عرش الخلافة . فتقدم الكتاميون — وهم عصب الخلافة الفاطمية وقوتها فى مصر — إلى الخليفة الجديد ، طالبين عزل ابن نسطورس وتولية زعيمهم أبى محمد الحسن بن عمّار ، وهددوا هذا الخليفة بالامتناع عن تقديم فروض الطاعة والولاء ، بل وبالقتل إذا لم يصغ إلى شكواهم ويعمل على تحقيق رغباتهم[١] . فلم ير الحاكم بدا من إجابتهم . وفى ٣ شوّال سنة ٣٨٦ تقلد ابن عمار أزمّة الأمور ، وتلقب بأمين الدولة[٢] . وكان الحاكم فى غضون الأربع السنوات الأولى من خلافته (٣٨٦ — ٣٩٠) صغيرا لا يستطيع القيام بمهام الدولة ، فانه ارتقى عرش الخلافة فى الحادية عشرة من عمره ؛ وعهد بالوزارة — التى كان يطلق عليها "الوساطة" فى ذلك الوقت — إلى ابن عمار (٣ شوّال سنة ٣٨٦ — ٢٧ شعبان سنة ٣٨٧) ، ومن بعده إلى برجوان[٣] (٢٧ شعبان سنة ٣٨٧ — ٢٦ ربيع الثانى سنة ٣٩٠) أستاذ الحاكم ومستشاره[٤] .

ولقد ظهر سوء إدارة ابن عمار فى كثير من الأعمال بما أتاه فى عهد تقلده الوساطة . إذ بالغ فى محاباة الكتاميين وأبطل أعطيات الأتراك[٥] ، واعتمد على معونة أحداث المغاربة الذين أتوا من الأعمال ما أثار عليهم الأتراك وأدى إلى التطاحن بين الفريقين . وكان برجوان ينافس

---

(١) ابن القلانسى ص ٤٤ و ٤٥ .

(٢) أبو شجاع ص ٢٢٢

(٣) انظر ترجمة برجوان فى ابن خلكان (ج ١ ص ١١٠) . وقد أطلق عليه أبو شجاع وابن الأثير (ج ٩ ص ٤٢) أرجوان . وذكر هذا اللفظ الأستاذ مرجوليوث فى ترجمته لكتاب "تجارب الأمم" لمسكويه ، المذيل بتاريخ أبى شجاع . ويستعمل هذا اللفظ فى أغلب كتب تاريخ الأدب باسم برجوان ، ولا يزال باقيا الى اليوم فى الحارة المسماة بحارة برجوان فى القاهرة بجهة الخرنفش . ويطلق عليه أبو شجاع بتليس . ونقل ناشر الأصل العربى لتاريخ أبى شجاع هذا اللفظ عن ابن القلانسى (ص ٤٤) .

انظر يحيى بن سعيد (ص ١٨٤) وابن القلانسى (ص ٤٤) وابن منجب (ص ٢٧) وابن ميسر (ص ٥٣) وابن خلكان (ج ١ ص ١١٠) والمقريزى (خطط ج ٢ ص ٢٨٧) .

(٤) ابن منجب ص ٢٧

(٥) هذه الحقيقة قد أدلى بها ابن منجب (ص ٢٧) .

ابن عمار ويناوئه العداء ، مع تعضيد الأتراك له ؛ فكان من أثر هـذا التطاحن أن هرب ابن عمار إلى الصحراء[١] وحل محله برجوان[٢] .

وبالرغم مما أظهره الكتاميون من الكراهة الشـديدة للنصارى واليهود ، فان الحاكم قد قلد ابن نسطورس ديوان الخاصـة . ويغلب على الظن أن ذلك كان بسعى برجوان ونفوذ ست الملك أخت الخليفـة التي كانت السبب فى حفظ حيـاته وإرجاعه الى مركز الوساطة . ويحـدثنـا ابن ميسر[٣] أن ابن نسطورس قتل فى المحرم من سـنة ٣٨٧[٤] ، أى بعـد تقلده هـذه الوظيفة الجديدة بعدة أشهر .

والعبارة التي أوردها لنا أبو شجاع[٥] عن قتل ابن نسطورس تشوبهـا شائبة الغموض . فانه قد ذكر أن ابن عمـار قتله (ابن نسـطورس) وهو فى الوزارة . وفى ذلك يقول : "وكان عيسى ابن نسطورس على حاله فى الوزارة ، فبلغه عنه ما أنكره فضرب عنقه"[٦]

ولعل هـذا الغموض الذى يبـدو فى عبارة أبى شجاع يرجع الى جهله بالتاريخ الذى تقلد فيه ابن عمـار مقاليد الوساطة (الوزارة) ؛ ويؤيد ذلك أنه لم يذكر لنا شيئا عن هـذا التقليد . ولكن ما ذكره أبو شجاع من زعامة ابن عمار للكتاميين وتلقيبه بأمين الدولة ، يجعلنا نميـل الى القول بأنه تقلد الوزارة قبل قتل ابن نسطورس .

يضـاف الى ذلك ما قاله يحيى بن سعيد من أن ابن نسـطورس لم يكن حين وفاته فى دست الوزارة حيث يقـول : " وكان عيسى بن نسطورس قد رسم أيام نظره رسوما جائرة ، وأحدث مكوسا زائدة . . . . فحـذف ابن عمـار جميع ذلك وردّ الأمور الى ما كانت عليـه ، وقبض على ابن نسطورس واعتقله ثم قتله "[٧] .

---

(١) ذكر ابن منجب (ص ٢٧) أن ابن عمـار قدم استقالته الى الخليفة الذى بادر الى قبولها وعين برجوان فى محـله . ولكن فراره الى الصحراء مع جماعة من أعوانه وبقـاءه مختفيا مـدة من الزمن الى أن أمنـه برجوان ، يقرب الى الذهن أنه لم يستقل (انظر أبا شجاع ص ٢٢٦) . وقال يحيى بن سعيد (ص ١٨١) إنه بقى مختفيا فى داره فى القاهرة ؛ وخالفـه ابن القلانسى فى ذلك فقال ان ابن عمار اختفى فى بيت رجل من العامة ؛ وهذا أرجح فى نظرنا .

(٢) ابن القلانسى ص ٤٤

(٣) ص ٥١ و ٥٤

(٤) يقول المقريزى (خطط ج ٢ ص ٢٨٧) إن وفاة ابن نسطورس كانت فى سنة ٤٠٣ ، وهو خطأ واضح .

(٥) يظهر أن ابن القلانسى (ص ٣٣) قد نقل هذه العبارة .

(٦) ص ٢٢٣

(٧) ص ١٨٠

ومع ذلك فان ما أورده يحيى بن سعيد يناقض ما ذكره ابن ميسر[١] ، من أن ابن نسطورس تقلد ديوان الخاصة للخليفة الى أن قتل بعد شهور قلائل .

وإنا نميل الى صحة عبارة ابن منجب ونراها أرجح من رواية يحيى بن سعيد ، ولو أن وفاته (٥٤٢ هـ) كانت بعد وفاة يحيى بن سعيد (٤٥٨ هـ) بما يقرب من ثمانين سنة . فانه فضلا عن كونه مصرىّ المولد والدار ، فقد تقلد أيضا ديوان الرسائل ؛ فيحتمل أن يكون قد حصل على هذه الأخبار من وثائق رسمية . واذاً فأنا أرجح أن ابن نسطورس قد نقل الى ديوان الخاصة للخليفة عند صرفه من الوزارة ، أو بعد ذلك بقليل ، وأنه قد اتهم بالعبث بأموال الدولة ، فأعطى بذلك خصمه زعيم الكتاميين سلاحا للتخلص منه بقتله .

ولقد ظل الخليفة الحاكم تحت إشراف برجوان الى اليوم السادس والعشرين من شهر ربيع الثانى سنة ٣٩٠ ، وهو اليوم الذى قتل فيه برجوان[٢] . وفى الشطر الأول من خلافة الحاكم (٣٩٠ — ٣٩٥ هـ) ، حين أصبح عقله مختلا وسياسته مضطربة ، أظهر تعصبا شديدا للمذهب الفاطمى . وفى الشطر الثانى من خلافته (٣٩٦ — ٤٠١ هـ) ، اضطر أن يغير سياسة التعصب المذهبى ، لما كان من اضطراب حبل الأمور فى داخل البلاد ، بسبب ما نزل بها من المجاعة والضنك وتهديد الأعداء بالإغارة على حدودها الغربية ؛ فكان لا بد له من القضاء على الثورة الداخلية وصد هؤلاء الأعداء المهاجمين .

ففى سنة ٣٩٣ هـ نشط فى عمارة المساجد وفى إغداق الإحسان على المساجد . "واهتم مع ذلك بتشجيع مبادئ المذهب الفاطمى ، وقسا على اليهود والنصارى فى المعاملة ، مسوقا بضغط الرأى العام الذى لا يُشك فى أنه قد هاجه ما رآه من الخلفاء الفاطميين من محاباة غير المسلمين"[٣] .

كان من أثر هذه السياسة التى جرى عليها الحاكم أن قتل فهد بن ابراهيم فى الثامن من جمادى الأولى سنة ٣٩٣ . وقد بينا قبل أن برجوان تقلد الوساطة فى السابع والعشرين من

---

(١) ص ٥٤

(٢) ذكر هذا التاريخ ابن منجب (ص ٢٧) . وقال أبو شجاع (ص ٢٣٠ و ٢٣١) بعد أن أدلى بالأسباب التى أفضت الى قتل برجوان ، إن وفاته كانت فى سنة ٣٨١ ، أى قبل ولاية الحاكم الخلافة بخمس سنين . وذكر ابن القلانسى (ص ٥٥) أن الخطوات التى اتخذت لقتل برجوان بدأت فى سنة ٣٨٩ . واتفق الذهبى مع ابن منجب (شرحه ، حاشية ١) ، فذكر كل منهما أن وفاة برجوان كانت سنة ٣٩٠ هـ .

(٣) O'Leary, 143.

رمضان سنة ٣٨٧ هـ ، وجعل فهدا كاتبا له ، وتلقب بالرئيس ، وعهد اليه بفض الشكايات والاشراف على غلمان القصر ، ومعاونة برجوان فى ادارة شئون الدولة والنيابة عنه اذا غاب . فلما مات برجوان وحل محله الحسين بن جوهر ، كان فهد معه كما كان مع سلفه ، وبقى كذلك الى أن قتل فى أيامه[1] .

ولقد كان لتعصب الجمهور وتعصب الكتاميين بوجه خاص ، وروح التبرم التى أثارت عليه حفيظة رجال الدولة ، وشعور الكراهة التى سادت النفوس ضد النصارى تأثير كبير فى قتل فهد بن ابراهيم .

ففى جمادى الثانية من سنة ٣٩٣ هـ أشار ابن العداس — وكان من وزراء العزيز الفاطمى — على أبى طاهر النحوى الذى كان يعرف بالكاتب ، وكان يتولى ديوان الشام[2] ، أن يخبر الخليفة بما تشكوه العامة من النصارى ومناصرة فهد لهم وتفويضه اليهم الأموال والدواوين[3] ، وأن يضيف الى ذلك أن فهدا "آفة على المسلمين وعدة للنصارى" .

وقد أجاب أبو طاهر الى ذلك . ولقى الحاكم عشية ذلك اليوم وكرر ما كان قد سمعه من ابن العداس ثم قال : "يا مولانا ! ان كنتَ تؤثر جمع الأموال واعزاز الإسلام ، فأرنى رأس فهد بن ابراهيم فى طست ، وإلا لم يتم من هذا شىء" . فقال الحاكم : "ويحك ! ومن يقوم بهذا الأمر" ؟ فاقترح اسم ابن العداس ؛ فرضى الحاكم على كره منه ، كما يظهر ذلك من ملاحظته على كلام ابن النحوى[4] .

ثم أعلَمَ ابنُ النحوى ابن العداس بما كان من موافقة الخليفة ؛ فلم يشك هذا فى أن الحاكم سوف يثأر لقتل فهد وقال له : "ويحك ! قتلتنى وقتلتَ نفسك" .

وان هذا الرأى الذى أبداه ابن العداس ، يبين بوضوح أن الحاكم شعر بشىء من التبرم لارتكاب هذا العدوان على رعاياه من غير المسلمين . وعلى كل ، فقد خلف ابن العداس فهدا فى مركزه ؛ ولم يمض تسعة وعشرون يوما حتى قتل وأحرق (٦ شعبان سنة ٣٩٣) .

---

(١) يحيى بن سعيد (ص ١٨٥) ، وابن القلانسى (ص ٥٦)

(٢) كان أبو طاهر متقلدا ديوان الحجاز على ما ذكره ابن القلانسى (ص ٥٩) .

(٣) ابن القلانسى (ص ٥٩) .

(٤) ابن القلانسى (ص ٥٩ و ٦٠) ، والمقريزى خطط (ج ٢ ص ٣١) .

وفى الخامس عشر من رجب — أى بعد مقتل فهد بأسبوع واحد — لحق به أبو طاهر[١] . اما فـهد ، فان الحاكم أحضر أولاده على أثر مقتـله ، وخلع عليهم وكتب لهم سجلا بحمايتهم ومنع الأذى عنهم[٢] .

وكانت الخطوة الأولى التى اتخذها الحاكم لتنفيذ سياسته أن اشتد على كبار موظفيه وحملهم على الاسلام ، ليزيل بذلك الأمور التى اتهموا بها ؛ فأمر بالقبض على بعض رؤساء الكتاب من النصارى . ولكن الحاكم قد أطلق سراحهم وأُعيدوا الى مراكزهم بشفاعة أبى الفتح سهل بن مُقَشِّر النصرانى ، طبيب الخليفة الخاص الذى كان مقربا منه كما كان مقربا من أبيه العزيز[٣] .

وفى سنة ٣٩٥ هـ (١٠٠٤ — ١٠٠٥ م) أمر الحاكم النصارى واليهود بشد الزُّنَّار ولبس الغِيار[٤] . وفى سنة ٣٩٨ هـ (١٠٠٧ — ١٠٠٨ م) بدأت سياسة الحاكم العدائية إزاء النصارى واليهود ؛ فهدم بعض الكنائس ونهب البعض ، واستولى المسلمون على ما فيها من الأوانى المقـدسة والأثاث ، وبيعت الأوانى فى الأسواق[٥] .

وقال يحيى بن سـعيد[٦] إنه قد سمح للنصارى بأن يبنوا ثلاث كنائس فى مقابل الكنائس التى هدمت . وقـد يكون السبب الذى دعا الى ذلك أن موقع الكنائس التى بنى على أطلالها مسجدا الحاكم وراشدة قد اعتبر من المنافع العامة ، فهدمت لذلك لالشىء آخر .

وفى سـنة ٤٠٠ هـ تقـلد الوزارة منصور بن عَبدون النصرانى بدل صالح بن علىّ الروذَبارى[٧] (١١ صفر سـنة ٤٠٠) ، فى وقت كان الاضطهاد قائمـا على قدم وساق . ولقد أطلقت يد ابن

---

(١) ابن القلانسى (ص ٦٠ و ٦١) .

لقد تناول كل من أبى شجاع (ص ٢٢٦ و ٢٣٠ و ٢٣٢ و ٢٣٦) ويحيى بن سعيد (ص ١٨٥) الكلام على هذه المسائل بايجاز .

(٢) ابن القلانسى (ص ٦٠) .

(٣) يحيى بن سعيد (ص ١٨٥ و ١٨٦) ، والقفطى (١٧٨ و ٤٣٨) .

(٤) هو الشارة التى يعرف بها كل من الرعايا غير المسلمين التابعين للحكومة الاسلامية .

(٥) يحيى ابن سعيد ص ١٨٦ و ١٩٥

(٦) ص ١٨٦

(٧) هذا اللفظ مشتق من روذبار وهى ، على ما ذكره السمعانى (كتاب الأنساب ورقة ٢٦١ ب) ، أماكن معينة تقع فى جهات مختلفة على الأنهار الكبيرة . ويطلق هذا اللفظ كذلك على قرى كثيرة تقع على مقربة من أصبهان ، وعلى قرية قريبة من بغداد .

غبدون وأصبحت له السلطة التامة فى إدارة البلاد ، حتى إنه كان يوقع نيابة عن الخليفة . وعهد تقلد ابن عبدون الوزارة أمر جدير بالملاحظة ، لما كان من إشارته على الخليفة بوجوب هدم كنيسة القُمامة[1] فى بيت المقدس[2] .

وقد أصدر الحاكم الأوامر بمنع النصارى من الاحتفال بالنّوروز على شواطئ النيل ، وحرم الألعاب التى كانت تقام عند الاحتفال بهذا العيد[3] .

و يقول ابن زولاق إن المعز أبطل إقامة هذا الاحتفال (وربما كان ابنه العزيز هو الذى أعاده) بسبب ما كان يلازمه من المفاسد ؛ فكان ينادى بعدم الاحتفال وصلب كل من لم يطع أمره . ونحن ننقل قول ابن زولاق للقارئ : "ثم لما تولى المعز بمصر ، منع القبط من صب المياه فى يوم النوروز فى الطرقات ، ووقود النار [فى] تلك الليلة ، ومن النزول فى المراكب ، وضرب الخيام على شاطئ البحر (يعنى النيل) عند المقياس ، لأنه كانت تحصل بسبب ذلك مفاسد عظيمة ؛ فأبطل ذلك جميعه ، ونادى أن كل من يفعل ذلك يصلب "[4] .

ولقد اتسع نطاق اضطهاد النصارى الذى قام به الحاكم . وربما كان ذلك ناشئا من إسناده مركز الوزارة إلى بعض النصارى واليهود ؛ فقد كان ذلك يوغر صدور المسلمين عليهم . ولما غضب عليهم الحاكم ، اشتدت حكومته عليهم فى تنفيذ الأوامر التى تقضى بلبس الغيار .

ففى المحرم سنة ٤٠١ أقيل ابن عبدون من الوزارة بعد أن تقلدها أحد عشر شهرا ، وتربع فى دستها رجل من المسلمين ، هو أحمد بن محمد القُشَيْرى[5] . ولكن هذا عزل بعد عشرة أيام[6] ،

(١) إطلاق لفظ القمامة على الكنيسة المعروفة فى القدس ، لأن موضعها كان قد اتخذه اليهود مزبلة ، حتى جاءت هيلانة أم قسطنطين وسألت عن المكان الذى يزعمون أن المسيح صلب وغسل ودفن فيه ، فدلت على القمامة . فأزالت منه القمامات و بنت فى موضعها الكنيسة . ويطلق هذا اللفظ أحيانا على الكنيسة بغير أداة التعريف .

(٢) يحيى بن سعيد ص ١٩٤ ، ابن القلانسى ص ٦١ و ٦٧

(٣) يحيى بن سعيد ص ١٩٦

(٤) المكتبة الأهلية بباريس ، مخطوط ١٨١٧ ، ورقة ٤٨ أ . ذكر ابن ميسر (ص ٤٦) وابن إياس عن المسبحى (جزء ١ ص ٤٦) أن المعز أصدر الأوامر بمنع إيقاد النيران فى الليلة التى قبل يوم النوروز ، ومنع صب الماء فى هذا اليوم .

(٥) قد أورده يحيى بن سعيد (ص ١٩٨) القَسورى . ويحتمل أن يكون هذا اللفظ محرفا عن لفظ القَصيرى (انظر كتاب الأنساب للسمعانى ، ورقة ٤٥٥ ب) . وذكره ابن منجب (ص ٢٨) قشورى ، وصحته كما ذكره السمعانى (كتاب الأنساب ، ورقة ٤٥٣ أ وما يتبعها) قُشَيْرى ، منسوب الى بنى قشير وهى قبيلة كانت تقيم فى البصرة ، ينتسب اليها المحدث المشهور مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيرى النيسابورى صاحب الصحيح .

(٦) أو تسعة أيام على ما ذكره يحيى بن سعيد ص ١٩٨

ثم قتل وحل محله فى الوزارة زُرعة أخو عيسى بن نسطورس ، وتلقب بالشافى ، وظل يطلق عليه هذا اللقب الى حين وفاته فى صفر سنة ٤٠٣[١] .

وفى ذلك الوقت بدأت سياسة الحاكم تظهر بمظهر أكثر تقلبا وتذبذبا ، وأصبح عقله أكثر ارتباكا واضطرابا . أما سياسته مع غير المسلمين ، وخاصة النصارى ، فقد كانت تابعة لرأى جمهور الأمة . ولم يكن استياؤهم راجعا لنحلتهم الدينية فحسب ، بل ولأنهم كانوا يشتغلون بجمع الضرائب .

وفى سنتى ٤٠٠ و ٤٠١ ﻫ لم يقتصر الاضطهاد على غير المسلمين ، بل تعداهم الى بعض ذوى المناصب العالية من الفاطميين ، ثم انتهى بشموله جميع السكان على اختلاف طبقاتهم . فهرب من البلاد الحسين بن جوهر وأولاده ، وعبد العزيز بن النعمان قاضى القضاة سابقا ، وأبو القاسم الحسين المغربى[٢] ، من الوزراء السابقين ، وقتل كثير من كتّاب " البلاط " والدواوين وخدام القصر . وفى شوّال سنة ٤٠٠ قتل صالح بن علىّ الروذبارى الذى كان قد أقيل وحل محله ابن عبدون . وقتل أيضا أحمد بن محمد القُشَيرى (١٤ المحرم سنة ٤٠١) ، ولحق به بعد قليل ابن عبدون وصودرت أملاكه . كذلك قتل الحسين بن جوهر والحسين بن النعمان وصودرت أموالهما ، بعد أن أخذا من الحاكم أمانا عادا على إثره الى القاهرة[٣] .

وفى سنة ٤٠٢ ﻫ صدرت قوانين ضد النصارى واليهود أكثر صرامة من القوانين التى سبقتها . فقد أمرهم الحاكم بلبس الطيالس وبوضع صلبان على أعناقهم ، طول كل صليب منها قدم وزنته خمسة أرطال (أى ما يقرب من عشرة أرطال الآن) ، وأمر اليهود بحمل قَرامى الخشب فى رقابهم ، زنة كل منها زنة صليب النصارى ، وألا يركبوا الدواب المحلاة السروج ، وأن تكون ركابهم من خشب ، وألا يستخدموا أحدا من المسلمين ، وألا يركبوا حمارا لمكارٍ مسلم ، ولا سفينة ربانها مسلم ، وأن تكون الصلبان فى أعناق النصارى اذا دخلوا الحمامات العامة ،

---

(١) يحيى بن سعيد (ص ١٩٨ و ١٩٩) .

وقد وافانا ابن منجب (ص ٢٨) بتاريخ وفاته .

(٢) قتل ابنه محمد بعد مقتل ابن النعمان والحسين بن جوهر (أبو شجاع ص ٢٣٣) .

(٣) ابن القلانسى (ص ٦١) .

والجلاجل فى أعناق اليهود ليتميزوا بذلك عن المسلمين[١] . ثم افرد فى سنة ٤٠٨ حمامات اليهود[٢] وحمامات النصارى عن حمامات المسلمين ، وميز حمامات النصارى بوضع الصلبان فوقها ، وميز حمامات اليهود بالقرامى[٣] .

ومن الصعب علينا أن نحدد الوقت الذى انتهى فيه الاضطهاد تحديدا تماما . ولكنا نظن — كما يظن دى ساسى — أن وطأته أخذت تخف حول سنة ٤٠٠ [٤] . وزادنا دى ساسى أنه حول سنة ٤٠٤ اجتمع النصارى واليهود وقابلوا الحاكم ، كما يعلم ذلك من كتب الدروز .

و بينما كان الحاكم يسير يوما فى مقبرة قباب الطير ، اذ قابله جماعة من ممثلى الطائفتين ، وكانوا فى انتظاره ، واستأذنوه فى الكلام والتعبير عما خالج نفوسهم من أحزان وآلام . فأذن لهم وأمّنهم ، وأعطاهم الحرية فى القول ؛ فتكلموا وقالوا له إن سلوكه معهم يغاير ما كان عليه النبى صلى الله عليه وسلم والخلفاء من بعده ، وسألوه كيف يبرر هـذه السياسة التى تناقض العهد والميثاق الذى أعطى لهم . فأمرهم بالانصراف والحضور لمقابلته فى نفس المكان من الليلة التالية مع علمائهم ، وأكدلهم أنه لا ينالهم منه ضرر اذا ما تكلموا عما بأنفسهم .

وفى الليلة التالية ، أخبرهم الحاكم بأن هذا السلوك الذى كان فى عهد النبى ، كان القصد منه الترغيب فى الدخول فى الدين الاسلامى ؛ ولكنه لم يؤت ثمرته المنتظرة . والآن وقد مضى على الاسلام أربعة قرون ، وكان فى مكنتهم الدخول فيه ، لأنه فى متناول كل انسان ، وكانت مبادئه تحت أنظار الجميع ، وفى قدرتهم أن يفحصوها ويمحصوها ، "فليس لكم الآن عندى الا اختيار واحدة من اثنتين : اما اعتناق الاسلام بعد كل هـذا التأخير ، واما العقوبة العاجلة اذا أبيتم الدخول فيه" . فلم يجسر المندوبون على الاحتجاج على ما فاه به الخليفة وانصرفوا من حضرته[٥] .

---

(١) يحيى بن سعيد (ص ١٨٧) .

(٢) يظهر من كلام ابن زولاق (ورقة ١٥١ أ) وابن إياس (ج ١ ص ٥٠) أن تخصيص حارة زويلة لليهود كان فى ذلك الوقت .

(٣) ابن خلكان (ج ٢ ص ١٦٦)

(٤) Vie de Khalife Hakem-Biamr—Allah, Vol. I, P. 376.

(٥) شرحه (ج ١ ص ٣٧٦) وما يتبعها .

ويحدثنا يحيى بن سعيد[١] أن الحاكم أجاز لليهود والنصارى الذين لم يدخلوا فى الاسلام ولم يخضعوا لقوانينه بالهجرة الى بلاد الأغريق[٢] . فهاجر كثير منهم الى بلاد الدولة الرومانية الشرقية ، والى بلاد النوبة والحبشة ؛ ومن بقى منهم دخل فى الاسلام[٣] .

كانت سياسة الحاكم مضطربة لا تستقر على حال . ففى سنة ٤١١ ﻫ تأثر بتعاليم الدَّرَزى الذى كان ينادى بأن روح الاله حلت فى الحاكم[٤] ؛ وكذلك تأثر بتعاليم الأخرم الذى نادى بكل جسارة فى المسجد العتيق وبحضرة قاضى القضاة ، "باسم الحاكم الرحمن الرحيم !" ؛ وبذلك أعطاه الصفات التى هى من صفات الله سبحانه . كما أنه تأثر بتعاليم حمزة الذى كان أصحابه يركعون[٥] عندما يرون الحاكم فى الشوارع ويصيحون قائلين له : "أنت الواحد الأحد والمحيي المميت" . وبذلك انصرفت الحكومة الفاطمية عن تأييد المذهب الفاطمى الى تأييد هذه العقائد الجديدة .

انتهى فى ذلك الوقت اضطهاد النصارى واليهود تماما ؛ وزاد اختلال عقل الحاكم ، فاعتقد أنه الشخص الأعلى والمخلوق الأعظم ، وأن الاسلام ليس بأرقى من الأديان الأخرى . وهذا التغير الفجائى فى سياسة الحاكم كان فى غضون المدة من سنة ٤٠٨ الى ٤١١ ﻫ . ولا شك فى أن هذا الانقلاب كان راجعا الى التعاليم الاسماعيلية التى تلقاها فى أرقى درجاتها من الغلو .

ففى سنة ٤١١ ﻫ (نوفمبر — ديسمبر سنة ١٠٢٠) رجع جماعة ممن اعتنقوا الاسلام خوفا الى دينهم القديم[٦] . وفيها أمر الحاكم باعادة بناء الكنائس التى كان قد هدمها ، وأعاد اليها

---

(١) (ص ٢٠٧)

(٢) ذكر المقريزى (خطط ج ٢ ص ٢٨٨) أن كافة النصارى واليهود أمروا بالهجرة الى بلاد الاغريق . ويظهر أن دى ساسى (Vie de Khalife Hakem, etc. Vol. I. p. 376) أخذ عبارته عن يحيى بن سعيد (ص ٢٠٧) .

(٣) المقريزى (خطط ج ٢ ص ٢٨٨) .

(٤) يحيي بن سعيد (ص ٢٢٠ و ٢٢١) .

(٥) ذكر أبو المحاسن (ج ٢ رقم ١ ص ٩٧) أن عادة الركوع كانت شائعة منذ سنة ٣٩٦ ﻫ ، حين أقيمت الخطبة للحاكم ، لا فى مصر وحدها ، بل وفى المدينتين المقدستين مكة والمدينة ، وسائر الولايات الفاطمية .

(٦) يقول ابن زولاق (المكتبة الأهلية بباريس ، مخطوط ١٨١٧ ، ورقة ٥١ ب ، وابن إياس ج ١ ص ٥١) أنه قد ارتد أكثر من سبعة آلاف يهودى الى دينهم القديم فى يوم واحد .

أملاكها . وكان من أثر هذا التغير الجديد فى سياسة الحاكم إزاء النصارى واليهود أن عاد الى مصر كثير ممن كانوا قد هاجروا الى البلاد الأجنبية — وذلك فى سنة ٤١١ ﻫ ، وهى السنة التى انتهى فيها الاضطهاد[١] .

هكذا كان مسلك الحاكم طوال حياته فى منتهى الغرابة . وبعد وفاته ، أو بعبارة أدق بعد انتهاء اضطهاده الذى دام تسع سنين (٣٩٨ — ٤٠٧ ﻫ) ، تمتع النصارى واليهود بحريتهم الدينية فى عهد الخلفاء من بعده ؛ وأخذ الشعور العدائى الذى كان فى نفوس المسلمين نحو مخالفيهم فى الدين يقل ويضعف . وما كان يظهر له أثر الا فى فترات قصيرة ، وبخاصة عند مايتقلد نصرانى أو يهودى منصبا من مناصب الدولة ، ولا سيما الوزارة ؛ فان انتقالها الى يد رجل من غير المسلمين يترتب عليه تقوية نفوذهم واستئثارهم بكثير من هذه المناصب .

وقد أمدنا ابن ميسر بأمثلة كثيرة من هذا النوع ، حيث يصف لنا وفاة أبى سعيد التُّسْتَرى اليهودى عند كلامه عن سنة ٤٣٩ ﻫ (١٠٤٧ م) . وقال إن أم الخليفة المستنصر كانت من قِبَل أَمَة فى بيت التسترى ، وأنه أهداها إلى الخليفة الظاهر . وبعد وفاة الظاهر ارتفع قدر التسترى وتقرب من الخليفة المستنصر ، وإن كان لم يستطع أن يناوئ سلطة الوزير أبى القاسم الجَرْجَرَائى[٢] .

ولكن بعد وفاة الجَرْجَرَائى عظمت سلطة التسترى ، لأنه تولى نظارة الخاصة لأم الخليفة المستنصر ، وقبض على أزمة الأمور فى عهد الوزير أبى منصور صَدَقَة بن يوسف الفلّاحى[٣] . فحقد عليه الوزير ، لأنه لم يكن له من الوزارة معه إلا الاسم فقط[٤] .

أما الأسباب التى أدت إلى قتل التسترى فقد وافانا بها ابن ميسر ، فذكر أن بنى قُرَّة من سكان البحيرة قاموا بثورة عظيمة اشتد وقعها على الدولة . فأنفذ المستنصر اليهم عزيز الدولة

---

(١) يحيى بن سعيد (ص ٢٣١ و ٢٣٢) .

(٢) ذكر ابن منجب (ص ٣٦) أن الجرجرائى تقلد الوزارة فى ذى الحجة من سنة ٤١٨ ؛ وأتى لنا ابن القلانسى (ص ٨٠ — ٨٤) بنص سجل تقليده الوزارة التى بقى فيها إلى حين وفاته فى ٦ رمضان سنة ٤٣٦

(٣) أطلق عليه ابن القلانسى (ص ٨٤) أبا نصر صدقة بن يوسف .

(٤) ابن منجب ص ٧٦ و ٧٧ ، وابن ميسر ص ١ و ٢

ريحان على رأس قوة كبيرة لقمعها . وكانت نتيجة انتصاره عليهم أن نال الحظوة عند الخليفة ، وشمله بعطفه ورعايته ، وقربه إليه ؛ واجتذب ريحان المغاربة إليه بزيادته فى أعطياتهم وتقليله من أعطيات الأتراك واشتداده عليهم . فكان من أثر هذه السياسة أن وقع الخصام والتطاحن بين الفريقين . ومات ريحان فى ذلك الوقت من مرض ألمّ به على حين غفلة ؛ فانتهز الوزير الفلاحى هذه الفرصة ونال من خصمه التسترى القديم الذى كان يحقد عليه لاستئثاره بالسلطة دونه ، وعزا موت ريحان إلى أنه سقاه سما ونشر ذلك بين الجنود .

وفى ٣ جمادى الأولى من سنة ٤٣٩ (١٠٤٧ م) ، بينما كان التسترى فى طريقه الى القصر ، انقض عليه ثلاثة من الأتراك وقتلوه . ثم مثل الأتراك بجثته ، فقطعوها إربا إربا ، وأحرقوا بعضها ، ثم دفنوه فى التراب ؛ وما بقى من جثته أخذه أهله ووضعوه فى نعش وأحاطوه بالشموع الموقدة ، وتركوه فى مكان منعزل ؛ فامتدت النار إلى النعش فأحرقته بما فيه[1] .

وبعد مقتل التسترى أسند الخليفة المستنصر ديوان خاصته إلى أخيه أبى نصر ، وقلد ابنه إدارة أحد الدواوين الحكومية . ولكن قتل التسترى قد آلم أم الخليفة ، ولم يكن بالحادث الذى تتناساه . ولا غرو فقد أثار حفيظتها على الفلاحى ، فأقيل وحبس ، ثم قتل فى المحرم سنة ٤٤٠[2] .

والحقيقة أن شعور المسلمين العدائى نحو التسترى وأهل ملته كان من الشدة بحيث أعطى الفلاحى فرصة للايقاع به . ويحدثنا ابن ميسر أن التسترى كان مكروها لدى المسلمين ، وأن أبناء دينه الذين كانوا بعيدين عن مناصب الحكم بدءوا يشغلون فى عهده كثيرا من مناصب الدولة ويضطهدون المسلمين إلى درجة أن شاعرا من الشعراء المعاصرين يسمى الرّضى[3] كتب هذه الأبيات :

يهود هذا الزمانِ قد بلغوا ... غايةَ آمالهم وقد ملكوا

العزُّ فيهم والمالُ عندهُمُ ... ومنهم المستشارُ والملكُ

---

(١) انظر ابن ميسر (ص ٢)

(٢) ابن منجب (ص ٣٧ و ٣٨) ، وابن ميسر (ص ٢)

(٣) يحتمل أنه الرضى بن البواب . وقد ورد فى تاريخ ابن ميسر لفظة "البواب" من غير نقط ، الأمر الذى يحقق صحتها . والمخطوط الموجود بالمكتبة الأهلية بباريس لا يحل هذه الصعوبة ، فأن ناشر هذا الكتاب لم يستطع أن يبين صحة هذا اللفظ .

يا أهلَ مصر إنى قد نصحتُ لكم   تهوَّدوا ، قـــد تهوَّدَ الفلك(١)

(١) السيوطى (ج ٢ ص ١١٦)

وقد نقل هذه الأبيات الأستاذ إ . ج . براون في كتابه "الأدب الفارسى فى عهد التتار" ١٢٦٥ — ١٥٠٢ م — ص ٣٢ ، (Persian Literature under Tartar Dominion, 1265–1502 A.D., p 32) عن كتاب "تاريخى وصّاف" (ألفه عبد الله بن فضل الله المعروف بوصاف الحضرة — أنظر كتاب "كشف الظنون" لحاجى خليفة ، طبعة بولاق ج ١ ص ١٨١) ، عند كلامه عن أرغون (١٢٨٤ — ١٢٩١ م) الذى كان وزيره سعد الدولة يهوديا ، وكان مكروها لدى المسلمين الذين اتهموا مولاه بأنه يكيد الاسلام ويتآمر عليه . وهذه المسألة تشبه كثيرا ما كان من التسترى مع أبناء دينه ؛ فإن اليهود قد استفادوا من مركز سعد الدولة ، وتغلغلوا فى الحكومة وشغلوا كثيرا من المناصب العالية ، وزادوا فى ذلك إلى درجة أحفظت المسلمين حتى نظم شاعر من الشعراء المعاصرين قصيدة ننقل منها هذه الأبيات :

يهودُ هذا الزمانِ قد بلغوا   مرتبـــة لا ينـالها فلك
الملك فيهـم والمال عنـدهم   ومنهـم المستشار والملك
يامعشرَ الناس قد نصحت لكم   تهوَّدوا ، قـــد تهود الفلك
فانتظروا صيحة العـذاب لهم   فعن قليـل تَرَوْهُمْ هلـكوا

والحق أن هـذه الأبيات تشبه الأبيات الأولى فى بحرها وقافيتها ، بل وجل ألفاظها . وليس للشاعر الثانى أكثر من تغيير بسيط فى بعض الألفاظ . وهذا يجعلنا نرجح أن هذا الشاعر ، الذى عاش بعد الشاعر الأول بقرنين ونصف قرن قد نقل عنه البحر والقافية والمعنى وكثيرا من الألفاظ . ومما يجب ملاحظته ، أن ابن ميسر ناقل الأبيات الأولى قـد توفى فى القرن السابع الهجرى (سنة ٦٨٨ هـ) ، وصاحب "تاريخى وصاف" توفى بعد سنة ٧١٧ هـ (لم يعين حاجى خليفة تاريخ وفاة هذا الرجل) ، وهى آخر سنة تناول الكلام عليها فى تاريخه(*) .

والبيت الرابع من أبيات الشاعر الثانى يتنبأ بما سيحل باليهود جميعا من الاضطهاد . وقد كان ما تنبأ به هذا الشاعر . فإنه بعد مقتل سعد الدولة ووفاة أرغون ، حلت بهم الاضطهادات من نهب وقتل فى كثير من الأحيان . وهناك قصيدة ثالثة من البحر والقافية لا بأس من نقل أبيات منها ، فإنها تمدنا بحادثة أخرى مشابهة للحوادث السابقة . وناظم هـذه القصيدة هو زين الدين بن سعيد الخطيب ؛ ومنها نستدل على ما كان يضمره مسلمو هذا العصر من كراهة لليهود ، وكيف كان يثأر المسلمون منهم عند سنوح الفرصة ، لأنهم كثيرا ما اضطهدوهم عند ما كانت أمور الدولة بأيديهم :

١ نحمـدُ من دارَ باسمـه الفلكُ   هذى القرودُ اليهود قد هلكوا
٢ وفارق النحسُ سعدُ(†) دولتهم   وافتضحوا فى البلاد وانهتكوا
٣ وشتت الله شمـل ملكهم   وبالحسام الصقيل قد سُبكوا
٤ كم حكموا فى البلاد لا حكموا   وارتكبوا الموبقات وانهتكوا
٦ سقاهم الحتفَ سادةٌ خُشُن   فامتلأت بالجماجم السكك
٧ واستخلصوا المالَ من ديارهم   والحـريمَ الحـرام قد هتكوا
١٠ فأنتم شرُّ أمـة سـلفت   وأنتم شر أمـة تركوا
٢٢ هجوتهم ، أبتغى بهجـوهم   جنـان خُلد يزيدها البـرَكُ
٢٣ رغما لمن قال فى قصيدته   "تهودوا ، قد تهود الفلكُ"

(*) حاجى خليفة ، طبعة القاهرة (ج ١ ص ١٨١) Browne: Persian Literature under Tartar Dominion, p. 33 seq.

(†) سعد الدولة هنا معناه حسن حظ الدولة . وفى هذا البيت من المحسنات البديعية التقابل بين لفظى سعد الذى يطلق على أثر الكواكب السعيدة ، والنحس الذى يطلق على أثر الكواكب المشئومة .

هذا ، ولقد وصف لنا ابن ميسر[١] عند كلامه على حوادث سنة ٥٢٣ ﻫ (١١٢٨ — ١١٢٩م) سبب موت أبى نجاح ، وهو نصرانى يعرف بالراهب ؛ وكان موته على يد المقداد والى مدينة مصر فى ذلك الوقت . وقد أمر بجثمانه فصُلب ، ثم أنزل وربط على لوح من الخشب ، ثم قذف به فى النيل . وأصدرت المنشورات الى الأقاليم داعية النـاس الى التفرج عليه ؛ وكان جثمانه كلما جذبه التيار الى جهة من الجهات ، خرجوا لرؤيته . وكانوا يضعون فى طريق الجثـة شيئا يرفعها الى الأعلى ؛ فاذا تم لهم غرضهم من التفكه برؤيتها ، رفعوا هذا الحاجز ، فتنحدر الجثة الى النهر . وهكذا دواليك ، حتى سار جثمانه الى البحر الأبيض المتوسط ، فكان مقره الأخير .

ويزيدنا ابن ميسر أن أبا نجاح كان فى مبدأ أمره فى خدمة أبى البركات يوحنا بن الليث . ويظهر لنا أنه نصرانى كما يدل على ذلك اسمه هـذا . وقد اتصل أبو نجاح بخدمة الخليفـة الآمر بعد وفاة المأمون البطائحى (٢٠ رجب سنة ٥٢٢) ، وبُذل له فى مصادرة قوم من النصارى مائة ألف دينار ؛ فأطلقت يده فيهم ، وامتد بلاؤه إلى كبار الموظفين ومن بينهم القضاة والكتّاب ، بل وسائر الناس عامة .

وكان يجلس بالجـامع العتيق ويستدعى من أراد مصادرته . وقد طلب يوما رجلا من العدول المتـازين يعرف بابن الفرس ، وهو ممن نال اجلال الناس واحترامهم ، فأهانه . فخرج من عنـده ووقف فى الجامع فى يوم الجمعة حيث يشتد ازدحام النـاس ، وعبّر عما شعر به من آلام وأحزان فقـال : "يا أهل مصر ! انظروا عدل مولانا الامر فى تمكينه النصرانى من المسلمين" . فهاجت هـذه الكلمات عوامل الغضب فى النفوس ، وكادت تُفضى الى نشوب الفتن والاضطرابات ، لولا أن تداخل خواص الخليفة فى الأمر ، وأعلموا مولاهم بمـا حل بالمسلمين من عدوان الوزير ، وخوّفوه سوء العاقبة[٢] .

فبعث الخليفة فى طلب أبى نجاح . فلمـا مثل بين يديه انطلق رجل من الأشراف كان فى حضرته ، فأنشده هذا البيت :

ان الذى شُرِّفتَ من أجله   يزعم هـذا أنه كاذب

وعندئذ التفت الخليفة الى أبى نجاح وقال له : ماتقول ياراهب ؟ فسكت ؛ فأمر به فقتل[٣] .

---

(١) ص ٧١ .

(٢) شرحه .

(٣) شرحه (٧١ و ٧٢) .

وهذه الحادثة تشبه ما حدثنا به ابن ميسر عند كلامه على سنتى ٥٢٩ و ٥٣٥ ، حيث يقول إنه فى ١٦ جمادى الثانية[١] من سنة ٥٢٩ ، قدم الى القاهرة بهرام الأرمنى والى الغربية ، لحاصرها يوما ؛ فرأى الخليفة الحافظ أن يوليه الوزارة ؛ فأشار عليه بعض خاصته أن يعدل عن هذا الرأى :

أولا — لأنه نصرانى ، فلا يرضى عنه المسلمون اذا تقلد هذا المنصب .

ثانيا — ان الوزير كان حتما عليه أن يصعد المنبر مع الامام فى الأعياد ليزرِّر عليه المَزَرة (الستارة) التى تحجبه عن الناس .

ثالثا — ان القضاة كانوا نواب الوزراء منذ أيام أمير الجيوش . وكانت هذه النيابة تذكر فى الوثائق الرسمية التى تنفذ الى الآفاق ، كما كانت تكتب أيضا فى وثائق الزواج[٢] .

فلم يُصغ الحافظ لقول النصحاء ، وتقلد بهرام الوزارة بالرغم من نفور الناس من هذا التقليد الذى لم يدم طويلا[٣] .

ويزيدنا ابن ميسر على ما تقدم أن نفوذ بهرام سرعان ما تزايد ، وأنه سأل الخليفة أن يأذن له باحضار إخوته وأهله وكانوا فى تل باشر وأرمينية ، وما لبث أن بلغ عدد الأرمن ثلاثين ألفا بعد زمن قصير ؛ فسلكوا مع المسلمين مسلكا عدائيا وصادروهم فى أموالهم وجاروا عليهم ، وبنوا الكنائس والأديرة حتى بلغت من الكثرة درجة أقلقت بال المسلمين وخوفتهم عاقبة هذا وطغيانَ المسيحية على الاسلام .

---

(١) أورد ابن ميسر هذا التاريخ فى محل آخر ، وهو اليوم الحادى عشر من نفس هذا الشهر .

(٢) كانت الخصال التى يحتم توافرها عند تعيين القاضى ، على ما أورده الماوردى كما يأتى :

(١) أن يكون ذكرا بالغا . بيد أن أبا حنيفة يرى أنه يجوز أن تقضى المرأة فيما تصح فيه شهادتها ؛ أما الطبرى فيرى أنه يجوز أن تتولى القضاء مطلقا .

(٢) العقل ، بمعنى أن يكون صحيح التمييز جيد الفطنة بعيدا عن السهو والغفلة .

(٣) الحرية . ولكن الرق لا يمنع من الفُتيا ؛ لأن مركز الافتاء لم يكن معتبرا فى ولاية الحكم .

(٤) الاسلام . ولا يجوز أن يقلد الذمى القضاء على المسلمين .

(٥) العدالة .

(٦) السلامة فى البصر والسمع . ولا يعتبر مالك العمى مانعا من القضاء .

(٧) أن يكون عالما بالأحكام الشرعية ملما بأصولها وفروعها .

وبمقتضى قوانين الشريعة الغراء لم يتحقق فى بهرام الشرط الرابع . ويبعد أن يكون متحققا فيه الشرط السابع (الماوردى ص ١١٤) .

(٣) ابن ميسر (ص ٩٧) .

لم يجد المسلمون بدا من رفع شكاياتهم الى الخليفة من بهرام ومن أهله . وزاد فى غضب المسلمين ما لاقاه أهل قوص من أخى بهرام المعروف بالباساك واليهم من الجور والظلم واستباحة الأموال . وقد ظلت الحال على ما وصفنا حتى نفد صبر المسلمين ؛ فبعث الأمراء الى رضوان ابن الوَلَخْشِى (١) والى الغربية يستحثونه على المسير اليهم وتخليصهم مما هم فيه من كرب وبلاء (٢) .

فوصلت الى رضوان استغاثة الأمراء ؛ فاتجهت آماله الى الوزارة . وفى سخا — إحدى مدن الغربية — صعد المنبر وخطب فى الناس خطبة بليغة حضهم فيها على الجهاد ؛ ثم جمع ثلاثين ألف رجل سار بهم الى القاهرة . فلما دنا رضوان من هذه المدينة خرج بهرام على رأس جيش كثيف لصد هجماته .

ولما تقارب الجيشان أمر رضوان برفع المصاحف على رءوس الرماح ؛ فلم يكن من عسكر المسلمين الا أن اعتزلوا بهرام وانضووا تحت لواء رضوان . ويحدثنا ابن ميسر أن هذا الأمر كان على أثر اتفاق سابق بين المسلمين من جند بهرام وجند رضوان (٣) . وهذه الخدعة الحربية تشبه من بعض الوجوه الخطة التى ابتدعها عمرو بن العاص فى موقعة صفين المشهورة .

ولما وقف بهرام على حقيقة الحال أرسل الى الحافظ يعلمه بكل ماحدث ؛ فأمره الخليفة بالمسير الى ولاية قوص بالوجه القبلى ، والاقامة مع أخيه حتى يرى رأيه ويقرر ما ينبغى اتباعه فى هذا الأمر . فعاد بهرام الى القاهرة وأخذ معه ما خف حمله وغلا ثمنه ، وسار فى الحادى عشر من شهر جمادى الأولى ؛ فأتاح مسير بهرام للغوغاء فرصة لنهب دور الأرمن فى حى الحسينية — الواقع فى ظاهر باب الفتوح — وبعض كنائسهم ، وبنبش قبر أخيه الذى كان بطريقا للأرمن . وفى هذا الوقت ثار أهالى قوص المسلمون على الباساك أخى بهرام وقتلوه ، وجعلوا فى رجله كلبا ميتا ، ورموا بجثته فى صندوق القُمامة .

---

(١) ذكر ابن ميسر (ص ٧٩ — ٨٠) أن رضوان كان يلى حجابة باب ابن الخليفة الحافظ وقت تقلد بهرام الوزارة ؛ وكان من الأمراء ، عرف بالشجاعة والاقدام ، كما كان شوكة فى جنب بهرام الذى كان يخشى منه أن يكيد له ويحل محله ؛ يجد بهرام فى التخلص منه ، فولاه عسقلان فى آخر رجب من سنة ٥٢٩ . ولم يكد يستقر برضوان المقام فى مركزه الجديد ، حتى علم بوصول جماعة من الأرمن الى عسقلان قاصدين مصر ؛ فوضع العراقيل فى سبيلهم وأرغم كثيرين منهم على الرجوع الى بلادهم . وكان من أثر هذه الاجراءات التى اتخذها ضد هؤلاء القوم أن صرف عن هذه الولاية ، واستدعى الى القاهرة ، وولى الغربية فى صفر سنة ٥٣١

(٢) شرحه (ص ٨٠) .

(٣) شرحه (ص ٨١) .

ثم وصل بهرام الى قوص بعد قتل أخيه بيومين فى جماعة من أهله وجنده ؛ فثأر له ونهب المدينة وقتل الكثير من أهلها ؛ ثم رحل الى أسوان ، فأقام فى الموضع الحصين المعروف بالأديرة البيض[١] .

أما رضوان فقد خلا له الجو بمبارحة بهرام القاهرة ؛ فتقلد الوزارة فى الحادى عشر من شهر جمادى الأولى سنة ٥٣١ ، وخُلع عليه وتلقب بالأفضل . وكان أول ما بدأ به رضوان أن أنفذ اخاه ناصر الدين على رأس جيش كثيف ، فوصلوا الى الأديرة البيض . غير أنه لم يدر بين الفريقين قتال ؛ وتم الاتفاق على أن يبقى بهرام فى هذه الجهة ، وأن يُطْلَق من كان معه من الجند ليعودوا الى القاهرة ، ومنها يُسرَّحون الى بلادهم[٢] .

ولكن هذا الاتفاق لم يطل أمده . فقد ذكر لنا ابن ميسر أن العداء ظل مستحكما بين المسلمين والأرمن الى سنة ٥٣٥ ، وأنه فى سنة ٥٣٢ شدد رضوان على أعوان بهرام واستولى على أملاكهم وقتل الكثير منهم ؛ وأدى به ما كان يجيش بنفسه من حقد لبهرام الى العمل على إبادة الأرمن . ويظهر أن هذه الأعمال لم ترض الخليفة الحافظ ، بدليل أنه بعث فى سنة ٥٣٣ من أحضر بهرام ، فأسكنه فى قصره وأحله من نفسه محل الاكرام والتعظيم[٣] . فعظم ذلك على رضوان ، وأخذ الحافظ يثير الجند على هذا الوزير ؛ فنشب التطاحن بين الفريقين . وطلب رضوان من الخليفة أن ينزله فى القصر ؛ فلم يجب طلبه ولم يعره التفاتا ؛ فأدى ذلك الى ازدياد الوحشة والنفور بينهما .

بذلك ضعف أمر رضوان ؛ فلم يقو على منازلة خصمه ، وخرج فى الخامس عشر[٤] من شهر شوال من هذه السنة هاربا من القاهرة ، ولحق بوالى صَرْخَد[٥] ؛ فتلقاه بالاكرام ، وأقام معه الى آخر المحرم سنة ٥٣٤ ، حيث عاد الى القاهرة على رأس جيش كثيف[٦] ، وحارب جند الخليفة بقرب باب الفتوح . ولكنه أرغم على المسير الى الوجه القبلى ؛ وهناك طارده الأمير أبو الفضل ابن مَصَال ، فلحق به وأمّنه . وفى اليوم الرابع من شهر ربيع الثانى ، مَثَل رضوان بين يدى الخليفة ؛ فأمر به فحبس فى القصر[٧] ، على حين عفا عن الجند الأتراك الذين حاربوا معه ؛ ولكنه فر فى سنة ٥٤٢ هـ[٨] .

---

(١) ابن ميسر (ص ٨١) . (٢) شرحه (ص ٨٢) . (٣) شرحه .

(٤) خالف ابن ميسر ذلك فذكر اليوم الثالث عشر من شوال .

(٥) بلد ملاصق لبلاد حوران من أعمال دمشق — أنظر لفظ صرخد فى " معجم البلدان " لياقوت .

(٦) ابن القلانسى (ص ٢٧٠) .

(٧) ابن القلانسى (ص ٢٧٢ و ٢٧٣) ، وابن ميسر (ص ٨٣ و ٨٤) .

(٨) ابن القلانسى (٢٩٦) .

وكانت سنة ٥٣٥ نهاية هذا النزاع الطويل الذى قام به بهرام ورضوان ؛ وفيها انتهت حياة بهرام . ويحدثنا ابن ميسر أن بهرام عاش فى القصر مع الخليفة ، يشاوره فى أمور الدولة من غير أن يخلع عليه أو يقلده عملا من الأعمال الرسمية .

وقد ظلت الحال على ماوصفنا الى أن توفى بهرام فى الرابع والعشرين من شهر ربيع الثانى سنة ٥٣٥ . فحزن عليه الخليفة حزنا شديدا ، وأمر باغلاق الدواوين ثلاثة أيام ، وبعث فى طلب بطريق الأرمن ، وأعدت معدات المأتم . فلما حان وقت صلاة الظهر ، أخرج النعش من القصر يجلله الديباج ويحف به النصارى يحملون المباخر ؛ وشيعه الأشراف وغيرهم من علية القوم مشاة . وسار الخليفة الحافظ فى الموكب راكبا بغلة ، وعليه عمامة خضراء وثوب أخضر . وما زال الناس فى سيرهم ، والقسس يرتلون الانجيل ، حتى وصلوا الى دير الخندق ؛ فنزل الخليفة وجلس على حافة القبر ، وبكى بكاء شديدا[١] .

وبالجملة ، فقد عامل الفاطميون النصارى واليهود معاملة تنطوى على العطف والرعاية . وما كان الاضطهاد الذى قام به الحاكم ازاءهم الا حلقة من سلسلة حلقات الظلم الذى حاق بالمصريين عامة . والحق ، أن أبناء هاتين الطائفتين قد عوملوا غير مرة معاملة تتجلى فيها المحاباة [٢].

ولقد تقلدوا أرقى المناصب وأعلاها فى عهد الخليفة العزيز ٣٦٥—٣٨٦ هـ (٩٧٥—٩٩٦م) ، وشغلوا فى عهد المستنصر ٤٢٧ — ٤٨٧ هـ (١٠٣٥ — ١٠٩٤ م) ومن جاء بعده من الخلفاء معظم المناصب المالية فى الدولة ، بل وتقلدوا الوزارة أيضا ، وتمتعوا بقسط وافر من سياسة التسامح الدينى ؛ وهو أمر نستطيع تحقيقه بما كان من بناء عدد من الكنائس أو من إعادتها إلى ما كانت عليه .

ولم تقتصر هذه المعاملة على ما تقدم ؛ فقد ولع بعض الخلفاء الفاطميين — كالحافظ مثلا — بزيارة أديرة النصارى . وكان الآمر يعطى الرهبان فى ديرنهيا الواقع الى القرب من الجيزة عشرة آلاف درهم كلما خرج للصيد بالقرب من هذا الدير[٣] . ويحدثنا أبو صالح النصرانى أن موارد الكنائس المصرية زادت زيادة عظيمة فى عهد الفاطميين[٤] .

---

(١) ابن ميسر (ص ٨٤) . (٢) أبو صالح (ص ٣٢ و ٤٣ و ٤٤ و ٧٧ و ٧٨) .

(٣) شرحه ص ٧٧ و ٧٨ وناصرى خسرو ص ١٥٥ و ١٥٦ والأستاذ سير توماس أرنولد "تعالم الأسلام" ص ١٠٦ و ١٠٧ . Prof. Sir Thomas W. Arnold: The Preaching of Islam, pp. 106, 107.

(٤) أنظر لفظ "Kibt" فى دائرة المعارف الاسلامية (Encyclopaedia of Islam; Mann, The Jews in Egypt and in Palestine under the Fatimid Caliphs).

٢ — سياسة الفاطميين مع أهل السنة

لقد عمل الفاطميون على لعن الخلفاء الثلاثة الأول (أبو بكر وعمر وعثمان) وغيرهم من الصحابة ، إذ عدوهم أعداء لعلىّ ، ونقشت فضائل علىّ وأولاده من بعده على السكة وعلى جدران المساجد . ويحدثنا ابن زولاق[١] أن الخطباء كانوا يلعنون الصحابة على كافة منابر مصر .

ولقد أُلزم جميع الموظفين المصريين أن يعتنقوا المذهب الفاطمى ، كما حتم على القضاة أن يصدروا أحكامهم وَفْقَ قوانين هذا المذهب . ويلوح لنا أن الرغبة فى الحصول على مناصب الدولة هى التى دفعت بفريق من السنيين إلى التحول الى المذهب الشيعى ، كما دفعت تلك الرغبة أيضا بعض الذميين إلى اعتناق الأسلام واتخاذ التشيع مذهبا لهم .

ويظهر أيضا أن هذه الرغبة كانت فى أشدها حتى قبل تأسيس الخلافة الفاطمية فى مصر . ولقد أشار ابن خلكان إلى هذه الحقيقة ، معتمدا فى ذلك على ماذكره أخو محسن الذى شهد هذه الحوادث بنفسه حيث يقول : " رأيتُ يعقوبَ بن كلس قائما يسار كافور ؛ فلما مضى ، قال لى : أى وزير بين جنبيه ! "[٢] ويزيدنا ابن عساكر أن كافورا قال : " لو كان مسلما لصلح أن يكون وزيرا " ؛ فأسلم طمعا فى الوزارة[٣] .

وعند ما عدّد ابن ميسر[٤] أسماء من تقلدوا الوزارة للمستنصر (٤٢٧—٤٨٧ هـ) ، ذكر أسماء عدة من الوزراء غير المسلمين ؛ ومن هؤلاء الوزراء أبو على الحسن بن أبى سعيد بن سهل التُّسْتَرى ، وأصله يهودى ثم أسلم . ولكن ابن ميسر لم يذكر لنا اذا كان التسترى قد اعتنق الاسلام قبل تقلده الوزارة أم بعده .

كذلك تكلم ابن ميسر عن أبى منصور بن أبى اليُمْن[٥] بن مَهْرَوَاه بن زُنْبور — وكان نصرانيا — فاتخذ الاسلام دينا ، وذكر أن النصارى قد أنكروا إسلامه[٦] .

(١) المكتبة الأهلية بباريس ، مخطوط ١٨١٧ ، ورقة ٤٨ ب .
(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ٤٤٢
(٣) المكتبة الأهلية بباريس ، مخطوط ٢١٣٧ ، ورقة ١٨ أ وما يتبعها .
(٤) ص ٣٢
(٥) ذكر ابن ميسر (ص ٣٣) أن هذا الاسم " أبو اليم " .
(٦) ابن منجب ص ٥٤ وابن ميسر ص ٣٣

وكانت تنزل العقوبة الصارمة بمن يتمدح بذكر الخلفاء السنيين . ويحدثنا المقريزى[١] أن الخليفة العزيز أبطل صلاة التراويح [٢] فى سنة ٣٧٢ هـ (٩٨٢ — ٩٨٣ م) من جميع مساجد الديار المصرية . ويظهر أنها قد أبطلت فى سورية قبل ذلك بعدة سنوات . ويدلنا على ذلك ما ذكره الذهبى عند كلامه على حوادث سنة ٣٦٣ هـ (٩٧٣ — ٩٧٤ م) ، وهو أنه فى أوائل شهر رمضان أصدر المعز الأوامر بإبطال التراويح . وما كاد أبو القاسم الواسطى يرفع صوته احتجاجا على هذا القانون ، حتى قبض عليه أعوان الفاطميين وأودعوه غياهب السجون ؛ وكان من أثر رفع هذا الحادث إلى السلطات فى القاهرة أن صدر الأمر بقطع لسان أبى القاسم وضربه خمسمائة سوط وصلبه بعد ذلك [٣] .

واشتد الفاطميون فى ذلك الوقت على أهل السنة ومنعوهم من إقامة مراسمهم . ففى سنة ٣٨١ هـ — فى عهد الخليفة العزيز — ضرب رجل من أهل مصر وطيف به فى المدينة ، لأنهم وجدوا عنده كتاب "الموطأ" لمالك بن أنس[٤] . وفى صفر سنة ٣٨٥ (٩٩٥ م) أمر الخليفة

---

(١) الخطط ج ٢ ص ٣٤٠

(٢) التراويح (جمع ترويحة) هى سنة كان يفعلها النبى صلى الله عليه وسلم بعد صلاة العشاء فى رمضان ، ولكنه أبطلها بعد ذلك خشية أن تصير فرضا . ولما جاء عمر بن الخطاب أحيا هذه السنة ، وجمع الناس على إمام واحد ، ووافقه المسلمون على ذلك ؛ فكان إجماعا سكوتيا . والسر فى امتناع الشيعيين عن صلاة التراويح هو ما يعتقدونه من أن عمر ابن الخطاب هو أول من سنها .

(٣) ونحن نشك فى صحة ما أورده لنا الذهبى ونراه بعيدا عن الحقيقة التاريخية . ويتبادر إلى الذهن من سياق هذه العبارة أن أبا القاسم كان مؤذنا فى بعض مساجد سورية ؛ ويحتمل أنه بيت المقدس ، بالرغم من أن لفظ المقدس لم يذكر . أما عبارة الذهبى فهى كما يأتى : "قال مشرف بن مرجى المقدسى : أخبرنا الشيخ أبو بكر محمد بن الحسن قال : كنت مجاورا ببيت (هكذا ذكر) ؛ فأمروا فى أول رمضان بقطع التراويح ؛ فصحت ، أنا وعبد الله والأسلام ، واعمداه ! فأخذنى الأعوان وحبست ؛ ثم جاء الكتاب من مصر بقطع لسانى فقطع . وبعد أسبوع رأيت النبى صلى الله عليه وسلم تفل فى فمى ببرد ريق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد زال عنى الألم . فتوضأت وصليت ، وعمدت الى المأذنة فأذنت : الصلاة خير من النوم ! فأخذونى وحبست وقيدت ، وكتبوا الى مصر ، فورد الكتاب بقطع لسانى وبضربى خمسمائة سوط ؛ وبصلبى ، ففعل بى ذلك" .

المكتبة الملكية بالقاهرة ، (مخطوط ٤٢ ، ورقة ١٠٥ أ) .

وما أورده لنا الذهبى من قطع لسان أبى القاسم وعدم استطاعته أداء الأذان ، وأنه هو الذى حدّث بما ناله بعد قطع لسانه للمرة الثانية ، وضربه خمسمائة سوط ثم صلبه — كل ذلك يظهر لنا أنه بعيد عن الصحة كل البعد . أما أنه قد ناله بعض العقوبة على هذه الحادثة ، فأمر محتمل الوقوع ؛ لأن هذا هو مسلك الفاطميين ضد من يجهر بمخالفتهم فى عقائدهم .

(٤) المقريزى (خطط ج ٢ ص ٣٤١) .

العزيز بنقش سب الصحابة على الجدران داخل الجامع العتيق وخارجه ، وكذا على أبواب الحوانيت والحجرات وعلى المقابر ، ولوّن ذلك كله بالذهب فى كثير من أحياء القاهرة وفى غيرها من المدن . ولقد كان لهذه السياسة أثرها فى تحويل كثير من السنيين الى المذهب الشيعى[١] .

وعندنا كثير من الأدلة على أن تعصب الفاطميين لمذهبهم زاد فى أيام الحاكم عما كان عليه فى عهد الخلفاء من قبله . ذلك أنه فى جمادى الأولى من سنة ٣٩١ ، ألقى القبض على رجل من الشام لاتهامه بعدم الاعتراف بفضل علىّ ، وحبسه قاضى القضاة وبعث أربعة من الفقهاء للتحقيق معه ؛ فبذلوا قصارى جهدهم فى حمله على الاعتراف بإمامة علىّ . ولكن هذا الرجل ظل على إبائه ، بالرغم من تدخل قائد القواد الحسين بن جوهر فى الأمر وعمله على إقناعه . ولما لم يفلح رفع أمره الى الحاكم ، فأمر به فقتل وصلب[٢] .

وفى سنة ٣٩٣ هـ قبض فى مدينة القاهرة على ثلاثة عشر رجلا ، لأنهم صلوا صلاة الضحى ، وهى من السنن التى ينبغى إقامتها مع الصلوات الخمس ، وإن كان الشيعيون لا يعترفون بها . وقد شُهِّر بهؤلاء المذنبين فى الشوارع وضربوا وحبسوا ثلاثة أيام[٣] .

أضف الى ذلك ما ذكره المقَّرى وأبو المحاسن ، من أن رجلا من أهل دمشق يدعى الأسود الحَكَمى حلت به العقوبة فى شهر ربيع الثانى من السنة نفسها (٣٩٣ هـ) لارتكابه جريمة لم يأت لنا هذان المؤرخان بتفصيلها . ولكن يظهر لنا أنها كانت من أجل محبة هذا الرجل للخليفتين أبى بكر وعمر ، بدليل أنهم طافوا به فى شوارع المدينة ونادوا عليه : "هذا جزاء من يحب أبا بكر وعمر" ؛ ثم أمر به فضربت عنقه[٤] .

وفى شهر صفر سنة ٣٩٥ (١٠٠٤ — ١٠٠٥ م) أمر الحاكم أيضا بنقش سب الصحابة على جدران المساجد ، وفى الأسواق والشوارع ؛ وصدرت الأوامر بذلك الى سائر العمال فى البلاد المصرية[٥] .

---

(١) المقريزى (خطط ج ٢ ص ٢٨٦) .

(٢) شرحه .

(٣) شرحه .

(٤) المقرى : "نفح الطيب" (ج ٢ ص ٦٦٥) ، وأبو المحاسن (ج ٢ رقم ١ ص ٩١) .

(٥) ابن خلكان (ج ٢ ص ١٦٦) .

وفى سنة ٣٩٥ هـ صدر قانون يحرم بيع الملوخيا[١] ، لأنه اثر عن معاوية انه كان يحبها ؛ وينهى أيضا عن أكل الجرجير ، لأن عائشة كانت تأكله ؛ وعن المتوكلية ، وهى النبات المنسوب الى المتوكل الخليفة العباسى . وزاد ابن زولاق أن الحاكم نهى أيضا عن أكل القرع ، وطلب الى الفلاحين أن يعطوه وثائق كتابية بعدم زرع الملوخيا والقرع .

ولم يكن لهذا التعيين من سبب سوى أن أبا بكروعائشة كانا يحبان أكلهما . وقبض على جماعة كانوا يأكلون الملوخيا ، وضربوا بالسياط وطيف بهم فى الشوارع ثم ضربت أعناقهم[٢] . يتبين لك ذلك من عبارة ابن زولاق التى ننقلها فيما يلى :

" ومنع من أكل الملوخيا وأكل القرع ، وكتب قسما على الفلاحين أنهم لا يزرعون ذلك ولا يبيعونه ، لان أبا بكر الصديق كان يكثر من أكل ذلك ، وأن عائشة كانت تأكل ذلك أيضا . ثم إنه رأى جماعة يأكلون الملوخيا ؛ فقبض عليهم وضربهم بسياط ، وطاف بهم البلد وأمر بضرب رقابهم " .

وفى هذه السنة نهى الحاكم عن بيع الفُقَّاع (وهو نوع من الخمر) وشدد فى ذلك ، لأن عليا كان يكرهه . كذلك نهى عن أكل الدَّلِينَس (وهو نوع من السمك الصغير لا قشر له) لسبب لم يذكره لنا المؤرخون ؛ وصدرت الأوامر فى منع بيع كافة أنواع السمك الذى لا قشر له .

وقد دعا الحاكم السماكين الى اجتماع أخذ فيه عليهم العهود ألا يبيعوا هذا النوع من السمك ؛ ومن أبى إطاعة هذه الأوامر كان جزاؤه القتل[٣] . وهذا التشدد يحملنا على الظن بأنه لا بد أن يكون هذا المنع راجعا الى أحد أمرين جرت بهما عادة الشيعة : إما لأن أحد الصحابة كان يكثر من أكل هذا السمك ، وإما لأن عليا أو بعض أهل بيته كانوا يكرهون أكله . وإما أن هذه النزعة يهودية ، لأن التوراة نصت على تحريم السمك الذى لا حُرْشف له (أى لا قشر له) . ولا يبعد أن يكون أحد اليهود المقربين الى الحاكم أفضى اليه بذلك فعلق بذهنه .

---

(١) هذه الأشياء وغيرها مما ينسب الى الخلفاء الفاطميين وأشياعهم من سب الصحابة والطعن فيهم ، مبالغ فيها ؛ ويبعد تصديق كثير منها ، لاسيما ألوان الطعام التى ربما لم تكن موجودة فى عصرهم . ونحن نرويها هنا على علاتها غير واثقين بصحتها .

(٢) ابن زولاق ، المكتبة الأهلية بباريس ، (مخطوط ١٨١٧ ، ورقة ٥٢ أ) .
تناول ابن خلكان (ج ٢ ص ١٦٦) الكلام على تحريم بيع هذه الخضراوات بشىء من الايجاز .

(٣) ابن خلكان (ج ٢ ص ١٦٦) .

هذا ، ولقد اشتملت القوانين الكثيرة التى عاد الحاكم فأصدرها ضد النصارى واليهود فى سنة ٣٩٥ هـ ، وكذا المراسيم التى صدرت بالتشدد فى مراعاة هذه القوانين ، على كثير من عبارات الطعن فى أبى بكر وعمر[١] .

وفى هذه السنة أمر الحاكم بأن تقام صلاة الظهر فى الساعة السابعة ، والعصر فى الساعة التاسعة [٢] (من التوقيت العربى) . ولو قارنا بين ما جرى عليه الحاكم وما يجرى عليه المسلمون الآن ، لوجدنا أن الحاكم قد راعى فى التوقيت الساعات ، ولم يراع التقاليد الاسلامية فى التوقيت بالشمس . فان الظهر يدخل وقتها بالزوال ، والعصر يدخل وقتها بأن يصير ظل كل شىء مثله بعد ظل الزوال ؛ وحينئذ تكون صلاة العصر حاضرة اذا وقعت فى الزمن الذى تأخذ فيه الشمس فى الانحراف عن كبد السماء ، وصار ظل كل شىء مساويا له بعد اعتبار ظل الزوال . وكذلك العصر تكون حاضرة اذا وقعت فى الزمن الذى بين هذا الوقت وغروب الشمس . ونحن نرى أن الحاكم قد بدل بهذا العمل ما كان يجرى عليه المسلمون وما كان معمولا به الى هذا الوقت ، وألزمهم بالصلاة فى ساعات معينة مستعينين بالمزولة .

ولا شك فى أن هذه الأوامر قد أساءت أيما إساءة الى اهل السنة ، الذين كانوا لا يزالون السواد الأعظم من الأهلين . وتعتبر الفتنة التى أثارها أبو ركوة [٣] (٣٩٦—٣٩٧ هـ) دورا هاما من الأدوار التى مرت بها سياسة الحاكم إزاء رعاياه السنيين .

ففى سنة ٣٩٧ هـ خفف من تشدده فى مراعاة عقائد المذهب الفاطمى ، ليصلح بينه وبين رعاياه السنيين ؛ فأبطل بعض ما قام به من الأعمال الموجهة ضد هؤلاء الرعايا ، كلعن الخلفاء الأول وغيرهم من الصحابة ؛ وسلك مسلكا أكثر شدة مع النصارى واليهود . وفى شهر ربيع الثانى من هذه السنة أمر بمحو ما نقش فى لعن هؤلاء الخلفاء ، وعوقب كل من أقدم على لعنهم وعنف فى الشوارع على مرأى من الناس[٤] .

(١) ابن خلكان (ج ٢ ص ١٦٦) .

(٢) المقريزى (خطط ج ٢ ص ٣٤١) .

(٣) أنظر يحيى بن سعيد (ص ١٨٨ — ١٩٢) ، وابن القلانسى (ص ٦٤ — ٦٥) ، وأبا الفدا (ج ٢ ص ١٤٥) لمعرفة الثورة التى قام بها أبو ركوة .

(٤) يحيى بن سعيد (ص ١٩٢) .

وفى هذه السنة صدر مرسوم يجيز للنـاس صوم رمضان وفطره بمقتضى حساباتهم الفلكية ، بدون أن ينتظروا رؤية الهـلال . كذلك أجازت القوانين الجديدة للؤذنين أن يستعملوا العبارات المعتاد ذكرها فى الصلاة حسبما يرون ، وألا تقدم شكاوى لسبب من الأسباب التى تتعلق بذكر هذه العبارات ، وألا يُسَبَّ أحد من الخلفاء الأول ، ولا يمنع أحد من أن يقول هـذه العبارة التى تنطوى على احترامهم و إجلالهم وهى : "اللهم ارحمهم !" اذا ما ذكر أسماءهم ؛ وبذلك عوملوا معاملة الأبرار . واذا أراد أحد أن يستعمل هـذه العبارة التى تدل على أسمى مراتب التعظيم لعلىّ وهى : "اللهم ارحمه" ! فلا حرج عليه . وجعل لكل مسلم الخيار فى اتباع الرسوم السنية أو الشيعية[1] .

وقد أبطل الحاكم بعد ذلك استعمال كثير من الرسوم الشيعية البحتة ؛ فأمر باعادة القنوت فى الصلاة ، وكان قد أبطل فى سنة ٣٧٠ هـ . ومنع كذلك المؤذنين من إضافة عبارة "حى على خير العمل" الى الأذان ، وسمح بصلاة الضحى ؛ وهـذه من الصلوات التى تؤدى فى ضحى اليوم من ارتفاع الشمس قدر رمح الى الزوال ؛ وكان قد منعها منعا باتا فى سنة ٣٩٣ هـ[2] .

وقد أنشأ الحـاكم فى هـذه السنة نفسها مدرسة لتعليم المذهب السنى ، الذى كان يدين بعقائده السواد الأعظم من المصريين قبل وصول الفاطميين الى هذه البلاد ، وأهدى هذه المدرسة دار كتب ، وعين أبا بكر الأنطاكى ناظرا لهـا ، وخلع عليـه وعلى مدرسى هـذه المدرسة وأجلسهم فى مجلسه[3] .

فكان من أثر هذه السياسة التى سار عليها الحاكم أن ساءت سمعته عنـد المتشيعين الذين وفدوا على القـاهرة ، حيث وجدوا أنفسهم فى مدينـة تسير فى اتجاه عادات المذهب السنى[4] . ولكن الحاكم عوّدنا التقلب فى سياسته وأهوائه .

نعم ! لقد جعلته بعض الحوادث الأخرى مُبَغَّضًا جدا حتى عند الشيعيين فى تلك الآونة . وذلك أنه فى سـنة ٤٠٠ هـ أرسل بعض الموظفين الى المدينـة المنورة ليفتحوا المـنزل الذى كان لجعفر الصادق ويحضروا منه ما قـد يعثرون عليه . فلمـا فتح المنزل ، وجد فيـه هؤلاء الموظفون نسخة من القرآن الكريم وسريرا وحصيرا وبعض الأثاث . وقد حمـل هـذه الأشياء الداعى خُتَكِين الذى كلف بالإشراف على فتح هذه الدار ، وأخذ الموظفون فى الوقت نفسه الضرائب التى كانت يدفعها الأشراف .

(١) المقريزى (خطط ج ٢ ص ٢٨٧) . (٢) المقريزى (خطط ج ١ ص ٤٥٨) وما يتبعها .

(٣) أبو المحاسن (ج ٢ رقم ١ ص ١٠٥) . (٤) شرحه .

ثم عاد ختكين الى مصر و بصحبته عدد كبير من الأشراف كانوا يؤملون أن ينعموا بكرم الحاكم وحسن معاملته لهم . ولكنهم لما مثلوا بين يديه ، لم يعطهم غير جزء يسير من المال الذى عاد به ختكين ، وأبقى أكثره لنفسه قائلا إنه أحق به منهم ، لأنه كان رأس الأشراف باعتباره وريث علىّ حقا . فعاد هؤلاء الأشراف الى المدينة ، وألسنتهم تنطلق بالسخط والدعاء عليه[1] .

وظلت سياسة اللين التى سار عليها الحاكم إزاء السنيين ثلاث سنوات ، غير أنها ما لبثت أن تبدلت على حين غفلة . ففى سنة ٤٠١ هـ أمر باعادة الأذان الى النحو الشيعى ؛ كذلك أعاد التثويب وعبارة "حى على خير العمل" الى ما كان عليه من قبل ، كما أبطل صلاتى الضحى والتراويح . ولما اتصل بالحاكم ما كان من صلاة التراويح فى شهر رمضان فى الجامع العتيق ، أمر بامام هذا المسجد فضربت عنقه . وقد أعاد فى الوقت نفسه مجالس الحكمة فى القصر ، كما أمر بأن تجمع النجوى ، وهى التبرعات التى كانت تؤخذ من كل من يتعلم أصول المذهب الاسماعيلى ثانية ، وكانت قد أبطلت منذ سنة ٤٠٠ هـ .

واعتزم الحاكم بعد ذلك نبش قبر أبى بكر وعمر بالمدينة ؛ فرشا الرسل الذين أنفذهم لتأدية هذه المهمة رجلا من العلويين كان يسكن فى منزل قريب من مدفن الخليفتين ؛ ومن ثم شرعا بمعاونته يحفران طريقا يوصل الى ما يريدون . الا أن عاصفة شديدة ثارت ، و بلغ ثورانها درجة أدخلت الخوف والهلع فى قلوب الأهالى ؛ فتلمس كثير منهم ملجأ فى الحرم حيث يوجد الجسد الشريف وأجساد الخلفاء الأول . ولما لم تهدأ هذه العاصفة ، خشى ذلك العلوى وأبلغ الأمر لوالى المدينة ؛ فأحل به عقوبته وحال دون إتمام ما كان يريده الحاكم[2] .

وجملة القول أن لعن السنيين كانت تفيض به ألسنة الناس من على المنابر فى كافة أرجاء مصر طوال الحكم الفاطمى تقريبا . ويحدثنا ابن خلكان أن العاضد آخر الخلفاء الفاطميين كان من غلاة الشيعة ؛ فكان له ولع خاص بلعن الصحابة ، حتى إنه كان لا يتردد فى قتل أى سنى تقع عليه عيناه .

---

(١) ابن خلكان (ج ٢ ص ١٦٦) والمقريزى خطط (ج ٢ ص ٣٤٢) .

(٢) المقريزى خطط (ج ١ ص ٣٣٨) .

٣ — سياسة الفاطميين مع المصريين عامة

أقام الفاطميون فى مصر حكومة منظمة قائمة على أساس متين ؛ فتقدمت البلاد نحو الرقى بفضل هذه النظم الرشيدة التى احتذاها من جاء بعدهم من الملوك . غير أن سياسة الفاطميين (التى كانت ترمى أولا الى نشر مذهبهم) كثيرا ما كانت تتصادم مع صالح الأهلين وسعادتهم ؛ وذلك لأن أكثريتهم الساحقة كانوا سنيين .

ولقد تطلب نجاح تلك السياسة أن يحل أنصار الفاطميين — حتى من غير المسلمين — محل السنيين فى مناصبهم . ومن ذلك نرى السنيين من أول حكم الفاطميين ينظر اليهم بعين السخط والكراهة ؛ فتحملوا لذلك كثيرا من جور القوانين التى كان يسنها الفاطميون . وذلك أنه كان لزاما على أبناء الطوائف الثلاث (السنيين والنصارى واليهود) الذين كان منهم المصريون ، أن يطيعوا تلك القوانين ، حتى ما كان منها غير متفق مع معتقداتهم الدينية .

ولقد أضاف الفاطميون الى النقوش التى كانت تنطق بسب السنيين ، كتابة أخرى كلها إشادة بمدح علىّ وأهل بيته . وقد كان من أثر تعاليم دعاة الشيعة والقوانين الجائرة التى كانت تسن لمن عداهم ، أن تحول كثير من غير الشيعيين الى هذا المذهب . ولقد حفز ذلك التحول الكبير الى ناحية الشيعة قاضى القضاة علىّ بن النعمان — الذى كان يطلق عليه أيضا داعى الدعاة — فأملى على مجتمع حافل فى الجامع العتيق فى شهر صفر سنة ٣٦٥ خلاصة الكتاب الذى كان قد صنفه أبوه أبو حنيفة النعمان المغربى فى أصول المذهب الشيعى[(١)] .

وكان يعقوب بن كلس — ذلك الرجل الذى كانت له منزلة ممتازة لما كان يقوم به من تعضيد المذهب الشيعى — يعقد الاجتماعات ، فيحضُرها الناس على اختلاف طبقاتهم ، ويقرأ عليهم مصنفه فى القانون الشيعى ، ذلك القانون الذى كان لزاما على القضاة أن يُصدِروا عنه فى أحكامهم ، كما كان مصنفه هذا من الكتب التى تقرر تدريسها فى الجامع العتيق ، فيتدارسه الطلبة وأساتذتهم[(٢)] .

---

(١) يحيى بن سعيد (ص ٢٠٦) وابن ميسر (ص ٧٥) والمقريزى خطط (ج ٢ ص ٣٤١) وأبو المحاسن المجلد الثانى (ج ١ رقم ١ ص ٣ و٤) .

(٢) يحيى بن سعيد (ص ١٧٢ و ١٧٣) .

ولقد سبق أن ذكرنا أن محمد بن النعمان منح لقب أستاذ للدعوة بالقصر فى ربيع الثانى سنة ٣٨٥ فى خلافة العزيز، فقرأ قانون أهل البيت على جمع عظيم ، كما فعل أخوه الحسين فى القاهرة من قبل وأبوه بالمغرب . ويحدثنا المقريزى[1] أن الجمع الذى سمع لمحمد بن النعمان كان من الكثرة بحيث مات أحد عشر شخصا من دفع الناس بعضهم بعضا .

ولقد كانت سياسة الحاكم تمتاز بعنف كثير تناول جميع المصريين ، وخاصة من لم يكن شيعيا . وظهرت تلك السياسة جلية واضحة بعد أن شعر بأنه صار خلوا من كل رقابة ؛ وذلك بعد وفاة برجوان ، وحينما بدأ الاضطراب ينال من عقله ، ذلك الاضطراب الذى كان مصدرا لتقلباته فى سياسته .

وكان أول ما بدا من أعمال الحاكم الغريبة ، أن أصدر قانونا سنة ٣٩٠ هـ حرّم فيه على الناس أن ينادوه بلقب "مولانا" أو "سيدنا" ، وحتم فيه عليهم أن يلقبوه بأمير المؤمنين ؛ وجعل نصيب من يخالف ذلك الموت العاجل . كما كان من آثار حالته العقلية أن أصبح يفضل الليل على النهار . ففى سنة ٣٩٢ هـ بدأ يتجول فى المدينة ليلا ؛ فكانت الأنوار تسطع فى جنبات المدينة ، كما كانت محلات التجارة تفتح فى الليل بدل النهار. وكان السرور يعم الجميع لهذه المناظر التى كانت تزيدها روعة الأنوار الصناعية ، حيث أخذ الناس يتنافسون فى تعليق الثريات على بيوتهم كى يكسبوا بذلك رضا الخليفة[2] .

وقد ظل الحاكم على عادته من التجول ليلا فى أنحاء المدينة الى عام ٣٩٣ هـ . وزاد فحرم على الناس الخروج ليلا من مغرب الشمس حتى مطلع الفجر : ففى سنة ٣٩١ أصدر أمره بمنع النساء من الخروج فى الليل ، وأتبع ذلك بعد قليل من الزمن بقانون آخر حرم فيه على الأهلين فتح محلاتهم للتجارة ليلا .

ويحدثنا السيوطى أن الحاكم رأى شيخا "يعمل التجارة فى أثناء النهار فقال له : الم تنهكم عن هذا ؟ فقال : يا سيدى ! أما كان الناس يسهرون لما كانوا يتعيشون بالنهار ؟ فهذا من جملة السهر ! فتبسم وتركه"[3] .

---

(١) الخطط (ج ٢ ص ٣٤١ و ٣٤٢) .

(٢) يحى بن سعيد (ص ١٨٥ ، ٢٠٥) .

(٣) السيوطى (طبعة القاهرة سنة ١٢٩٩ هـ ج ٢ ص ١٧ — ١٨) .

وفى سنة ٣٩٥ أصدر قانونا منع فيه النساء من الظهور سافرات[1] ، وألا يتبعن الجنائز أو يظهرن للناس فى حالة منافية للأدب والحشمة ؛ كما حرم أيضا أن يدخل أحد مطلقا الحمامات بدون إزار[2] .

وقد ذكر لنا الذهبى عند كلامه على حوادث سنة ٤٠٤ أن الحاكم منع النساء من الخروج من المنازل ومن الظهور فى أعلاها ، ومن دخول الحمامات العامة ؛ كما منع أيضا أن يصنع صانعو الأحذية أحذية خاصة بهن . وزاد على ذلك أنه كان اذا توفيت امرأة ، ذهب أحد أقاربها الى قاضى القضاة[3] وأعلن اليه نبأ وفاتها ، وطلب اليه أن يجيز لإحدى النساء أن تذهب معه لتتولى أمر غسلها وما اليه . وكان قاضى القضاة طبقا للأمور المتبعة يحيل المسألة الى صاحب المعونة ؛ وهذا يختار احدى النساء لقضاء هذه المهمة ، وينددب معها اثنتين يحرسانها ، حتى تفرغ مما انتدبت له وتعود الى منزلها[4] . ويتضح ذلك مما جاء فى عبارة الذهبى التى ننقلها للقارئ بنصها : "فاذا ماتت امرأة جاء وليها الى قاضى القضاة يلتمس غاسلة ، فيكتب الى صاحب المعونة ، فيرسل غاسلة مع اثنتين من عنده ، ثم تعاد الى منزلها" .

على أنه من الحق أن نقول إن كثيرا من التبعة يقع على عاتق النساء أنفسهن لما نالهن من تضييق للحرية . ذلك أنهن كن يكثرن الخروج ليلا وينغمسن فى حمأة الملاهى والرذائل . ولهذا يحدثنا ابن خلكان[5] أن النساء قَبَعْنَ فى بيوتهن سبع سنوات ، حتى ارتقى عرش الخلافة ابن الحاكم ، وهو الظاهر (٤١١—٤٢٧ هـ)[6] .

---

(١) يحيى بن سعيد (ص ٢٠٨) .

(٢) المقريزى خطط (ج ٢ ص ٢٨٥) .

(٣) ذكر يحيى بن سعيد (ص ٢٠٨) أن وفاة أى امرأة انما كان ينبأ بها المحتسب لا قاضى القضاة .

(٤) الذهبى ، المكتبة الملكية بالقاهرة ، مخطوط ٤٢ ، ورقة ١٤٧ أ .

(٥) ج ٢ ص ١٦٦

(٦) ذكر يحيى بن سعيد (ص ٢٠٨) أن النساء ظللن على هذه الحالة الى سنة ٤٠٩ ، أى قبل وفاة الحاكم بسنتين .

وفى سنة ٣٩٥ أمر الحاكم بقتل جميع الكلاب[١] ، فخلت منها الطرقات ؛ كما حرم بيع "الفقاع" (الجعة) والترمس والسمك الذى لا فصوص له[٢] ؛ ونهى أيضا عن ذبح السليم من البقر الا فى عيد لأضحى[٣] . وكان العقاب الشديد نصيب من يعصى هذه القوانين ؛ فكان من يتهم ببيع شىء من من الممنوع بيعها يُشَهَّرُ ويُضْرب ثم يقتل[٤] .

ولقد أدت هذه الأعمال الى تحول كثير من المصريين — كما قدمنا — الى المذهب الفاطمى . كما كان من أثر هـذه القوانين الجائرة أن دخل كثير من الناس فى القاهرة وفى الجهات الأخرى فى المذهب الاسماعيلى ؛ ومعنى هذا دخولهم فى المذهب الشيعى[٥] .

وقد شُغل الحاكم فى سنتى ٣٩٦ و ٣٩٧ بقمع ثورة أبى رَكْوَه ، كما اضطرته تلك الثورة الى مصانعة السنيين ، والى القسوة على غير المسلمين . وقـد سبق أن أشرنا الى القوانين الأخرى التى سنها الحاكم فى سنة ٤٠١ ، والتى كانت وليدة التقلبات الفجائية فى سياسته حيال السنيين .

وقد كان من أثر انخفاض النيل الذى دام ثلاث سنوات متواليات تبتدئ من سنة ٣٩٨ هـ ، أن صدرت قوانين تحرم الاجتماعات للهو واللعب على شواطئ الخليج ، أو أن تفتح الأبواب والنوافذ على هذه الشواطئ . وتلتها قوانين أخرى يمنع بعضها سماع الموسيقى والاستمتاع بالألعاب وما اليها ، ويمنع البعض الآخر سماع المغنيات أو بيعهن[٦] .

وفى سنة ٤٠٢ هـ منع الحاكم بيع الزبيب قليلا أو كثيرا ؛ ونهى التجار من أن يستوردوه ، كما جمع كميات كبيرة منه وأحرقها . ومن نفقات اتلاف هذه الكميات البالغة خمسمائة دينار — على مايحدثنا به ابن خلكان — يمكننا أن نتصور مقدار ما أحرق من الزبيب . وفى هـذه السنة أيضـا منع بيع العنب ، وأرسل رسله الى الجـزيرة[٧] فقطعوا ما بها من الكروم وألْقَوْها للثيران فداستها .

(١) ذكر يحيى بن سعيد (ص ١٨٨) أن كلاب الصيد كانت مستثناة .

(٢) ابن خلكان (ج ٢ ص ١٦٦) .

(٣) لم يكن لهذا الأمر الذى أصدره الحاكم خاصا بالبقر أية صلة بالرسوم الشيعية . وقد ذكر لنا أبو المحاسن (ج ٢ رقم ٢ ص ١٣٤) أن الخليفة الظاهر أصدر فى سنة ٤١٧ أمرا يقضى أيضا بمنع ذبح البقر الصالح لحرث الا فى عيـد الأضحى ؛ وأرسلت بذلك الكتب فقرئت باسم الخليفة .

(٤) ابن خلكان (ج ٢ ص ١٦٦) .

(٥) أنظر العبارة التى أوردتها عن سياسة الفاطميين فى دار العلم والقصر فى الباب الثالث .

(٦) المقريزى خطط (ج ٢ ص ٢٨٧) .

(٧) المراد بها هنا طبعا جزيرة الروضة .

كذلك أرسل الحاكم الى حكام الولايات بأن ينحوا هذا السبيل ، كما منع بعد ذلك أن يشترى أحد أكثر من أربعة أرطال من العنب دفعة واحدة ، خشية أن يتخذ منه نبيذا . وشمل هذا المنع أيضا العسل ، حتى لقد جمع خمسة آلاف جرة ، وذلك ما كان بالمخازن ؛ وألقى بها فى النيل حيث أهرق ما بها ، كما أهرقت أيضا احدى وخمسون زجاجة من عسل النحل . وتبع ذلك أن حرّم بيع الرُّطَبِ ؛ فقد جمعت منه مقادير كبيرة ثم أحرقت[١] .

وفى سنة ٤٠٤ هـ (١٠١٣ — ١٠١٤ م) نهى الحاكم أيضا أن يسترشد الناس بالنجوم ، وأن يباشروا علم الفلك ، وأمر بنفى جميع المنجمين عن البلاد ؛ فاستغاثوا بقاضى القضاة مالك بن سعيد الفارقى ، وتابوا على يديه مما ظنه الحاكم جريمة . وبذلك ألغيت عقوبة النفى ؛ وعومل نفس هذه المعاملة المشتغلون بالموسيقى[٢] .

وبعد وفاة الحاكم (٤١١هـ) وتولية ابنه الظاهر (٤١١—٤٢٧هـ) ، تمتع المصريون مدة ولايته بالسلام والطمأنينة . وهذا ما كان مرجوا ، لأن الظاهر كان رجلا عاقلا حليما دمث الأخلاق عادلا ؛ فألغى القوانين التى كان قد أصدرها أبوه ؛ وتشتهر هذه الفترة بالعدل الشامل والعمل لصالح الرعية[٣] .

وفى أواخر عهد المستنصر (٤٢٧ — ٤٨٧ هـ) ظهرت روح العِداء والكراهة إزاء أهل السنة ، عندما تقلد أمير الجيوش بدر الجمالى مقاليد الحكم وحكم البلاد حكما مطلقا ؛ فأمر باضافة "حى على خير العمل" إلى الآذان ، ونقش لعن الصحابة على الجدران ، كما أمر بأن يكون التكبير على الميت خمسا فقط[٤] .

---

(١) ابن خلكان (ج ٢ ص ١٦٦) ، والمقريزى خطط (ج ٢ ص ٢٨٧) .

(٢) يحيى بن سعيد (ص ٢٠٠ و ٢٠٢ و ٢٠٦) .

(٣) يحيى بن سعيد ص ٢٣٤ و ٢٣٥ ، وابن القلانسى ص ٨٠ ، وأبو المحاسن . المجلد الثانى رقم ٢ ص ١٣٠

Corpus Inscriptionum Arabicarum, Tome II. Egypte, p. 86.

(٤) أبو المحاسن المجلد الثانى (ج ٢ رقم ٢١ ص ٢٧٦) .

وفى عهد المستعلى (٤٨٧ — ٤٩٥هـ) ، الذى سار على نهج أبيه فى التعصب للشيعة ، زاد النياح والصياح والبكاء والعويل فى اليوم العاشر من المحرم ، وهو اليوم الذى قتل فيه الحسين ، وظهر ذلك بصورة لم تعهد من قبل . ولكنه كان مع الأفضل بن بدر الجمالى مسلوبَ السلطة والارادة كما كان المستنصر مع أبيه بدر . وبعد سنة ٤٦٧ هـ أصبح النفوذ والسلطان المطلق فى يد الوزراء . وكان التحمس للمذهب الشيعى ونصرته ، أو إضعافه ومناهضته ، تابعا لرغبة الوزراء وميولهم .

ولما تولى أبو علىّ أحمد بن الأفضل الملقب بالأكمل وزارة الحافظ (٥٢٤ — ٥٤٤ هـ) ، عزله وشل يده عن التصرف فى أمور الدولة فى سنة ٥٢٤ ، ومنع الناس من زيارته إلا باذن منه ؛ ثم استولى على ما فى القصر ، ومنع ذكر اسم الخليفة فى الخطبة . ولما كان يدين بمذهب الإمامية ، أمر بالدعاء للامام المنتظر فى الخطبة ؛ وبذلك قضى على شىء من تقاليد المذهب الاسماعيلى الذى كان منتشرا الى عهده . كذلك أمر الخطباء بذكر اسمه فى الخطبة ، وبتلقيبه بألقاب اختارها لنفسه ، مثل "ناصر إمام الحق ، وهادى القضاة إلى اتباع شرع الحق واعتماده ، مُولى النعم ، ورافع الجور عن الأمم ، مالك فضيلتى السيف والقلم"[١] .

ولم يكن هذا كل ما عمله الأكمل . فقد زاد على ذلك أن عين فى سنة ٥٢٥ هـ أربعة من القضاة : اثنين من الشيعة ، واثنين من السنيين . وكان القاضيان الشيعيان أحدهما إماميا والآخر اسماعيليا . أما السنيان ، فكان أحدهما شافعيا والآخر مالكيا . وأعطى لكل السلطة المطلقة فى إصدار أحكامه على وَفْق مذهبه . وقد حدثنا المقريزى أن هذه السياسة التى انتهجها أبو علىّ الأكمل أثارت غضب دعاة الشيعيين وحنقهم ، وكذلك الأمراء وغيرهم من أعيان المتشيعين ، حتى دبروا مؤامرة لاغتياله .

وفى اليوم السادس عشر[٢] من المحرم سنة ٥٢٦ ، بينما كان الأكمل سائرا فى طريقه ممتطيا جوادا لمشاهدة لعبة الكرة ، كمن له جماعة من أنصار الخليفة . ولما اقترب منهم هجم عليه أحد غلمان الخليفة وقتله ، واحتز الباقون رأسه . بعد ذلك أطلق هؤلاء الغلمان سراح الخليفة ، ودانوا له بالطاعة والعبودية ، وهاجم الناس بيت الوزير وانتهبوه[٣] .

(١) ابن ميسر (ص ٧٥) .

ويلقب الأكمل أيضا بكَتيفات أو كُتيفات . ويرجح الأستاذ فييت (G. Wiet) أن اسمه كَتيفات ، لأنه كان فى بغداد زمن البساسيرى طبيب اسمه كتيفات (القفطى ص ٢٦٧) .

(٢) ويقول أبو المحاسن (المجلد الثالث ، ج٣ رقم ١ ص ٤) إن هذه الحادثة كانت فى العشرين من هذا الشهر . ويخالفه فى ذلك ابن ميسر (ص ٧٥) والمقريزى (خطط ج ١ ص ٤٩٠) ، الذى يقول إن إطلاق سراح الحافظ كان فى السادس عشر من هذا الشهر ، وإن الحكومة اتخذت هذا اليوم عيدا سنويا تقام فيه الاحتفالات بخلاص هذا الخليفة .

(٣) ابن خلكان ج ١ ص ٢٧٩ و ٣٨٠

واستمرت الحال على ذلك إلى سنة ٥٢٦هـ ، وهى السنة التى قتل فيها الأكمل . وبذلك عادت السلطة ثانية إلى الاسماعيلية ، وبقيت على ذلك إلى أن جاء صلاح الدين ؛ فعمل فى سنة ٥٦٤ هـ على القضاء على الخلافة الفاطمية ، وحبس الخليفة العاضد آخر الخلفاء الفاطميين ، واضطهد الأمراء وكبار رجال الدولة ، وأسس فى سنة ٥٦٦ مدرستين لتعليم الفقه : إحداهما على مذهب الإمام الشافعى ، والأخرى على مذهب الأمام مالك .

وبسعى قاضى قضاته صدر الدين عبدالملك بن درباس ، صرف صلاح الدين جميع قضاة الشيعة (٢٢ جمادى الثانية سنة ٥٦٦) ، وعين بدلهم قضاة من السنيين الشافعية الذين كان يدين بمذهبهم . وبذلك أخذ المصريون يرجعون شيئا فشيئا إلى المذهب السنى ، وهو المذهب الذى كانت له السيادة من قبل الدولة الفاطمية ، وأخذ المذهب الشيعى بنوعيه الاسماعيلى والإمامى يضمحل من الديار المصرية ، إلى أن قضى عليه نهائيا[1] .

---

(١) أبو شامه (طبعة القاهرة) ج ١ ص ١٩١

الباب السابع

ثروة مصر . صلات الخلفاء

١ – مصادر ثروة مصر

لم يكد يتم فتح شمال إفريقية حتى وجه الفاطميون أنظارهم إلى فتح مصر ، لعلمهم أنهم سيجدون من ثروتها ما يساعدهم على نشر عقائدهم فى ميادين أخرى أوسع مما فى بلاد المغرب ، ولأنهم يستطيعون بذلك أيضا نشر حضارة فاطمية تنافس حضارة الأمبراطورية العباسية ، بل وتتفوق عليها .

وفى الحق إن ثروة مصر الضخمة مكنت الفاطميين من بسط سلطانهم على الشام وفلسطين والحجاز بعد أن فتحوا مصر بقليل ، كما تسنى لهم بعد قليل أيضا أن يقيموا الدعوة باسمهم فى الموصل واليمن ، بل وفى بغداد أيضا نحوا من ثمانية أشهر .

يضاف إلى ذلك أن نظام الضرائب الذى وضعه يعقوب بن كلس وعُسلوج بن الحسن ، كانت نتيجته أن زاد خراج مصر بمقدار كبير فى المحرم من سنة ٣٦٣ ، حتى لقد كان خراج الفسطاط وحدها يتراوح بين ٥٠,٠٠٠ و ١٢٠,٠٠٠ دينار فى اليوم ، كما زاد خراج مدن دمياط وتنيس والأشمونين عن ٢٠٠,٠٠٠ دينار من تلك السنة ؛ وذلك كله أمر لم تعهده مصر من قبل[١] .

على أن تلك الثروة الضخمة أغرت الفاطميين ، فأسرفوا فى نفقاتهم التى جرهم اليها البذخ وحب الظهور ، حتى لقد أصبح ذلك من مميزات الدولة الفاطمية ؛ فكانت النتيجة التى لامناص منها أن انحطت أخلاق الأهلين ووقعت البلاد فريسة ذلك الانحطاط ؛ وكان ذلك أحد أسباب انحلال الدولة الفاطمية وسقوطها فى النهاية .

---

(١) ابن ميسر .

وقد ذكر لنا ابن اياس (ج ١ ص ٤٦) نقلا عن المسبحى أن خراج مصر بلغ فى عهد جوهر ٠٠٠و٢٠٠ر١ دينار . لمعرفة خراج مصر فى عصورها المختلفة منذ الأزمان القديمة ، يراجع الفهرس الذى عمله إفتس لكتاب أبى صالح المسمى "كنائس وأديرة مصر" (Evetts' Index to Abu Salih's "Churches and Monasteries of Egypt")

٢ — عرش الخلفاء الفاطميين

استقر المعز منذ وصوله للقاهرة سنة ٣٦٢ هـ (٩٧٢ م) هو وأسرته وحشـمه وأتباعه وغلمانه وعبيده فى القصر الذى ابتناه وأثثه له جوهر القائد ؛ وفى إحدى غرف القصر اتخذ المعز عرشه الذى نقل المقريزى[1] لنا وصفه من كتاب " الذخائر والتحف " . فقد ذكر أنه كان به من الذهب ما يزن ١١٠,٠٠٠ مثقال ، كما كان ما رصع به الستر ١,٥٦٠ قطعة من الجواهر المختلفة الألوان ؛ وكان هذا الستر — وهو من عمل الوزير اليازورى — موضوعا قبالة العرش ، وقد حُلِّى بما زنته ٣٠٠,٠٠٠ مثقال من الذهب الخالص .

٣ — هدية جوهر للمعز

وفى منتصف شهر رمضان من سنة ٣٦٢ ، مَثَـل الأشراف والزعماء وكبار الموظفين بين يدى الخليفة ، فقدمهم إليه جوهر . وبعد ذلك تقدم قليلا إلى الأمام ، وأرى الحضور هديته التى أعدها لمولاه ؛ وكانت — كما يقول المقريزى[2] نقلا عن ابن زولاق وهو من الثقات فى هذا الموضوع — تتألف من مائة وخمسين فرسا مسْرجة ملْجمة ، بعضها مـذهَّب وبعضها مرصع ، والبعض الآخر مُعنبَر ، وإحدى وثلاثين قبـة على نوق بَخاتى بالديباج والفُرش . وكان من هـذه البخاتى تسع نوق محملة بالحرير ، كما كانت النوق الأخرى ولودا . واشتملت الهدية أيضا على ثلاث وثلاثين بغلة ، كان منها سبعة ملجمة مسرجة ، تتبعها مائة وثلاثون بغلة معدّة للنقل وتسعون نجيبا ؛ كما اشتملت على أربعة صناديق يرى ما بداخلها ؛ وجعل فيهـا أوانى الذهب والفضـة . وكان فى الهدية مائة سيف محلاة بالذهب والفضة ، ودرجان من فضة مخرقة فيهـا ثمين الجواهر والشيشان الموصعة بالجواهر .

ولم يكن هذا كل ما قدّمه جوهر لمولاه فى هذا اليوم . فقد اشتملت الهدية أيضا على سعمائة آنية فيها طرائف مختلفة انتخبها له هذا القائد من ذخائر مصر .

(١) الخطط ج ١ ص ٣٨٥ و ٣٨٦

(٢) شرحه ج ١ ص ٣٨٥

٤ — الكُسوة[1] التى عملها المعز للكعبة

ويتبين لنا مدى ثروة مصر فى ذلك الوقت من وصف الكسوة التى أمر المعز بعملها للكعبة ، كما يبين لنا هـذا أيضا كيف نافست مصر بغداد ، بل كيف تفوقت عليها وعلى غيرها من المراكز الإسلامية . ففى يوم عرفة أمر المعز بنصب الكسوة التى اتخذها للكعبة على الإيوان الذى جعله لعقد الجلسات الرسمية .

وكانت هـذه الكسوة مربعة الشكل من ديباج أحمر ، وسعتها مائة وأربعة وأربعون شبرا ؛ وكان فى حافاتها اثنا عشر هلالا ذهبيا ، فى كل هلال إترجة ذهبية ؛ وفى داخل كل منها خمسون درة تشبه بيض الحمـام فى الكبر ، كما كان فيها الياقوت الأحمر والأصفر والأزرق . وقد نقش فى حافاتها الآيات التى وردت فى الحج [2] بحروف الزمرد الأخضر ، وزينت هذه الكتابة بالجواهر الثمينة . وكانت هذه الكسوة معطرة بمسحوق المسك ؛ وكانت موضوعة فى القصر بحيث يراها جميع الناس من داخل القصر أو من خارجه[3] .

---

(١) اللفظ الذى استعمله المقريزى هنا هو "شمسية" ؛ ويريد به طبعا الستور التى كانت تكسى بها الكعبة . وقد تناول كترمير (Quatremère) الكلام على اشتقاق هذا اللفظ فى المجلد الثانى من تاريخ المماليك فى مصر الذى عربه عن المقريزى (ويعرف باسم كتاب السلوك فى معرفة دول الملوك) . وتبعا لمـا ذكر كترمير ، نجد هذا اللفظ (شمسية) مستعملا فيما يأتى :

١ — نافذة مربعة فى أعلى الحوائط ، تترك مفتوحة عادة ، أو تزين بالزجاج حسبما يشاء المرء من مرور الهواء أو الضوء فقط (رحلة ابن بطوطة ، طبع وترجمة ديفريميرى وسانجيتى D.C. Defrémery et B.R. Sanguenetti) ، (باريس سنة ١٩١٤ ج١ ص١٩٩) . وفى هذه الرحلة يقول ابن بطوطة فى وصفه لجامع دمشق ، ان به أربعة وسبعين من شمسيات الزجاج ؛ وجاء ذكر شمسيات الزجاج فى عبارة المقرى عن جامع قرطبة فى كتابه "نفح الطيب" (ج١ ص٢٩٣) . وعند كلام المقرى على المسجد الجامع بمراكش ورد فى نفس هذا الجزء (ص ٢٦٧) ما يأتى : "وفى أعلاه ثلاث شمسيات تسمى ومانات" وفى كتاب هست المسمى" مراكش وفاس "ص ٢٦٥ (Host: Morocco and Fez) جاء لفظ شمسة ، ويراد بها النافذة .

٢ — مظلة : فقد جاء فى تاريخ ابن خلدون أن الخليفة خرج من خيمته وعليه الشمسية ؛ وهنا أقول ان كترمير استعمل فى هذا الموضوع لفظ parasol ، ومعنى هذا المظلة الخاصة بالسيدات . لكنى أفضـل استعمال لفظ (umbrella) الدال على المظلات التى يستعملها الرجال ، لأنها أكبر وأصلح لاستعمال الخليفة .

٣ — الكسوة أو الستور ، فقد جاء ذلك فى المقريزى فى خططه (نقلا عن ابن ميسر فى تاريخ مصر ص ٤٤ ، ومن الأول أخذ كترمير) . فانا نجد فى المقريزى "أن المعز أمر بنصب الشمسية (يراد بها هنا كما قدمنا الكسوة التى معناها الستر) التى عملها للكعبة على ايوان القصر .

أنظر ترجمة كترمير لكتاب "السلوك فى معرفة دول الملوك" (Histoire des Sultans Mamlouks) للقريزى ، المجلد الثانى ، الجزء الأول ص ٢٨٠ — ٢٨١

(٢) القرآن الكريم سورة ٣ آية ٩٥ ، وسورة ٩ آية ٣

(٣) ابن ميسر ص ٤٤

٥ ــ دار الوزير ابن كلس وثروته

وفى وصف قصر الوزير ابن كلس وبيـان ما تركه من الثروة ما يكفى لأن يبين ثروة البـلاد فى ذلك العصر . ولقد سبق أن ذكرنا أن ابن كلس كان يشجع العلوم والفنون ، وأنه كان يجمع الاجتماعات الكبيرة فى بيتـه فى كل يوم خميس ، ويقرأ على المجتمعين مؤلفاته . وكان يحضر هذه المجتمعات القضاة والفقهاء ، وأساتذة القراءات والنحاة ، وعلماء الحديث وكبار رجال الدولة أصحاب المواهب الممتـازة ، وكان يتقدم إليه الشعراء حين ينتهى الاجتماع فينشدونه مدائحهم .

وكان يجمع فى قصره عددا كبيرا من الموظفين : يشتغل بعضهم بكتابة نسخ من القرآن، وبعضهم ينسخ شيئا من كتب الحديث والفقه والأدب وبعض كتب العلوم حتى الطب. وكان هؤلاء النساخ يراجعون مايكتبونه ، ويضيفون اليه علامات الشكل والنقط ؛ وكان من بين الفقهاء الذين يحضرون مجلس ابن كلس رجل اسمه الحسين بن عبد الرحيم ، يلقب بالزلازلى ، وهوصاحب كتاب الأسجاع .

وجعل ابن كلس فى قصره جماعة من القراء والأئمة ، وعين لهم الرواتب الخاصـة ووكل إليهم اقامة الصـــلاة فى المسجد الذى بناه فى هـــذا القصر . وكذلك جعل ابن كلس فى قصره مطابخ خاصة له ولأضيافه ، وأخرى لغلمانه وحاشيته وأتباعه . وكانت تُمد فى كل يوم مائدة كبيرة للعلماء وصفوة كتابه وأتباعه ولأضيافه ، وموائد أخرى تمد لحجابه وحاشيته وسائر الكتاب[1] .

وجعل فى القصر أيضا ميضأة للطهور وثمـان غرف كانت معدة على الدوام لمن يأتى اليه من الأغراب . وكان يجلس بعد صلاة الصبح كل يوم ، فيدخل الناس للتسليم عليه ، ثم تعرض عليـه الرقاع بظُلامات الناس وحاجاتهم؛ واتخذ كمولاه العزيز عددا من الضباط منح كلا منهم رتبة القائد؛ فكانوا يصحبونه فى غدواته وروحاته ؛ ومع هؤلاء القواد جماعة من الموالى أطلق على كل منهم لقب القائد أيضا .

---

(١) ابن خلكان (ج ٢ ص ٤٤١) نقلا عن المسبحى .



لوح من الرخام مزين بصور الأسماك والحمام
وهو من العهد الفاطمى



شاهد من الرخام عليه كتابة بالخط الكوفى
من أوائل القرن السادس الهجرى

ولم يفت هذا الوزير تحصين قصره ودور غلمانه بالدروب[1] ؛ فاتخذ لذلك حراسا أمدهم بما يحتاجون اليه من السلاح والعدد وسائر المؤن ، وأعد لهم وسائل البيع والشراء ، حتى أصبح يحيط بداره ودور أتباعه الحوانيت التى تباع فيها كل أنواع الحاجيات من مأكل ومشرب وملبس[2].

وزادنا المقريزى أن هذا الوزير جعل فى قصره عدة دواوين ، بعضها للعزيزية[3] ، والبعض الآخر للجيش والمالية والكتاب (السكرتيرية) والسجلات وما يتعلق بجباية الخراج ؛ وجعل لكل ديوان ما يلزمه من الكتاب . وجعل هذا الوزير أيضا فى قصره مخازن للملابس والمشروبات وبيت المال والسجلات ؛ وكان لكل منها مدير خاص يشرف على أعمالها .

وأفرد الوزير فى قصره جانبا خاصا للعلماء والشعراء والأدباء والفقهاء وعلماء الكلام والصناع ؛ وجعل لكل طائفة من هؤلاء قسما يخصهم ، كما رتب لكل من الجميع راتبا يدفع اليه بانتظام . ولم يفته أن يجعل فى قصره مستشفى فيه عدد كاف من الأطباء يقومون بفحص المرضى ووصف ما يلزمهم من الأدوية التى كانت تعطى اليهم بدون ثمن .

لم يكن هذا كل ما اتخذه ابن كلس من وسائل الأبهة والعظمة . فقد كان فى قصره عدا ذلك طائفة من الحجاب يرتدون الملابس الحريرية ، ويتقلدون السيوف ويتمنطقون بالمناطق . وقال المقريزى إنه فى شهر رمضان كانت تقام الولائم فى قصر هذا الوزير ، فكان يأتيها الفقهاء ومشاهير الرجال ، كما كان يدعى اليها الفقراء وعامة الناس .

---

(١) كانت الدروب عبارة عن حارات غير نافذة ، فكان فى نهاية كل منها باب .

(٢) ابن خلكان (ج ٢ ص ٤٤٠ و ٤٤١) نقلا عن المسبحى .

ذكر ابن خلكان (ج ٢ ص ٤٤١) أن الحارة التى تعرف فى القاهرة بالوزيرية ، وهى الواقعة داخل باب سعادة ، تنسب الى أصحابه لاتخاذها سكنا لهم .

(٣) يقصد بديوان العزيزية ، كما يظهر من اللفظ ، الديوان الذى ينظر فى الأمور التى تتعلق بشخص الخليفة مباشرة ، كالحرس وشئون معينة .

ويحدثنا ابن منجب[١] أن عطاء الوزير من الخليفة العزيز كان مائة ألف دينار[٢] (اكثر قليلا من ٥٠,٠٠٠ جنيه) كل عام ، وأنه ترك بعد وفاته من الغلمان الشبان أربعة آلاف ، ومن الجواهر الثمينة ما قدرت قيمته بأربعمائة ألف دينار ، ومن المصوغات ما بلغت قيمته خمسمائة ألف دينار ، وأنه حين توفى كان عليه للتجار ستة عشر ألف دينار ، فقضاها عنه الخليفة العزيز من بيت المال وأداها لأصحابها على قبره .

هذه هى حياة أحد وزراء الصدر الأول من أيام الفاطميين ، وتلكم هى ثروته الضخمة التى يحدثنا ابن منجب[٣] أنها بلغت أربعة ملايين دينار ، عدا مائتى ألف دينار خصصها لينفق منها فى زواج ابنته ، وعدا ستمائة حظية[٤] ، وأرضا أعطيت له على سبيل الالتزام قدرت بثلثمائة ألف دينار . ويحدثنا ابن خلكان[٥] أيضا أن ما أنفق فى تكفين ابن كلس وفى العطر الذى استعمل لتجهيز جسمه بلغ عشرة آلاف دينار .

---

(١) (ص ٢٣)

(٢) هذا اللفظ مشتق من ديناريوس Denarius (Aureus) الأغريق اللاتينى ، وهو ، أى الدينار ، اسم وحدة من العملة الاسلامية القديمة . ومنذ أدخل الخليفة عبد الملك ٦٥ — ٨٦ هـ (٦٨٤ — ٧٠٥ م) اصلاحه فى السكة سنة ٧٧ هـ (٦٩٦ م) ، أصبحت قيمته ثابتة (أنظر لفظ Dinar فى دائرة المعارف الاسلامية) . ومن ذلك الحين أصبح يضرب الدينار فى كافة دور الضرب فى أرجاء الامبراطورية الاسلامية طوال العهد الأموى . وكان وزن الدينار ٦٥ حبة ، والدرهم ٤٣ حبة ؛ وظل الأمر كذلك حتى العصور الأسلامية المتأخرة . وكان عيار الدنانير العباسية ٠,٩٧٠ ؛ وظلت هذه النسبة مرعية قرونا طويلة ، كما كانت تلاحظ أيضا فى الدنانير التى تصدر عن دور الضرب عند الفاطميين والموحدين ، وأحيانا عند المرابطين . وكان الدينار يساوى أول الأمر عشرة دراهم ؛ غير أن ذلك كان يختلف بين عصر وعصر (Lane-Poole, Coins and Medals, pp. 165-167)

وقد ذكر لين پول (Lane-Poole, the Story of Cairo, p. 59) أن الدينار كان عملة ذهبية تساوى فى الوزن نصف الجنيه الانجليزى المسمى guinea ، وأنه — كما ذكره المقريزى — كان ٣٦ درهما ؛ وعلى هذا فيكون الدرهم ثلاثة بنسات ونصفا .

أنظر المقدسى (طبعة دى غويه ص ٢٤٠)

(٣) (ص ٢٣) .

(٤) أطلق الأستاذ مرجوليوث فى كتابه " القاهرة وبيت المقدس ودمشق " (Prof. Margoliouth, Cairo, Jerusalem and Damascus, p. 27) عليهن زوجات .

(٥) (ج ٢ ص ٤٤٣ ، نقلا عن ابن عساكر) .

وفى الحق ، ان البذخ والاسراف هما من مميزات الدولة الفاطمية كما قدمنا . فهذا ابن منجب يقول إنه لما مات برجوان وزير الحاكم ، وجد فى خزائن ملابسه ألف سروال دَبيق[1] وألف تكة حريرية ، وكمية كبيرة من الملابس الأخرى والأثاث والآلات الموسيقية [2] والكتب والطرائف المختلفة[3] .

هذا ، وقد كانت سلطة الوزير فى الصدر الأول من أيام الفاطميين محدودة ، اذ كان يتوقف بقاؤه فى مركزه على تمتعه بتعضيد الخليفة ورضاه ؛ ولذلك نرى المقريزى يذكر لنا أن ابن كلس صُرف عن الوزارة فى سنة ٣٧٣ هـ (٩٨٣ — ٩٨٤ م) ، واعتقل فى القصر ثمانية أشهر ، ثم أطلق بعدها ، وألقيت اليه مقاليد الأمور من جديد ، ووهبه الخليفة بهذه المناسبة خمسمائة غلام من الناشئة وألفا من الموالى المغاربة[4] .

غير أنه فى العهد الأخير من أيام الفاطميين (٤٦٦ — ٥٦٧ هـ و ١٠٧٣ — ١١٧١ م) ، عند ما صار الوزير رب السيف والقلم ، ضعف نفوذ الخلفاء كثيرا ، بحيث أصبحوا طوال هذا العهد تقريبا تحت نفوذ الوزراء الذين استفحلت قوتهم وتضخمت ثروتهم ؛ فأعانهم ذلك على أن يعيشوا معيشة قوامها حب الظهور وما يستدعيه ذلك من سرف وبذخ أكثر مما كان عليه أسلافهم فى العهد الأول .

---

(١) نسبة الى مدينة دبيق الواقعة بين الفرما وتنيس ؛ وقد اشتهرت بما كان يصنع فيها من الملابس .
أنظر كتاب الموشى (طبعة برينو Brünnow) ص ١٢٤ وترجمة أسامة بن منقذ ص ١٢٠ . أنظر هذا اللفظ أيضا فى معجم البلدان لياقوت ، وكتاب " مذكرات جغرافية وتاريخية " تأليف كترمير (Quatremère) ج ١ ص ٣٤٠ ،
Von Kremer: Culturgeschichte des Orients, vol. II, p. 289.

(٢) ذكر المقريزى أن برجوان كان شديد الولع بالموسيقى .

(٣) ابن منجب ص ٢٨

ترك لنا ابن اياس (ج ١ ص ٥١ و ٥٢) صحيفة طويلة بما تركه برجوان . غير أنه لا يمكننا الاعتماد طبعا على كلامه اذا علمنا أنه يقول إن برجوان ترك مائتى مليون دينار ذهبا ، وخمسين أردبا من الدراهم الفضية . أما الدراهم ، فمع أن هذا القدر بعيد أن يتركه برجوان ، فانه رغم ذلك ممكن القبول . وأما الدنانير فأحسب ابن اياس قد غلط فى تقديرها ، أو غلط الناسخون فى نقلهم ذلك عنه . ولو قال مليونين ، لكان قريبا من الصواب ، وبخاصة اذا عرفنا أن المدة التى وليها برجوان لم تكن من الطول بحيث تتسع لجمع هذا القدر من المال .

(٤) المقريزى خطط (ج ٢ ص ٦)

٦ – ثروة الوزراء فى العهد الأخير من أيام الفاطميين

أما عن ثروة الوزراء الفاطميين فى هـذا العهد ، فقد أمدنا ابن ميسر بمعلومات طريفة فى هذا الموضوع . فقد ذكر لنا فى كلامه عن الثروة التى خلفها الأفضل (٤٨٧ – ٥١٥ هـ) بن أمير الجيوش بدر الجمالى ، ما كان من ركوب الخليفة الآمر ٤٩٥ – ٥٢٤ هـ (١١٠١ – ١١٣٠ م) الى دار الوزير وختمه عليها بعد وفاته .

ففى صبيحة الغد بعد صلاة العيد ، غُسِّـل جثمان الوزير وكُفِّن وورى التراب ؛ ثم أمر الخليفة بنقل ثروة الوزير الى دار الخلافة ، وجعل على ذلك جماعة من الكتّاب يقومون باحصائها . وتم ذلك فى أكثر من شهرين بين سمع الخليفة وبصره ، حيث كان يقضى صـدر النهار فى الجزء الذى عين من قصره لنقل تلك الثروة اليه ، كما كان يقضى سائر النهار فى أحد دور الوزير ليعمل الترتيب اللازم . ويظهر لنـا من عبارة ابن ميسر أن الخليفة قضى معظم وقته فى الاشراف على نقل ما فى دار الوزارة ودار الملك[1] . وهذه الدار — كما ذكر المقريزى فى كلامه عن مناظر الخلفاء الفاطميين — بناها الأفضل سنة ٥٠١ هـ (١١٠٧ – ١١٠٨ م) ، ثم صارت بعد وفاته ضمن مناظر الخلفاء . وقد جعل الأفضل مسكنه الخاص فى هذه الدار ؛ فنقل الى بعضها الدواوين ، كما جعل فيها محال خاصة تقام فيهـا الأسمطة فى الأعياد ، واتخذ فى احدى أبهائها مجلسا يجلس فيه للعطاء ، كانت تعقد فيه الجلسات . وسمى هـذا المجلسُ مجلسَ العطاء ، اذ كان الوزير يجلس فيه ويعطى دينـارا لكل من يأتيه مستجديا .

---

(١) قد يظن من لفظ دار الملك أن الأفضـل كان يلقب بالملك أيضا ؛ ولكن اعتمادا على ما ذكره أسامة بن منقذ (ص ٢٢) ، نرى أن هذا اللقب لم يضف الى ألقاب الوزير قبل سنة ٥٣٠ هـ (١١٣٥ – ١١٣٦ م) . وقد كان رضوان بن الولخشى وزير الخليفة الحافظ يلقب بالسيد الملك الأفضل ؛ وظل الوزراء الفاطميون يتمتعون بهذا اللقب منذ ذلك الحين .

ابن خلكان ج ١ ص ٦٦٠ ، والمقريزى خطط ج ١ ص ٤٣٨ و ٤٨٣ – ٤٨٥ ، **Ravaisse, Essai sur la Topographie du Caire d'après Maqrizi (Mémoires publiées par les Membres de la Mission Archéologique française du Caire, tome III. Paris, 1887, pp. 470–471).**

وقد كان الأفضل يحتفظ لذلك فى دار العطاء بثمانية أكياس من حرير، فى سبعة منها خمسة وثلاثون ألف دينار ؛ كما جعل فى قاعة اللؤلؤ بجوار الحشية التى كان يجلس عليها كيسين : فى أحدهما دنانير، وفى الآخر دراهم ينفق منها اذا كان فى الحرم . أما ما كان فى مجلس العطاء، فكان يعطى منها للستجدين كما قدمنا وللشعراء .

وقد ذكر المقريزى أن الأفضل كان اذا انفرط عقد المجلس أمر بكتابة ما أنفق من كل كيس على البطاقة التى كانت ترفق به ، ثم يمضيها ؛ وتبقى فى الكيس ويختم عليه . ولما جاء رجب سنة ٥١٢ (١١١٨م) تضاعف عدد الأكياس وتوالى الاحسان بصورة تنم عن البذخ ؛ فأغدقت العطايا على الشعراء فى جوامع مصر المتقاربة من قصر الوزير، وعلى الفقراء بجى القرافة[١] .

والآن فلنعد الى ثروة الأفضل ، فنجد أن ابن ميسر يقول عنها : " فوجدوا له من الذخائر النفيسة ما لا يحصى : فوجد له ستة آلاف ألف دينار عينا ، وفى بيت الخاصة ثلاثة آلاف ألف دينار ، وفى البيت البرانى[٢] ثلاثة آلاف ألف ومائتين وخمسين ألف دينار ، وخمسين أردبا دراهم ورق ، وثلاثين راحلة من الذهب العراق المعزول برسم الرقم ؛ وعشرة بيوت فى كل بيت منها عشرة مسامير ذهب ، كل مسمار وزنه مائتا مثقال ، عليها العمائم المختلفة الألوان[٣] ؛ وتسعمائة ثوب ديباج ملونة ، وخمسمائة صندوق من دق دمياط وتنيس برسم كسوة بدنه ؛ ولعبة عنبر على قدر جسده برسم ما يعمل عليها من ثيابه ليكسب الراحة . ومن الطيب والنحاس والالات ما لا يحصى عددا ؛ ومن الأبقار والجاموس والأغنام والجمال ما بلغ ضمان ألبانه وضياعه أربعين ألف دينار فى السنة ؛ ودواة يكتب منها مرصعة بالجواهر ، قوم جوهرها باثنى عشر ألف دينار ؛ وخمسمائة ألف مجلد من الكتب "[٤] .

وقد ذكر لنا ابن ميسر أيضا طرفا من ثروة الأفضل العظيمة — نقلا عن الخازن بالقصر — حسب ما تذكره ذلك الخازن الذى يقول ان هذا كان قلا من كثر مما استطاع أن يتذكره عند ما ذكر هذا الأمر .

---

(١) المقريزى ج ١ ص ٤٨٣ و ٤٨٤

(٢) يحتمل أنه دار الوزارة فى أجناح من دار الملك والقاهرة .

(٣) هذه المسامير كانت تستعمل مشاجب لتوضع عليها العمائم .

(٤) ابن ميسر ص ٥٧

من ذلك أنه وجد فى دار الأفضل (دار الملك) ستة آلاف ألف وأربعمائة ألف دينار من الذهب ، وسبعمائة طبق ما بين فضـة وذهب ، وما لا يحصى من الأدوات كالدِّلاء والصِّحاف وأكواب الشراب ، والأباريق والقدور والأوانى المستعملة فى اللبن (الزبادى) ، وغير ذلك من القطع المختلفة من الذهب والفضة . وكان هناك غير ذلك شيء كثير من البَرَانى[١] الصينى الكبيرة المملوءة بالجوهر ، الذى كان بعضه منظوما على هيئة عقود ، وسائره منثورا .

كما كان مما تركه الأفضل أيضا تسعون ألف ثوب عَتَّابى[٢] من الديباج ، وثلاث خزائن كبيرة ممتلئة بالثياب الدَّبيقية من صنع تنيس ودمياط ، وخزانة أخرى للطيب مملوءة بأسفاط العود وغيره ، مكتوب على كل منها وزنه ونوعه ؛ أما أوانى المسك والكافور والعنبر فكانت من الكثرة بحيث لا يمكن عدها[٣] .

وكان فى ثروة الأفضل غير ما تقدم أربع حجرات ملأى بالمقاطع والستور والفُرُش والوسائد والمساند الديباج ، وأنواع مختلفة من الدبيق الحرير المذهب ، وعدة صناديق ملأى بأحقاق الذهب خاصة لاستعمال الوزير ، وخزائن أخرى ملأى بمختلف الثياب الديباجية المحلاة بالذهب .

أضف إلى ذلك أربعة آلاف من البسط والستور المصنوعة من خيوط السجاد ، وخمسمائة قطعة من البلور ما بين كبيرة وصغيرة ، وخمسمائة قطعة مُحُكم[٤] لنقل الأمتعة ، وألف عِدل من أمتعة اليمن والاسكندرية وبلاد المغرب ، وسبعة آلاف سرج . ولم يكن هذا كل ما خلفه الأفضل من ثروة . فقد كان فى بيته ثمانمائة جارية ، منهن خمسون حظية ، لكل واحدة منهن حجرة تخصها[٥] .

أما مجلس شرب الأفضل فقد وصفه لنا ابن ميسر ، إذ ذكر أنه كان فيه ثمانية تماثيل لثمان جوار متقابلات ؛ وكان منهن أربع بيض من الكافور ، وأربع سود من عنبر . وكن مرتديات أنفر الثياب ومتزينات بأثمن الحلى ، ويمسكن بأيديهن أحسن الأحجار الكريمة .

---

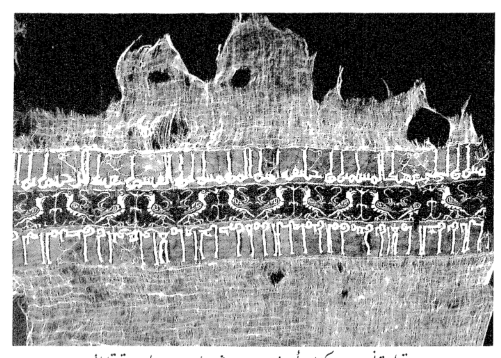
(١) جمع برنية وهى إناء معروف .

(٢) نوع من الثياب الحريرية ، تنسب كما ذكر دوزى فى شرح تاريخ هذا اللفظ ، الى ابن حفيد عميرة المسمى عتاب ؛ واليه ينسب حى ببغداد ، وفيه تصنع هذه الثياب التى صارت تعرف بالثياب العتابية (أنظر Dozy, Supplément)

(٣) ابن ميسر ص ٥٧

(٤) لم أعثر على معنى هذا اللفظ رغم رجوعى الى قاموس دوزى المسمى قاموس الملابس عند العرب (Dozy, Dictionnaire des Vêtements chez les Arabes) والى غيره من الموسوعات العربية كالقاموس المحيط للفيروزبادى .

(٥) ابن ميسر ص ٥٨



قطعة نسيج من كتان أبيض مزين بشريط به صور طيور متقابلة



قطعة نسيج من كتان مزينة بجامات على أرضية حمراء

وكان الأفضل إذا دخل من باب المجلس ، نكّسن رءوسهن إجلالا له ؛ فاذا ما أخذ مكانه فى صدر المجلس استوين قائمات . وهذه التماثيل لم يبين لنا ابن ميسر — وهو المرجع الوحيد فى هذا الموضوع — إن كانت حركاتها تلك من تلقاء نفسها أو بوسائل أخرى . والظاهر أن ذلك منها كان بوسائل هندسية مرتبطة بمكان دخوله إلى مجلسه .

وكان الأفضل حين يجلس للشرب يجعل فى مجلسه صوانى الذهب مصفوفة ، وفيها الأوانى المملوءة بالجوهر . فاذا أمر جُعل ما فى الآنية على الصينية فيملؤها ، ويجعل بدله الشراب[1] .

هذا ، وقد ذكر متولى الخزانة فى القصر الذى استمد منه ابن ميسرهذه المعلومات الطريفة : "هذا ما حضرنى حفظه فى داره ؛ وأما ما كان فى مخازنه وتحت يد عماله ، والجباة وضمان النواحى ، وأصناف الغلال والحبوب والقطن والكتان ، والشمع والحديد والخشب وغير ذلك ، فما لا يحصى".

أما عن أخلاق الوزير فيقول ابن ميسر : "كان الأفضل من العدل وحسن السيرة فى الرعية والتجار على صفة جميلة... ولم يعرف أحد صودر فى زمانه"[2] .

هذا هو مبلغ ثروة الوزير فى العهد الفاطمى الأخير . ومما ذكره ابن ميسر والمقريزى نستطيع أن نبين ما كان هناك من القوة والثروة ، والحالة الاجتماعية ، والحياة الخاصة التى عاشها الوزراء وغيرهم من أصحاب المراكز الكبيرة . ولاشك فى أن الوزير فى هذا العهد كان يتمتع بالسلطة المطلقة ، كما كان فى قبضة يده خراج الدولة ؛ وكانت داره المحور الذى تدور عليه أعمال تلك الدولة الواسعة التى لم تكن تابعة للخلفاء إلا اسما فقط .

وإن كثيرا من ثروات هؤلاء الوزراء كانت تصادر عند وفاتهم ؛ إلا أن بعضها كان يرد إلى من يخلفهم من أبنائهم . فقد روى أبو المحاسن أن أبا على أحمد بن الأفضل لما آلت إليه السلطة بعد أبيه ، حبس الخليفة الحافظ سنة ٥٢٤ هـ (١١٣٠ م) واستولى على مافى القصر ، زاعما أن ذلك كان لأبيه . غير أن الخليفة قد استرد هذه الثروة بعد وفاة الوزير وجعلها فى قصره[3] .

وقد كان هذا النزاع بين الخلفاء والوزراء من المميزات التى امتاز بها هذا العهد الفاطمى الأخير ؛ وربما كان ذلك نتيجة تولى الأطفال عرش هذه الدولة . وقد يكون الأستاذ مرجوليوث مصيبا

---

(١) ابن ميسر ص ٥٨

(٢) شرحه ص ٥٨ و ٥٩

(٣) أبو المحاسن ج ٣ رقم ١ ص ٣

فيما يراه من أن تسنم أطفال للعرش كان مبعثه حب اطلاق الحرية للوزراء ، مما كان سببا لمصائب كثيرة نزلت بالوزير والخليفة جميعا[١] .

على أنه فى عهد انحلال الدولة الفاطمية ، لم يكن الخلفاء بأقل انفاقا فى سبيل الكرم مما كان عليه أسلافهم فى أيامهم الأولى ؛ فقد ذكر ابن ميسر أنه لما مات الأفضل ، كان على قبره أربعمائة وعشرون شخصا من القراء والوعاظ والمنشدين ؛ فأمر الخليفة الآمر ٤٩٥ — ٥٢٤ ﻫ (١١٠١ — ١١٣٠ م) لكل منهم بثمانين دينارا . وبالرغم من اعتراض أحد رجال بطانته استكثارا لذلك القدر ، أمضى الخليفة ما أراده ؛ وكان مجموع ذلك نحو الأربعة وثلاثين ألف دينار أخذت من بيت المال[٢] .

٧ — ثروة الخلفاء الفاطميين ويسرهم

لاشك أن ثروة الخلفاء كانت أعظم من ثروة وزرائهم . وإن ماذكرناه فى وصف عرش المعز وهدية جوهر إليه ، والكسوة التى عملت برسم الكعبة ، ليبين لنا مبلغ ثروة مصر فى أيام الخلفاء ، وثروتهم وحالة البذخ التى كانت تسود مظاهرهم . أما وصف القصر وما كان فيه من كنوز ، فذلك ما سنتكلم عليه بعد .

يقول لين بول : "إن الخلفاء الفاطميين كانوا أكثر الملوك الذين حكموا مصر حبا للظاهر" . ومع هذا يقول : " إن ثروات الفاطميين كما دونها المؤرخون ليس من الممكن تصديقها بدون تردد ، فاننا نقرأ فى المقريزى أن بنتين للمعز قد تركت إحداهما (واسمها رشيدة) مايقرب من مليون ونصف من العملة الذهبية (١,٧٠٠,٠٠٠ دينار كما جاء فى المقريزى أى زهاء ٣/٤ مليون جنيه) ، وتركت الأخرى (عبدة) كثيرا من خزائن الحلى والصناديق التى تحتوى على خمسة أكياس من الزمرد ، وثلثمائة قطعة فضية ، وثلاثين ألف ثوب صقلى ، وغير ذلك من الذخائر ، حتى كان الشمع الذى استخدم فى الختم على هذه الثروة أربعين رطلا . كما أنا نقرأ أيضا أن المعز اشترى ستارة من الديباج من فارس بما يقرب من اثنى عشر ألف جنيه"[٣] .

---

(١) Prof. Margoliouth: Cairo, Jerusalem and Damascus, p. 39.

(٢) ابن ميسر (ص ٦٠)

(٣) The Story of Cairo, p. 133. (ص ١٣٣) (مقتبسا من الخطط المقريزى (ج ١ ص ٤١٥) .

(أ) جامع القرافة

فى سنة ٣٦٦ هـ (٩٧٦ — ٩٧٧م) أنفقت تغْريد زوجة المعز أموالا جمة على تشييد مسجد لها بالقرافة . وقد قام برسم المسجد الحسن بن عبد العزيز الفارسى المحتسب ؛ وتولى زخرفته ونقشه جماعة من الفنانين من أهل البصرة ؛ وكان يحيط بهذا الجامع من غربيه حديقة غناء وصهريج . واختط هذا المسجد على شكل مربع الزوايا ؛ وفى جوانبه أروقة كالأزهر ؛ بيد أن نقوشه كانت فى غاية الابداع . أما بابه فكان ذا مصطبة كبيرة تحت المنارة العالية ، وكان مصفحا بالحديد . وكانت المقصورة يدخل اليها من أربعة عشر بابا مربعة ، أمام كل باب قنطرة مقوسة على عمودين من الرخام فى ثلاثة صفوف . وكانت الأبواب مُكَنْدَجَة[١] مدهونة بالأزرق والأحمر والأخضر ، كما كانت السقوف ملونة بمختلف الألوان . وكان أمام الباب الأوسط قنطرة على هيئة قوس ، ملونة بألوان مختلفة ، يكاد الناظر اليها يخالها شكلا طبيعيا ؛ وقد حاول النقاشون أن يحاكوها فما استطاعوا[٢] .

وقد أمرت زوجة المعز الحسن بن عبد العزيز المحتسب الذى رسم مسجد القرافة ، فبنى لها قصر القرافة فى سنة ٣٦٦ . وكان يتصل بهذا القصر بستان لطيف وحمام وبئر ؛ وكان — كما يقول المقريزى[٣] — قصرا نخما يسر الناظرين ، يتردد عليه أهلوه طلبا للراحة . وكان بهذا القصر قنطرة مقامة على قبو يستظل به المسافرون من الشمس .

وفى الخطط للمقريزى أن اثنين من الفنانين كان ينافس أحدهما الآخر : هما القَصِير وابن عزيز العراق ، وكانا يتمتعان بحماية الوزير وتعضيده . وكان من أمرهما أن صوّر أحدهما راقصة فى ثياب بيض فى قوس ملون بالسواد ، يحسبها الناظر داخلة فيه ؛ وصوّر الآخر فتاة أخرى بثياب حمر فى قوس أصفر ، يخالها الناظر بارزة عن القوس . وقد نالا بذلك إعجاب الوزير ؛ فخلع عليهما ووهبهما ذهبا كثيرا . ويزيدنا المقريزى أنه كان فى إحدى دور القرافة صورة للكُتَّامى أحد نقاشى جامع القرافة ، تمثل يوسف عليه السلام يتهيأ للراحة وهو فى الجب[٤] .

---

(١) هو لفظ معرب عن كَنْدَه ومعناها مجوف .

(٢) المقريزى خطط (ج ١ ص ٤١٥) .

(٣) شرحه (ج ١ ص ٤٨٦) .

(٤) (ج ٢ ص ٣١٨) .

ويستطرد المقريزى فى الكلام على هذا القصر ، حتى يذكر أن الخليفة الآمر جدده سنة ٥٢٠ هـ (١٠٢٩ م) ؛ وكان يجلس فى أعلاه ويشاهد ذكر الصوفيين من نافذة عملت لذلك ، وألويتهم بين أيديهم والشموع تضىء لهم ؛ وكانت تقام لهم الموائد وعليها ما لذ وطاب من سائر أنواع الأطعمة .

وقد أمر الخليفة الآمر عند انتهاء الذكر[١] ، بجىء بألف نَصْفيَّة[٢] من خزائن الكُسوة[٣] ، فوزعت على الحاضرين . وأمر صاحب بيت المال فأحضر ألف دينار من بيت المال ؛ ونثر كل ذلك على الناس من النافذة التى كان الخليفة يشاهد منها الذكر . واختفى بعض هذه الدنانير فى الأرض ، فاشتغل كثير من الناس بغربلة الأرض طلبا لها فى الأيام القليلة التى تلت هذه الحادثة[٤] .

وقد فاقت دولة العزيز ٣٦٥—٣٨٦ هـ (٩٧٥—٩٩٦ م) ، الذى بنى مسجد القرافة وقصرها فى عهده ، دولة أبيه فى اتساع الرقعة : إذ دعى له على منابر الجوامع من بلاد العرب الى المحيط الأطلسى . وكان العزيز خبيرا بالجواهر ؛ وقد ابتدع نوعا جديدا من العمائم محلاة بخيوط الذهب ، وسروجا كذلك معطرة بالعنبر ، كما كانت أسلحته مُكفَّتة بالذهب أيضا . واقتنى كثيرا من الطُّرَف يزين بها موائده . وشغف كخمارويه بن أحمد بن طولون بجوارح الطير الغريبة ، وجلب لذلك الطيور والحيوانات من السودان ؛ وكان مغرما أيضا بالصيد ، وخاصة صيد السباع . ومع هذا فقد كان ذكيا أديبا ، وورث أباه فى مواهبه السياسية[٥] .

ولقد ابتنى كثيرا من المنشآت التى تنطق بغزارة ثروته ، والتى يحتاج الكلام عليها إلى مجلدات ؛ وذلك كالجامع المعروف بجامع الحاكم الذى أسسه سنة ٣٨٠ هـ ، وقصر الذهب وجامع القرافة العظيم ، وقصور أخرى فى عين شمس ، وقصر البحر الذى يقول فيه ابن خلكان لا يوجد شبيه له فى الشرق ولا فى الغرب[٦] .

---

(١) الذكر هو حمد الله وتمجيده وتنزيهه عن كل شائبة ونقص ؛ ولذلك أقوال ينشدونها بترتيل خاص ونغمات خاصة ، مثل الحمد لله ! الله أكبر ! وغير ذلك .

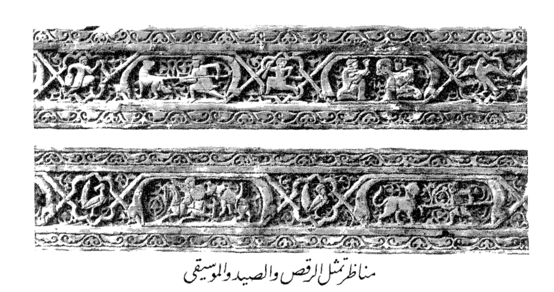
(٢) ثياب تصنع من خليط من الحرير والقطن (انظر Dozy, Supplément)

(٣) وبكسر الكاف أيضا . انظر القاموس المحيط للفيروز بادى ؛ وهى مشتقة من كلمة كساء أى لباس .

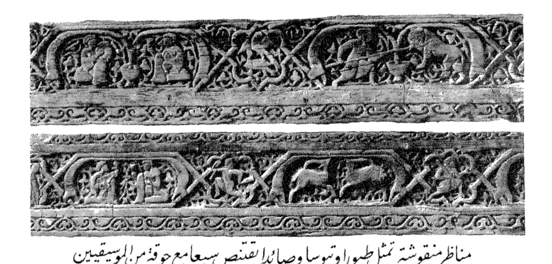
(٤) المقريزى خطط (ج ١ ص ٤٨٦) .

(٥) ابن خلكان (ج ٢ ص ٢٠٠) .

(٦) شرحه .



مناظر تمثل الرقص والصيد والموسيقى



مناظر منقوشة تمثل طيوراً وتيوساً وصائداً يقتنص سبعاً مع جوقة من الموسيقيين

وكان العزيز فوق ذلك كريما محبا للعفو ؛ وصنيعه مع إفتكين التركى خير مثل لذلك[١] . فقد عامله معاملة قوامها منتهى العطف والرعاية ، وقد جاء به أسيرا الى القاهرة حين عاد من حربه منصورا عليه ؛ إذ خلع عليه ووصله بهبات ، وخصص له دارا لإقامته ، ثم أذن له أن يدخل بلاط الخليفة ضيفا مكرما ؛ حتى لقد كان إفتكين يقول : "لقد احتشمت من ركوبى مع الخليفة مولانا العزيز بالله ونظرى إليه ، بما غمرنى من فضله وإحسانه" . فلما بلغ العزيز ذلك قال لعمه حَيْدرة : "ياعم ! أحب أن أرى النعم عند الناس ظاهرة ، وأرى عليهم الذهب والفضة والجواهر ، ولهم الخيل واللباس والضياع والعقار ، وأن يكون ذلك كله من عندى" .

(ب) الثروة التى خلفها الحاكم

كانت الثروة التى تركها الحاكم — كما يقول أبو المحاسن — عظيمة . ولا غرو فقد كان من بين الخلفاء الفاطميين مشهورا بحب العظمة ، حتى إن أبا المحاسن يقول ، ان الحاكم لما اتصل به خبر رسول إمبراطور الروم وأنه فى طريقه الى القاهرة ، وأنه قد يمثل بين يديه ، أمر بتزيين القصر ؛ فكان من بين الأكياس التى تحتوى على الحرير المشغول بالذهب كيس عليه رقم ٣٣١ .

وقد نقل كل ذلك إلى الإيوان المعد لاستقبال الرسول وعلق على حوائطه ، فغدا الايوان كله يتلألأ ببريق الذهب . وقد وضع أمام الايوان قطعة من العسجد على هيئة دَرَقة[٢] مرصعة بالأحجار الكريمة ؛ فكان لانعكاس أشعة الشمس عليها بريق يخطف الأبصار ويضىء ماحواليها[٣] .

ونرى فى العبارة التى أوردها أبو المحاسن عن ثروة ست الملك أخت الحاكم ، أن تلك الثروة اشتملت على ثمانمائة جارية ، وثمان جرات ملأى بالمسك ، وكثير من الأحجار الكريمة ، من بينها قطعة من الياقوت تزن ثمانية مثاقيل ؛ وكانت مخصصات هذه الأميرة السنوية خمسين ألف دينار ؛ وكانت مشهورة بالكرم والحلم[٤] .

---

(١) هلال الصابىء ، مسكويه ج ٣ ص ٣٨٤ و ٤٠٣ ، وابن القلانسى ص ٢٠ و ٢١

(٢) معربة عن لفظ فارسى هو "دَريجة" ، وهى درع بيضاوى الشكل غالبا ، وفيه نتوءات فى وسطه ، وله مقبض فى ظاهره ؛ ويتراوح طوله بين قدم ونصف وقدمين . وتصنع الدرقة غالبا من جلد فرس البحر وغيره من الحيوانات ذات الجلود السميكة ، وأحيانا من جلد التمساح (انظر Lane's Arabic-English Lexicon).

(٣) المقريزى خطط ج ١ ص ٤١٥ ، وأبو المحاسن ج ٢ رقم ١ ص ٧٧

(٤) شرحه .

(ج) زيارة ناصرى خُسْرو مصر

لقد أمدنا ناصرى خسرو ، ذلك الشاعر الفارسى ، حين زيارته لمصر فى سنة ٤٣٩ هـ (١٠٤٧ م) فى عهد المستنصر ، بوصف ضافٍ عن ثروة البلاط الفاطمى وأبهته ، وما كانت عليه القاهرة من يسر ورخاء .

وكان ناصرى خسرو وزيرا فى خراسان ؛ ثم اعتزل الأعمال السياسية ومال الى الدين ؛ فحج بيت الله ، وأصبح داعيا للاسماعيلية . وانه ليقص علينا فى كتابه "سَفَرْ نامه"(1) ما لاقاه فى رحلته الى مكة ، ثم الى دمشق فبيت المقدس ، وأخيرا الى القاهرة التى وصلها فى السابع من صفر سنة ٤٣٩ (٧ أغسطس سنة ١٠٤٧) ، فأقام فيها الى يوم الثلاثاء ١٤ ذى الحجة سنة ٤٤١ .

وبعد أن شاهد كثيرا من المدن العظيمة فى بلاد الفرس والعراق ، رأى أن القاهرة قد فاقت غيرها من مدن العالم الاسلامى فى العظمة والجلال . وكان مغاليا فى الاسماعيلية ، فاعتبر القاهرة المركز الرئيسى للمذهب الذى يدين بعقائده ، كما اعتقد أيضا أن الفاطميين هم الأئمة حقا ؛ وقد عبر عن كل ذلك فى كتابه .

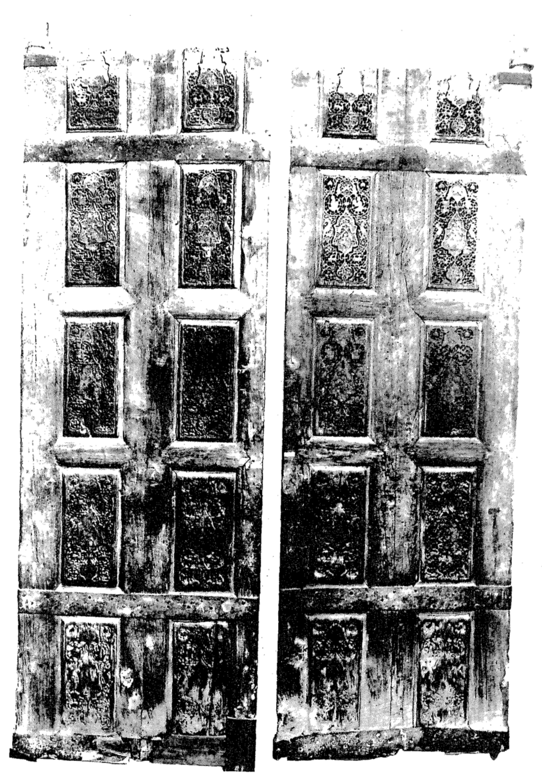
ويذكر لنا أن الفنادق والحمامات وغيرها من المنشآت العامة كانت كلها ملكا خاصا للخليفة . وكانت الدكاكين فى القاهرة كلها كذلك ملكا له ؛ وكان ايجار كل منها فى الشهر من دنارين الى عشرة دنانير(2) ؛ وكانت الدور محكمة البناء ، مبنية بالحجر لا باللبن ، يفصل بعضها عن بعض حدائق بهيجة (3) .

---

(1) النسخة الفارسية وترجمتها ، قام بنشرها وترجمتها شارل شيفير (Charles Schefer) ، باريس سنة ١٨٨١ .

(2) ناصرى خسرو "سفرنامه" ، ص ١٢٧

(3) شرحه ص ١٢٢



باب ذو مصراعين ، أصله من مارستان السلطان قلاون. وكان مركبا على أحد أبواب القصر الفاطمي الغربي

ويقول لنا ناصرى خسرو[١] أيضا انه كان بالقصر الملكى ثلاثون ألف[٢] جارية ، وانه كان فيه اثنا عشر بهوا (سلاملك) وعشرة أبواب[٣] . وكان موضعه وسط القاهرة التى كان بها عشر حارات[٤] . وكان حراسه ألفا : منهم خمسمائة فارس وخمسمائة راجل . واذا ما انتهت صلاة العشاء ضربت الطبول والأبواق وعزفت الصنوج ، وكون الحرس من أنفسهم دائرة ، وظلوا كذلك حتى مطلع الشمس[٥] .

(د) جبر الخليج

أما عن الاحتفال بوفاء النيل ، فنكتفى بذكر ما قاله ناصرى خسرو أيضا من أنه كان من أعظم الاحتفالات التى كانت تقام فى مصر فى كل عام . فقد كان يحتفل بوفاء النيل بحضور الخليفة المستنصر ، وفى ركبه عشرة آلاف فارس يمتطون الخيول المطهمة الملجمة ، ويلبسون الدروع المحلاة بالذهب والأحجار الكريمة ، المكسوة بديباج مطرز باسم الخليفة . ويلى هؤلاء صفوف من الجمال عليها هوادج مزركشة ، تقودها طائفة من جند الخليفة ؛ وكذا كانت عُدد البغال محلاة بالذهب .

أما الجند فكانت تسير فى صفوف منتظمة ، فصيلة تلو فصيلة ، ميممين فم الخليج ؛ والبربر من هؤلاء يسيرون فى عشرين ألفا من أشداء قبيلة كتامة (من قبائل البربر فى شمال إفريقية) من سلالة جند المعز . ويلى هؤلاء خمسة عشر ألفا من المغاربة ؛ ومن المصامدة[٦] عشرون ألفا . ويسير

---

(١) ناصرى خسرو ص ١٢٨

(٢) ذكر المقريزى أنه كان بالقصر ثمانية عشر ألفا ، منها عشرة آلاف من الأشراف وثمانية آلاف من الخدم . وفى عبارة أخرى للقريزى نقلا عن ابن عبد الظاهر ، أنه كان بالقصر حين استولى عليه صلاح الدين عند سقوط الدولة الفاطمية اثنا عشر ألفا كلهم من الإناث ، عدا الخليفة وأولاده .

(٣) ذكر لنا ابن دقاق (ج ٤ ص ٥٦ و ٥٧) أسماء أبواب القصر الشرقى الكبير وهى : باب الذهب ، وباب البحر ، وباب الريح ، وباب الزمرد ، وباب العيد ، وباب قصر الشوك ، وباب الديلم ، وباب تربة الزعفران ، وباب الزُهومة (أعنى الباب الذى يشتم منه رائحة اللحم) .

(٤) ناصرى خسرو ص ١٤٤ و ١٤٥

كانت أسماء هذه الحارات أو الأحياء كما يلى : حارة برجوان ، وحارة زَويله ، وحارة الجُدَرية ، وحارة الأمراء ، وحارة الديالمة ، وحارة الروم ، وحارة الباطلية ، وقصر الشوك ، وعبيد الشِّراء ، وحارة المصامدة . وفى المقريزى (خطط ج ٢ ص ٣ — ٢٠) تفصيل لهذه الحارات فى عبارة شائقة تبين أسباب تسمية بعضها بهذه الأسماء الخاصة .

(٥) ناصرى خسرو ص ١٢٨

(٦) قبيلة من قبائل البربر بشمال افريقية .

خلف هؤلاء وأولئك الأتراك والفرس فى عشرة آلاف ، و يطلق عليهم اسم المشرقيين ، ولو أن مسقط رأسهم هو مصر . و يتبعهم من بدو الحجاز خمسة عشر ألفا ، ومن السودان ثلاثون ألفا ، وكان يطلق عليهم عبيد الشراء [١] .

و يلى هؤلاء أيضا عدد غير قليل من الأرقاء ورجال الحاشية ، وكذلك الموظفون على اختلاف مراتبهم ، والشعراء والعلماء والأمراء [٢] من مراكش واليمن ، و بلاد النوبة والحبشة ، وآسيا الصغرى وجرجان وتركستان ، حتى الأمراء من أبناء سلطان دِهْلى — وكانت أمهم تقيم فى القاهرة .

أما الخليفة فكان شابا فى مقتبل العمر ، بهىَّ الطلعة حليقَ اللحية ، عليه كساء طويل [٣] ناصع البياض ، يمتطى بغلة عارية من كل ما يزينها . وكان حرس الخليفة يتألف من ثلثمائة من الديلم المشاة ، مرتدين الحلل السندسية المصنوعة فى بلاد الروم ، حاملين المعاول والمزاريق . ويسير الى جانب الخليفة أحد كبار رجال الدولة يحمل مظلة الخليفة [٤] ؛ و يحف بهما خصيان يطلقون البخور على جانبى الطريق . حتى اذا ما وصل الى الفسطاط المقام عند فم الخليج وسجد له الناس اكبارا واجلالا ، قذف المزراق فى سد النيل . ومن ثم ينطلق الناس يعملون فى هذا السد بمعاولهم ، فينساب الماء ، وعندئذ يهرع الناس الى زوارقهم فرحين جزلين ، يتقدمهم زورق يحمل جماعة من الصم والبكم تيمنا وتفاؤلا [٥] .

وأخيرا يقول ناصرى خسرو ان مصر كانت فى ذلك الوقت فى بحبوحة من العيش ، ويقول ان الخليفة كان محبوبا جدا من الشعب ، وانه لم يكن أحد يخشى سلبا أو تعديا فى ظل حكومته . ويقول فى كلامه عن أسواق القاهرة وحوانيتها الفخمة الغنية بما فيها من الطرف ، ان تجار الجواهر والصيارف لم يكونوا يحفلون بأغلاق حوانيتهم ، اذ لا يخشون عليها من اللصوص [٦] .

---

(١) أى الأسارى الذين كانوا يشترون بالمال .

(٢) يقول ناصرى خسرو (ص ١٣٩) ان هؤلاء قد كونوا من أنفسهم فصيلة متحدة ، غير أنها لم تكن معتبرة من جيش الخليفة ؛ وكان بعضهم يعطى معاشا قدره خمسمائة دينار على الأقل ؛ ويعطى البعض ألفى دينار . أما أن تكون هذه المعاشات لشهر أو لسنة ؛ فذلك ما لم يبينه ناصرى خسرو . ويبعد أنهم كانوا يتقاضون هذا المبلغ عن الشهر الواحد ، فان مالية الدولة لا تقوى على تحمل مثل هذه المبالغ اذا كانت شهرية .

(٣) يقول ناصرى خسرو ان ثوب الخليفة هذا كان من صنع دبيق ، وكانت قيمته ألف دينار .

(٤) كانت عمامة صاحب المظلة مزينة بالأحجار الكريمة ، وكان ثوبه من جنس ثوب الخليفة . أما المظلة فكانت مرصعة باللآلئ والأحجار الكريمة .

(٥) شرحه ص ١٣٦ — ١٤٢ وقد ترجم معظم ذلك لين پول فى كتابه The Story of Cairo, pp. 145, 146.

(٦) شرحه ص ١٥٥ — ١٥٦

(هـ) النفائس التى كان يحوزها الخلفاء الفاطميون فى عهد المستنصر

وبعد زيارة ناصرى خسرو لمصر بقليل ، حلت بالقاهرة الأيام السيئة وعاودتها المصائب التى لم تشعر بها قبل قرن من تأسيسها . وقبض على نواصى العناصر المتألبة المعادية على اختلافها فى هذه الأثناء الوزير اليازورى[1] مدة تسع سنين ، وبذل قصارى جهده فى معالجة خطر المجاعة التى كانت تهدد البلاد دائما ، تلك المجاعة التى كان يصحبها غالبا الوباء والبؤس العام ، وما يتبع ذلك من الفوضى والجرائم . ووجد اليازورى فى مخازن الغلال التى كان مستوليا عليها ما أبعد ذلك الخطر مدة حياته . غير أنه بعد قتله (صفر سنة ٤٥٠هـ و١٠٥٨م) لم يكن هناك من يقف فى وجه هذه العناصر المتطاحنة[2] .

ويبين لنا تزعزع مركز الحكومة ما كان من تعاقب أربعين وزارة مختلفة فى تسع سنوات . وقد كانت السلطة فى هذه الآونة بيد الجنود التركية ، وقد طردوا الجنود السودانية التى كانوا يكرهونها ، والتى كانت تعتمد عليهم أم الخليفة ، وكان عددهم خمسين ألفا ؛ فأبعدوا جهة الصعيد حيث استقر منهم خمسة عشر ألفا . وكان من أمرهم أن أخافوا الأهلين وحالوا دون زراعة الأراضى (٤٥٩ هـ) ؛ وقد اكتسح الفالة منهم ، وعددهم خمسة عشر ألفا ، الدلتا حتى وصلوا الإسكندرية فاستقروا بها .

---

(١) هو أبو محمد الحسن اليازورى بن علىّ بن عبد الرحمن ، من أهل يازور : وهى قرية من كورة الرملة . وقد عهد اليه بالوزارة فى السابع من المحرم سنة ٤٤٢ (١٠٥٠م) ، وسمح له بالبقاء فى منصبه الأول ، وهو مدير خاصة أم الخليفة . وكان يلقب بهذا اللقب المركب : وهو الناصر للدين ، غياث المسلمين ، الوزير الأجل المكرم ، سيد الوزراء ، تاج الأصفياء ، قاضى القضاة ، داعى الدعاة . وبقى فى منصبه حتى قبض عليه المستنصر فى أول المحرم سنة ٤٥٠ (١٠٥٨م) بتهمة مراسلته لطغرلبك السلجوقى ودعوته لغزو مصر . وأبعد اليازورى مع زوجاته وأولاده وخدمه الى تنيس ، حيث ظل محبوسا بها ، حتى أنفذ اليه الخليفة سيافا قطع رأسه (٢٢ صفر سنة ٤٥٠ و ١٠٥٨ م) . ثم أرسلت جثته الى القاهرة ، فألقيت فى مزبلة ثلاثة أيام ، أخرج بعدها وغسل وحنط وكفن ودفن — ابن منجب ص ٤٠ — ٤٥ وابن ميسر ص ٥ — ٨ و ٣٤ . وهذا الذى ذكره ابن منجب وابن ميسر يختلف عما ذكره لين پول فى كتابه "The Story of Cairo, p. 147" من ناحيتين : (أ) أن اليازورى مات مسموما (ب) وأن موطنه الأصلى بلد من كورة يافا .

(٢) ابن ميسر ص ١٣ و ١٤ و ١٦ و ١٧ — ٢٢ و ٣٤

اما الأتراك فقد انتهزوا تلك الفرصة وانتهبوا المدينة ، وارتكبوا أعمـال العنف والشدة لإيذاء الخليفة الذى لم يكن له ظهير ، والذى أصبح بيت ماله خلوا من المـال المطلوب لإرضاء مطـالبهم التى كانوا يركنون الى القوة فى سبيل الحصول عليها[١] .

وأتلف هؤلاء الأتراك فى ثورتهم قصور الخلفاء الجميلة ، وبددوا المجموعات الفنية التى لا تقوم ، والأحجار الكريمة والمجوهرات ؛ وأمرّ من هذا كله ، أنهم أغاروا على المكاتب المنقطعة النظير[٢] . وقد شل حركة الفلاحين ذلك الرعبُ الذى ألقته الجنود السودانيـة المشتتة فى جميع أنحاء البـلاد . ومع ذلك لم يكن هناك ما يخفف وطأة انخفاض النيل أو ما يساعد على زراعة الأراضى للفصل الجديد .

ولقد شعرت القاهرة ومصر اللتان حرمتا من الإمدادات التى كانت تأتيها عادة من الأقاليم بندرة الأقوات شعورا قاسيا . فقد بلغ ثمن الرغيف خمسـة عشر دينارا ، كما كانت تباع بعض المنازل بربع من الدقيق . وكان بعض كريمات النساء يعرضن حليهن النادر الثمين ، فلا يوجد من يشتريه فى مقابل شىء من الطعام ، وكانت الخيل والحمير والكلاب والقطط تباع بأثمـان فادحة ، ويقبل الناس الجياع على التهام لحمها .

وسرعان ما عَدِمت أمثال هذه الحيوانات فلم يوجد ما يذبح منهـا ، حتى إن اصطبل الخليفة قلت دوابه ، بحيث لم يستطع خدام الخيول الجياع جمع أكثر من ثلاثة أفراس صغيرة لمولاهم . وكانت نتيجة هـذا كله أن أصبح الناس يخطف بعضهم بعضا من الطرقات ، وأصبح لحم الأنسان يباع عند الجزارين[٣] .

وجاء بعد ذلك الوباء ، فحصد الأرواح بمنجله حصدا ذريعا ؛ فكان يكتسح الديار دارا بعد دار . ولم يكن هناك فرق بين عظيم وحقير ؛ بل نالت المصائب من الجميع على السواء ، حتى إن الخليفة نفسه ، الذى أتلف الأتراك ماله ، والذى كان معتزلا فى داره ، كان مدينا بحفظ حيـاته الى بنت أحد الفقهاء ، إذ كانت تجرى عليه رغيفين كل يوم . أما زوجته وبناته فقد فررن الى بغداد هربا من الطاعون .

---

(١) يقول ابن ميسر (ص ١٧) عند كلامه على حوادث سنة ٤٦٠ هـ ، ان مخصصات الأتراك التى كانت قبل ذلك عشرين ألف دينار فى الشهر (٢٤٠٠٠٠ فى السنة) ، بلغت فى ذلك الوقت أربعمائة ألف دينار فى الشهر (٤٨٠٠٠٠٠ فى السنة) .

(٢) شرحه ص ١٧ و ١٨

(٣) شرحه ص ٢٠

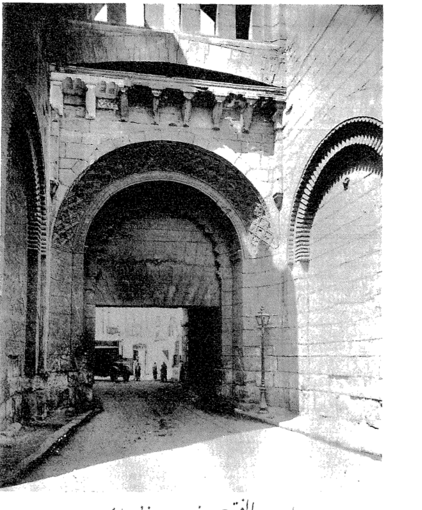


جامع الجيوشى ـ منظر خارجى للجامع على سفح جبل المقطم

SURVEY OF EGYPT



باب النصر. بنى سنة ٤٨٠ هـ



باب الفتوح. بنى سنة ٤٨٠ هـ

وقد ظلت مصر مدة سبع سنوات فى حالة يرثى لها من البؤس الذى أعقبته المجاعة وما صحبها من الجرائم ، وبلغت الحالة درجة لم تعرفها البلاد من قبل . وأخيرا انتهت تلك الأيام وما فيها من البلاء ، وجاءت غلة عام ٤٦٥ هـ (١٠٧٣ م) وفيرة . وفى رجب من هذا العام قتل زعيم أشراف الأتراك ناصر الدولة بن حمدان الذى هدد مصر بوضعها تحت سيادة بغداد ، وجاء الوزير الخطير بدر الجمالى ، فأنقذ الدولة الفاطمية المزعزعة الأركان[١] .

(و) النفائس التى كان يحوزها المستنصر

أمدنا ابن ميسر ببيان موجز عن كنوز المستنصر استمده من مجلد ضخم يقع فى نحو العشرين كراسة ، وقد اطلع عليه بنفسه . وكان يشتمل على بيان بما فى تلك الكنوز من طُرَف وأثاث وملابس وذهب وغيره ، مما نقل من القصر فى غضون ثورة الأتراك وبعدها . ويقول ابن ميسر أيضا ، إن من هذه النفائس ما أرسله البساسيرى الى مصر سنة ٤٥٠ هـ ، [٢] حين أقام الخطبة باسم الخليفة الفاطمى المستنصر على منابر بغداد ، وقد استولى عليها الأتراك أيضا سنة ٤٦٠ هـ . وكان مما بعث به البساسيرى ثلاثون ألف قطعة كبيرة من البلور ، وخمسة وسبعون ألف ثوب من الحرير الخُسْرُوانى[٣] ، وعشرون ألف سيف محلى بالذهب[٤] .

وقد أمدنا المقريزى ببيان آخر يضيق هذا المقام عن نقله . لكنا نذكر شيئا منه مثلا للثروة التى كان الخليفة المستنصر يملكها فى مبدأ سنة ٤٦٠ هـ (١٠٦٧ م) ، تلك الثروة التى تبين لنا مصادر ثروة مصر وما كانت عليه من يسر ؛ وذلك كله ما ساعد على تنفيذ سياسة

---

(١) وصف ابن منجب حالة مصر بإيجاز عند كلامه على وزارة بدر الجمالى (ص ٥٥ و ٥٦) .

راجع ما كتبه مسيو فييت (Wiet) عن بدر الجمالى فى مذكرات المعهد الفرنسى للآثار الشرقية فى القاهرة ، المجلد الثانى والخمسون Mémoires (Publiés par les membres) de l'Institut Français d'Archéologie Orientale du Caire (M.I.F.A.O.).

(٢) يقول المقريزى (خطط ج ١ ص ٤٣٩) ان هذه الذخائر أرسلت الى القاهرة سنة ٤٤٧ ، وفيها بدأت العلاقات العدائية بين البساسيرى والخليفة العباسى القائم ، وانتهت باستيلاء البساسيرى على بغداد سنة ٤٥٠ ، فأصبح فى مركز يسمح له أن يستولى على ما فى قصر الخليفة من الذخائر . غير أن سلطة البساسيرى لم تستقر فى بغداد قبل سنة ٤٥٠ . وعليه فان عبارة ابن ميسر (ص ٢٠) أقرب الى التصديق .

(٣) الخسُروانى أو الخسرَوانى نوع من القماش ينسب الى خسرو شاه أحد ملوك الفرس (انظر Lane's Arabic-English Lexicon)

(٤) يقول المقريزى : وكان من بين ممتلكات قصر الخليفة القائم التى أرسلها البساسيرى الى مصر ، ثوبه الخاص وعمامته التى لفها بيده (وكانت محفوظة فى صندوق من المرمر) ، وشباك فخم يصفه المقريزى بأنه كان كشرفة يجلس فيها الخليفة ويعتمد بيديه على حافته ، وكان مصنوعا من الخشب المتقاطع (انظر Lane's Arabic-English Lexicon) . ويقول المقريزى أيضا ان هذا الشباك نقل الى دار الوزارة واستعمله الأفضل ، وبقى فى الدار بعد وفاته الى أن نقل أخيرا الى دار الأمير بيبرس . أما عمامة الخليفة العباسى وثوبه الخاص ، فقد أعادهما صلاح الدين الى بغداد سنة ٥٦٧ هـ

الفاطميين . وكان من ضمن ثروة المستنصر شيء كثير ورثه عن آبائه ؛ فانتهبه الأتراك سنة ٤٦٠ ، كما استولوا على بعض ممتلكات القصر ، وعُرض البعض الآخر للبيع فبيع بأبخس الأثمان ؛ ووزع كل ذلك عليهم . وهذا بخلاف ثلاثين مليون دينار من الذهب تقاسمها الثوار الأتراك و " ليس لأحد منهم درهم واحد قبضه عن استحقاق ".

ويتبين لنا مما ذكره المقريزى أنه لم يتأخر شيء من عطاء الأتراك . ويمكن أن نضيف الى هذا ، أن الأتراك إنما ثاروا على الخليفة الذى لا ناصر له ، رغبة منهم فى الثأر من الجنود السودانيين المكروهين لهم والذين كانوا أنصار أم الخليفة ، وليحوزوا من الأسلاب ما تسمح لهم به الأحوال .

وقد كان من ممتلكات الخليفة الكثيرة التى لا تقوم بمال ، سيفه الخاص ، وسيف الخليفة المعز ، وسيف النبي صلى الله عليه وسلم ، وسيف الحسين بن على رضى الله عنه ، وسيف جعفر الصادق ، وكميات من الرماح والقِسى وغيرها من الأسلحة ، وعشرة آلاف سرج ، بعضها كان يساوى سبعة آلاف دينار[1] . وكذلك أكواب من العنبر ، وسبحة من الأحجار الكريمة تُقَوَّم بثمانين ألف دينار على الأقل (وبيعت بألفين فقط !) ، وصندوق من الجوهر قوم بثلثمائة ألف دينار (بيع بخمسمائة !) ، وأربع عشرة كيلة من الجواهر أيضا ، وألف ومائتان من الخواتم ما بين ذهب وفضة ، بيع ثلاثة منها مرصعة بالأحجار الكريمة باثنى عشر ألف دينار[2] .

يضاف الى هذا كله مقادير كبيرة من الصِّحاف وقطع البلور[3] ، وأوانى الذهب والصوانى المحلاة بالذهب ، واصص الزهر المنقوش عليها اسم هرون الرشيد ، وثمان وعشرون صينية أخرى محلاة بالذهب أيضا ، قُوِّم كل منها بثلاثة آلاف دينار ، كانت مهداة من امبراطور الروم إلى الخليفة العزيز ؛ وأطباق أخرى مزينة بالذهب ، وكثير من الصناديق الملأى بالمحابر المختلفة الأنواع والأحجام ، المصنوعة من الذهب والفضة والعاج والأبنوس وغير ذلك ، مرصعة بالجواهر والأحجار الكريمة[4] ؛ وصناديق عدة من السكاكين مذهبة ومفضضة ، بمقابض مختلفة الأنواع ، كلها مرصعة بالأحجار الكريمة أيضا[5] .

---

(١) الخطط (ج ١ ص ٤١٨) . (٢) شرحه (ج ١ ص ٤١٤) .

(٣) ذكر المقريزى (خطط ج ١ ص ٤١٤) أن أبا سعيد النهروانى أحد أمناء البيع اشترى فى أيام قليلة ثمانية عشر ألف قطعة من البلور ، قيمة بعضها ألف دينار .

(٤) ذكر المقريزى أيضا (ج ١ ص ٤١٤) أن بعض هذه المحابر قومت الواحدة منها بألف دينار ، عدا الأحجار الكريمة التى كانت مرصعة بها .

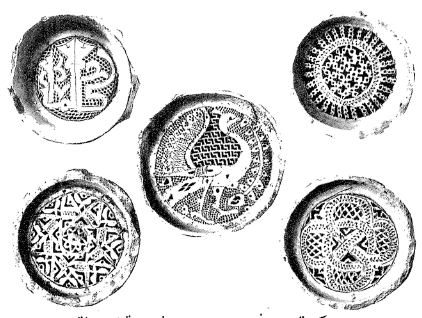
(٥) ذكر المقريزى (خطط ج ١ ص ٤١٤) أن هذه السكاكين بيعت بأبخس الأثمان ، وبلغ ثمنها كلها ستة وثلاثين ألف دينار .



طبق من خزف ذي بريق ذهبي



قدر من خزف ذي بريق ذهبي مزينة من الخارج بثلاث دوائر بكل منها صورة طائر في منقاره فرع نباتي

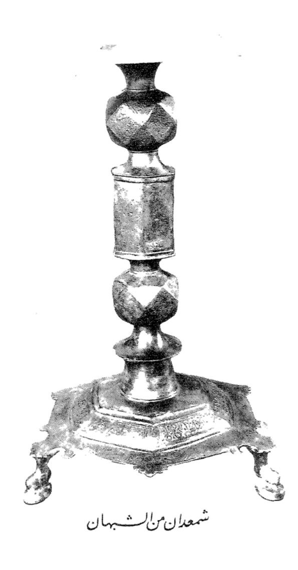


شبابيك قلل من فخار مزينة بزخارف تشبه الدنتلا





قطعتان من خزف ذي بريق ذهبي . على الأولى رسم المسيح عليه السلام
وعلى الثانية صور ثلاثة أشخاص مكتوب فوق أوسطها "أبو طالب"



شمعدان من الشبهان



ظهر مرآة من الشبهان

SURVEY OF EGYPT

يضاف إلى هـذا أيضا نسيج بديع مطرز بالذهب ، وكافة أنواع الأواني الخزفية ، وعدد كبير من الشِّطْرَنج رقعته من الحرير ، وقطعة من الذهب والفضة والعاج والأبنوس المحلى بالأحجار الكريمة ، وأربعمائة صندوق ملأى بالقطع الذهبية (حولت فيما بعد إلى نقود تقاسمها الثوار) ، وعمامة زنة ما فيها من الحلى سبعة عشر رطلا ، وثمـان وثلاثون زورقا تابعة للدولة ، أحدها من الفضة[1].

واشتملت الذخائر — زيادة على ما تقدم — على حصـيرة منسوجة بالذهب زنتها ثمـانية عشر رطلا ؛ ويقال إن بوران[2] بنت الوزير الحسن بن سهل جلست عليها يوم زفت إلى الخليفة العباسى المأمون ، وعدد كبير من المرائى المصنوعة من الصلب والمحلاة بالذهب والفضة ، والمحلى بعضها

---

(١) المقريزى (خطط ص ٤١٤ و ٤١٥) .

(٢) وصف لنا الطبرى (٢ : ١٠٨٤) وابن خلكان (ج ١ ص ١١٦) والمقريزى (خطط ج ١ ص ٤١٥) هذه القطعة الدقيقة من الفن .

وكان مهر بوران (التى كان اسمها أيضـا خديجة) (كتاب الديارات ، برلين ، مخطوطات ويمـار ، رقم ١١٠) ١٠٥٠٠٠٠٠٠ درهم . ويقول الطبرى (٢ : ١٠٨٣ و ١٠٨٤) إن المأمون مكث فى طريقه إلى بوران تسعة عشر يوما مع الحسن بن سهل (أبو بوران ووزير المأمون) الذى أمد المأمون بمـا كان يحتاج اليه هو وحاشيته . وبلغت النفقة فى ذلك ٥٠٠٠٠٠٠٠ درهم . وعند رحيل المأمون ، أمر لحسن بن سهل بعشرة ملايين من الدراهم وأن يعطى خراج فم الصلح ، (وهو أقليم على قناة كبيرة تعرف بهـذا الاسم ، تأخذ من دجلة فوق واسط وتقع بين هـذه المدينة وتل تقع عليـه عدة مدن صغيرة ، زوج فى أحدها الوزير الحسن ابنته للأمون — انظر معجم البلدان لياقوت) . وقد وزع الحسن ما أخذه من المأمون على قواد الخليفة وأتباعه وخدمه فى اجتماع عام ، وأعطاه المأمون أيضا خراج إقليم فارس والأهواز عن سنة واحدة (ابن خلكان ج ١ ص ١١٦) . وكلام الشابشتى قريب للتصديق ، متى علمنا أن الأخشيد تألم حين أرسل إليه الخليفة الفاطمى القائم مائة ألف دينار فقط مهرا لابنته لمـا اقترح عليه تزويجها لولى عهده . وهذا المهر القليل كان — كما يقول ابن سعيد (المغرب ص ٢٨) — سببا فى قطع العلاقات بين الأخشيد والخليفة الفاطمى .

ويستطرد الشابشتى فى الكلام عن زواج الرشيد (حين كان ولى عهد) فى المحرم سنة ١٦٦ فيقول إن النفقات بلغت من مال الخليفة المهدى (أبو هرون) ١٣٨٨٠٠٠ دينار ، وذلك عدا مبلغ كبير أنفقه الرشيد نفسه . ثم يستطرد فى الكلام فيذكر أن المأمون سأل زبيدة (زوجة الرشيد ، ولم تكن أم المأمون ، لأن أمه كانت خراسانيـة) عن مبلغ نفقات هذا الزواج ، فذكرت أنه يتراوح بين ٣٥٠٠٠٠٠٠ و ٣٧٠٠٠٠٠٠ درهم (يحتمل أن يكون الشابشتى نقله عن الطبرى ٢ : ١٠٨٥) ؛ ويمكن أن يكون أقدم مصدر فى هذا الموضوع هو "تاريخ بغداد" (طبعة ليزيج ١٩٠٨) لمؤلفه أبى الفضل أحمد بن أبى طاهر طيفور ، لأنه مات قبل وفاة الطبرى بنحو ثلاثين سنة ، أى سنة ٢٨٠ هـ . ولم يبين لنا الشابشتى إذا كان هذا المبلغ الذى ذكره أنفق على الاحتفال بالزفاف فقط ، أو أنه يشمل كافة ما أنفق فى هذا الزواج . وعلى الاحتمال الثانى يشتمل هـذا المبلغ على ما أنفق من المهر وعلى الجهاز من أثاث ومصوغ وما إلى ذلك ، وكذا فى الاحتفال بالزواج . وهذا الاحتمال الثانى هو المعقول عندى ؛ لأن الحسن بن سهل ذكر أن ما أنفق فى هذا الزواج ٣٥٠٠٠٠٠٠ درهم ، وذلك يشمل كل النفقات .

ومـا هو جدير بالملاحظة أن المبلغ الذى ذكره الشابشتى وهو ١٠٥٠٠٠٠٠٠ درهم ، إنمـا أتى به الحسن بن سهل والد بوران ؛ وهذا المبلغ بلا شك ضخم جدا .

أما وفاة بوران فكانت سنة ٢٧١ فى أيام المعتمد ، وكان لها ثمـانون سنة .

بالأحجار الكريمة أيضا ، وستة آلاف آنية للنرجس ؛ واثنين وعشرين ألف تمثال من العنبر ، وثمانمائة تمثال من الكافور على هيئة البطيخة ؛ وكان أحدها محفوظا فى شبكة من الذهب ، وهو مرصع بالأحجار الكريمة ، وزنته ثلاثة آلاف مثقال ، وآخر كان يزن ستة عشر ألف مثقال ؛ ونخلة من مختلف الجواهر والأحجار الكريمة ، وكان ثمرها كذلك أيضا ، ومع هذا يخالها الناظر طبيعية .

ومما بيع فى هذه الأثناء طاووس من الذهب مرصع بالجواهر النفيسة والأحجار الكريمة ، وعيناه ياقوتتان وريشه من الزجاج المموه بالذهب ، وديك من الذهب مرصع باللؤلؤ ، ومنضدة قوائمها من العقيق[١] .

وليس هذا كل ما تركه المستنصر من الكنوز . فاذا ما استثنينا الأحجار الكريمة والطُّرَف والعطور والأسلحة ، وجدنا أيضا عددا عظيما من الكنوز التى لا تُقَوَّم بمال فى خزائن أخرى مثل خزائن الأثاث والفرش .

وقد نقل المقريزى عن ابن عبد العزيز الأنماطى أحد أمناء البيع أن عدد مقاطع النسيج الخسروانى بلغ خمسين ألفا ، وكان أكثره مذهبا . ويقول المقريزى فى عبارة أخرى عن ابن عبد العزيز هذا إن عدد هذه المقاطع بلغ مائة ألف ؛ وكان منها حشية خسروانية بيعت بثلاثة آلاف وخمسمائة دينار ، كما بيعت حشية أخرى قَلَمُونية[٢] بألفين وأربعمائة دينار . وذلك كله عدا عشرين ألف قطعة جديدة من النسيج الخسروانى . وقد بيع هذا كله فى شهر صفر من سنة ٤٦٠ فى نحو خمسة عشر يوما[٣] .

وأخذ بعد هذا بقليل من خزينة الرفوف[٤] ألفا عدل من القماش الجديد المحلى بالذهب ، كما بيع من خزينة أخرى من خزائن الفرش ثلاثة آلاف قطعة من القماش الخسروانى المطرز لم يستعمل بعد ؛ وكان ذلك معدا لتأثيث بيوت كاملة بما تحتاج اليه من مساند ووسائد وحشيات و بسط وستور

---

(١) خطط (ج ١ ص ٤١٦)

(٢) نسبه الى قَلَمُون ، وهو نوع من القماش ذو ألوان براقة تتلألأ اذا انكسرت عليها أشعة الشمس . وكان أول ما ظهر فى بلاد اليونان ، ثم أصبح يصنع فى مصر وخاصة فى دمياط وتنيس (انظر معجم البلدان لياقوت و Dozy, Supplément)

(٣) المقريزى خطط (ج ١ ص ٤١٦)

(٤) يقول المقريزى (خطط ج ١ ص ٤١٦) إنها سميت بذلك لكثرة ما بها من الرفوف

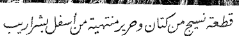


حشوة من خشب تشبه محرابا صغيرا يرتكز عقده على عمودين حلزونيين



قطعة من العاج منقوش عليها بين الزخارف النباتية صور أشخاص وحيوانات





قطعة نسيج من كتان وحرير منتهية من اسفل بشراريب



قطعة نسيج من حرير ارضيتها صفراء وبها صور طيور

SURVEY OF EGYPT

وأَحْبَاس[١] وغير ذلك ؛ وعدد عظيم من الحصير السامانى المشغول بالذهب والفضـة ، وأربعة آلاف عِدل من الخسروانى الجديد المطرز بالذهب ، وكان كل عدل منها كافيا لتأثيث غرفة بالبسط والستور وما إلى ذلك[٢] .

وكان من بين أمتعة القصر مِضْرَب الخليفة الظاهر ، وكان منسوجا من خيوط الذهب ومقاما على أعمدة من الفضة ؛ وكانت قيمته أربعة عشر ألف دينار . وكذلك مضرب الوزير اليازورى ، وكان مجموعة رسوم فنية ، كلفه ثلاثين ألف دينار ، واشتغل فى صنعه مائة وخمسون فنانا مدة تسع سنوات حتى أتموه . وكان ارتفاع أعمدته مائة وعشرين قدما ، واتساع محيطه ألف قدم تقريبا ؛ وقد نقشت على أحد جوانبه صور جميع حيوانات العالم[٣] .

وليس هذا كل ما يمكن أن يذكر من ثروة المستنصر. فقد كان فى القصر كثير من التحف الفنية، تركها الخلفاء الفاطميون الذين كانوا يشجعون العـلوم والفنون . وان فى وصف المقريزى الآتى لبعض مصوراتهم الثمينة المتقنة الرسم ، لدليلا على ما كانوا يجدونه من لذة خاصة فى الجغرافية والتاريخ. وتبين لنا طرافتها وما كانت عليه من إبداع واتقان اذا ما نظرنا الى مقدار ما أنفق على صنعها من الدنانير. ويقول المقريزى فى ذلك ان المعز خلف لنا خريطة كان قد أمر بعملها سنة ٣٥٣ (٩٧٣ — ٩٧٤م) من الحرير الأزرق التُّسْتَرى[٤] والقُرْقوبى[٥] المنسـوج بالذهب ، وكان مبينا عليها بالذهب كافة أقطار العـالم ، بمـا فيها من جبال وبحار وأنهار وطرق ومدن . ومن ذلك المدينتان المقدستان مكة والمدينة بشكل يتبينه الناظر لأول وهلة . وكان مكتوبا فى أسفل هذا المصوَّر: "ممـا أمر بعمله المعز لدين الله ، شوقا الى حرم الله واشهارا لمعالم رسول الله ، فى سنة ثلاث وخمسين وثلثمائة " . وهذا المصور الذى كلف المعز اثنين وعشرين ألف دينار قد استولى عليه ابن حمدان زعيم الأتراك سنة ٤٦٠هـ.

---

(١) جمع حِبْس وهو الملاءة

(٢) المقريزى (خطط ج ١ ص ٤١٦ و ٤١٧) .

(٣) شرحه (ص ٤١٩) .

(٤) التسترى نسبة الى تستر ، وهى معربة عن شُشتر ، أشهر مدن خوزستان (انظر Dozy, Supplément)

(٥) القرقب طائر يرى فى الندر والمستنقعات (انظر هـذا اللفظ فى معجم البلدان لياقوت) . ومن هذا اللفظ قيـل قـاش قرقبى ، وهو نوع من القماش كان يصنع أولا فى بلاد اليونان ، ثم أدخلت صناعته الى مصر ، فصار يصـنع غالبا فى دمياط وتنيس . وهذا القماش مشهور بألوانه اللامعة التى تتغير دائمـا ، لاسيما اذا انعكست عليها أشعة الشمس .

وقد وصف لنا المقريزى[١] مصورا آخر تركه الحاكم، فقال ان ذلك العمل الفنى الدقيق كان محلى بكيلتين من الجواهر والأحجار الكريمة ، وقد كلّف الحاكم سبعمائة ألف دينار ، غير أنه بيع سنة ٤٦٠ هـ بعشرين ألفا فقط .

وكان هناك بالقصر مصورات أخرى كثيرة كان حظها كحظ المصورات التى تكلمنا عنها . فان المقريزى يستطرد فى الكلام فيذكر أنه قد وجد بالقصر نحو ألف ستر مزركشة بالذهب ، تمثل الممالك المختلفة بملوكها وأسمائهم ، وموجز لحياة كل منهم[٢] . وهذه الآثار الفنية تشهد بما كان يناله الصناع الحاذقون من الفاطميين ؛ وهى تبين لنا أيضا كيف كان المام الفاطميين بممالك العالم المعروفة لهم فى القرن الثانى عشر الميلادى .

ويظهر أن القصر قد احتوت خزائنه مرة أخرى على ثروة ضخمة من الكنوز ، وذلك بعد سنى المجاعة والوباء التى انتهب القصر فى غضونها ، حتى رؤى الخليفة المستنصر نفسه فى احدى حجراته جالسا على حصير بالية لابسا قبقابا . وربما لم تكن تلك الثروة أقل مما كانت عليه سنة ٤٦٠ كمية وقيمة . ويظهر أنه قد رد الى القصر بعض ما كان قد انتهب منه ، وذلك بعد أن أسندت الوزارة الى أمير الجيوش بدر الجمالى سنة ٤٦٦ (١٠٧٣ م) الذى صارت له السلطة المطلقة ، فشتت جميع العناصر المناوئة الثائرة وصادر ممتلكاتهم .

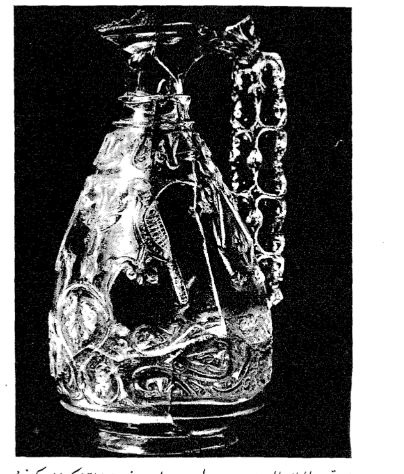
ومع أن المؤرخين لم يمدونا ببيان عن الثروة التى خلفها العاضد آخر الخلفاء الفاطميين مثل ما أمدنا به ابن ميسر والمقريزى ، فانه من الممكن أن نتبين مقدار ضخامة ثروة القصر فى عهد آخر الخلفاء الفاطميين ، وقبل سقوط دولتهم سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) من الوصف الذى أورده لنا الذهبى — نقلا عن ابن أبى طى — للهدية التى قدمها صلاح الدين لنور الدين سنة ٥٦٩ هـ :

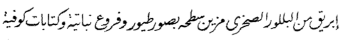
---

(١) خطط (ج ١ ص ٤١٦) .

(٢) شرحه (ج ١ ص ٤١٥) .

انظر كتاب "صفة جزيرة العرب" للهمدانى (طبعة Heinrich Müller, Leyden, 1884) (ج ١ ص ٦ — ١٠) ، وخريطة العالم للادريسى (Charta Rogeriana Weltkarta und Kleine Idrisikarta, Geschrieben im Yahre 1192 n. Chr.—A.H. 588, des Idrisi vom Yahr 1154 n. Chr.—A.H. 549) . وهو عمل مفيد جدا طبعه مسيو كنراد ملر Konrad Miller (Stüttgart, 1926-1927) . ومعه مجموعة من خرائط أخرى رسمها الادريسى (+ ٦٤٩ هـ و ١٢٥١ م) الذى عاش فى القرن السادس الهجرى ، وهو العصر الذى نشير اليه فى كلامنا الآن . وهذا العمل الدقيق الذى قام به الأدريسى يرينا مدى معرفة العرب بممالك العالم المختلفة ؛ ومنه يلذ لنا أن نعلم أن العرب كانوا لا يجهلون ألمانيا والسويد والنرويج ، ونحوها من الأصقاع المختلفة . ومن المحتمل أن تكون معلومات الادريسى هذه نتيجة اتصال المسلمين بأوربا فى الحروب الصليبية . انظر أيضا Mappae Arabicae, Arabische Welt und Länderkarten (Stüttgart, 1926) والمجلد الثانى (Stüttgard, 1927) . ولا شك فى أن جميع الممالك التى ذكرها الأدريسى كانت ممثلة على تلك الستور الحريرية التى كانت بقصر الفاطميين .





إبريق من البللور الصخري مزين سطحه بصور طيور وفروع نباتية وكتابات كوفية

إبريق من البللور الصخري مزين سطحه بصور طيور وحيوانات تتخللها فروع نباتية

" وذكر ابن أبي طي قال : وفي هـذه السنة (٥٦٩ هـ) وصل الموفق بن القيسَراني الى مصر رسولا من نور الدين ؛ فاجتمع بصلاح الدين وأنهى اليه رسالة ، وطالبه بحساب جميع ما حصله من ارتفاع البلاد ...... ثم أرسل (صلاح الدين) معه هدية على يد الفقيه عيسى (بن القيسراني) : وهي ختمة بخط ابن البواب ، وختمة بخط مُهَلْهِل ، وختمة بخط الحاكم البغدادي ، وربعة مكتوبة بالذهب بخط يانس ، وربعة بخط راشد[1] ، وثلاثة أحجار بَلَخْشي ، وست قصبات زمرد ، وقطعة ياقوت وزن سبعة مثاقيل ، وحجر أزرق ستة مثاقيل ، ومائة عقد جوهر وزنها ثمنمائة وسبعة وخمسون مثقالا ، وخمسون قارورة دهن بَلَسَان ، وعشرون قطعة بلور ، وأربع عشرة قطعة جِزْع ، [و] صحون صيني وزبادي ، وأربعون وكرتان (هكذا وردت في الأصل) عود قُمَاري وزن أحدها ثلاثون رطلا والأخرى إحدى وعشرون ، ومائة ثوب أطلس ، وخمسون ثوب حرير ، وحُلة فُلْفُلي مذهبة ، وغير ذلك من القماش ، وقيمتها ٢٢٥,٠٠٠ دينار ، وعدة من الخيل والغلمان والجواري والسلاح ، وخمسة أحمال[2] من المال "[3].

كما تتبين لنا ضخامة ممتلكات القصر عند سقوط الفاطميين مما جاءنا به المقريزي نقلا عن القاضي الفاضل حيث يقول : "وفي ثالث عشرية — يعني ربيعا الآخر سنة سبع وستين [وخمسمائة] — كشف حاصل الخزائن الخاصة بالقصر ...... ومقدار مايحدس أنه خرج من القصر ، ما بين دينار ودرهم ومصاغ وجوهر ونحاس وملبوس وأثاث وقماش وسلاح ، مالا يفي به ملك الأكاسرة ، ولا تتصوره الخواطر الحاضرة ، ولا يشتمل على مثله الممالك العامرة ، ولا يقدر على حسابه الا من يقدر على حساب الخلق في الآخرة "[4] .

(١) هذه الأسماء هي طبعا أسماء خطاطين مشهورين .

(٢) هو مقدار الجزية التي أرسل نور الدين رسولا يطلبها .

(٣) الذهبي ، مكتبة بودليان بأكسفورد ، مخطوطات Laud ، القسم الشرقي ، رقم ٣٠٤ ، ورقة ١٤١ ب .

(٤) خطط (ج ١ ص ٤٩٦) .

٨ — هبات المساجد والمكاتب

(١) هبات المساجد

كان الفاطميون يعتبرون المساجد والمكاتب منبعا لنشر دعوتهم ، فقد كانوا يعلمون فيها العقائد الفاطمية ؛ لذلك بذل الخلفاء جهودا خاصة لبناء مساجد جديدة وتأسيس مكاتب كبيرة . ولم يقصّروا عن وقف الأوقاف وبذل العطايا والهبات للمساجد والأنفاق فى زينتها وزخرفتها بالمصابيح والتنانير التى كان بعضها من الفضة ، كما نُقلت الى المساجد من مكتبة القصر نسخ من القرآن الكريم مختلفة الأشكال والأحجام ، بعضها مكتوب بالذهب . وقد كانت هذه المساجد تزين بأجمل زينة وتضاء بالأنوار الساطعة فى المواسم العامة ؛ وكان الخلفاء يشاهدون ذلك من المناظر .

كما كانت هذه المساجد مثابة للعلماء ، وخاصة فقهاء المذهب الشيعى الذين كان عليهم أن يحاضروا الناس فى عقائد المذهب الاسماعيلى ؛ وكان بعض الوزراء والقضاة يشتركون فى تأليف كتب فى هذا المذهب يدرسها الأساتذة فى تعليم الناس . ومن أعظم تلك الكتب الكتاب الذى ألفه يعقوب بن كلس فى الفقه الشيعى ؛ وكان على القضاة أن يصْدروا عنه فى أحكام محاكمهم التى كانت تعقد فى المساجد عادة ، كما كان على الطلبة والأساتذة أن يتدارسوه فيما بينهم . ولا ننسى أن نذكر فى هذا المقام ما كان من تحويل الأزهر الى جامعة فى عهد العزيز .

ويقول القلقشندى عند كلامه على ركوب الخلفاء الفاطميين لصلاة الجمع الثلاث الأخيرة من رمضان ، إنه كان من عادتهم أن يمنحوا دينارا لموظفى كل مسجد يمرون عليه فى طريقهم الى القصر فى هذه الجمع . وكانت هذه المساجد كثيرة ؛ ولهذا يلاحظ القلقشندى أن عدد الدنانير التى كانت تنفق فى هذا السبيل كان عظيما . أما معرفة مقدار تلك الدنانير بالتحقيق ، فهذا ما لم يذكره القلقشندى ولا غيره من المؤرخين .

(ب) هبات المكاتب

ولم تكن المكاتب أقل أهمية من المساجد فى بث عقائد المذهب الاسماعيلى بين الناس ؛ لهذا بذل الخلفاء ووزراؤهم مجهودات عظيمة فى زيادة عدد الكتب التى تتناول شتى فروع العلم ، حتى فاقت مكتبة القصر كل المكاتب الاسلامية فى العالم فى ذلك الحين .

وقد كان الخلفاء الفاطميون ذوى شغف بتشجيع من يميل الى عقائد المذهب الشيعى . ففى سنة ٣٩٥ هـ (١٠٠٥م) أسس الحاكم دار الحكمة ، وألحق بها عددا من أساتذة العلوم النقلية كالتفسير والفقه ، وكالعلوم الطبيعية أو العقلية . وكانت مكتبة دار العلم متصلة بمكتبة دار الحكمة التى أمدت بكثير من المؤلفات للاطلاع والنسخ والبحث والدراسة . وكان يباح للناس الانتفاع بها ، فيأخذون ما يحتاجون اليه من المداد والأقلام والأوراق والمساند . وكان مشهورو الأساتذة المتصلين بدار الحكمة يقيمون مناظرات يحضرها الحاكم ، فيصلهم لأجلها بالهبات ويخلع عليهم الخلع[١] .

وكانت تُعطى لموظفى المساجد أعطيات معتادة فى مناسبات مختلفة ؛ فمن أمثلة ذلك ركوب الخليفة لصلاة الجمعة ، أو للاحتفال ببعض الأعياد الدينية ، أو لزيارة أحد القصور ، كدار الملك وقصر القرافة والهَوْدج[٢] ومنازل العز[٣] التى كان من عادتهم الانتقال اليها تبديلا للهواء .

---

(١) أنظر العبارة التى أوردناها عن انتشار الرسوم الفاطمية فى المساجد والمكاتب .

(٢) المراد به القصر الفخم الذى بناه الخليفة الآمر فى جزيرة الروضة (أنظر ابن دقاق ج ٤ ص ١٠٩ و١١٤ و١١٦) لزوجته البدوية الطائية التى كان مشغوفا بها لجمالها ومواهبها الشعرية . وقد بنى هذا القصر على هيئة تجعلها لا تشعر بوطأة الانتقال من المعيشة البدوية التى كانت تعيشها بين أسرتها ؛ فقد كانت له حديقة رحبة على شاطئ النيل . ويحدثنا المقريزى أنها كانت تحب ابن عمها المسمى ابن مياح ، وقد أيأسها الزواج من الاتصال به . وقد كتبت الى ابن عمها الذى كان مراقبا بأمر الخليفة الأبيات الآتية :

يا ابن ميَّاح إليك المشتكى ... مالكٌ من بعدكم قد ملكا
كنتُ فى حيى مطاعا آمرا ... نائلًا ما شئتُ منكم مدركا
فأنا الآن بقصر مرصَد ... لا أرى إلا خبيثا ممسكا
كم تَثَنَّينا كأغصان اللوى ... حيث لا نخشى علينا دَرَكا

فأجابها ابن مياح بقصيدة من نفس الروى والقافية يقول فيها :

بنتَ عمى والتى قد غذيتها ... بالهوى حتى علا واحتبكا
بُحتِ بالشكوى وعندى ضعفها ... لو غدا ينفع منا المشتكى
مالكُ الأمر إليه أشتكى ... مالكٌ ، وهو الذى قد ملكا

ويقول المقريزى ان ما كان بين هذه البدوية وابن عمها من الحب ، وما كان من زواجها بالخليفة الذى لم تكن تشعر نحوه بأية عاطفة قد صار مشهورا ، حتى إن كثيرا من الكُتّاب ألفوا فى ذلك قصصا تحاكى قصص " ألف ليلة وليلة " (خطط ج ١ ص ٤٨٥) .

(٣) هو قصر فخم ابتنته الملكة " تغريد " زوجة المعز على شاطئ النيل ، وقد اتخذه ابنها العزيز والخلفاء الفاطميون من بعده مكانا للتنزه .

ويقول المقريزى انه كان من عادة الخلفاء الفاطميين أن يقيموا مواكب يركبون فيها فى أيام السبت والثلاثاء سائر الشهر ، كما كانوا يركبون فى الاحتفال بأول المحرّم . وفى هذه الأيام كان يصحب الخليفةَ وزيره ، وحوله حرسه الخاص ، وكانوا يسمون صبيان الركاب ؛ فيمر الموكب كذلك بالطرق الرئيسية حتى الجامع العتيق . فاذا وصل اليه ، وجد الخطيب فى انتظاره على مصطبة فى المسجد ، و بيده مصحف ينسب خطه الى علىّ بن أبى طالب . فاذا قرب الخليفة من الخطيب ، تناول المصحف منه فقبله مرات عديدة ، وأمر صاحب الكيس (المشتمل على المال المعتاد توزيعه فى هذه المناسبة) أن يعطيه ثلاثين دينارا ؛ فيأخذ الخطيب والمشرف على الجامع نصفها ، والباقى يقتسمه المؤذنون . فاذا ما انتهت الصلاة ، استأنف الخليفة السير الى دار الملك ؛ وفى ايابه يعطى رئيس كل مسجد يمر به دينارا[1] .

---

٩ — هبات الخلفاء

سبق أن بينا ما كان يتناوله الموظفون من المرتبات الكبيرة فى الدولة الفاطمية ، فضلا عما كان يصل اليهم بطريق الهدايا من الفضة والذهب والملابس والأطعمة وما الى ذلك بمقادير وفيرة ، تلك الهدايا التى كان أزواجهم وأولادهم وخدمهم يتقاسمونها معهم .

وقد أمدنا القلقشندى بكلام مفصّل بيّن فيه المرتبات التى كانت تعطى لكبار موظفى الدولة ؛ ومنه نعلم أن مرتب الوزير كان خمسة آلاف دينار فى الشهر ، وأن ابنه أو أخاه كان يأخذ فى الشهر راتبا يتراوح بين ما ئتين وثلثمائة دينار ، زيادة على رواتب أتباعه وحشمه التى كان متوسط مجموعها أربعمائة وخمسين دينارا فى كل شهر .

---

(١) المقريزى خطط (ج ١ ص ٤٨٤) .

وكأن من كبار الموظفين تسعة يعرفون بالأستاذين المحنّكين[١] : منهم صاحب بيت المال ، وصاحب الرسالة ، وزمام القصر؛ وكان راتب كل من هؤلاء مائة دينار فى الشهر . وكان راتب كل من قاضى القضاة وداعى الدعاة مائة دينار ، وراتب كل من طبيبى الخليفة الخاصين خمسين دينارا[٢] .

ولدينا فيما علمناه من ثروة الخلفاء الفاطميين وأبهتهم وميلهم للظاهر ميلا شديدا مايدلنا على ثروة كبار رجال دولتهم وسائر الشعب عامة ؛ فقد كان كل هؤلاء يمنحون كثيرا من الهدايا والأطعمة فى الأعياد الدينية وغيرها من سائر الأعياد العامة ، كما كانوا يكتسون من بيت المال هم وأزواجهم وأولادهم وأتباعهم مرتين كل عام صيفا وشتاء .

ويعجبنا أن نقرأ عن مخصصات تبلغ ٦٠٠,٠٠٠ دينار ، أخذت من بيت المال عام ٥١٦ هـ (١١٢٢ م) لعمل الملابس المطلوبة لدار الكسوة التى أنشأها المعز سنة ٣٦٣ هـ (٩٧٣ م) ، وبقيت حتى سنة ٥٦٧ ، وهى السنة التى سقطت فيها الدولة الفاطمية . وكان عدد الكسى التى منحت لموظفى الدولة على اختلاف مراتبهم سنة ٥١٦ هـ ١٤٣٠٥[٣] .

وقد أمدنا المقريزى بعبارة بيّن فيها الكسى الكاملة ، ومقدار وقيمة كل كسوة ؛ منها التى كانت تمنح للأمراء على اختلافهم ، وللوظفين والكتّاب ؛ ودوّن أسماءهم جميعا . وقد كانت كسوة الآمر من الحرير الدبيقى المزركش بالذهب ، وقيمتها خمسمائة دينار . وكان كبار الأمراء يمتازون بلبس الأطواق والأساور وحمل السيوف المحلاة[٤] .

وكانت هناك كسى تُصنع خاصة للخليفة فى الاحتفالات أو الأعياد ، فيلبسها بمساعد سيدة يعاونها ثلاثون خادمة[٥] ؛ كما كانت تقدّم الحلل الى الوزراء وبعض الأمراء ، وكما كانت توزع الملابس على الأشراف وغيرهم فى عيد الفطر بسعة . ومن هنا سُمى هذا العيد بعيد الحلل ، حتى قيل إنه صنع إحدى عشرة كسوة للخليفة الآمر قُدمت إليه فى عيد الفطر سنة ٥١٦ هـ (١١٢٢ م) ، يضيق المقام هنا عن وصفها .

---

(١) جمع أستاذ محنك ، رجل مدرب ؛ وكان يتلثم بطرف من عمامته (معناه يجعل بعض عمامته تحت ذقنه وفكيه (انظر Lane's Arabic-English Lexicon) . ومن الأساتذة المحنكين من يتولى شد التاج ؛ وصاحب المجلس ، ويشبه الآن كبير الأمناء ، وصاحب الرسالة ، وصاحب بيت المال ، وحامل الدواة ، وزمام الأقارب ، وزمام القصور ؛ ويعهد إليه بادارة شئون القصر (القلقشندى ج ٣ ص ٤٨٤ و ٤٨٥) .

(٢) شرحه (ج ٣ ص ٥٢٥ و ٥٢٦) .

(٣) المقريزى خطط (ج ١ ص ٤٠٩ و ٤١٠) .

(٤) شرحه (ج ١ ص ٤٠٩) . أما الوزير فكان يلبس عقدا من الأحجار الكريمة ، ومنديلا يلفه من تحت حلقه ، وجلبابا قصيرا ، ودرعا مفتوحا من النحر الى أسفل ، وأزراره من ذهب مشبك أو لؤلؤ ؛ وبذلك يمتاز عن سائر موظفى الدولة . وقد مُنح بدر الجمالى هذا لأول مرة (القلقشندى ج ٣ ص ٤٩٠) .

(٥) المقريزى خطط (خ ١ ص ٤١١).

وكان صنع كل كسوة يختلف عن صنع غيره من سائر الكسى ، وذلك لكى تصلح كل منها لاحتفال خاص، كالاحتفال بآخر رمضان، وإقامة صلاة العيد ، والجلوس على السماط فى أول يوم من أيام عيد الفطر . ويذكر المقريزى أن إحدى هذه الكسى اشتملت على ٧٠٣ من المثاقيل من خيوط الذهب والفضة ، وقد أنفق فى زركشة كل مثقال منها دينار[١] . أما المناديل فقد أنفق على الواحد منها خمسة دنانير[٢] .

وكانت هناك مناسبات أخرى تقدم فيها الحُلل المزركشة بالذهب للوزير وأخى الخليفة ، كعيد أول رمضان ، والاحتفال بالجمع الثلاث الأخيرة منه ، وجبر الخليج . وزيادة على ذلك كان الشعراء والكتّاب وأعيان الرجال الذين يتفق وجودهم فى القاهرة يمنحون حللا كان بعضها مزركشا بالذهب وكلها مصنوعة من الحرير الخالص[٣] .

وقد أمدنا ابن منجب بوثيقة[٤] يرجع تاريخها الى سنة ٥٣٥ ﻫ (١١٤٠ م) ، هى نص لكتاب أُرفق بحلل بعث بها الخليفة لأحد الأمراء فى عيد فطر هذا العام ، وهاك نصها : " ولم يزل أمير المؤمنين منعما بالرغائب ، موليا احسانه كل حاضر من أوليائه وغائب ... ... مجزلا حظه من منائحه ومواهبه ...... وانك أيها الأمير لأَوْلاهم من ذلك بجسيمه ...... وأَخْلَقُهُم بالجزء الأوفى منه عند فَضِّه وتقسيمه ؛ اذ كنتَ فى سماء المسابقة بدرا ، وفى جرائد المناصحة صدرا ، ومَنْ أخلص فى الطاعة سرا وجهرا ، وحظى فى خدمة أمير المؤمنين بما عَطر له وصفا وسَيَّر له ذكرا . ولما أقبل هذا العيد السعيد ، والعادة فيه أن يُحسن الناس هيأتهم ويأخذوا عند كل مسجد زينتهم ؛ ومن وظائف كرم أمير المؤمنين تشريف أوليائه وخدمه فيه ، وفى المواسم التى تجاريه ، بكسوات على حسب منازلهم ، تجمع بين الشرف والجمال ، ولا يبقى بعدها مطمعٌ للآمال...... "[٥] .

هذا ، وقد جاءنا القلقشندى بعبارة شائقة عن الشكل الذى كانت تقدم به رواتب الموظفين للخليفة المستنصر كى يعتمدها ، اذ يقول ان الخليفة لم يغير شيئا فى القائمة التى اشتملت على الرواتب ، وانه كتب فوق امضائه هذه الكلمات بخط يده : " الفقر مر المذاق ، والحاجة تذل الأعناق ، وحراسة النعم بادرار الأرزاق ؛ فلْيُجْروا على رسومهم فى الأطلاق ؛ (ما عندكم يَنْفَدُ وما عند الله باق) "[٦] .

---

(١) الخطط (ج ١ ص ٤١٠) ، تبعا للمقريزى كان كل تسع قصبات من الخيوط الذهبية والفضية تزن مثقالا ، فكان عدد القصبات ٦٣٢٧

(٢) شرحه .

(٣) شرحه .

(٤) هذه الوثيقة من انشاء ابن منجب نفسه ، اذ كان يشغل فى ذلك الوقت منصب كاتب الانشاء .

(٥) المقريزى خطط (ج ١ ص ٤١٢) .

(٦) القرآن الكريم . سورة ١٦ آية ٩٦ ، القلقشندى (ج ٣ ص ٤٩٥) .

هـذه الفقرات المكتوبة بخط الخليفة ، ذات أسـلوب خلاب يبين لنا مقدرته فى فن الكتابة و إلمـامه بكتاب الله الكريم ، الذى اقتبس منه هذه الآية التى تناسب المقام .

ولم يكن الخلفـاء الفاطميون الآخرون أقل من المستنصر فى الكرم والجود . فهذا الخليفة الحافظ (٥٢٤ — ٥٤٤ هـ و ١١٣٠ — ١١٤٩ م) قد وقع فى احدى المرات على قائمة كهذه بمـا يأتى : "أمير المؤمنين لا يستكثر فى ذات الله كثير العطاء ، وليجروا فى نسْبِيَّاتهم (هكذا وردت فى الأصل) على عادتهم ... ... كرما من أمير المؤمنين وفعلا مبرورا ، وعملا بمـا أخبر به عز وجل فى قوله تعالى (انمـا نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا)"[١] .

وشبيه هذا ما كان يحصـل فى عيد الفطر من توزيع ما جرت به العادة من النقود الذهبية والفضية ، والملابس والأطعمة على الموظفين والأضياف . يضـاف الى هـذا ما كان يعطى لكبار الموظفين فى غرة المحرم من النقود الذهبيـة التى كانت تضرب خصيصا لهذا اليوم ؛ ولذلك كانت تسمى نقود الغُرَّة . وكان هؤلاء الموظفون يعتبرون هذه النقود بركة من الخليفة[٢] .

يضاف الى هذا ما اعتاده الخلفاء الفاطميون من منح موظفى خزائن القصر على اختلافها مقادير من المـال عند تفتيش تلك الخزائن . ومن أمثلة ذلك ، أن خازن خزانة الفرش كان يعطى خمسة عشر دينـارا[٣] ، وأمين خزائن الأسلحة كان يعطى خمسـة وعشرين دينارا[٤] ، كما كان يعطى صاحب خزائن السروج عشرين دينارا[٥] ؛ وكان يعطى صاحب خزائن المشروبات ومعاونوه ثلاثين دينارا[٦] .

يضاف الى هـذا أيضا ما اعتاد الخلفاء منحه عند ركوبهم للمناظر لرجال الحاشية والأستاذين ، وكتاب القصر والشعراء ، والمؤذنين والقراء ومن إلى هؤلاء . وكان هناك أحد الموظفين يحمل كيسا من الحرير فيه خمسمائة دينار[٧] ، لتوزيعه على من فى الطريق الذى يجتازه الخليفة من الرجال والنساء الفقراء ، والقراء الذين يقرءون القرآن على جانبى الطريق ، فكان كل من هؤلاء ينال نصيبه من هذه النقود فى أكياس خاصة ، فى كل منها درهمان أو ثلاثة[٨] .

---

(١) القرآن الكريم . سورة ٧٦ آية ٩ ، المقريزى خطط (ج ١ ص ٣٩٨) .
(٢) القلقشندى (ج ٣ ص ٥٠٩) .
(٣) المقريزى خطط (ج ١ ص ٤٩٢ و ٤٩٣) .
(٤) شرحه (ج ١ ص ٤١٧) .
(٥) شرحه (ج ١ ص ٤١٨) .
(٦) شرحه (ج ١ ص ٤٢٠) .
(٧) يقول المقريزى خطط (ج ١ ص ٤٨١) ان هذا الكيس كان يشتمل على ألف دينار فى كل من المرات التى كان يركب فيها الخليفة لأحد الميادين ، وربما كان ذلك لاستعراض الجند أو رجال الأسطول .
(٨) شرحه .

الباب الثامن

مظاهر الأبهة والجلال للخليفة فى صلاة الجمعة والأعياد والولائم

لقد بينا ما كان من نجاح تعاليم أبى عبد الله الشيعى فى جعل قبائل كتامة والبربر يعتقدون أن الخليفة كان قادرا على الإتيان بالمعجزات من إحياء الموتى وما إلى ذلك ، حتى إن كافة سكان شمالى افريقية انضووا تحت لوائه . وهـذه التعاليم قد أثرت فى عقول الناس تأثيرا عظيما ، كان من أثره أن اعتنق الشعراء ذلك المذهب الشيعى ؛ وقد خاطب أحدهم المهدى بهذه الأبيات :

حلَّ برقّادةَ المسيحُ　　　حل بها آدمٌ ونوحُ

حل بها الله ذو المعالى　　　وكلُّ شىء سواه ريح

وكذا أنشد ابن هانئ شاعر بلاط المعز الفاطمى بين يدى مولاه هذه الأبيات التى تنطوى على الغلو والأغراق ، ومنها :

ماشئتَ لا ما شاءت الأقدارُ　　　فاحكمْ فأنت الواحدُ القهار[1]

من هـذا يتبين مركز الخلفاء الفاطميين فى أعين شـعراء بلاطهم ، مما جعل هؤلاء الخلفاء يعتقدون فى أنفسهم أنهم أعلى من سائر البشر ، إذ لم يختصوا ببعض الحقوق الألهية فحسب ، بل بصفات الله أيضا . ومن الحق أن نقول إن هؤلاء الخلفاء لو لم يكونوا يخشون ثورة شعوبهم ، لكشفوا للناس حقيقة معتقداتهم الضالة ، التى كان يدين بها خواصهم وحاشيتهم وغيرهم ممن كانوا يحضرون مجالسهم الشيعية فى القصر . ولطالما قاوم الأهلون آراء بعض الخلفاء وصادموهم باحتجاجات كانت تأخذ فى بعض الأحيان مظهر التهديد ، كما فى حادث الدَّرَزى والأخْرَم .

---

(١) ديوان ابن هانئ (ص ٩٦)

غير أن الخلفاء الفاطميين كانوا قادرين على بلوغ أغراضهم بالسياسة ، وبما اشتهروا به من مظاهر الكرم والأبهة والعظمة فى كل العهد الفاطمى . من ذلك هداياهم النفيسة من النقود ، وجوائزهم للشعراء وكتّاب القصر ، والعلماء وغيرهم من الموظفين ، وكذلك الاحسان للفقراء ، وإقامة الولائم فى المناسبات المختلفة من الأعياد الدينية وغيرها من الأعياد العامة ؛ وكل هذا كان حقيقا بأن يستميل كثيرا من الناس إلى اعتناق مذهبهم .

وإن تقاليد البلاط الفاطمى كانت متفقة مع الدعاوى التى كان يدعيها الخلفاء . فكان من الشرف العظيم أن يسمح للوزير بلثم قدمى الخليفة على مرأى من جموع الرعايا المتحمسين . أما قاضى القضاة ، باعتباره حامى الشريعة الاسلامية ، فكان لا ينتظر منه إلا أن يلثم قدم الخليفة فى الركاب القريب منه [١] .

ولم تكن مظاهر الاحترام هذه نحو الخلفاء مقصورة على وزرائهم وقضاتهم وغيرهم من مشهورى رجالات دولتهم . فقد كان على عامة الناس أن يقوموا وقوفا كلما ذكر اسم الخليفة فى الخطبة ، كما كان عليهم أن يظلوا واقفين أيضا إذا مر الخليفة فى إحدى الطرقات [٢] .

وكان من المناظر المسلية أن يُرى الخليفة الفاطمى جالسا فى إحدى مناظره [٣] عند الاحتفال ببعض الأعياد الدينية أو العامة ، وحوله أنوار الشموع والمصابيح الوضاءة ؛ فقد كان شخصه المقدس يرى ظاهرا لرعاياه المتحمسين إذا ما فتحت نافذة المنظرة ، وأمامه أحد الأستاذين يلوح للناس بكُمّ قبائه ، يحمل إليهم سلام الخليفة فى هذه الكلمات : " أمير المؤمنين يرد عليكم السلام " . وعقب تفوه الأستاذ بهذه الكلمات تقفل النافذة ؛ فينصرف الناس المفعمون سرورا ، والذين كانوا يركعون إذا ما رأوا شخص الخليفة .

وإن فى الأبهة التى كانت تصاحب الخلفاء الفاطميين فى مجلسهم [٤] لدليلا آخر على ما كانوا يعتقدونه مما كان يطلق عليه حق الملوك المقدس ؛ حتى كان بعضهم يعتقد لنفسه بعض صفات الله .

(١) المقريزى خطط (ج ١ ص ٤٧٧)

(٢) ابن زولاق ، المكتبة الأهلية بباريس ، مخطوط ١٨١٧ ، ورقة ٥٣ أ و ٥٦ أ والقضاعى ، المكتبة الأهلية بباريس ؛ مخطوط ١٤٩١ ، ورقة ١٢٧ أ .

(٣) يقول المقريزى خطط (ج ١ ص ٤٣٥) فى كلامه عن باب العيد — الذى كان مبنيا عليه قبة على شكل قبو ، كان الخليفة يمر من تحتها عند ذهابه الى المصلى حيث تقام صلاة العيد — إن الخليفة كان يلوح بكمه ، فيمسك به الناس ويلثمونه . وهذا ، كما لاحظ المقريزى ، بعيد عن التصديق . وربما كان يحدث فى مناسبات أخرى ، حين يسمح للناس بتقديم رقعات تظلمهم الى الخليفة وهو راكب ، فكانت لهم فرصة يلثمون فيها كُمّ مولاهم . وهذه العادة لم تزل باقية فى بعض أنحاء العالم الاسلامى ، حيث يلتمس بعض الناس البركة من لثم أيدى وأكمام العلماء ، وحتى بلثم بعض أجزاء المساجد ، كعتبة القبر النبوى والكعبة المشرفة .

(٤) يسمى هذا المجلس الإيوان ، ويعرف بقاعة الذهب .

١ – قاعة الذهب ومجلس المُلْك

اعتاد الخليفة أن يبعث صاحب الرسالة الى الوزير يحمل اليه أمره الملكى بانعقاد المجلس . وصاحب الرسالة هذا كان أستاذا مميزا ، وعمله هو حمل أوامر الخليفة الى الوزير متى آن انعقاد المجلس . وكان إذا انتهى الأمر للوزير ، ركب فى صحبة الأمراء إلى مكان الوزارة من القصر ، حيث يترجل ويمشى الى قاعة الذهب[1] .

أما قاعة الذهب فكانت مؤثثة أثاثا فخما ، ومزينة بالستور والطنافس الحريرية المزركشة بالذهب ، التى كانت كلها من رسم وطراز ولون واحد . وكان فى صدر قاعة الذهب حَشِيَّة عليها عرشُ الخليفة المحجوب بستور ، حتى إذا ما استوى الخليفة على عرشه والتأم المجلس ، رفعت تلك الستور .

وكانت العظمة الملكية تظهر بأجلى مظاهرها إذا ما انفرج الستران الحريريان بفعل اثنين من الأساتذة بأمر زِمَام القصر ، فيبين شخص الخليفة ، وحوله جماعة من القراء ، فيأخذون فى ترتيل بعض آيات بأنغام عالية . ثم يأتى حامل الدواة — وهو أستاذ محنَّك أيضا — فيضعها على طرف الحشيّة المخصص لها . وكان زمام القصر وصاحب بيت المال والحجاب والأمناء يأخذون أمكنتهم عند الأبواب فى الوقت الذى يكون الحاضرون قد أخذوا فيه أمكنتهم المخصصة لهم ، وعندئذ يأخذ أحد الأمناء فى تقديم من يرى من المناسب تقديمه للخليفة .

والوزير كان أول من يُقدم الى الخليفة . فيخطو إلى الأمام ، ثم يحيى الخليفة بلثم يديه ورجليه ؛ ثم يتراجع الى مكانه الرفيع ويظل واقفا نحو ساعة ؛ فيؤذن له بوسادة يجلس عليها فى جانب الخليفة الأيمن . ثم يتلوه قاضى القضاة ، فيقترب من الخليفة ويحييه برفع يده اليمنى ، ويشير بسبحته قائلا : "السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته" ! وكانت هذه التحية ميزة له على سائر أعضاء المجلس اعترافا بمركزه الدينى الرفيع . وكان أيضا يسمح لزعماء الطوائف المختلفة بتحية الخليفة باسم جماعاتهم . وكان أحد الأمراء يزودهم قبل أن يتقدموا للخليفة بتعليمات تبين لهم ما يجب عليهم اتباعه فى هذا السبيل .

---

(١) كان مجلس الملك ينعقد فى الإيوان الكبير قبل أن يبنى العزيز قاعة الذهب . أما الإيوان الكبير فقد استعمل فيما بعد دارا للسلاح .

وإذا رأى الوزير أن يشاور الخليفة فى أمر من الأمور ، وجب عليه أن يقترب منه ويعتمد على سيفه ، ثم يشرع فى حديثه . وكان مجلس الملك ينعقد ثلاث ساعات فى العادة ؛ فتُقدَّم فيه الأمور الهامة لبحثها واعتمادها من الخليفة . وللوزير أن يقترح خلع الخلع أو إسناد المناصب المختلفة إلى من يقدم أسماءهم .

فاذا انفرط عقد المجلس ، انصرف الحاضرون والوزير فى آخرهم بعد أن يلثم يدى مولاه ورجليه مرة ثانية ؛ ثم يركب الى داره يحف به سائر أعضاء المجلس ؛ ثم ينزل الخليفة عن سرير الملك ويغادر الإيوان ، فتسدل الستور ويقفل الباب[1]

هكذا كانت الأبهة التى تحيط بالخليفة حينما يرأس مجلس الملك ؛ غير أن هذه التقاليد لم يكن الفاطميون أول مبتدعيها ؛ فقد كانت من رسوم آل ساسان ملوك الفرس (٢٢٩ — ٦٥٢م) قبل ظهور الدولة الفاطمية فى عالم الدول بنحو سبعة قرون .

يقول الأستاذ براون (E. G. Browne) : " إن آل ساسان كانوا يعتبرون أنفسهم آلهة ، أو أناسا إلهيين ، من سلالة أسرة الكايانى الخرافية العريقة فى القدم ، ووارثى العظمة الملوكية (Farri-Kayani) . وذلك نوع من الحق الالهى الذى وصل اليهم بطريق الإشارة والرمز ، وبفضل هذا الحق كان لهم وحدهم حق حمل التاج الفارسى — فعملوا كل ما فى مكنتهم للتأثير فى رعاياهم ، حتى يذعنوا لهذا الحق الملكى الرفيع " .

وقد اقتبس الأستاذ براون فى صدد كلامه عن عظمة " آل ساسان الملكية " واعتلائهم العرش ، أسطورة أوردها ابن هشام فى " سيرة النبى صلى الله عليه وسلم " [2] حيث يقول : " وكان كسرى يجلس فى إيوان مجلسه الذى به تاجه ؛ وكان تاجه مثل القُنْقُل[3] العظيم فيما يزعمون ، يضرب فيه الياقوت واللؤلؤ والزبرجد بالذهب والفضة ، معلقا بسلسلة من ذهب فى رأس طاقة فى مجلسه ذلك . وكان عنقه لا تحمل تاجه ؛ إنما يستر عليه بالثياب حتى يجلس فى مجلسه ذلك . ثم يدخل رأسه فى تاجه ؛ فاذا استوى فى مجلسه كشفت عنه الثياب ، فلا يراه رجل لم يره قبل ذلك إلا سجد هيبة له " [4]

---

(١) القلقشندى (ج ٣ ص ٤٩٨ — ٥٠٠)

(٢) Literary History of Persia from Earliest Times until Firdawsi, p. 128.

(٣) الخَوْذَة العظيمة .

(٤) ابن هشام (طبعة وستنفلد) (ج ١ ص ٤٢)

ويلاحظ الأستاذ براون "أن نظرية الحق الملكى المقدس لم تكن فى دولة من الدول أثبت وأكثر ذيوعا منها فى فارس فى عهد آل ساسان". غير أن هذه النظرية كانت بمصر فى زمن أعرق فى القدم من عصر آل ساسان ، فى عهد الفراعنة الذين ادّعوا لأنفسهم كل صفات الله ؛ وأوضح مثل لذلك هو فرعون موسى عليه السلام .

وكان تأثير هذه العقيدة فى العصور التى تلت عظيما ؛ فقد تأصلت وخطت الى الأمام فى عهد الخلفاء الفاطميين الذين كانوا يعتقدون أن لهم بعض صفات الله

---

٢ — المناظر (١) وليالى الوقود (٢)

إن بناء المناظر التى كان يشرف الخلفاء منها على الاحتفال ببعض الأعياد ، يمدنا بمثل آخر من أمثلة حب الظهور الذى ملك قلوبهم ، فاستطاعوا أن يستميلوا به أكثر ما يمكن من الناس الذين يعتنقون المذهب الشيعى .

أما ليالى الوقود الأربع ، فقد كان الخلفاء الفاطميون يحتفلون بها بأبهة عظيمة . وكانت المساجد فى كل من هذه المناسبات تضاء بالأنوار الساطعة بعد غروب الشمس . وكان قاضى القضاة

---

(١) كانت المناظر غالبا فى القاهرة ومصر والروضة والقرافة ؛ وكانت تستعمل أيضا أماكن لنزهة الخلفاء . وقد عدد المقريزى هذه المناظر فى خططه ؛ ووصف لنا بعبارة شائقة الاحتفال ببعض الأعياد . ويجمل أن نذكر أسماء المناظر هنا ، لأننا سنشير الى بعضها عند الكلام عن الاحتفال ببعض الأعياد وهى : الأزهر ، اللؤلؤة ، الدكة ، المقس ، باب الفتوح ، البعل ، التاج ، الخمس وجوه ، الصناعة ، دار الملك ، منازل العز ، الهودج ، بركة الحبش ، الأندلس ، قبة الهواء ، والسكرة (خطط ج١ ص ٤٦٥) .

(٢) ليالى الوقود هى الليالى التى تسبق أول ومنتصف شهرى رجب وشعبان . وكان الناس تبعا للتعاليم الشيعية يصومون بعض هذين الشهرين كصومهم رمضان ؛ ولذلك كانوا يحتفلون بهذه الأيام الأربعة كما يحتفلون برمضان . واستمر الاحتفال بهذه الأيام الى وقتنا الحاضر .

يتقدم الموكب نائبا عن الخليفة ؛ فكان يظهر ممتطيا جوادا ، يحيط به ثلاثة من ممثلى الخليفة وعشرة من الحجاب والقراء ، ومؤذنو المساجد المختلفة يحمدون الله ويدعون للخليفة . وكان الشهود يمتطون الجياد أيضا ، وبأيديهم الشموع (١) المضاءة ، ويحفون بقاضى القضاة حرسا له .

وكانت الجموع الغفيرة تتبع الموكب الذى يبدأ من دار قاضى القضاة ، ويسير مخترقا الطرق الكبيرة فى القاهرة حتى يصل الى باب الزمرد ؛ وهناك يكون الخليفة جالسا فى منظرته التى تسطع فيها الأنوار لانتظاره . وهنا يشتد زحام هذه الجموع فى الفضاء حول المنظرة ، والكل يترقب الفرصة كى يرى وجه الخليفة (٢) .

وكان خطباء مساجد الأنور والأزهر والحاكم يخطبون بين يدى الخليفة كما يخطبون على منابر مساجدهم ؛ فاذا ما انتهى الخطباء ، فتحت نوافذ المنظرة ؛ فيظهر وجه الخليفة وحوله الشموع الساطعة الضوء ؛ ثم يحيى أحد الأساتذة المحنكين المميزين هذه الجموع المتلهفة ، ويلوّح لهم بكمه علامة للانصراف ويقول : "أمير المؤمنين يرد عليكم السلام". وبعد هذا يستأنف الموكب سيره حتى دار الوزير ؛ وهناك يترجل قاضى القضاة والشهود ويمثلون بين يدى الوزير ؛ ثم تلقى الخطب تكريما له (٣) . بعد هذا يعود الموكب مارا بالمساجد المضاءة فى طريقه الى مدينة مصر .

وكانت الحكومة تُعنى عناية خاصة بتنظيم هذه الاحتفالات ؛ فكان حكام القاهرة ومصر يعينون بعض رجال الشرطة والخفر لحفظ النظام ؛ وكان على الواليين أن يصحبا قاضى القضاة فى موكبه ويطيعا أمره فيما يأمر به . وكانت الأسواق تسطع بالأنوار ، وتكثر فيها الحلوى سدا لحاجة المشترين (٤) .

---

(١) ذكر المقريزى عن ابن الطوير أن قاضى القضاة كان مخصصا له خمسون شمعة فى كل يوم من هذه الأيام ؛ وكانت كل شمعة تزن نحو ستة عشر رطلا ، غير الشموع التى كانت تحيط بالشهود ؛ وكان يعطى كل منهم عددا من الشموع يتراوح بين شمعة وثلاث حسب درجته . وكانت توزع كمية كبيرة من الزيت على المساجد المختلفة لإضاءتها فى تلك الليالى ؛ فكان مايخص الجامع العتيق لكل ليلة أحد عشر قنطارا . هذا عدا ما كان يوزع من الهبات والإحسانات المعتادة والحلوى ونحوها (خطط ج ١ ص ٤٦٦ — ٤٦٧) .

(٢) القلقشندى (ج ٣ ص ٥٠١) .

(٣) شرحه (ج ٣ ص ٥٠٢) .

(٤) المقريزى خطط (ج ١ ص ٤٧٦) .

٣ ـ توديع الحملات الحربية

كان الخليفة يجلس بمنظرة باب الفتوح لتوديع الحملات الحربية ، وخاصة ما كان مرسلا منها الى أهالى الشام وفلسطين الذين كانوا فى ثورة متواصلة ضد سلطة الفاطميين ؛ وفى هذه المنظرة كان يؤذن لقائد الحملة بالمثول بين يدى الخليفة ، فيخلع عليه خلعة مزركشة بالذهب . أما الصناديق والخزائن التى كانت تودع فيها معدات الجيش من أموال وسلاح ومؤن ونحو ذلك ، فقد كان من المعتاد أن يقوم صاحب بيت المال بتسليم القائد قوائم مفصلة بما حوته تلك الصناديق . وكانت نوافذ المنظرة تفتح ؛ فإذا رأى الجند وجه الخليفة ، خروا له مقبلين الأرض ؛ ثم يومئ الخليفة للجيوش فتسير [١] .

بعد هذا يركب الخليفة لمنظرة المقس ، حيث يكون هناك أمير "الأسطول" . [٢] وبعد أن يستعرض الخليفة المراكب الحربية ، يأذن للأمير بالمثول بين يديه ؛ فيخلع عليه خلعة ويودعه ؛ فيبدأ الأسطول فى المسير[٣].

٤ ـ العقائد الفاطمية

كان أنصار الخلفاء الفاطميين يؤيدون دعوى هؤلاء الخلفاء بأن لهم قوة إلهية . ويرجع ذلك إلى أيام عبيد الله المهدى الذى كان يعتبره بعض رجال الشيعة الخالقَ الرازق، كما كانت تعتقد جماعة أخرى أنه نبى . وهناك طائفة ثالثة كانت تزعم أنه النبى حقا [٤] . يدلنا على هذا ما رواه الذهبى عن ابن عبد الجبار حيث يقول : " كانت طائفة تزعم أنه الخالق الرازق ، وطائفة تزعم أنه نبى ، وطائفة تزعم أنه النبى حقيقة " .

---

(١) المقريزى خطط (ج ١ ص ٤٨٣) .

(٢) ذكر المقريزى عن ابن أبى طى أن المعز بنى مراكب حربية ، فكان منها الأسطول المصرى. خطط (ج ١ ص ٤٨٣)

(٣) القلقشندى (ج ٣ ص ٥٢٣ ، ٥٢٤) .

(٤) الذهبى ، المكتبة الملكية بالقاهرة ، مخطوط ٤٢ ، ورقة ٤٤ أ

ويستطرد الذهبي فى الكلام نقلا عن ابن عبد الجبار ، حتى يذكر أن أبا القاسم بن عبيد الله أمر بلعن الأنبياء وأطلق مناديا ينادى بلعن الغار ومن لاذ به، وأنه كان يكاتب أبا طاهر القرمطى، ونصح له بأن يحرق الكعبة والمصاحف . وقد أثارت أفاعيل أبى القاسم هذه سخط جماعة من الخوارج ، فثاروا تحت لواء ابن كيداد[1] . هذا ما رواه الذهبي . ولكنه كان يبغض الشيعة ؛ فدس عليهم ذلك وكذب فى نسبة هذا إليهم .

إن من السهل أن نصدق أن الفاطميين كثيرا ما نقموا على السنيين . لكن ما يروى عنهم من أنهم لعنوا الأنبياء ، وأنهم أشاروا على أبى طاهر القرمطى بحرق الكعبة والمصاحف ، يكذبه بعض الكتاب الأقدمين كمسكويه (ج ١ ص ١٦٦ و ١٦٧) ، وهو حجة فى ذلك العصر ، وتاريخه خال من التحيز والهوى .

وقد عضد سياسة الفاطميين السابقة وبثها شعراء الشيعة الذين درسوا العلوم الفلكية التى انتهت بهم الى نسبة بعض القوى الإلهية الى الخلفاء . ومن ذلك نصح بعضهم للعز بأن يقضى يوما خاصا محتجبا عن الناس ؛ لكنه ظل مختفيا تحت الأرض سنة كاملة[2] ، فاعتقد الناس أنه صعد الى السماء ؛ وبلغ من هذا الاعتقاد أن الجندى كان اذا رأى سحابة فى السماء ، ترجل وقال "السلام عليك ياأمير المؤمنين !" [3]

إن الخلفاء الفاطميين الأول لم يفلحوا فى استمالة جميع المصريين لهذه الاعتقادات وأمثالها ؛ ولذلك نرى أن عقيدة تأليه الحاكم الجديدة قد أثارت أخيرا سخط الأهلين ، اذ كان لايزال هناك كثيرون يناوئون سياسة الفاطميين ؛ فقد كتب ذات مرة أحد الشعراء بيتين من الشعر فى ورقة وضعت على المنبر ، فوقعت فى يد الخليفة العزيز ، وقرأها فاذا فيها :

بالظلم والجور قد رضينا وليس بالكفر والحماقة .
إن كنتَ أُعطيتَ علمَ غيبٍ فقل لنا كاتبَ البطاقة [4]

---

(١) شرحه ورقة ٦٩ أ

(٢) ذكر ابن زولاق أن المعز ظل مختفيا نحوا من أربعة أشهر . غير أن ذلك ينقضه ماذكره غيره ، كابن القلانسى وابن الجوزى وابن الأثير الذين اتفقوا على أن مدة اختفاء المعز تحت الأرض كانت نحو سنة .

(٣) ذكر ذلك ابن زولاق (المكتبة الأهلية بباريس ، مخطوط ١٨١٧ ، ورقة ٤٨ ب) وابن القلانسى (ص ١٤) وسبط بن الجوزى (مكتبة بودليان بأكسفورد ، مخطوطات بوكوك (Pocock) ، القسم الشرقى رقم ٣٧٠ ، ورقة ٨٦ أ) وابن الأثير (ج ٨ ص ٢٣٩) وأبو المحاسن طبعة جوينبول (Juynboll) (ج ٢ ص ٤٤١ و ٤٤٢) .

(٤) ابن خلكان (ج ٢ ص ٢٠٠) وابن أبى دينار (ص ٦٥) .

وقد أمعن الحاكم فى هذه الدعوى ، حتى إن ابن زولاق[1] قص علينا فى هذا الصدد حكاية ، وإن كان من البعيد تصديقها ؛ إذ يقول إنه كان على التجار أن يتركوا حوانيتهم مفتوحة ؛ فاذا سرق منهم شىء ذهبوا إلى القصر يشكون ما حل بهم . ففى ذات مرة ذهب جماعة منهم ورفعوا شكواهم الى الحاكم من سرقة بعض سلعهم . وكان عنده تمثال يدعى أبا الهول يجلس فى داخله رجل ؛ فجلس الحاكم أمام التمثال ، وقد أذن للشاكين أن يمثلوا بحضرته ، فوصفوا ما فقدوه من متاع . فتكلم أبو الهول ذاكرا أسماء اللصوص واسم المكان الذى خبأوا فيه المتاع ؛ فكان كما أخبر به ، وقبض على اللصوص وصلبوا . وأضاف ابن زولاق إلى هذا أن هذه الأعمال ساعدت على استتباب الأمن والنظام ، حتى إن التجار كانوا يتركون حوانيتهم غير مغلقة كسائر الناس الذين لم يكونوا يحفلون باغلاق أبواب دورهم طوال الليل . ولننقل للقارئ فيما يلى عبارة ابن زولاق بنصها :

" .... ونادى فى الناس ألا يغلق أحد بابه ولا حانوته .... وأصبح الناس يستغيثون ؛ فأحضر صنما كان عنده يسمى أبا الهول ؛ فكان كل من ضاع له شىء يجلس بين يديه ويقول له : يا أبا الهول ! ضاع كذا وكذا ، فيقول له شخص داخل الصنم (ان ضايعك — هكذا وردت فى الأصل) ، ما ضاع منك أخذه فلان ووضعه فى المكان الذى يقول عليه الصنم ، فَيُحْضَر لصاحبه ؛ ثم ما زال على ذلك حتى قرر جميع ما ضاع لأربابه . ثم صلب اللصوص ، وعادت الناس فى أمان ينامون فى بيوتهم وأبوابهم مفتوحة وحوانيتهم كذلك ، لم يسرق لهم شىء ، حتى إذا وقع من أحد درهم (يستمر — هكذا وردت فى الأصل) ، يبقى فى مكانه لا يجسر أن يأخذه أحد ، حتى يأتى اليه صاحبه فيأخذه ، ثم ينادى : رحم الله من اعتبر بغيره ! "[2] .

(1) يلاحظ فى الباب الذى أفردته لبيان المصادر أن مخطوط ابن زولاق الذى عنوانه "فضائل مصر" (المكتبة الأهلية بباريس ، مخطوط ١٨١٧) ، هو موجز لهذا السفر الضخم الذى ألفه فى تاريخ مصر ؛ غير أن ذلك المخطوط قد أمدنا بمعلومات هامة عن تاريخ الخلفاء الفاطميين الأول الى سنة ٣٨٦ هـ . وقد ذكرت فى هذا الباب أن هذا المخطوط قد أكمله أحد الأتراك ؛ ومن المحتمل أن يكون قد أدخل عليه معلومات استقاها من المؤرخين المتأخرين ، أمثال القضاعى ، وأبى الفرج بن الجوزى ، وسبط بن الجوزى ، والذهبى . ومن المعلومات التى فى هذا الكتاب ما يتناول الكلام على سنة ٣٨٧ (أى سنة وفاة ابن زولاق) وما تلاها من السنين . ومع هذا فذلك كله منسوب الى ابن زولاق تتمة للعمل الذى بدأ فيه ، كما هو الحال فى كتاب الكندى (كتاب القضاة) ، الذى بدأه الكندى (حتى وصل الى سنة ٢٤٦ هـ) ، بجاء ابن زولاق وابن حجر فأكملاه . ومع ذلك فالحقائق التى وردت فى الكلام على سنة ٢٤٧ وما تلاها تنسب أيضا الى الكندى ، مع أنه لم يكتب الا الجزء الأول من ذلك الكتاب الذى ينسب اليه ويعرف بنفس هذا الاسم .

(2) ابن زولاق ، المكتبة الأهلية بباريس ، مخطوط ١٨١٧ ، ورقة ٥٣ أ وما يتبعها .

ذكر ابن زولاق أن هذا التمثال سرق وكسر ، فارتاع الرجل الذى بداخله حتى فقد حاسة النطق . ولو صحت تلك الحكاية ، لكانت تلك السرقة من صنيع أحد اللصوص العاديين ، أو أحد المسلمين المتحمسين الذين لم يكونوا يرضون عن سلوك الحاكم .

وذكر نفس هـذا المؤرخ حكاية اخرى يقول فيها : " . . . . إنه وقع من شخص كيس فيه ألف دينار عند باب جامع ابن طولون ، واستمر فى مكانه أسبوعا كاملا لم يجسر أحد على أخذه ، حتى مر به صاحبه " وأقام الدليل على ملكه له[١] .

والظاهر أن هذه الحكاية لا تخلو من المبالغة ؛ اذ من الممكن جدا أن يكون رجال الشرطة قد أخذوا هـذا الكيس أمانة لديهم ، حتى يستطيع صاحبه العثور عليه . على أن ما رواه ابن زولاق من أنه من لم يكن هناك أحد يجسر على أخذ مثل هذا الشيء ، يمكن تصديقه ، لا سيما فى عهد الحاكم الذى كان يعاقب على هذا بالقتل .

وبهذه المناسبة نقول ، إنه ليس لدينا من الأدلة التاريخية ما يثبت أنه كان عند العرب ما يسمى الآن "مكتب الأمانات" . ومع هـذا فقد كان ذلك موجودا فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم الذى شرّع أحكام اللُّقَطَة .

ففى البخارى ما معناه أن رجلا وجد صرة فيها مائة دينار ، فجاء للنبى صلى الله عليه وسلم يسأله عن ذلك فقال له : "عرّفها حولا" . لكنه لم يجد من يعرفها ؛ فأمره النبى بتعريفها حولا آخر ؛ فلم يحصـل لها على صاحب أيضا . فجاء الرجل للنبى صلى الله عليه وسلم ، فأمره بتعريفها سنة ثالثة ، وبعدها تصير ملكا له . وفى البخارى فى موضع آخر أن رجلا سأل النبى صلى الله عليه وسلم عما يصنعه فى اللقطة فقال له : "عرّفها سنة فان لم يظهر لها صاحب ، فشأنك بها[٢]" .

هـذا ، وقد تكلم ابن زولاق على ادّعاء الحاكم للألوهية ، ذلك الخليفة الذى كانت تملك نفسه تلك الرغبة التى استولت على كاليجولا من قبـل فى أن يجعل نفسه فى مصاف الآلهة . فذكر أن الحاكم اتخذ لنفسه جواسيس من النسـاء يندسسن فى دور بعض أناس مخصوصين ؛ وكان من واجبهن أن يكتشفن ما يحـدث فيها ، ثم يقدمن تقاريرهن عن ذلك اليه فى اليوم التـالى . فاذا ما أصبح الخليفة استدعى هؤلاء الناس للمثول بحضرته ، فيخبرهم بتفصيل كل ماحدث فى دورهم . ولم ينس أيضا أن يتخذ جواسيس آخرين ، مهمتهم أن يقدموا إليه تقارير بكل مايحدث فى الطرقات ؛ وكانت نتيجة هذا وذاك أن أصبح بعض الناس يعتقدون أنه يعلم الغيب[٣] .

---

(١) شرحه ورقة ٥٤ ب .

(٢) صحيح البخارى ، (ج ٣ ص ١٢٤ و ١٢٥) .

(٣) ذكر هـذا ابن زولاق (شرحه ورقة ٥٦ ب) وابن الجوزى (مكتبة بودليان بأكسفورد ، مخطوطات پوكوك ، القسم الشرقى رقم ٣٧٠ ، ورقة ١٣٠ أ) نقلا عن هلال الصابئ ، وقال ابن زولاق إنه كان يبعث بهؤلاء الجواسيس الى دور الأمراء ، وأنهن كن يتناولن مرتبات وفيرة .

٥ – دعوى الحـاكم الالوهية

لم يترك الحـاكم ادّعاء الألوهية الذى شـغل كل حياته الا فترة لم يطل أمدها ؛ ثم سرعان ما ادّعى تجسم الإله فى شخصـه — وإن لم يصرح علنا بذلك — فقد كان يوافق على آراء أنصاره كالأخْرَم والدَّرَزى[١] ، الذين نسبوا اليـه الصفات التى لا يتصف بهـا إلا الله ؛ لهـذا اعتقد الناس أن بيـده الحياة والموت[٢] . ولهذا كان اذا بدا للناس فى الطرقات ، خروا له سجدا وقبلوا الأرض[٣] ؛ ومن أبى ذلك كان نصيبه الموت[٤] .

وقد شجع بعض الشعراء المتصلين بالبلاط الفاطمى هذا الاعتقاد ، ولم يترددوا فى أن ينسبوا الى الحاكم بعض صفات الله وهم يقرءون القرآن بحضرته . فقد أمدنا ابن خلكان بوثيقة عن الحـافظ السلَفِى[٥] بخط يده، وهاك نصها : "ان الحـاكم المذكور كان جالسا فى مجلسه العام وهو حَفِل بأعيان دولته . فقرأ بعض الحاضرين قوله تعالى (فلا وربِّك لا يؤمنون حتى يحكِّموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حَرَجًا ممـا قضيتَ ويسلِّموا تسليما)[٦] ؛ والقارئ فى أثنـاء ذلك يشير الى

---

(١) تكلم ابن سعيد (ص ٢٢٠ — ٢٢٤) عن الدرزى ، وذكر (ص ٢٢٤) خلافا لكثير غيره من المؤرخين أنه قتل بمدينة مصر . أما غيره من المؤرخين فيزعمون أن الدرزى أرسل الى لبنان ، حيث نجح فى بث عقائد مذهبه فيما يختص بالحاكم .

(٢) ابن زولاق ، المكتبة الأهلية بباريس (مخطوط ١٨١٧ ، ورقة ٥٦ أ) .

(٣) القضاعى ، المكتبة الأهلية بباريس ، (مخطوط ١٤٩١ ، ورقة ١٢٧ أ) .

(٤) ابن زولاق ، المكتبة الأهلية بباريس ، (مخطوط ١٨١٧ ، ورقة ٥٦ أ) .

(٥) هو أبو طاهر أحمد بن محمد . . . السلفى من أهالى أصبهان ، وكان يلقب بصدر الدين ؛ وكان حافظا غزير العلم شافعى المذهب . رحل الى بلاد كثيرة طلبا للحديث الذى أخذه عن أساتذته المبرزين ؛ ومر فى رحلاته بأصقاع مختلفة ، وساح فى بلاد كثيرة ؛ فركب البحر من صور الى الاسكندرية ، فوصلها فى ذى القعدة سنة ٥١١ هـ (مارس سنة ١١١٨ م) . ولما استقر به المقام ، انتجعه كثير من أهالى البلاد النائية يستمعون دروسه . وفى سنة ٥٤٦ هـ (١١٥١ م) أنشأ العادل بن السلار كلية فى الاسكندرية ، وجعله عميدها . وكانت وفاته بهذه المدينة فى الخامس من ربيع الثانى سنة ٥٧٦ هـ (أغسطس سنة ١١٨٠ م) ابن خلكان (ج ٢ ص ٣٧ و ٣٨) .

(٦) سورة ٤ آية ٦٨

الحاكم . فلما فرغ من القراءة ، قرأ شخص آخر يعرف بابن المشَجّر ، وكان رجلا صالحا : (يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ، ان الذين تدعون من دون الله لن يخلُقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ، ضعُفَ الطالب والمطلوب ، ما قَدَروا الله حق قدره ، إن الله لقوى عزيز)[١] . فلما انتهت قراءته ، تغير وجه الحاكم ، ثم أمر لابن المشجر المذكور بمائة دينار ، ولم يطلق للآخر شيئا . ثم ان بعض أصحاب ابن المشجر قال له : أنت تعرف خلق الحاكم وكثرة استحالاته (تقلباته) ؛ وما نأمن أن يحقد عليك ، وأنه لا يؤاخذك فى هذا الوقت ، ثم يؤاخذك بعد هذا فتتأذى منه ؛ ومن المصلحة عندى أن تغيب عنه . فتجهز ابن المشجر للحج ، وركب فى البحر وغرق[٢]" .

بالرغم من حالة العداء التى كانت تملأ الناس من سياسة الحاكم الخرقاء ، فقد استطاع أن يدعى الألوهية . فابتدأت الدعوة التى تقول بأن الله تجسم فيه . وعلى ما جاء فى مخطوط القاهرة الذى عنوانه "رسائل الحاكم بأمر الله" ، نرى أن الحاكم ادّعى أن له طبيعة إلهية ، بعد أن كان بشرا كسائر الناس[٣] . ومن المحتمل كثيرا أن يكون ما ظهر به الحاكم أخيرا هو نتيجة تعاليم الدرزى للعقائد الفاطمية فى أشد درجاتها غلوا .

منذ هذا الوقت أعلن الناس الذين اتبعوا سياسة الحاكم الدينية مايعتقدونه من "عبادته وتوحيده وتنزيهه"[٤] ، وأنه "لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد"[٥] ، وأن "كافة الشرائع الأخرى باطل وزور"[٦] . وكان لما فعله الحاكم خطر عظيم ، حتى لقد أرغم من لم يصدع بقوله على دفع الجزية كأهل الذمة[٧] .

---

(١) سورة ٢٢ آية ٧٣ و ٧٤

(٢) ابن خلكان (ج ٢ ص ١٦٧) .

(٣) ورقة ٦١ أ .

(٤) شرحه .

(٥) سورة ٦٢ آية ٣ و ٤ ، ومخطوط ورقة ١١ أ .

(٦) مخطوط ورقة ٢١ ب .

(٧) شرحه ورقة ٣٥ أ .

لكن تلك المعتقدات أثارت سخط أهالى القاهرة الوادعين ؛ وكان من أثر ذلك أن اغتيل كثير من الدعاة وأنصار المذهب الفاطمى . أما الحاكم المجنون — كما يقول الأستاذ مرجوليوث[١] — فقد ثار لنفسه ، فأطلق العنان للسودانيين ، فأسرفوا فى الاعتداء على الأهلين . وقد سببت المناوشات بين السودانيين والأهلين خسائر لا يستهان بها .

غير أن سخط الأهالى كان ذا أثر . فقد كانت كتب الأمان التى أعطاها الحاكم لرعاياه المسيحيين سنة ٤١١ هـ — وهى عام وفاته — مفتتحة بما كان يفتتح به الخلفاء كتبهم . فقد كان فيها : بسم الله الرحمن الرحيم ! من أمير المؤمنين عبد الله ووليه المنصور أبى علىّ الإمام الحاكم بأمر الله ابن العزيز ...... الخ[٢] .

---

٦ — سياسة الفاطميين الدينية فى عهد الآمر

سنة ٤٩٥ — ٥٢٤ هـ (١١٠١ — ١١٣٠ م)

لقد عنى الفاطميون عناية عظيمة بحفظ رسومهم الدينيــة حتى فى أيام انحلال دولتهم ، حين كان لوزرائهم السلطة المطلقة . وان مقتل الوزير الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالى لأظهر مثال لتلك العناية ؛ لأن الأفضل كان يميل ميــل السنيين ، فألغى الاحتفال بمولد النبى صلى الله عليه وسلم ، ومولد فاطمة وعلىّ رضى الله عنهما ، ومولد الخليفة القائم بالأمر . وقد كان ذلك كافيا لتقويض دعائم حكم الفاطميين الذين كانوا يعملون دائما على تأييد دعواهم ، وأنهم من سلالة علىّ مما كان موضع شك رعاياهم طوال حكمهم .

وقد شرح لنا ابن القلانسى (+ ٥٥٥ هـ) الأحوال التى أحاطت بمقتل الأفضل شرحا وافيا . وابن القلانسى هذا توفى بعد الأفضل بنحو أربعين سنة ؛ وقــد اعتمد فيما ذكره على الاعتقاد الذائع بأن مقتل الوزير كان تدبيرا من الخليفــة الفاطمى وأنصاره ، لبواعث سياسية وحزبيــة . أما ابن مُيَسَّر فقد نسب من جهة أخرى مقتل الأفضل الى عداء جماعة الباطنية . غير أن ابن القلانسى يدحض ذلك ويقرر أنه وان كان قد شاع أن الأفضــل لقى مصرعه على يد الباطنية ، فان ذلك كله كان بتدبير الخليفة الفاطمى .

(١) Prof. Margoliouth: Cairo, Jerusalem and Damascus, p. 30.

(٢) يحيى بن سعيد ، (ص ٢٣٠ — ٢٣٣) .

وإنْ من الحق أنْ نقول إن الخلف بين روايتى هذين المؤرخين يسير . فان الفاطميين أنفسهم كانوا باطنيين ، وكانوا فى أعمالهم يُصدرون عن العقائد الباطنية التى كان قوامها ادعاؤهم علم الباطن وأن لهم قوى غير قوى البشر .

ويحسن بنا أن نأتى بعبارة ابن القلانسى بتصرف وهى : ان الخليفة الآمر الذى ضعفت سلطته كثيرا بتداخل الأفضل ، شعر بالحاجة الى التخلص من وزيره ، فدبر مكيدة اغتياله فى إحدى زياراته للقصر . لكن الأمير عبد المجيد بن أبى القاسم بن المستنصر وابن عم الخليفة — الذى صار خليفة فيما بعد وتسمى بالحافظ (+٥٤٤ هـ) — لاحظ أن ذلك العمل سيثير سخط الناس ويكون عارا يلحق بالبلاط الفاطمى . وذلك أن الناس كانوا يقدرون الأعمال التى أداها الأفضل وأبوه للأسرة الفاطمية حق قدرها ؛ فيكون قتله معناه نكران لهذه الأيادى ، وذلك مما يجلب انتقام أنصاره ويزعزع ثقة الوزراء فى الفاطميين .

لذلك كله رأى الأمير أن يعمل لهذه الغاية بطريقة أخرى ، وهى أن يعهد بذلك الأمر الى أحد معتنق المذهب الفاطمى ، ويُعْطَى من العهود ما يضمن له مركز الوزارة اذا نجح فى هذا السبيل . وقد رأى الأمير أن أبا عبد الله المأمون بن البطائحى ، أحد خواص الوزير ، هو ابن بجدتها ، لما كان يعتقده من احتمال موافقته على هذا المشروع ، ذلك أنه :

أولا — كان من معتنق المذهب الفاطمى الذين أخلصوا فى حب الفاطميين ..

ثانيا — لأن نجاح هذا العمل يؤول إلى أن يخلف الأفضل فى مركزه .

وقد رأى الأمير أيضا أن يختار البطائحى جماعة من الرجال يقومون بذلك ، على أن يُقْتَلوا عقب إتمامه ؛ كما رأى أن يظهر الخليفة ورجال بلاطه أشد مظاهر الحزن ، ويسعوا للانتقام ممن اغتال الوزير ؛ وبذلك لا يتهمهم أحد بأن لهم يدا فى هذا العمل[1]

ولا بأس من أن نورد ما ذكره ابن ميسر فى طريقة اغتيال الأفضل . وذلك أن الأفضل كان قد نفى أحد الباطنية ، واسمه البديع ؛ لكنه وجد من ساعده حتى سمح له بالعودة لمصر ، حيث التف حوله كثير من الأنصار . غير أنه اقترح نفيه مرة أخرى الى اليمن ، حيث كان يسودها مذهب

(١) ابن القلانسى (ص ٢٠٣ و ٢٠٤) .

البديعيــة بزعامة الحُرَّة بنت الصُّلَيْحى[١] . وحدث أن تقدم عشرة من أتباع هــذا المذهب ، وعبروا عن رغبتهم فى اللحاق بالبديع فى سجنه ؛ وسرعان ما انضم اليهم غيرهم من أمثالهم فيما رغبوه .

ولمـا رفع الأمر للأفضل أمر بقتل عشرين من هــذه الطائفة ؛ فأثار ذلك غضب الباقين ، وصمموا على اغتياله انتقاما منه . وفى اليوم السابق لعيد الفطر سنة ٥١٥ هـ (١١٢١ م) ، حين كان الأفضل فى طريقه الى قصره دار الملك فى مدينة مصر ، اعترضه رجلان كانا مختفيين فى حانوت ؛ فقبض عليهما بعض حراسه وقتلوهما على الأثر . وهناك كان خياط يتبع الوزير من القاهرة ، فباغته وأمسكه من طــوقه وطعنه بسكين عدة طعنات مميتــة ؛ لكنه لم ينج ؛ فقــد قبض عليــه حرس الوزير[٢] وقتلوه . وقــد نال البطائحى الذى نظم اغتيال الأفضــل ما كان يرجوه ؛ فخلف ضحيته فى الوزارة ، كما كان ذلك معتادا فى ذلك الحين .

٧ — صلاة الجمعة

وفى الاحتفال بصلاة الجمعة ما يدلنا على العظمة التى كانت تحيط بالخلفاء الفاطميين ، ويرينا الكرم الذى مكنهم من اجتذاب كثيرين من الأنصار اليهم . وقــد سبق أن ذكرنا بالتفصيل موكب الخليفة[٣] فى الاحتفال بجبر الخليج .

وقد أمدنا القلقشــندى والمقريزى وأبو المحاسن بوصف صلاة الجمعة ، كما كان يقيمها الخلفاء الفاطميون ؛ ذلك أن هؤلاء الخلفاء كانوا يركبون فى الجمع الثــلاث الأخيرة من رمضان إلى جوامع الحاكم والأزهر وعمرو على التوالى لصلاة الجمعة .

(١) ذكر ابن خلكان (ج ١ ص ٤٦٥ — ٤٦٧) أنه بعد قتل الصليحى سنة ٤٧٣ (١٠٨٠ م) ، زال الاعتراف بسلطان الفاطميين على بلاد العرب . وكانت الخطبة قد أقيمت فيها للخليفة الفاطمى المستنصر سنة ٤٥٥ هـ (١٠٦٣ م) .

(٢) ابن ميسر (ص ٥٧) .

(٣) ذكر القلقشندى أن الخلفاء كانوا يركبون فى مناسبات متعددة . لكنهم عنوا عناية خاصة ببعض المواكب التى كانت تسمى بالمواكب العظام : وهى موكب أول العام ، وأول رمضان ، والجمع الثلاث الأخيرة من شهر رمضان ، وصلاة عيدى الفطر والأضحى ، وجبر الخليج (ج ٣ ص ٥٠٣ — ٥٢٠) . أما المواكب الأخرى فكانت تسمى المواكب المختصرة ، كما يقول القلقشندى أيضا ، وكانت تحدث أربع أو خمس مرات فى السنة عند ركوب الخلفاء لمناظرهم ؛ ويكون ذلك عادة فى أيام السبت والثلاثاء (شرحه ج ٣ ص ٥٢١) .

وكان صاحب بيت المال فى صباح كل من هذه الأيام الثلاثة يشرف بنفسه على تأثيث المسجد الذى يصلى الخليفة الجمعة فيه ؛ فكانت توضع فى المقصورة ثلاث طنافس دَبيقية أو سامانية بيضاء — بعضها فوق بعض — وتوضع فوق الجميع الحصيرة التى يقال إنها كانت لجعفر الصادق وأحضرت إلى مصر سنة ٤٠٠ (١٠٠٩ م) فى عهد الحاكم[١] . وكان ينصب على جانبى المنبر ستران ، يكتب على الأيمن البسملة والفاتحة وسورة الجمعة ، وعلى الآخر البسملة والفاتحة وسورة المنافقين[٢] .

وقبل وصول الخليفة بقليل ، كان قاضى القضاة يقف و بيده مبخرة ، فيبخر المنبر والقبة التى كان الخليفة يقف تحتها وقت إلقاء الخطبة . أما الخطبة فقد كان يضعها أحد كتاب البلاط فى ديوان الإنشاء . وكان الخليفة يرتدى فى هذا اليوم ثوبا من الحرير الأبيض ، ويتعمم بعمامة من الحرير الأبيض الرقيق ، ويحمل قضيب الملك بيده ، ويحف به عدد كبير من حرسه الخاص ومن الجنود الأخرى والأشراف[٣] ؛ ويتبع هؤلاء جم غفير من الناس . وكان الخليفة يركب بين قرع الطبول ورنين الصنوج وقراءة القرآن بنغمات شجية حتى يصل إلى قاعة الخطابة ، وهى قاعة استقباله الخاصة ، ويحرسها قائد القواد وكبير الأمناء ونخبة من حرس الخليفة ؛ ويظل فى هذه القاعة حتى ينتهى الأذان .

وحينئذ يدخل قاضى القضاة ويقول : "السلام على أمير المؤمنين الشريف القاضى ورحمة الله وبركاته ، الصلاة يرحمك الله ! " ؛ فيخرج الخليفة وحوله الأستاذون المحنكون ، ويتبعه وزيره وجماعة من حرسه مدججين بالسلاح ، فينتشرون بين قاعة الخطابة والمنبر. أما الخليفة فيستمر فى سيره حتى يأخذ مكانه تحت قبة المنبر . ويقف الوزير على باب المنبر ووجهه للخليفة ؛ فاذا أومأ إليه ،

(١) أبو المحاسن ، مجلد ٣ (ج ١ رقم ١ ص ٣٣١ — ٣٣٢)

(٢) القلقشندى (ج ٣ ص ٥١١) .

(٣) ذكر أبو المحاسن أن الخليفة الآمر كان يحف به الفيلة والأسود ، وهى مزينة بفاخر الكسى ، وعليها الأسلحة اللامعة (مجلد ٣ ج ١ رقم ١ ص ٣٣٢) . وأضاف الى هذا أنه بالرغم من شغف الحاكم بأن تكون مواكبه فى غاية الأبهة ، فقد رأى أن ينوب وزيره فى صلاة الجمعة ، لأنه كان يُرْتَجُّ عليه فى الخطبة ؛ إذ كان لا يجمع مزايا الخطيب (مجلد ٣ ج ١ رقم ١ ص ٣٣٠) .

وذكر ابن ميسر (ص ٤٤) أن الخليفة المعز كان يحيط به فى موكب صلاة الجمعة جنده وأولاده الأربعة ، ممتطين الخيل ، وعليهم الخوذات والدروع ، وفيلان .

صعد فقبل يدى مولاه ورجليه[١] ، وزّر السترين عليه[٢] ؛ وبذلك يكون المنبر والقبة كالهودج ؛ ثم ينزل الوزير وينتظر على باب المنبر[٣] .

وكانت الخطبة التى يلقيها الخليفة قصيرة ، وتشتمل على آية من القرآن . وقد نقل المقريزى عن المسبحى الذى حضر صلاة الجمعة فى الأزهر سنة ٣٨٠ هـ (٩٩٠ م) ، وكان موقفه خلف الخليفة العزيز ، أن هـذا الخليفة ذكر بعد الآية نفسه وقومه بعبـارة موجزة ، ثم قال : "رب أوْزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ وعلى والدىّ ، وأن أعمل صالحـا ترضاه ، وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين"[٤] . ودعا بعد ذلك لوالده وجده ، ولمحمد صلى الله عليه وسلم ، ولعلىّ رضى الله عنه ، وللخلفاء أسلافه . ودعا لنفسه أخيرا قائلا : "اللهم أنا عبدك وابن عبدك ؛ لا أملك لنفسى خيرا ولا نفعا (ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء ، إنْ أنا الّا نذير وبشير لقوم يؤمنون")[٥] .

وكان الخليفة يختم خطبته بالدعاء للوزير وبنصر الجيش وخذلان الكفار والمشركين . فاذا ما فرغ من خطبته قال : اذكروا الله يذكركم . ثم يصعد الوزير فيحل السترين ، ويظل هو وقاضى القضاة على الباب ، ويقوم الأستاذون المحنكون وكبار الموظفين العسكريين والمدنيين بحراسة المقصورة .

بعـد هذا يأخذ الخليفة فى الصلاة ؛ فيبلغ الوزير عنه ، ثم قاضى القضاة ، ثم المؤذنون . فاذا ما انتهت الصلاة ، يخلو الجـامع من الناس ، ويخرج الخليفـة يحيط به الوزير عن يمينه وقاضى

---

(١) ذكر أبو المحاسن عن ابن عبد الظاهر ، أن الخليفة كان يستره وهو فى قاعة الخطابة ستر من الحرير . وكان قاضى القضاة ، ويتبعه صاحب بيت المـال حاملا مبخرة بيده ، يدخلان القاعة متى سمعا الأذان ؛ فيتقدم الأول ويحل الستر ، ثم يأخذ المبخرة من صـاحب بيت المـال فيبخر المكان . وبعـد ذلك يغـادران القاعة ، ويقبـلان الدرج حال نزولها (مجلد ٣ ج ١ رقم ١ ص ٢٣٢) .

(٢) ذكر المقريزى أن السبب فى زر الستور ، أن الخلفاء الفاطميين لم يكونوا كسائر الخطباء يرتجلون خطبهم ، بل كانت تعد لهذا الغرض خاصة فى ديوان الانشـاء ، كما كان سبب كتابة آيات من القرآن بخيوط حريرية حمراء ظاهرة ، على سترين يوضعان على جانبى الخليفة (أحدهما على يمينه ليقرأ ما فيه فى الركعة الأولى ، والآخر على يساره ليقرأ ما فيه كذلك فى الركعة الثانية) ، هو حفظه من النسيان أو التلعثم حال إقامة الصلاة .

(٣) ذكر المقريزى (خطط ج ٢ ص ٢٨١) أنه إذا لم يكن الوزير صاحب السيف ، فان قاضى القضـاة هو الذى يزر السترين .

(٤) سورة ٢٧ آية ١٩

(٥) سورة ٧ آية ١٨٨

القضاة وداعى الدعاة[١] عن يساره ، وحرسه الخاص ؛ ويعود بموكبه إلى مقره على الهيئة التى اتخذها فى ذهابه إلى الجامع .

وفى أيام الجمع الثلاث الأخيرة من رمضان ، كانت تزدان الدور والحوانيت والأسواق التى يمر بها الخليفة فى طريقه إلى الجامع — حيث يصلى الجمعة — كما كان يصطف كثير من الناس على جانبى الطريق[٢] .

---

٨ — الأعياد والولائم

(ا) الأعياد

كانت هناك عدا مواكب الخلفاء الملكية أيام السبت والثلاثاء ، وأيام الجمع ، ويومى عيد الفطر والأضحى ، أيام دينية أخرى ذكرنا بعضها من قبل . وكان من اللازم ، ليكون لهذه الاحتفالات أثرها العظيم فى النفوس ، أن تقام أسمطة فى قصور متعددة ، وأن توزع الانعامات بمقادير وافية . وفيما يأتى بيان بأسماء الأعياد التى كان يحتفل بها الفاطميون . وسنشير إلى بعضها فى كلامنا عن الأسمطة .

وهذه الأعياد هى :

١ — رأس السنة ٢ — أول العام ٣ — يوم عاشوراء (وهو يوم مقتل الحسين) ٤ — مولد النبى صلى الله عليه وسلم (١٢ ربيع الأول) ٥ — مولد علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه ٦ — مولد الحسن عليه السلام ٧ — مولد الحسين عليه السلام ٨ — مولد فاطمة عليها السلام ٩ — مولد الخليفة الحاضر ١٠ — ليلة أول رجب ١١ — ليلة نصف رجب ١٢ — ليلة أول شعبان ١٣ — ليلة نصف شعبان[٣] ١٤ — موسم ليلة رمضان ١٥ — غرة رمضان

---

(١) ذكر أبو المحاسن عن ابن عبد الظاهر أن داعى الدعاة كان يتبع قاضى القضاة إذا لم يكن قاضى القضاة هو داعى الدعاة .

(٢) القلقشندى (ج ٣ ص ٥٠٩ — ٥١٢) والمقريزى (خطط ج ٢ ص ٢٨٠ — ٢٨١) .

(٣) كانت تسمى هذه الليالى الأربع الأخيرة ليالى الوقود .

١٦ — جبر الخليج ١٧ — يوم النَّوْروز [1] ١٨ — يوم الغطاس ١٩ — يوم الميلاد
٢٠ — عيد النصر [2] ٢١ — خميس العهد [3] .

---

(١) كان النوروز من المواسم القديمة . اتخذه الفرس لإحياء العام الجديد ، وهو أول أيام السنة عندهم ؛ ويقع عند الاعتدال الربيعى ودخول الشمس فى برج الحَمَل ، أى عند ابتداء فصل الربيع . ولقد سن ملوك خراسان سنة جديدة ، فاتخذوا هذا اليوم موسما يلبس فيه جنودهم ملابس الربيع والصيف ، وفيه يحتفلون بعيد النوروز . وأول من اتخذ هذا اليوم — على ما ذكره البيرونى (ص ٢٠٠ و ٢٠١) — هو جَمْشيذ ، وهو — كما يقول الأستاذ براون فى كتابه "تاريخ الفرس الأدبى" (Prof. Browne: Literary History of Persia, Vol. I, pp. 114-259) نقلا عن بعض المصادر العربية — سليمان بن داود (يظهر أن هذه الفكرة أتت للأستاذ براون عن بعض المؤرخين كمسكويه ج ٢ ص ٢٥ و ٢٤٨ و ٤٠٧ و ٤٩٩ والبيرونى ص ١٩٩ و ٢٠٠ و ٢٠١ و ٢٥٨ والمقريزى خطط ج ١ ص ٤٩٤) . وقد أبطل المسلمون الاحتفال بهذا العيد فى بلاد الفرس بعد الفتح الاسلامى ؛ غير أنه عاد فى الصدر الأول من أيام العباسيين . ويقول البيرونى (طبعة سخاو Sachau ص ٣٧) ان ابطال نظام النوروز القديم أضر ضررا بليغا بالمزارعين ، لأن التقويم الجديد قدم يوم النوروز ، فكان يجىء والزرع أخضر ، فى الوقت الذى يجب أن تدفع فيه الضرائب .

ويستطرد البيرونى فى الكلام حتى يذكر أن الملاك اجتمعوا فى عهد هشام بن عبد الملك (١٠٥ — ١٢٥ هـ و ٧٢٤ — ٧٤٣ م) وشكوا الى عامله خالد بن عبد الله القسرى ، وشرحوا له ما يجدونه من الصعاب ، وسألوه أن يؤخر النوروز شهرا ؛ فأبى وكتب الى هشام بذلك ، فأجاب : إنى أخاف أن يكون هذا من قوله (إنما النسىء زيادة فى الكفر) (سورة ٩ آية ٣٧) واستمرت الحال كذلك الى أن جاء هارون الرشيد ، فاجتمع الملاك ثانية وشكوا الى يحيى بن خالد البرمكى ، وسألوه أن يؤخر النوروز نحوا من شهرين . فهم يحيى باجابة طلبهم ، ولكن أعداءه أخذوا يرمونه بالتعصب للجوسية ؛ فعدل عن ذلك ، واستمر الحال على ما كان عليه من قبل (البيرونى : الآثار الباقية عن القرون الخالية ، طبعة سخاو ص ٣٧) .

ولما جاء المتوكل العباسى (٢٣٢ — ٢٤٧ هـ و ٨٤٧ — ٨٦١ م) أمر بتأخير النوروز ، اذ تأثر من شكاية المزارعين حين جمعوا الخراج قبل نضوج الغلات (انظر ارشاد الأديب لياقوت : ج ٢ ص ١٢٨) . غير أنه لما مات المتوكل وولى المستنصر (٢٤٧ — ٢٤٨ هـ و ٨٦١ — ٨٦٢ م) أبطل ذلك ، وأمر بجمع الخراج فى الوقت الذى كان يجمع فيه أولا . ولما ولى المعتضد (٢٤٨ — ٢٥٢ هـ و ٨٦٢ — ٨٦٦ م) أمر بتأخير النوروز من جديد (وكان النوروز فى عهده فى ٢١ يونيه ، أى قبله فى أيام المتوكل بستة عشر يوما) . انظر مسكويه (ج ٢ ص ٢٥ و ٢٤٨ و ٤٠٧ و ٤٠٧ حاشية ١) ، وابن عساكر (المكتبة الأهلية بباريس ، مخطوط ٥٩٨٦ ، ورقة ١٣٨ أ) .

ويقول البيرونى ان الشهور المعتضدية كانت تتفق مع الشهور الفارسية التى أولها "فَرْوَرْدِين ماه" المقابل لشهر مارس .

أما عن أصل النوروز فيقول البيرونى ، انه يرجع الى أن سليمان بن داود لما فقد خاتمه ذهب عنه ملكه ، ثم رد اليه بعد أربعين يوما ، فعاد اليه ملكه ، وأتته الملوك وعكفت عليه الطيور . فقالت الفرس "نوروز آمَدْ" ، أى جاء اليوم الجديد . فسمى هذا اليوم النوروز . وأمر سليمان الريح فحملته ، ورآه خطاف فقال : "أيها الملك ! ان لى عشا فيه بيضات ، فاعدل لا تحطمها" ؛ فعدل سليمان . ولما نزل على الأرض ثانية ، حمل الخطاف فى منقاره ماء ، فرشه بين يدى الملك ، وأهداه رجل جرادة ؛ فذلك أصل رش الماء والهدايا فى النوروز (البيرونى ص ١٩٩) .

(٢) كان للاحتفال بهذا العيد فى ١٦ المحرم علاقة بالخليفة الحافظ ، اذ هو اليوم الذى أطلق فيه سراحه . وذلك أن أبا علىّ أحمد بن الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالى كان — كما تقدّم — قد حبس هذا الخليفة وجعله فى عزلة عن الناس منذ شهر ذى القعدة سنة ٥٢٤ هـ و ١١٣٠ م . (ابن ميسر ص ٧٤ و ٧٥) .

(٣) خميس العهد هو الخميس الذى كان يحتفل النصارى فيه بانجيلهم ؛ وذلك قبل الفصح بثلاثة أيام . وهو أحد الأعياد التى بقيت فى عهد الفاطميين مشاركة للنصارى فى شعورهم الدينى . وكان الاحتفال بهذا العيد يمتاز بالهدايا التى ينالها كبار الموظفين وغيرهم من الرجال المشهورين . ولفظ "عهد" استبدلت خطأ بلفظ عدس ، واستمر ذلك الى اليوم (المقريزى ، خطط ج ١ ص ٩٥) .

(ب) الولائم

كانت الولائم فى كثير من الأحيان مظهرا من مظاهر الاحتفال بالأعياد ؛ وكانت تقام فى بعض المساجد ، وفى القصر ، وفى دار الوزير . ففى القصر كانت تقام فى المكان المعروف بقاعة الذهب حيث يلتئم مجلس الملك . وكان الخليفة المعز الفاطمى أول من سن تلك السنة ؛ واستمر ذلك الى آخر أيام الفاطميين . وكانت الأسمطة لا تنقطع من قاعة الذهب أثناء شهر رمضان وأيام العيدين .

وكان السماط يمد من اليوم الرابع من شهر رمضان الى السادس والعشرين منه . وكان يدعى إلى هذه الولائم قاضى القضاة (وذلك يوم الخميس عادة) والأمراء وغيرهم من رجالات الدولة كل بدوره ؛ وكان الوزير وابنه — أو أخوه — وكبير الأمناء يمثلون الخليفة . أما مقادير الأطعمة فكانت من الوفرة بحيث تكفى ليأخذ كثير من الناس ما يريدون . وبلغت النقود التى كانت مخصصة لهذه الولائم فى ثلاثة وعشرين يوما ٣,٠٠٠ دينار ؛ فيكون متوسط اليوم الواحد ١٣٠ دينارا .

---

٩ — سماط العيدين

(أ) عيد الفطر

لم تكن العناية التى كان يوجهها الفاطميون لأسمطة العيدين بأقل منها فى الأسمطة الأخرى . وقد كان يقام يوم عيد الفطر سماطان : أحدهما بعد صلاة الفجر ، والثانى بعد صلاة العيد ؛ وهذا يجلس عليه الخليفة . وكان طول السماط الأول الذى كان يمد فى الأيوان (بقاعة الذهب) ٤٠٠ ذراع (نحو ١٧٥ مترا) ، وعرضه سبعة أذرع (نحو ٤ أمتار) .

أما هذا السماط فكان فيه صحاف ملأى بالفطائر والحلوى . وكان يدعى الناس من كل الطبقات اليه ؛ فيأخذ كل ما يحب ، اذ كانت الأطعمة من الوفرة بحيث كان ما يتبقى من الأطعمة يأخذه العامة الذين كان يسمح لهم بحمله وبيعه . وكان الخليفة يجلس فى احدى النوافذ ليمتع نفسه بهذا المنظر الذى كان مظهرا من مظاهر جوده وكرمه ، كما كان القصد منه أن يملك قلوب الناس .

وفى السماط الذى كان يمد بقاعة الذهب دليل آخر على رغبة الخلفاء الفاطميين فى استرضاء العامة. غير أن أعمال الكرم هذه خفضت من بيت المال كثيرا . ولكن من كان يجسر على مقاومة رغبات الخلفاء ووزرائهم الذين كانوا يرون أن لهذه الأعمال أثرا هاما فى تقوية مركز الفاطميين ، كما أنها كانت تزيد من إجلالهم وحب الشعب لهم ؟

وكان يقام بجانب سرير الملك بقاعة الذهب دِسْتَق مربع [١] يجلس عليه الخليفة ، وقد وضعت عليه الصحاف الذهبية والصينية . أما السماط العام فكان من خشب مدهون ، وعرضه عشرة أذرع ، وطوله طول القاعة . وكان يزين بالأزهار ذات الرائحة والألوان المختلفة ، ويوضع فى طرفى السماط كلتان كبيرتان من الحلوى ، كل منهما على هيئة القصر تزن سبعة عشر قنطارا محلاة بطبقة من الذهب ، وقد مثل فيها بالنتوءات صور الانسان وغيره من الحيوانات المختلفة[٢] .

وقد وصف القلقشندى هذا السماط وصفا شيقا ، وأمدنا ببيان عما كان يستعمل فيه من الأوانى . فقد كان يوضع عليه احدى وعشرون جفنة ، فى كل منها واحد وعشرون خروفا ، وثلثمائة وخمسون من الطير ما بين دجاج وحمام ؛ وكان يوضع فيما بين هذه الجفان صحاف فى كل منها سبع دجاجات . وكانت هذه الصحاف والجفان تحاط بأنواع مختلفة من الفطائر والحلوى[٣] .

ومن هذا البيان نعلم أنه كان يقدم فى هذا السماط ٤٣١ خروفا ، وكذا ١٠٫٨٥٠[٤] ما بين دجاج وحمام ، ومقدار كبير من الحلوى والخبز ونحو ذلك . هذا ، وان الناظر لأول وهلة ليخال أن ما أتى به القلقشندى من قبيل الأساطير ؛ غير أنا نقول ان ذلك لا يبعد تصديقه ، اذا علمنا أنه كان مخصصا لأسمطة العيدين الثلاثة ٤٫٠٠٠ دينار[٥] . وكان يدعى لهذا السماط الوزير الذى كان يجلس عن يسار الخليفة ، ويرتدى حلة خاصة للأكل ؛ كما كان يدعى اليه أيضا الأمراء وكبار الرجال . غير أنه لا يحتمل أن يأكل هؤلاء كل هذا الطعام . لذلك يقول القلقشندى إن ما تبقى

---

(١) الدِسْتَق الخوان من الفضة .

(٢) القلقشندى (ج ٣ ص ٥٢٧ و ٥٢٨) .

(٣) شرحه (ج ٣ ص ٥٢٨) .

(٤) ذكر أبو المحاسن فى بيان آخر أن ما كان يستهلك فى هذا السماط ٢٦٫٥٥٠ ما بين دجاج وحمام ، عدا ٤٤١ خروفا محمرا (طبعة جوينبول Juynboll ج ٢ ص ٤٧٧) .

(٥) القلقشندى (ج ٣ ص ٥٢٨) .

من هــذه المقادير من الأطعمة كان يرسل بعضها الى دور اصحاب الرسوم ، وسائرها يأكله غيرهم ممن كان يسمح لهم بحضور السماط بعد فراغ كبار المدعوين [١] .

ولم يكن هذا كل ما كان يقدم من الأطعمة في العيدين . فقد كان يصحب ذلك سماط آخر يمد في دار الوزير ، يدعى اليه كثير من رجالات الدولة ، ثم يمنح ما يزيد عن حاجتهم من الأطعمة للعامة [٢] .

(ب) عيد الأضحى

كان الخليفة بعد أن يفرغ من صــلاة العيد يركب الى المذبح ، حيث يكون الوزير وقاضي القضاة والأستاذون وغيرهم في انتظار وصوله . حتى اذا ما وصل ذبح بيده ٣١ ما بين الأبعرة والنوق . وفي اليوم الثاني كان يركب للذبح أيضا ويذبح بيده ٢٧ رأسا ، كما كان يذبح في اليوم الثالث ٢٣ [٣] .

وقد وصف لنا القلقشندى ما كان يصنع بلحم أول ذبيحة ، فقال ان لحمها كان يجمر ويقدد ، وتعمل منه شرائح ترسل إلى والى المدينة ، فيوزعها على من هناك من الشيعة . أما لحوم سائر الضحايا ، فكان يفرق بعضها على أرباب الرسوم ، ويوزعه قاضي القضاة على طلبــة دار العلم وغيرهم ممن كانوا يأوون الى مساجد القاهرة [٤] .

---

(١) القلقشندى (ج ٣ ص ٥١٤) .

(٢) المقريزى خطط (ج ١ ص ٣٨٨) .

(٣) من هــذا نرى أن ما كان يذبحــه الخليفة هو ٨١ رأسا . وقد ذكر المقريزى في كتابه "المقفى" (مكتبة الجامعــة بليدن ، مخطوط ١٣٦٦ ، المجلد الثاني ، ورقة ٢٠٦ ب) أن ما ذبح في عيد ســنة ٥١٦ هـ (١١٢٢ م) كان ٢٥٦١ رأسا ، منها ١١٧ ناقة و ٢٤ بقرة و ٢٠ جاموسة و ٢٤٠٠ كبش . غير أنه لم يبين لنا عدد الحيوانات التي كان ينحرها الخليفة بيده . ومن المحتمل أن يكون قد سقط من عبارة المقريزى لفظ "عدا" ، وبها تكون العبارة "عدا ما ينحره الخليفة ويذبحه بيده" . واذا جرينا على هذا الزعم ، كان ما يذبحه الخليفة بيده يتراوح بين ثمانين وتسعين رأسا ؛ إذ من المستحيل أن يذبح بيده عددا كبيرا يبلغ ٢٥٦١ رأسا . ومما يجدر ملاحظته أن العــدد الذي ذكره المقريزى وهو ٢٥٦١ ، كان يذبح في عيد الأضحى وعيد الغدير (غدير خم) معا . والى القارئ نص عبارة المقريزى : "وعدة ما ذبح سنة ست وعشرة وخمسمائة في ثلاثة أيام عيد النحر وعيــد الغدير ألفان وخمسمائة وواحد وستون رأسا ، منها مائة وسبعة وعشرون من النوق ، وأربعة وعشرون بقرة ، وعشرون جاموسة . وهذا [عدا] ما ينحره الخليفة ويذبحه بيده في مصحى العيد في المنحر . ومن الكباش ألفان وأربعمائة" .

(٤) القلقشندى (ج ٣ ص ٥١٥ و ٥١٦) .

١٠ – الأسمطة الأخرى

وكان الاحتفال بالأعياد المختلفة يستلزم إعداد الولائم وتوزيع المآكل والحلوى ، والهبات والعطايا والاحسانات ، وغيرها مما جرى توزيعه عادة .

فقد كان يصنع في عيد مولد النبي صلى الله عليه وسلم عشرون قنطارا من الحلوى ، توضع على ثلثمائة خوان (صينية) ، وتوزع في الأزهر[١] . وفي الاحتفال بجبر الخليج كان يقام سماط عظيم في سرادق رحب على شاطئ النيل ، على مقربة من المنظرة المعروفة بمنظرة السكرة التي كان يجلس فيها الخليفة .وكان يأكل على هذا السماط من يدعوهم الخليفة ومن يتبعهم وعدد كبير ممن كانوا يسيرون وراء الموكب[٢] .

وهكذا كانت مظاهر أوائل الخلفاء الفاطميين الذين كان لهم ولع خاص بالانفاق في هذا السبيل . وقد نهج خلفاؤهم نهجهم وزادوا عليهم في البذخ حتى انتهى حكمهم ؛ وقد كان القصد من ذلك العمل على نجاح أعمالهم السياسية والدينية. وان في اشتراك جماعات كبيرة في الاحتفال بتلك الأعياد ، وفي الأبهة والعظمة التي كانت تنطق عن نفسها في مواكبهم الملكية ولائمهم الفخمة ، وهباتهم الوفيرة من الملابس والنقود والطعام التي ينال منها كل الأهلين تقريبا ، والجماعات الغفيرة التي كانت تجتمع تحت المنظرة وتترقب التيمن بوجه الخليفة المقدّس — إن في هذا كله لدليلا محسوسا على مبلغ نجاحهم في سياستهم .

غير أن ذلك النجاح وما يستلزمه صار عبئا ثقيلا على توالي الأيام ، حتى أدى الى سرعة انحلال خلافتهم وسقوطها ؛ وذلك ما سنبينه في الباب التالي . أما تأثير تلك السياسة فقد كان ظاهريا لم ينفذ الى قلوب الناس ، بدليل أنهم لما زالت الدولة الفاطمية ، لم يلبثوا أن رجعوا الى مذهبهم السني القديم .

---

(١) القلقشندي (ج ٣ ص ٥٠٢ و ٥٠٣) .

(٢) شرحه (ج ٣ ص ٥٢٠) .

الباب التاسع

سقوط الفاطميين واسبابه

لما ترك الفاطميون حياتهم الفطرية التى كانت شعارهم فى أيامهم الأولى عند ما كانوا يحكمون البربر فى القيروان ، وانغمسوا فى الترف فسكنوا القصور الجميلة بالقاهرة وتمتعوا بكل أنواع الملذات فى الحياة ، وكلوا أمور الناس وشئون الدولة الى خدامهم كما فعل قبلهم العباسيون مع مواليهم . فكان من جراء ذلك أن استأثر الوزراء بمناصب الخلفاء شيئا فشيئا ، حتى كانوا يلقبون بلقب "ملك" ، بينما كان ساداتهم متروين فى بيوتهم وقد أصبحوا ألعوبة فى يدهم ، كما أصبح خلفاء العباسيين مثلهم فى بغداد .

ومع أن سلطة الخليفة المستنصر ٤٢٧ — ٤٨٧ هـ (١٠٣٥ — ١٠٩٤ م) امتدت (فى الشطر الأول من عهده) حتى شملت شمال إفريقية والشام ، لما قام به دعاته الجريئون فى الأمبراطورية الاسلامية ، حتى كان اسمه يذاع فى خطبة الجمعة فى الجوامع بين المحيط الأطلسى والبحر الأحمر ، وفى اليمن والحجاز والموصل ، بل وفى حاضرة العباسيين نحوا من سنة — مع هذا كله ، فان قوة الفاطميين كانت قد أخذت فى الانحلال ، وأخذ نجم الخلافة الفاطمية فى الأفول .

ففى سنة ٤٤٣ هـ رفض أهالى شمال إفريقية عقائد المذهب الشيعى رفضا نهائيا[١] ، وتلا ذلك عدم الاعتراف بالخلافة الفاطمية فى بلاد العرب لما توفى الصُّلَيْحى سنة ٤٧٣[٢] .

ولقد تولى الوزارة بعد وفاة الوزير اليازورى سنة ٤٥٠ هـ (١٠٥٨ م) أربعون وزيرا فى مدة تسع سنوات ، مما جعل الحروب العنصرية بين الجنود المرتزقة من الأتراك والسودانيين أكثر خطرا وشدة فى بعض الأحيان تحت هذا الحكم الضعيف ، وإن كان تقلد بدر الجمالى للوزارة قد وضع حدا ، ولو الى حين ، لهذا الاستبداد العسكرى .

---

(١) ابن ميسر (ص ٦)

(٢) ذكر ابن خلكان (ج ١ ص ٤٦٥ و٤٦٦) أن الخطبة أقيمت هناك باسم الخليفة المستنصر سنة ٤٥٥ هـ (١٠٦٣ م) . ومن أراد الاستزادة ، فليرجع الى ابن خلكان (ج ١ ص ٤٦٥ — ٤٦٧)

وتدلنا المباحث التاريخية على أن السبب الحقيقى فى سقوط الدولة الفاطمية إنما يرجع الى الحروب الصليبية . وسنبين الآن أنه بالرغم من انحلال قوة الفاطميين فى الشطر الثانى من حكمهم ، فان الحروب الصليبية قد عجلت بزوال دولتهم العظيمة التى سيطرت ردحا من الزمن على جميع الولايات الغربية للدولة العباسية الشاسعة الأرجاء . والكلام فى هذا الموضوع مبسوط فى كتب كثيرة . فقد أمدنا بكثير من المراجع بعض الكتّاب الذين عاشوا فى أواخر أيام الفاطميين ، أمثال عمارة اليمنى (+٥٦٩هـ و١١٧٤ م) وأسامة بن منقذ (+٥٨٤هـ و١١٨٨ م) اللذين شهدا ما كان يجرى فى مصر فى هذا العصر ، كما اشتركا فى أمور البلاد السياسية والحربية .

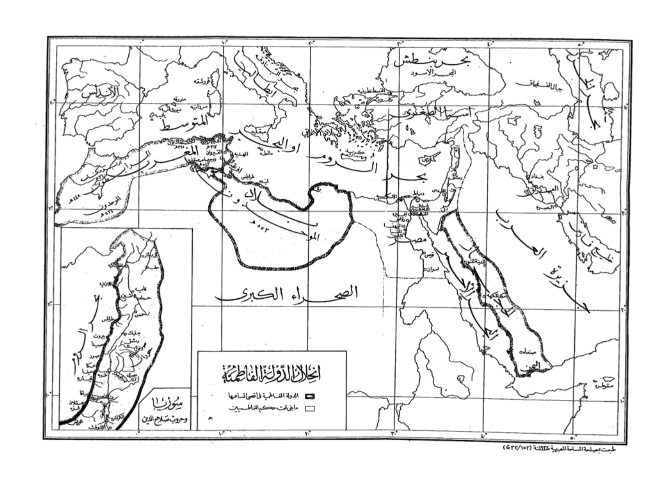
وبالرغم مما عسى أن تتهم به رواية هذين الكاتبين فى هذا الموضوع لما كانا يتمتعان به من تعضيد الوزراء فى مصر ، فاننا نميل بناء على ما أهدتنا إليه مباحثنا ، الى صدق روايتهما فى وصف هذه البلاد قبل زوال الخلافة الفاطمية بقليل .

وهناك كتّاب آخرون أمثال وليم الصورى William of Tyre (نسبة الى صور) المتوفى سنة ٥٨١ هـ (١١٨٥ م) ، وأبى صالح الأرمنى المتوفى سنة ٦٠٥ — ٦ (١٢٠٨ م) ، وابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠ هـ (١٢٣٣م) ، وابن شداد المتوفى سنة ٦٣٢ هـ (١٢٣٤ م) ، وأبى شامة المتوفى سنة ٦٦٥ هـ (١٢٦٦ م) ، وابن ميسر المتوفى سنة ٦٧٧ هـ (١٢٧٨ م) ، وابن خلكان المتوفى سنة ٦٨١ هـ (١٢٨٢ م) — وكلهم من أعلام التاريخ يؤيدون الرواية السابقة .

---

١ — حالة مصر منذ عزل رضوان الى مقتل ابن السّلار

لقد أدى انتشار حكومة الأشراف (الحكومة البيروقراطية) فى ذلك العصر الى تأليف مؤامرات سرية وأحزاب سياسية ، ومهد السبيل لسقوط الدولة الفاطمية التى مزقها الانقسام ، فوقعت فى أيدى المغيرين عليها .



طبعت بمصلحة المساحة المصرية (G ٣٢/١٥٢)

ويقول ستانلى لين پول : "إن أول تدخل لنور الدين فى شئون مصر بقوة السيف كان من سعى وزير مخلوع"[١] . غير أن بُداءة تدخل نور الدين فى أمور مصر يرجع عهده إلى أيام الوزير ابن السلار (رمضان سنة ٥٤٤ — محرم سنة ٥٤٨ هـ و ١١٥٠ — ١١٥٣م) . وكان النزاع المتواصل بين الوزراء المتنافسين والحزبية فى الجيش ، سببا فى وقوع القلاقل من قبل ذلك فى أيام الوزير بهرام الأرمنى المسيحى ، الذى كان تعيينه لكثير من بنى جلدته فى مناصب الدولة سببا فى إثارة كراهة الناس له ، حتى انتهى الأمر بعزله وعزل ألفين من الأرمن الذين كانوا يستظلون بحمايته ؛ وقد قضى بقية أيام حياته راهبا[٢] .

وقد خلف بهرام فى الوزارة رضوانُ بن الوَلَخْشى ؛ وكان شاعرا وجنديا مقداما ؛ تلقب لأول مرة فى العهد الفاطمى بلقب "ملك" ، وصار ذلك من ألقاب الوزراء الفاطميين الذين أتوا بعده . غير أن رضوان لم يلبث أن عزل من الوزارة ؛ ففر إلى الشام ، وهنالك طلب إلى زَنكى أتابك الموصل مساعدته .

كان رضوان ينوى غزو مصر ؛ ولم يثنه عن ذلك إلا أسامة بن منقذ الذى أُوفد إليه من القاهرة واسترضاه بثلاثين ألف دينار ؛ فعدل عن ذلك[٣] ، وجاء إلى القاهرة بعد أن أمنه الخليفة الحافظ على حياته . ولكن ذلك الخليفة لم يف بعهده ؛ فقد حبسه عشر سنوات تمكن فى آخرها من الفرار ؛ ثم جمع له أنصارا كثيرين واستقر فى الجامع الأقمر أمام القصر . غير أن جنود الخليفة السودانية هزموا أنصاره ، وشتتوا شملهم ثم ظفروا به ؛ فقطعت رأسه كما قطع جسمه إربا ، والتهمه الجند اعتقادا منهم أنهم بذلك يماثلونه فى بأسه وشجاعته[٤] .

وبعد يومين من مقتل رضوان توفى الخليفة الحافظ ؛ فنشب النزاع العنيف بين الجند السودانى والجند التركى ، وولى ابنه الظافر — وسنه ست عشرة سنة — الخلافة من بعده ؛ وقد عادت المنازعات بين الوزراء المتنافسين فى هذا العهد سيرتها الأولى .

وقد ابتدأ هذا الشاب الأرعن حكمه بطرد الوزير ابن السلار — الذى كان يلقب بالملك العادل — وجعل فى الوزارة نجم الدين بن مصال الذى كان مكروها من الأهلين . أما ابن السلار ، فسرعان

---

(١) Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem, p. 80.

(٢) أبو صالح (ص ٨٤) .

(٣) أسامة بن منقذ (ص ٢٢ و ٢٣) .

(٤) شرحه (ص ٢٤) .

ما جمع فرقة من أعوانه المسلمين وسار بهم إلى الجيزة فى الرابع عشر من رمضان سنة ٥٤٤ هـ (١١٥٠ م) . وفى اليوم التالى تمكن من الحلول محل منافسه فى الوزارة — وكان ذلك أمرا مألوفا فى ذلك الحين — وقد فر عند ما رأى تقدم ابن السلار ، ولم يكن قد مضى عليه فى الوزارة أكثر من خمسين يوما[١] .

وقد التجأ ابن مصال بعد هزيمته الى كورة الحوف . وهناك تمكن بما جمعه من أموال الخليفة من حشد قوة كبيرة حوله ؛ ثم استقر فى الوجه القبلى ، فتبعه العباس ربيب ابن السلار . وفى مدينة دلاص — الواقعة جنوب الواسطى فى الوجه القبلى — التقى الجندان ، فدارت الدائرة على ابن مصال ، وتفرق جنده أيدى سبا ؛ أما هو فقد قتل وحمل رأسه الى القاهرة . وبهذا استراح ابن السلار ممن ينافسه ، واعترف الخليفة له بالوزارة مرغما ؛ لكنه ما برح يعمل على الكيد له لطرده من الوزارة[٢] .

وقد وصف لنا أسامة احدى المكائد التى كادها له الخليفة الظافر . من ذلك أن جماعة من حرس الخليفة اختبأوا فى دار تجاور دار الوزير ، وظلوا حتى انصرف أنصار الوزير فى منتصف الليل . غير أن ابن السلار علم بذلك ، وكان معه فى داره أسامة بن منقذ ؛ ولذلك فشلت المؤامرة وتشتت جمع المتآمرين[٣] .

أما ابن السلار فقد أرسل أسامة بن منقذ — وهو مرجعنا فى هذا الموضوع — فى بعثة الى الشام ليطلب من نور الدين العون فى غزو مدينة طبرية ، فيمنع بذلك غزو الصليبيين مصر ؛ وفى تلك الأثناء يسير الوزير بنفسه إلى غزة وعسقلان[٤]

وقد كان معنى هذا الرجاء طبعا هو تدخل نور الدين فى شئون مصر ، أو على الأقل إفهامه أن مصر لم تعد قادرة على أن تقف وحدها فى وجه الصليبيين ؛ وذلك ما أتاح أخيرا الفرصة لنور الدين لغزو هذه البلاد .

---

(١) ذكر ذلك أسامة بن منقذ (ص٦) . أما الذهبى (مكتبة بودليان بأكسفورد ، مخطوطات (Laud) القسم الشرقى رقم ٣٠٤ ، ورقة ١٠٥ أ) وأبو الفدا ، (ج٣ ص ٢٣) قد ذكرا أنه لم يمكث فى الوزارة الا أربعين يوما .

(٢) أسامة بن منقذ (ص ٥ و ٦)

(٣) (شرحه ص ٦)

(٤) (شرحه ص ٧)

ثم سافر أسامة إلى الشام وتقابل مع أسد الدين شيركوه فى بُصْرى[١] ، ومنها صحبه إلى دمشق . أما نور الدين فقد أبى امتشاق الحسام لمحاربة الصليبيين ، فقد كانوا هم وأهل دمشق أعداءه على السواء ، ورأى أنه يغرر بنفسه إذا دخل فى حرب مع أحد الفريقين .

ومع هذا فقد أباح لأسامة أن يجند تحت لوائه أكثر ما يمكن تجنيده من المتطوعين. وقد انضم إليه ثلاثون من حرس نور الدين وأمير من الأكراد ليشترك نور الدين فى ذلك اشتراكا فعليا ، فينسب إليه ما قد يحوزه جند أسامة من نصر . وقد حاصر أسامة عسقلان نحوا من أربعة أشهر بجند كبير من الغز المرتزقة. غير أن قواته اندحرت لعدم ثباتها أمام العدو من جهة ، ولإهمال قائده تنفيذ أوامره من جهة أخرى — كما يقول أسامة نفسه .

وسار أسامة بعد ذلك إلى الجنوب ، ثم جاءته أوامر الوزير ابن السلار فعاد إلى القاهرة من غير أن ينال أى نجاح حربى[٢] . ومع ذلك فقد كان لطلب أسامة المساعدة من نور الدين نتيجتان :

الأولى — ظهور مصر بمظهر الضعف وعدم قدرتها على صد هجمات الصليبيين ؛ ومن هنا طمع نور الدين فى الاغارة عليها . غير أن عدم اخلاص السوريين له حمله على تأجيل ذلك حتى تتوطد أقدامه فى سورية ويقوى أمره .

الثانية — أن الصليبيين أصبحوا على علم تام بحال البلاد المصرية .

لهذا كله وقف المتنافسان (نور الدين والصليبيون) بعضهما لبعض بالمرصاد ، وأخذ كل فريق يراقب حركات الفريق الآخر .

أما عن أحوال مصر الداخلية ، فقد كان ابن السلار الذى تلقب بالملك العادل سيف الدين (ذلك اللقب الذى يدل على انضوائه تحت لواء المذهب الفاطمى) سنيا مغاليا . وربما كان ذلك سببا فى تدبير الخليفة المكائد له حتى يخلص من شره . غير أن ما كان لابن السلار من أنصار كثيرين قد آذن بزوال سلطة الفاطميين الدينية. يضاف إلى هذا أن النزاع الذى كان بين ابن السلار ، وهو كما علمنا من غلاة السنيين ، وبين ابن مصال المغربى الأصل ومن أهالى لُكّ (قرية قريبة من برقة)

---

(١) يسمى بهذا الاسم موضعان : أحدهما ببلاد الشام ، وهى حاضرة إقليم حوران ، والآخر قرية من أرباض بغداد (انظر هذا اللفظ فى معجم البلدان لياقوت) .

(٢) أسامة بن منقذ (ص ٧ — ١٣)

كان فى الحقيقة نزاعا بين السنيين والشيعيين . وقد كان ابن السلار يطمع فى مساعدة نور الدين ، ذلك الرجل السنى المتعصب لمذهبه ، لنشر مذهب أهل السنة فى مصر بدل مذهب الشيعة ، كما دلتنا على ذلك مباحثنا المستفيضة فى حياة ابن السلار واليا ووزيرا .

وكان ابن السلار — كما يقول ابن خلكان — من أصل كردى ، ومن قبيلة الزرزرى[1] . نشأ فى قصر القاهرة وشغل مناصب مختلفة فى الوجه القبلى ، وتدرج فيها حتى ولى الوزارة فى عهد الخليفة الظافر فى رجب سنة ٥٤٣ ﻫ (نوفمبر — ديسمبر سنة ١١٤٨ م) .

وقد أظهر ابن السلار أخيرا اعتناقه للمذهب السنى ، وصار شافعى المذهب (وهو المذهب الذى كان يتبعه أيضا أسد الدين شيركوه وصلاح الدين) . ولما ولى الاسكندرية بعد وصول الحافظ السِّلَفى الفقيه الشافعى فى ذى القعدة سنة ٥١١ ﻫ (مارس سنة ١١١٨ م) ، عامله بكل تجلة وإكرام ، وأنشأ فى سنة ٥٤٦ ﻫ (١١٥١ م) مدرسة للشافعية أسند إليه إدارتها[2] . وبهذا هيأ ابن السلار السبيل لرجوع المذهب السنى إلى مصر .

وقد اعتمد الخليفة الظافر فى الكيد لابن السلار واغتياله على نصر بن عباس[3] ، وهو شاب فى سن الخليفة ومن أخص خواصه ، وكان من أمره أخيرا أن قتل الخليفة والوزير معا .

(١) انظر Quatremère: "Notices sur les Curdes," in "Notices et Extraits," Vol. XIII, p. 315.

(٢) ابن خلكان (ج ١ ص ٣٧ و ٤٦٧ و ٤٦٨)

(٣) فى سنة ٥٠٣ ﻫ (١١٠٩ — ١١١٠ م) وصلت إلى مصر بُلَّارة زوجة أبى الفتوح بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس مع ولدها أبى الفضل عباس بن أبى الفتوح ، وكان طفلا إذ ذاك . وقد تزوجت بُلَّارة ابن السلار ، وأقامت معه ردحا من الزمن . وتزوج عباس ، وولد له ولد أسماه نصرا ، فتربى فى كنف جدته فى دار ابن السلار الذى حاطه برعايته وعطفه العظيم . ولما شب عباس أنفذه ابن السلار إلى الشام ليشترك فى حرب الصليبيين ، فصحبه أسامة بن منقذ . ولما وصل إلى بلبيس ليتولى قيادة الجند ، أظهر لأسامة تألمه من مغادرة مصر الجميلة ذات المناخ البديع التى تركها لا لشىء إلا لمقابلة الأعداء ، كما أظهر له تألمه أيضا من عبء الحياة العسكرية .

ويقال إن أسامة أراه حينئذ أنه فى مكنته أن يتجنب كل هذا بقتل ابن السلار ، وتقلده الوزارة بدله . وقد اتفق بعد ذلك أسامة وعباس فيما بينهما على أن يقوم نصر بتنفيذ ذلك المشروع الشائن ؛ وتمكن نصر من قتل ابن السلار وهو نائم فى سريره فى ٦ المحرم سنة ٥٤٨ ﻫ (أبريل سنة ١١٥٣ م) — جاء فى ابن خلكان (ج ١ ص ٤٦٨) والمقريزى (خطط ج ٢ ص ٤٤٧) أن جدة نصر بلاوة (بالواو) انظر أيضا ابن ميسر (ص ٩٢)

ذكر أسامة (ص ١٣) أن نصرا عاد إلى القاهرة بعد أيام قليلة من سفره إلى بلبيس مع والده عباس بدون اذن الوزير ابن السلار ، الذى أمره بالرجوع ثانيا إلى الجيش والاشتراك فى الغزاة .

وكان الوزير يعتقد أن نصرا انما عاد الى القاهرة سعيا وراء أهوائه ؛ لكن الحقيقة أنه أرسل باتفاق أبيه لاغتيال الوزير ، فكان له ما أراد بفضل ما لقيه من تعضيد الخليفة . وقد دخل عباس القاهرة غداة مقتل الوزير وتقلد الوزارة ، وخلع عليه الخليفة (شرحه ص ١٣ و ١٤) .

٢ — مقتل الخليفة الظافر

لقد صدق لين پول فى قوله "ان مقتل ابن السلار بيد حفيد زوجته نصر ، وما تبعه من مقتل الخليفة بنفس هذه اليد الأثيمة ، يعتبر من أخفى حوادث التاريخ فى مصر." ويقص علينا ذلك أسامة بن منقذ ، ذلك الرجل العظيم الذى اعتاد الصيد مع رجال بلاط الخليفة ، وكان صديقا حميما وضيفا لابن السلار . وكان مع هذا من الذين دبروا أمر اغتياله .

وقد وضع الخليفة الذى تملكه الفرح لمقتل ابن السلار ، رأس القتيل فى بيت المال ، ونفح قاتله بعشرين صحفة فيها ٢٠,٠٠٠ دينار ، وحرضه على قتل أبيه بعد ذلك . لكن عباسا استشعر الخطر ، فأعد العدة ليسم ابنه . وقد كان لتدخل أسامة بين نصر وأبيه أثر فى اصلاح ما بينهما ، اذ وعد نصر بأن يقتل الخليفة اذا زاره فى داره .

وفى اليوم التالى بينما كان أسامة جالسا فى الدهليز ، إذ سمع صليل السيوف . ذلك أن صديقه عباسا ذهب الى القصر يصحبه ألف سياف من أتباعه متظاهرين بالاستفسار عن الخليفة . ولما علم عباس بقتله ، أخذ فى قتل أخوة الخليفة واتهمهم بأن لهم يدا فى الجريمة[١] .

أثار قتل الخليفة أهالى القاهرة ، فنشبت المعارك فى طرقات المدينة وأخذ النسوة والأطفال يرجمون أتباع الوزير بالحجارة من نوافذ دورهم . ولم يلبث هؤلاء الأعوان أن اعتزلوه . ولم يكن لعباس طاقة بمقاومة سخط الأهلين وثورة انتقامهم ، ففر هو وابنه الى سورية[٢] . غير أنه لقى حتفه بغتة فى طريقه على يد جماعة من الفرنجة أرسلتهم أخت الخليفة الظافر فى اثره (ربيع الأول سنة ٥٤٩ و ١١٥٤م) . أما نصر ابنه فقد باعه الفرنجة فى عسقلان ، وأرسل إلى القاهرة (ربيع الأول سنة ٥٥٠) فى قفص من حديد . فعذبه نساء البلاط وطيف به فى المدينة بعد أن جُدع أنفه وصُلمت أذناه ، وصلب حيا على باب زويلة ، وترك معلقا هناك شهورا كثيرة[٣] ؛ ثم أحرقت جثته فى العاشر من المحرم سنة ٥٥١ (١١٥٦ م)[٤] .

(١) أسامة بن منقذ (ص ١٦ — ١٨)
(٢) من أراد التفصيل فلينظر أسامة بن منقذ (ص ١٩ وما يتبعها) .
(٣) أسامة بن منقذ (ص ١٩ ، ٢٠)
(٤) ابن خلكان (ج ١ ص ٥٠٠)

ترك الخليفة المقتول طفلا فى الرابعة من عمره ؛ فدعى له بالخلافة وتلقب بالفائز سنة ٥٤٩ هـ . وكاد هذا الطفل يموت رَوعا يوم استخلافه . وقد قص نساء القصر شعورهن لما راعهن من قتل الخليفة حدادا عليه ، ثم أرسلوها الى الأمير طلائع بن رُزِّيك والى الأُشمونين ، "وذلك أقصى ما يمكن فى التوسل عند المرأة المسلمة" ،[١] وتضرعن اليه أن يجيء لتخليصهن .

ولما وصل هذا التوسل إلى رزيك سار الى القاهرة . ولما قاربها جعل الشعور فى رأس رمحه واستولى على دار المأمون (قصر عباس[٢]) .

وقد دفن جثمان الخليفة المقتول مع آبائه فى وسط مظاهر الحداد العام ؛ وأخذ الوزير ابن رزيك فى إرجاع الأمن الى نصابه ومعاقبة الجناة ، وقتل القواد المناوئين الذين حل الدمار فى أيامهم بالقاهرة سنين كثيرة ، وأعاد عصر سيادة القانون [٣] .

وكان ابن رزيك — الذى تلقب بالملك الصالح — قوى الشكيمة ؛ فكان هو الرجل الذى تحتاج اليه مصر فى ذلك الحين . أما تلك المأساة فقد أفقدت الفاطميين عسقلان آخر ممتلكاتهم فى فلسطين ، التى استولى الصليبيون عليها وقد دب التنافس بين الأحزاب فى مصر ، إذ تركت من غير حامية بعد عودة عباس على أثر مقتل ابن السلار . وبذلك سقط فى أيدى الصليبيين آخر حصن للفاطميين فى هذه الولاية سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٣ م)[٤] .

أما الصليبيون فلم يستمروا فى سيرهم الى مصر ، إذ فت فى عضدهم وزعزع ملكهم فى بيت المقدس نماء قوى البلاد المتاخمة لها ، وفشل الحملة الصليبية الثانية تحت قيادة كُنْراد Conrad ولويس السابع ، واستخلاف نور الدين على عرش الشام واستقرار أمره فى حلب شمالا ودمشق شرقا ، وقد تلقب ببطل الاسلام وقوى أمره بضم دمشق اليه سنة ٥٥٠ هـ (١١٥٤م) ، وكان فى حلف دفاعى مع الصليبيين[٥]

---

(١) (Lane-Poole: History of Egypt in the Middle Ages, p. 173).

(٢) هذا القصر بناه الوزير المأمون ، وحول فيما بعد على يد صلاح الدين الى مدرسة للأحناف ، وتعرف بالمدرسة السيوفية .

(٣) ابن ميسر (ص ٩٤) وابن خلكان (ج ١ ص ٢٩٨) وما يتبعها .

(٤) ابن ميسر (ص ٨٦)

انظر (Prof. Margoliouth: Cairo, Jerusalem and Damascus, p. 36).

(٥) ابن الأثير (ج ١١ ص ٤٦)

وقد قُتل الوزير طلائع بن رزيك (رمضان سنة ٥٥٦ هـ و ١١٦١) بدسيسة صهره (زوج ابنته) الخليفة العاضد ، الذى زالت الخلافة الفاطمية فى أيامه ، وانتقص هذا الوزير سلطته من أطرافها . وقد كان لمقتله ضجة فى القاهرة . وهنا يجمل أن نأتى بما أمدنا به عمارة اليمنى ، وكان شاهد عيان لما حدث فى مصر فى عهد الخليفتين الأخيرين من الخلفاء الفاطميين .

لقد نصح ابن رزيك وهو على فراش الموت ابنه أبا شجاع العادل أن يحذر شاوَر ويتجنب خلعه من منصبه . وقد دلت الأيام على أن تلك النصيحة كانت لخير ابنه . كان شاور عربى الأصل ، اتصل بابن رزيك ونال حُظْوة لديه ؛ فولاه الصعيد ، وغدا مركزه من الخطر بحيث لم يجرؤ ابن رزيك على عزله من منصبه . فلما توفى ابن رُزيك خلفه ابنه العادل فى الوزارة ؛ غير أنه لم يكد يأتى عليه عام فى الوزارة حتى خلعه شاور وقتله ابنه طى بن شاور فى ٢٢ المحرم سنة ٥٥٨ هـ (يناير سنة ١١٦٣م) .

وصار شاور بفعلته هذه غير محبوب من الناس ، مما سهل لانصار سلفه الاجتماع على الكيد له وخلعه من الوزارة . وكان من مظاهر خُرْق شاور فى سياسته أن أطلق لابنه طىّ عنان التدخل فى شئون الدولة . ولم تقتصر أعماله السيئة على بنى رزيك ، بل تناول أذاها الأهلين عامة ؛ فاستثار شاور بذلك — كما يقول عمارة — بغض الناس[1] .

ويقول أبو شامة فى عرض كلامه على مقتل العادل بن رزيك ، أن طىّ بن شاور هو الذى فعل تلك الفعلة دون رضى أبيه . ويقول ابن أبى طى[2] الذى نقل عنه أبو شامة ذلك : " أشار

(١) عمارة اليمنى ، كتاب " النكت العصرية " ، (ص ٨٨)

(٢) اسمه يحيى بن حميدة (أو حامد كما فى رواية أخرى) ، ويكنى بابن أبى طى . وأصله من حلب ، وتوفى — كما يروى حاجى خليفة (رقم ٢٠٢ و ٢٠٧٠ الخ) — سنة ٦٣٠ هـ (١٢٣٢ — ١٢٣٣ م) . وكان والده أحد أشراف بلدته ، وطرده نور الدين لخروجه فى آرائه على الدين . ومن المحتمل أن يكون قد اعتنق العقائد الشيعية التى كان الفاطميون يجدون فى نشرها فى البلاد السورية ؛ وأما ابنه يحيى فقد اعتنق تلك العقائد ؛ يؤيد هذا كتاباه " معجم شعراء الشيعة " و " رسالة فى فضائل الأئمة الاثنى عشرية " . وقد أتى على مؤلفات ابن أبى طى فى السير والتواريخ حاجى خليفة (رقم ٢٠٢ و ٢٠٧٠ و ٢٢٠٥ و ٢٣١٢ و ٤٦٤٧ و ٧٢٢١ و ٧٩٠٧ و ٨٢٢٦ و ١٠٩٤٠ و ١٣٠١٩) ووستنفلد (Geschichte der Araber, No. 315) ؛ ومن المحتمل أن يكون انتشار العقائد السنية فى بلاد الشام فى ذلك الوقت هو السبب فى أنه لم يصل الينا من مؤلفات هذا المؤرخ الا القليل . وقد وضع أبو شامة والمقريزى ترجمة ابن أبى طى لحياة صلاح الدين (حاجى خليفة رقم ١٠٩٤٠) فى متناول أيدينا ، اذ أمدنا كل منهما بشذرات من كلامه . وكذلك بقى من مؤلفاته أيضا شرحه للامية العرب للشنفرى ؛ وقد ألفه سنة ٦١٨ هـ (١٢٢١ م) .

انظر أيضا (Hartwig Derenbourg: Vie d'Ousâma, Historiens orientaux des croisades, Vol. I, p. 403, n, 3. Introd. p. L.

بعض أقارب العادل بن رزيك بالتخلص من شاور بعزله ؛ فأبى الوزير ذلك بادئ الامر ؛ ولكنه عزله أخيرا . فثار عليه وعضده قوم من الأعراب وأهل الصعيد ، فتمكن من دخول القاهرة . ثم غادر العادل بن رزيك المدينة واختفى ؛ ولكنه لم يلبث أن قبض عليه جماعة من الأعراب وحملوه الى شاور" .

وهرب بعد ذلك سائر أسرة ابن رزيك خارج البلاد ؛ وبذلك انفرد شاور بالسلطة المطلقة . بيد أن أفاعيل أولاده مع الأهلين جعلته مكروها عندهم ، حتى ان ضرغام أمين الباب وأمير البرقية (فرقة من الجند من برقة) وأخاه مُلْهِما ، وهما من خواص طلائع بن رُزِّيك ، تفاوضا مع العادل — وكان محبوسا فى ذلك الوقت — فى أن يثير ثورة علّهم يتمكنون من ارجاعه للوزارة .

ولما اتصل ذلك بطى بن شاور ، حذر أباه عواقب تلك المؤامرة ونصح له بأن يقتل ابن رزيك . غير أن شاور تذكر ما ناله من عطف طلائع بن رزيك ، فلم يذعن لرأى ابنه .

ذهب طىّ بن شاور بعد ذلك الى السجن وقتل العادل بن رزيك ، فجلب لنفسه بذلك سخط أبيه . ولما علم ضرغام أمين الباب وأمير البرقية بهذا الحادث ، أشعل نار الثورة وهزم جند شاور . ففر شاور الى سورية ؛ وبعد فراره قُتل ولداه طى وضرغام . أما ابنه الثالث الكامل ، فقد كانت له يد على ملهم أخى ضرغام أمين الباب ، فلم يقتله ، بل اقتصر على اعتقاله . وبهذا انتهت وزارة شاور الأولى وحل محله فيها ضرغام ، وذلك فى رمضان سنة ٥٥٨ هـ (١١٦٣ م)[١] .

وقد تدخل نور الدين والفرنجة تدخلا جديا فى شئون مصر منذ ذلك الحين . وكان من اغارة هاتين القوتين على مصر وسياسة شاور المزعزعة ، واسراف ضرغام فى قتل قواد مصر — كان من هذه الأحوال مجتمعة ما عجل بسقوط الدولة الفاطمية .

وقد هرب شاور فى رمضان من هذا العام الى نور الدين بدمشق وطلب منه النجدة ، وأراه أنه على استعداد لأن يقوم بنفقات الحملة وأن ينزل له اذا تم له الأمر عن ثلث خراج مصر جزية

---

(١) أبو شامه : مجموعة تواريخ الحروب الصليبية (ج٤ ص ١٦٥) .

Recueil des Histoires des Croisades. Historiens orientaux, Tome IV, p. 165

النكت العصرية (ص ٦٧ و ٧٨) ، وابن الأثير (ج ١١ ص ١١٧) .

سنوية[1] . وكان نور الدين يعلم ما لمصر من المركز السياسى الخاص ، بمعنى أن من يملكها يمكنه أن يسيطر على غيرها من البلاد ، وأنها معين خصب للخراج .

وهنا قد يكون لين پول مصيبا فى ظنه ، وهو أن عدم ثقة نور الدين بشاور ، وتخوفه من الأخطار التى تستهدف لها حملته فى اجتيازها الصحراء ومرورها على الصليبيين — كل ذلك جعله يتردد فى هذا المشروع . غير أنى أميل الى الظن بأن لين پول تسرع فى حكمه ، فأسند عدم ثقة نور الدين بشاور الى أشياء جاءت بعدُ ، وذلك لعدم فهمه عبارة ابن الأثير (ج ١١ص١٢٠) هذه : "وتخوف أن شاور ان استقرت قاعدته ، ربما لا يفى" ؛ لأنه لم يكن قد ظهر بعد تزعزع أخلاق شاور فى الوقت الذى كان يحاول الاتفاق مع هاتين القوتين الأجنبيتين .

وقد أورد لنا ابن شدّاد (ص٤٣) وأبو شامه (ص١٠٧ — ١٠٨) وابن خلكان (ج ٢ص٤٩٩) وغيرهم الأسباب التى جعلت نور الدين يصمم على ارسال هذه الحملة الى مصر ، هذه الأسباب التى يمكن تلخيصها فيما يلى :

أولا — رغبته فى اجابة شاور الى طلبه ، وقد تضرع اليه ورغب فى الاستعانة به .

ثانيا — شغفه بالاطلاع على حقيقة الحال فى مصر ، وقد اتصل به أن قوتها الحربية كانت ضعيفة جدا ، وأنها كانت فى حالة اضطراب شديد .

---

٣ — حملة شيركوه الأولى على مصر

هكذا عجلت الحوادث تدخل نور الدين . وذلك أن ضرغام اختلف مع عمورى فى الجزية السنوية التى كان يدفعها اليه : فسار ملك بيت المقدس الجديد (عمورى) الى مصر سنة ٥٥٩ ﻫ (١١٦٣ م) ليفرض عليها الجزية كرها . ولحقت الهزيمة المنكرة بضرغام فى بلبيس ، فأراد أن يتجنب

---

(1) ابن الأثير (ج ١١ ص ١٢١) .

ذكر ابن الأثير عن ابن أبى طىّ من جهة أخرى ، أن شاور أرسل الى شيركوه ثلاثين ألف دينار ، وطلب منه أن يعود الى الشام . غير أن شيركوه أجابه اتباعا لتعليمات نور الدين ، بأنه يجب أن يعطيه ثلث الخراج ، وأن ينفق الثلث الثانى على جيش شاور ، ويخصص الثلث الأخير لنفقات القصر . فأنكر شاور اتفاقه على ذلك مع نور الدين ، وذكر له أنه انما اتفقا على أن يساعده نور الدين ، ثم ترجع الجنود السورية الى بلادها متى صارت له السلطة ؛ فألح شيركوه فى ضرورة تنفيذ أوامر نور الدين ؛ فكان من أثر ذلك أن أمر شاور باغلاق أبواب القاهرة ، وبدأ فى مفاوضة الفرنجة (أبو شامه ، شرحه ص ١٦٦) .

الهزيمة النهائية . فأوحى له قصر نظره وغباوته فتح سدود النيل — وكان فى إبان فيضانه — فأغرق البلاد . على أنه قد تم له ما أراد من رجوع عمورى الى فلسطين .

وعلم ضرغام بالمفاوضات التى دارت بين شاور ونور الدين ؛ فأدرك خطأه فى عدم اتفاقه مع عمورى ، وسارع بعقد حلف معه ، وزاد فيه مقدار الجزية . وسرعان ما ظهر نور الدين فى ساحة القتال حين اتصل به ذلك . وقبل أن يتمكن عمورى من المسير الى مصر (جمادى الثانية سنة ٥٥٩ ، أبريل سنة ١١٦٤ م) ، سار شاور اليها مع جند قوى من التركمان من دمشق يقوده أسد الدين شيركوه ، وكان صلاح الدين قائد المقدمة . والتقى ذلك الجند مع المصريين فى بلبيس ؛ فانهزم المصريون ، غير أنهم لموا شعثهم ثانية واجتمعوا تحت أسوار القاهرة[١] .

واستمرت الحرب سجالا بين الفريقين عدة أيام ، تمكن شاور فى أثنائها من الاستيلاء على الفسطاط ، بينما كان ضرغام يحتل القصر فى القاهرة . وأراد ضرغام أن يجمع الأموال ؛ فوضع يده على أموال الأوقاف ، فأخذ الناس ينفضون عنه . وقد امتنع الخليفة والجيش عن مؤازرته ، فتدهور حتى رؤى راكبا مخترقا باب زويلة سائرا فى طرقات القاهرة يدعو الناس للثورة ونصرة دعوته ، فلم يلق منهم الا صياح الاستهزاء وتزويده باللعنات . وقد استمر فى سيره حتى جفل حصانه من صياح الناس ، فألقاه على الأرض فى جوار ضريح السيدة نفيسة .

وسرعان ما قطعت رأس ضرغام وطيف بها فى الطرقات وسط مظاهر الفرح بهذا النصر[٢] . وهنا يقول لين پول : "هكذا كانت النهاية المحزنة لذلك السيد الشجاع المقدام ، والشاعر البطل الحسن الخَلْق والخُلُق ، الكامل العقل ، الجامع محاسن الرجال ، الذى كان فارس عصره ، وأحسن من نَبَل بالقوس فى مصر"[٣] .

وقد أدرك شاور غرضه ؛ فتولى الوزارة ، وتوطدت أقدامه وأضحت قوته ثابتة الأساس . ولوثوقه بقوة مكانته وأنه قد أمن ما كان يتخوفه ، خان عهده مع أسد الدين شيركوه ، وهزأ بمحالفه ولم يف بما عاهده عليه ، وأبى دفع ما فرضه على نفسه من جزية ؛ ومد له الفرنجة يد المساعدة

---

(١) عمارة ، النكت (ص ٦٨ وما يتبعها) ، ابن الأثير (ج ١١ ص ١٢٠ و ١٢١) ، Lane-Poole: History of Egypt in the Middle Ages, p. 177

(٢) النكت (ص ٧٣)

(٣) Stanley Lane-Poole: Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem, p. 82.

حين طلب شاور إليهم ذلك ، فحاصروا شيركوه فى بلبيس وحملوه على العودة بجنده إلى الشام (ذو الحجة سنة ٥٥٩ هـ نوفمبر سنة ١١٦٤ م) . وانتهز نور الدين ذهاب عمورى إلى مصر فهزم قواته فى فلسطين ، فاضطر الى العودة لحماية بلاده[١] .

ولكن شيركوه لم يفشل تماما فى حملته على مصر ، إذ عرف ما كان يسود هذه البلاد من الفوضى ، فأطمعه ذلك فى امتلاكها . لذلك بقى فى الشام مدة يعد العدة فى تجهيز حملة ثانية أملا فى تأسيس أمبراطورية لنفسه ، واستمر حتى سنة ٥٦٢ هـ (١١٦٦ م) يدبر الخطط بالاشتراك مع نور الدين[٢] .

---

٤ — حملة شيركوه الثانية على مصر

لقد ظهرت أهواء شاور المضطربة وسياسته الخرقاء واضحة جلية فى غضون وزارته الثانية . ويؤخذ من قول عمارة أن شاور لم يلبث أن ظهر قلقه واضطرابه بعد أن استرد قوته واستقر فى مركزه . وفى اليوم التالى من وصوله القاهرة ، سار شيركوه إلى بلبيس حين علم بخيانة شاور له ، وهزم الجيوش المصرية .

ابتدأ نجم شاور فى الأفول فى هذا الحين بسرعة ؛ بجرح أخوه صُبْح جرحا بليغا ، وحاصر الفرنجة بلبيس ، وأرغموا نور الدين على العودة من فلسطين إلى الشام ، ولم يلبثوا أن عادوا هم أيضا إلى فلسطين .

ولم تكن حالة مصر الداخلية بأقل اضطرابا ؛ فقد كان لزاما على شاور أن يقمع ثورة يحيى بن الخياط أحد أنصار ابن رزيك[٣] (عمارة ص ٦٧) ، الذى قام يطلب الوزارة لنفسه ؛ وتلا ذلك الاضطرابات التى أثارها بنو لَوَاتة ومن لفَّ لفهم من العرب . وأدهى من هذا كله ما بلغه من إعداد نور الدين العدة لغزو مصر مرة أخرى[٤] .

---

(١) ابن شداد (ص ٤٣)

(٢) شرحه .

(٣) قتله شجاع بن شاور (حياة عمارة ص ٣٤٨) .

(٤) عمارة (ص ٦٧ و ٧٥ — ٧٨) .

طلب شاور مساعدة الفرنجة ثانية ووعدهم موطنا ثابتا فى مصر ؛ فأرسل نور الدين جيشا إلى هذه البلاد تحت قيادة شيركوه ، إذ رأى أن اتفاق شاور مع الفرنجة من شأنه أن يكسبهم قوة فى مصر ، وذلك يهدد مركزه فى الشام . وغادر جيش شيركوه الشام فى ربيع الأول سنة ٥٦٢ ﻫ (ديسمبر — يناير ١١٦٦ — ١١٦٧ م) ؛ ووافق وصولهم إلى مصر وصول الفرنجة ، كما يخبرنا بذلك عمارة وابن شداد وغيرهما من المؤرخين . وكان الفرنجة — كما ذكر أبو شامة عن ابن أبى طى — قد أعلموا شاور بسير الحملة السورية تحت قيادة شيركوه إلى مصر[١] .

سار الجيشان بحذاء شاطئ النيل حتى وصلا إلى القاهرة . فضرب عمورى سرادقه قريبا من الفسطاط ، وعسكر شيركوه فى مواجهته تماما بالجيزة ؛ ووقعت موقعة عنيفة بين جيش شيركوه من جهة ، وجيوش شاور والمصريين الذين اتحدوا مع الفرنجة من جهة أخرى . والتقى الفريقان ثانيا فى موقعة البابين ، على بعد عشرة أميال فى جنوب المنيا ؛ فأحرز شيركوه بقوته القليلة نصرا مبينا ، وبذلك توطدت أقدامه فى الصعيد . غير أنه لم يكن من القوة بحيث يمكنه أن يتابع انتصاراته ويسير إلى القاهرة ؛ فاختار أهون الأمرين ، وذهب فى الصحراء شمالا حتى وصل إلى الاسكندرية فدخلها من غير مقاومة .

أقام شيركوه بعد ذلك صلاح الدين واليا على الاسكندرية ، وجعل معه نصف الجيش ، وعاد بالنصف الآخر إلى الجنوب ، وأخذ يجبى الأموال فى الصعيد . أما قوى الفرنجة والمصريين المتحدة فقد حاصرت الاسكندرية برا ، بينما كان أسطول الصليبيين يحاصرها بحرا . ولم يكن مع صلاح الدين لصد هؤلاء إلا ألف من أنصاره ؛ فأسرع شيركوه السير إليه ، واصطلح الفريقان آخر الأمر على أن يترك شيركوه مصر فى مقابل خمسين ألف دينار .

عاد شيركوه الى الشام ، لأن جيشه — كما يقول ابن شداد — قد ضعف كثيرا فى حربه مع الفرنجة والمصريين . هذا إلى ما انتابه من البؤس وما حاق به من الأخطار[٢] . الا أن شيركوه صار ملما أكثر من قبل بأحوال مصر الداخلية ، ولذلك صمم كل التصميم على امتلاكها قبل أن تقع فريسة فى أيدى الفرنجة .

---

(١) أبو شامة : Receuil des Histoires des Croisades, tom. IV. p. 168.

(٢) ابن شداد (ص ٤٤ و ٤٥) .

٥ — حملة شيركوه الثالثة على مصر

هكذا انتهت حملة الفرنجة والغز على مصر . وقد ارتد الأولون إلى فلسطين والآخرون إلى الشام ؛ وبذلك زالت مخاوف شاور . غير أن الأيام أظهرت أن أمنه هـذا لم يكن إلا حلما من الأحلام . فقد ابتدأت حملة شيركوه الثالثة على مصر وانتهت بانتصاره على الفرنجة والمصريين واحتلاله البلاد ؛ وكان ذلك — كما يذكر عمارة[1] — نذيرا باندحار شاور وقتله .

لقد كان سبب حملة شيركوه الثالثة ما رآه من جمع الفرنجة قواتهم كافة وزحفهم بها على مصر من جديد ؛ إذ قد حملهـم الأمل فى امتلاك مصر على نقض ما عاهدوا المصريين وشيركوه عليه . لهـذا خشى نورالدين أن تقع البلاد فى أيديهم ؛ فأرسل هذه الحملة تحت قيادة شيركوه ، يصحبه أخواه ، وابن أخيه صلاح الدين العظيم ، وغيرهم من ذوى قرباه وجيوشه[2] .

وقد تجلت سياسة شاور المتقلبة ثانيا ؛ فقد أرسل لأسد الدين شيركوه كتابا يطلب فيه المساعدة . وصادف هذا الرجاء قبولا من نفس شيركوه ، لأن اتحاده مع شاور معناه هزيمة الفرنجة من جهة ، وتخلصه من شاور من جهة أخرى .

سار الفرنجة نحو مصر ، ووصلوا إلى بلبيس فى صفر سنة ٥٦٤ (نوفمبر سنة ١١٦٨ م) . وهناك كانت مذبحة عامة ، إذ لم يبقوا — كما يقول المؤرخ اللاتينى وليم الصُّورى William of Tyre — على أحد ممن كان بهذه المدينة من الناس على اختلافهم شبانا وشيبا ، ذكرانا وإناثا[3] . وقد أسخط عمل عمورى هذا جميع المصريين ، فانحازوا إلى شيركوه ، كما بعث فيهم روح البطولة ؛ وأمر شاور باحراق مدينة الفسطاط ، حتى يكون ذلك حائلا بينه وبين الفرنجة . وقد استمرت النيران بها أربعة وخمسين يوما ؛ ولا تزال آثار الحريق باقية الى يومنا هذا فى التلال الرملية التى تغطى القُمامة المدفونة فى الفضاء

(١) النكت العصرية (ص ٨١) .

(٢) ابن شداد (ص ٤٥ و ٤٦) .

(٣) ذكر أبو شامة (ص ١٣٧) ما فعله الفرنجة فى عبارة أقل مبالغة فقال ، ان عمورى قتل عددا كبيرا من الأهلين ، وأتلف معظم المدينة ، وأحرق أكثر مبانيها ، وجعل الناس فيها فريقين : قتل أحدهما بحد السيف ، واستبقى الآخرين شكرا لله على ما أتاه من نصر .

الممتد عدة أميال جنوبي القاهرة . وأسرع الناس بعد هذا لائذين بالقاهرة التى ساد أهليها الحماس استعدادا لصد هجوم الفرنجة[١] .

غير أن الفرنجة لم يهاجموا القاهرة ، وذلك بفضل ما أبداه شاور من الحذق فى مفاوضاته معهم كى يبعد عمورى عن مصر ببذل مقدار من المال له . لكن سياسته معهم لم يكن يسودها الاخلاص ، فقد راسل نورالدين فى دمشق يطلب منه المعونة . وقد كتب الخليفة العاضد الشاب نفسه بذلك إلى نور الدين ، ووضع فى رسالته خُصلا من شعور النساء إمعانا فى الضراعة ، حتى لايسعه أن يرد توسله بعد ذلك[٢] .

وكان نور الدين قد صمم فى هذه الآونة على غزو مصر ، وكان يود أن يذهب بنفسه ، لولا أنه كان مشتغل البال بحالة بلاد الجزيرة المزعزعة . فأرسل فى الحال قوة من ألفين اختارهم من حرسه الخاص وستة آلاف من التركمان بقيادة شيركوه ، يعينهم عدد كبير من الأمراء ومن أقاربه ، وكذا صلاح الدين ، وكان يد عمه اليمنى ، الذى قبل تلك المهمة على مضض لما لاقاه من المصاعب فى حصار الاسكندرية[٣] .

رحل شيركوه فى آخر صفر من السنة نفسها ، ووصل القاهرة فى السابع من جمادى الثانية . وكان عمورى لا يزال أمام أسوارها ينتظر أكثر مما ناله من الأموال المصرية . فباغته شيركوه وانضم إلى المصريين متجنبا جيش الفرنجة ، وقد سار إليه ليحول دون تقدمه . أما عمورى الذى خدعه شاور ، والذى رأى تفوق شيركوه عليه فى الحرب ، فقد عاد الى فاسطين من غير حرب ولا قتال . ودخل شيركوه القاهرة دخول المنتصر ، ورأى الناس فيه بطلا منقذا لهم ، فقابلوه بالترحاب ، واستقبله الخليفة الذى قدر صنيعه وخلع عليه[٤] .

---

(١) ابن الأثير (ج ١١ ص ١٣٦) ، أبو شامة (ص ١١٥) .

(٢) شرحه .

ان ما وراه الذهبي (مكتبة بودليان بأكسفورد ، مخطوطات Laud. القسم الشرق ، رقم ٣٠٤ ، ورقة ١٣٥ أ — ١٣٥ ب) يختلف عما رواه ابن الأثير وابن شداد . فقد روى الذهبي أن شاور هو الذى كاتب نور الدين وأرسل اليه شيئا من شعور النساء فى خطاباته ، كما روى أن تأثر نور الدين كان عظيما ، حتى إنه جعل شيركوه يقطع المسافة بين حمص وحلب فى ليلة واحدة ، فى جند يبلغ سبعين ألفا سار به الى مصر . وهاك عبارة الذهبي : "وكاتب شاور فى غضون ذلك الملك العادل نورالدين يستنجد به ، وسود كتابه ، وجعل فى طيه ذوائب النساء داخل كتبه يستحثه . وكان بحلب ، فساق أسد الدين من حمص الى حلب فى ليلة ، بجمع أسد الدين وسار الى دمشق ... ثم سار الى مصر فى جيش عرمرم ، فقيل كانوا سبعين ألف فارس وراجل" .

(٣) ابن الاثير (ج ١١ ص ١٣٦)

(٤) شرحه (ص ١٣٦ و ١٣٧) .

٦ – مقتل شاوَر وتقلد شيركوه الوزارة

لم يكن الغرض الحقيق من حملة شيركوه الثالثة على مصر مساعدة شاور ، بل كان ذلك تمويها . وفى الواقع أن الغرض الذى انطوى تحت هذه الحملة يختلف عن ذلك اختلافا تاما ، إذ كان يراد بها القضاء على شاور واحتلال مصر . وقد كان شاور وشيركوه يعلمان ذلك حق العلم ، كما كان كل منهما يعرف أيضا أن خصمه يكيد له كى يتخلص منه .

وقد صـدق ابن خلكان فيما ذهب اليه من أن شيركوه كان واثقا من أن الفرصة بامتلاك مصر لن تتاح له ما بقى شاور فيهـا . لذلك قرر أخيرا أن يقبض عليـه فى إحدى زياراته له ؛ واضطلع صلاح الدين بتنفيذ هـذه المكيدة . فذهب راكبا جواده ، حيث لقى شاور وهو مقبل عليه يدعوه إلى وليمة دبر فيها أمر اغتياله ؛ فأمسك بطوقه ، وقاده إلى فسطاط منعزل ، وقطع رأسه بأمر من الخليفة الذى ولى شيركوه الوزارة فى ١٧ ربيع الثانى سنة ٥٦٤ (١٨ يناير سنة ١١٦٩) وخلع عليه ، فظل فيها حتى مات فى ٢٢ جمادى الثانية من السنة نفسها (٢٣ مارس سنة ١١٦٩)[١] .

بهذا انتهى أول فصل من فصول مأساة سقوط الخلافة الفاطمية فى مصر . وقد أصاب عمارة إذ يقول : " ولم يرب أحد من الوزراء المصريين رجالَ الدولة مثـل ما رباهم الصـالح بن رزيك ، ولا أفنى أعيانَهم مثـل ضبرغام ، ولا أتلف أموالَهم مثل آل شاور . وشاور هو الذى أطمع الفرنجة والغز فى الدولة حتى انتقلت عن أهلها "[٢] .

الآن يجدر بنـا أن نبين كيف كان من سياسة نور الدين قطع الخطبة للخليفة الفاطمى ، وكيف سقطت الدولة بعد ذلك على يد صلاح الدين .

---

(١) ابن شداد (ص ٤٧ و٤٨) ، وابن خلكان (ج ٢ ص ٥٠١ و٥٠٢) .
ذكر أبو شامة (ص ١٤٥) أن صلاح الدين نفسه هو الذى قتل شاور . وذكر الذهبي (مكتبة بودليان بأكسفورد ، مخطوطات Laud. ، القسم الشرقى رقم ٣٠٤ ، ورقة ١٣٥ ا) أن شيركوه ولى الوزارة قبل مقتل شاور .

(٢) عمارة : النكت (ص ٨٨) .

٧ — صلاح الدين وسقوط الفاطميين

لقد مهدت الأحوال والحوادث الماضية الطريق لسقوط الفاطميين قبل أن يلى صلاح الدين الوزارة خلفا لعمه. وقد أصبحت البلاد من الضعف بحيث لم تعد تقوى على صد الغزوات الأجنبية، لما سادها من الأحوال السيئة دهرا طويلا، وما مُنيت به من التطاحن الحزبى والمنافسات بين الوزراء المصريين، حتى غدت فى مركز يشابه مركزها حين فتحها الفاطميون على يد جوهر القائد .

وقد أيدت وفاة شيركوه مركز صلاح الدين، فابتدأت منذ ذلك عظمته . فقد وطد العزم فى هذه الآونة على تأسيس امبراطورية واسعة الأرجاء . ولكى يصل الى بغيته، خصص كل مجهوداته لطرد الصليبيين من البلاد . وفى ذلك يقول صلاح الدين : "لما يسر الله لى فتح الديار المصرية، علمت أنه أراد فتح الساحل" (فلسطين)[1] . وقد كان لنجاحه فى هذا المشروع ما جعله يلقَّب بحامى الاسلام .

ولم يعجّل صلاح الدين الى تقوية مركزه فى مصر، بل عمل على توطيده تدريجيا، كى لا يفقد ثقة المصريين ولا يثير حسد نور الدين . وكانت هذه هى السياسة الحازمة التى كان لزاما عليه أن ينتهجها . وقد أراد اضعاف حزب الخليفة، فعمل أولا على اكتساب ثقة الأهلين، وكان له من كرمه — كما يقول ابن شداد — ما أكسبه قلوبهم وما جعل الناس من كل الأرجاء يسارعون الى طاعته . ولم يخيِّب رجاء قاصد له، وبذلك نجح فى اكتساب محبة الشعب[2] . وأسند مهام الدولة الى أناس من أنصاره، وما فتىء يعمل على اضعاف نفوذ الخليفة .

وكان رجال القصر من جند وأتباع لا يخفون عداءهم لصلاح الدين، والخليفة يعلم حق العلم أنه ولّى الوزارة إمّعة لا سيدا مستقلا برأيه . لذلك قامت المكائد على قدم وساق للقضاء على هذا الوزير الجديد . وقد ترأس المؤامرة عليه "نجاح" كبير الخصيان السود . وكان من تدبيرهم أن يصلحوا ذات البين بينهم وبين الفرنجة، فيجىء هؤلاء لغزو مصر، فاذا ما خرج لهم

(١) ابن شداد (ص ٤٨ و ٤٩)

(٢) شرحه (ص ٤٩) .

صلاح الدين ، هاجمه المتآمرون من مؤخرته ؛ وبذلك يقع بين نارين ، فيُقضى عليه وعلى جنده من التركمان .

وقد علم صلاح الدين بما دبره أعداؤه له ؛ فأمر بمراقبة كبير الخصيان ، وقبض عليه وقُطعت رأسه (ذو القعدة سنة ٥٦٤ ، يوليه سنة ١١٦٩) كما قتل كثير من بنى جلدته . فأثار ذلك حنق جند الخليفة ، وكان أكثرهم من السودانيين ، فثار منهم خمسون ألفا للأخذ بثأره . واشتبكوا مع جند صلاح الدين فى معركة عنيفة فى المكان المعروف ببين القصرين ، أحرق فيها كثير من المنازل والشوارع . ودارت الدائرة أخيرا على السودانيين ، وأحرق حيهم المعروف بالمنصورية ، وطردوا الى الجيزة عن طريق النيل ، ومنها الى الصعيد حيث استمروا فى ثورتهم عدة سنوات ، الى أن قُضى عليهم نهائيا سنة ٥٧٢ هـ (١١٧٦ م)(١) .

(١) غزو الفرنجة مصر

ولما توطدت أقدام صلاح الدين فى مصر ، شرع يرسل الحملات ضد الفرنجة . فبعث فرقا لغزو ولايتى الكَرَك والشُّوبك وغيرهما مما أثار مخاوف الفرنجة . ولا غرو فقد كان ذلك نذيرا بذهاب سلطانهم فى فلسطين .

واتحد الفرنجة مع البيزنطيين وساروا بحرا الى مصر ؛ فنزلوا أولا على مقربة من دمياط . وقد ذهب جماعة منهم فى ذلك الوقت ، فاستولوا فى ربيع الثانى سنة ٥٦٥ (١١٦٩ — ١١٧٠ م) على قصر عكاء ، وكان يحتله خُطْلخ نائبا عن نور الدين ، وكان لقبه "علم دار" (أى دار السلطان) . ولما علم نور الدين بمسير الفرنجة الى دمياط ، أسرع بحصار الكرك (شعبان سنة ٥٦٥ هـ ، ١١٧٠م)(٢) .

---

(١) ابن شداد (ص ٥٢) ، وابن الأثير (ج ١١ ص ١٣٩ و ١٤٠) . ذكر ذلك التاريخ الذهبى (مكتبة بودليان بأكسفورد ، مخطوطات Laud. ، القسم الشرقى رقم ٣٠٤ ، ورقة ١٤٦ أ) عن سبط بن الجوزى ، الذى أمدنا بمعلومات عن ثورة السودانيين تحت قيادة زعيمهم الكَنْز ، الذى ثار فى الصعيد سنة ٥٧٢ هـ ، ثم سار الى القاهرة لارجاع الخلافة الفاطمية ؛ فنشب القتال بينهم وبين الأيوبيين ، وانتهى بهزيمة السودانيين . وقد قُتل زعيمهم ونحو من ثمانين ألفا معه فى الحرب ، وبذلك ضاعت آمالهم فى استرجاع خلافة الفاطميين . وفيما يلى نص عبارة الذهبى : "وفيها (سنة ٥٧٢ هـ) كانت واقعة الكنز مقدم السودان بالصعيد ، جمع خلقا عظيما وساروا الى القاهرة ليعيدوا الدولة .... فقتل الكنز ، وقتل خلق كثير من جموعه ، حتى قيل انه قتل منهم ثمانون ألفا . هكذا قال أبو المظفر فزوغلى" .

ذكر ابن خلكان (ج ٢ ص ٥١٠) وأبو الفدا (ج ٣ ص ٥٩) أن ذلك كان فى ٧ صفر سنة ٥٧٠

(٢) ابن شداد (ص ٥٠) .

أما صلاح الدين الذى كانت له السلطة المطلقة حينذاك ، فقد اعد جيوشه وملأ دمياط بالذخائر ، ووعد بارسال المدد الى المدينة ليخلص أهلها مما حاق بهم من هلع ، ووزع عليهم الهدايا والهبات .

وقد نجح نور الدين فى احتلاله جزءا من مملكة النصارى فى فلسطين ، وأرسل الأمداد الى صلاح الدين الذى كان يعضده الخليفة العاضد أيضا طول مدة الحصار الذى استمر خمسين يوما ، وأمده بنحو مليون دينار . وقد جعلت هذه الأمور اغارات الفرنجة عديمة الجدوى ؛ فاضطروا لرفع الحصار[1] بعد أن أحرقت مراكبهم ، واستولى المصريون على آلاتهم الحربية وقتلوا عددا عظيما من رجالاتهم[2] .

وبعد انتصار صلاح الدين على الفرنجة ، طلب من نور الدين أن يرسل اليه أباه وأقاربه ؛ فكان له ما أراد ، ووصلت أسرته فى جمادى الثانية ٥٦٥ هـ (١١٧٠ م)[3] . فجعل أباه على بيت المال ، وعضده إخوته باخلاص ؛ وأقطعهم أملاك المصريين الذين نفاهم إلى حيث لا يمكنهم أن يثوروا ضده[4] .

(ب) غزو صلاح الدين مملكة الفرنجة فى فلسطين

كان فشل الفرنجة فى غزوهم دمياط — ذلك الفشل الذى يتمثل فيه ابن الأثير بالمثل المشهور عن النعامة وهو : "خرجت النعامة تطلب قرنين فرجعت بلا أذنين" — مشجعا لصلاح الدين على أن يبدأ حياة الفتح بغزوهم فى دارهم ؛ وبذلك بدأت سلسلة الاغارات التى لم تنته إلا بمعاهدة الصلح مع ريتشارد ملك انجلترا بعد اثنتين وعشرين سنة .

وقد اعتبر المصريون الشيعيون والتركمان السنيون صلاح الدين حاميا لهم ، فاتفقوا معه على محاربة الفرنجة أعدائهم جميعا . وشجعهم على ذلك ما شاهدوه فى القاهرة من

(١) ابن الأثير (ج ١١ ص ١٤٢) .

(٢) ابن شداد (ص ٥٢) .

(٣) ذكر الذهبى (مكتبة بودليان بأكسفورد، مخطوطات لود، القسم الشرقى، رقم ٣٠٤ ، ورقة ١٣٧ ب) أن الخليفة العاضد استقبل بنفسه نجم الدين والد صلاح الدين خارج القاهرة . وفى ذلك يقول : "وفى سنة خمس وستين وخمسمائة، دخل نجم الدين أيوب مصر ، فخرج العاضد الى لقائه بنفسه .

(٤) ابن شداد (ص ٥٢) .

الأسلاب التى غنمها صلاح الدين[١] . ولما استقرت سلطة صلاح الدين على أساس متين واتفاق تام بينه و بين المصريين ، أسند المناصب الدينية فى مصر إلى الفقهاء المتضلعين فى المذهب السنى .

(ج) حذف اسم الخليفة الفاطمى من الخطبة . وفاة العاضد وسقوط الفاطميين

إن ما ذكره ابن الأثير عن سقوط الخلافة الفاطمية واحلال نفوذ العباسيين محلها فى المحرم سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) يعتبر مرجعا لما سنذكره عن الخطوات التى اتخذها صلاح الدين لابراز هذا الانقلاب إلى حيز العمل .

توطدت سلطة صلاح الدين فى مصر فى ذلك الحين ، وانضوى تحت لوائه كل رجالات الدولة ، وسقطت إلى الحضيض سلطة العاضد آخر الخلفاء الفاطميين ، وأزال من الجيش بعض العناصر التى لم يكن يثق بأخلاصها . فكان لنور الدين — وهو من غلاة السنة — أن يرغب فى إحلال اسم الخليفة العباسى فى الخطبة محل الخليفة الفاطمى .

غير أن صلاح الدين تردد فى تنفيذ رغبة نور الدين ، لما كان يخشاه من أن يثير هذا العمل ثورة أهالى مصر ، الذين كانوا لا يزالون متعلقين بالفاطميين إلى ذلك الحين . بيد أن هذا العذر لم يرض نور الدين ، فكتب إلى صلاح الدين يأمره أمرا لامناص لواليه من تنفيذه[٢] .

وكان الخليفة العاضد مريضا فى ذلك الوقت . فعقد صلاح الدين مجلسا من الأمراء واستشارهم فى ذكر اسم الخليفة العباسى فى الخطبة بدل الخليفة الفاطمى . فوافقه بعضهم وأخذوا على عاتقهم تعضيده ، ورأى الآخرون خطورة هذا الاقتراح . غير أن أوامر نور الدين لم تكن بالتى لا تطاع .

وكان فى هذا المجلس رجل فارسى يعرف بالأمير ، حل بمصر منذ عهد قريب ؛ فلما رأى ترددهم ، اعتزم أن يتولى بنفسه هذا الأمر . فصعد المنبر قبل الخطيب فى أول جمعة من المحرم ، ودعا للمستضىء العباسى . ولما لم يحتج أحد على ذلك ، أمر صلاح الدين فى الجمعة التالية الخطباء أن يخطبوا باسم

---

(١) ابن الأثير (ج ١١ ص ١٤٧) .

(٢) شرحه (ج ١ ص ١٤٨ و ١٤٩) .

الخليفة العباسى . وهكذا تم ذلك التغيير بدون أن يلق أية مقاومة . وفى ذلك يقول ابن الأثير : " فلم ينتطح فيها عنزان "(١) .

لم يخبر العاضدَ — وكان مريضا جدا — أحدٌ من أسرته بذلك الحدث وقالوا : " إن عوفى فهو يعلم ، وأن توفى فلا ينبغى أن نفجعه بمثل هذه الحادثة قبل موته " . وتوفى فى العاشر من المحرم من دون أن يعلم بهذا التغيير العظيم الذى تم ؛ بجلس صلاح الدين للعزاء ، واستولى على القصر وما احتواه .

وكان صلاح الدين قد أقام قبل وفاة العاضد الطواشى بهاء الدين قراقوش (٢) على القصر ، وأسكن أولاد العاضد وأعمامه وسائر أسرته فى جناح منه . أما الموالى من الذكور والأناث فقد أخرجوا من القصر ، وأعتق صلاح الدين بعضهم وأعطى البعض لأنصاره وباع الآخرين .

هكذا سقطت الدولة الفاطمية بموت العاضد ، بعد أن حكمت مصر عصرا طويلا كان عصر يسر ورخاء ، وتسامح دينى وثقافة ، لم تتمتع به مصر من قبل . وان زوال الدولة الفاطمية الشيعية على يد الأيوبيين السنيين الغلاة ، وإرجاع الخطبة للخليفة العباسى ، بعد أن قطعت فى مصر كسائر الولايات الفاطمية الأخرى مدة قرنين وثمانى سنوات تقريبا — هو انتصار السنة على الشيعة .

---

(١) ابن الأثير (ج ١١ ص ١٤٩) .

(٢) معنى قراقوش باللغة التركية طائر أسود . وقد تولى بهاء الدين انشاء عدة من الآثار غيرت معالم القاهرة ، مثل قلعة الجبل ، وقناطر الجيزة ، وسور القاهرة العظيم . ولما افتتح صلاح الدين عكاء سنة ٥٨٣ ﻫ (١١٨٧ م) عينه واليا عليها فى السنة التالية . وقد أسرلما استولى عليها الفرنجة فى سنة ٥٨٧ ﻫ (١١٩١ م) ؛ لكنه افتدى نفسه بمبلغ كبير ، ثم عاش فى القاهرة حتى توفى سنة ٥٩٧ ﻫ (١٢٠١ م) .

انظر عبد اللطيف البغدادى (طبعة دى ساسى ص ١٧١ و ١٧٢ و ٢٠٧ و ٢١٣) ، (طبعة أكسفورد سنة ١٨٠٠ ص ٨٨ و ٩٠) ، وابن الأثير (طبعة القاهرة ص ١٤٨ و ١٤٩) ، وابن شداد (مؤرخو الحروب الصليبية الشرقيون (Historiens orientaux des croisades) ج ٣ ص ١٢٠ و ١٣٥ و ١٧٦ و ١٨٣ و ٢٣١ و ٢٣٩ و ٣٠٤ و ٣١٧ و ٣٥٥ و ٣٥٦) وابن خلكان (ج ١ ص ٥٤٣ و ٥٤٤ ، ج ٢ ص ٥٠٥ ، ٥٢٦) وأبو الفدا (ج ٣ ص ٥٣ و ٧٤ و ٨٧ و ٨٨) و Derenbourg: Vie d'Ousâma, pp. 432, 433, n. 1

هذا وينبغى ألا نخلط بين اسم بهاء الدين قراقوش وشرف الدين قراقوش الأرمنى ، الذى خدم الملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ، وكانت حياته سلسلة مغامرات وقلاقل ومؤامرات ومذابح وسلب ونهب ؛ و بذلك ألقت أعماله فى قلوب الناس الهلع الذى لاتزال ذكراه باقية الى اليوم .

انظر Derenbourg : Vie d'Ousâma, p. 450, n. 4

الباب العاشر

الخاتمة

مقدار نجاح أعمال الفاطميين السياسية والدينية

يجمل بنا فى هـذه الخاتمة أن نبين بايجاز نتائج ما تصدينا لبحثه ، من الوقوف على الأغراض والنظم التى سادت أعمال الفاطميين .

ان فكرة الرجعة التى أدخلها ابن سبأ فى الاسـلام كان لها شأن عظيم فى تاريخ الشيعة الإمامية والاسماعيلية . ذلك أن السبعية — الذين كثيرا مايعرفون بالاسماعيلية — كانوا يعتقدون أن امامهم محمد بن اسماعيل سيرجع كالامام المهدى . وهـذه هى العقيدة التى أذاعها أبو عبد الله الشيعى أثناء بث دعوته بين البربر .

لقد غلا الاسماعيليون الى حد بعيد فى اعتقادهم بسلطة الامام الروحيـة ، حتى إنهم ذهبوا الى أن الاله قد تجسم فى شخص على رضى الله عنه وأولاده من بعـده ؛ وذلك رغم انكار على وأولاده الحسن والحسين ومحمد بن الحنفيـة ، وانكار معظم المسلمين الذين كانوا من رعايا الفاطميين . واذا تتبعنا تاريخ الفاطميين وصلنا الى هذه النتيجة وهى : أن دعوتهم هذه إنمـا كانت تتخذ الدين وسيلة لنجاح أغراضهم السياسية .

ولمـا استقر حكم الفاطميين فى شمال افريقية ، فكروا فى امتلاك مصر ، اذ رأوا فيها مكانا صالحا لنشر دعوتهم . فقد كان استيلاؤهم عليهـا معناه بسط نفوذهم على الشام والحجاز — وكانتا تحت حكم مصر — ثم تهديد بغداد نفسها . يضاف الى هذا أن الحالة الداخلية فى مصر ، وفى الدولة العباسية التى كانت هدفا للغارات من الشرق ومن البيزنطيين فى الغرب ، جعلت فتح مصر أمرا ميسورا . ولم يكن اختيار الفاطميين أولا شمال إفريقية إلا لبعده عن حاضرة الدولة العباسـية ، ولميل البربر الى خلع طاعة الأغالبة ، ولضعف هذه الدولة الحاكمة نفسها .

فتح الفاطميون مصر، وأخذوا فى نشر أغراضهم الدينية . ولم يدخروا وسعا — منذ استقرت سلطتهم فى هذه البلاد — فى بث العقائد الاسماعيلية، حتى أبطلت الخطبة للعباسيين واعترف بسلطان الفاطميين، لا فى الخطبة والسكة فحسب، بل فى كافة الأمور الحربية والدينية والمدنية، وصارت الأحكام تصـدر وَفْق المذهب الاسماعيلى، وأصبحت الأعمـال الحكوميـة تدار تدريجيا بالأيدى الشيعية، كما نشطوا فى ابتناء المساجد لنشر التعاليم الفاطمية .

كذلك كان من أعمال الفاطميين تأسيس دور الكتب لنشر عقائد مذهبهم وتشجيع البحوث فى العقائد الاسماعيلية؛ فأسسوا مجمعـا علميا (أكاديمية) . وكانت المكاتب التى بالقصر ودار العـلم بالقاهرة تفوق فى هـذه الآونة نظيراتها فى بغداد وقرطبة؛ وأصبح القصر فى القاهرة مركزا للدعوة الفاطمية التى كان يقوم بها داعى الدعاة ومساعدوه تحت إشراف الخليفة .

ولم يجهل الفاطميون ما كان للشعراء ورجال الأدب من الأثر فى نشر العقائد الاسماعيلية . فقد كان من سياستهم تشجيع الشعراء والأدباء بالهبات الوافرة والخلع والأعطيات، كى يشيدوا بذكر هذه الأسرة ويكونوا ألسنة ناطقة بقوة الفاطميين وعظمتهم، فيكتسبوا بذلك محبة رعاياهم .

لقد كانت سياسة الفاطميين فى جعل مصر دون بلاد المغرب مركزا لأعمالهم سياسة رشيدة . فقد مكنتهم مصر من كسب ولاء الحكام فى كثير من البلاد الاسـلامية المختلفة، كاليمن والحجاز والموصل وبلاد ما وراء النهر، كما أمكنهم بثروة مصر أن يقيموا لأنفسهم حضارة عظيمة، وأن يكسبوا كثيرا من الأنصار فى مصر وغيرها . ولم يكن غرض دعاة الفاطميين، معتمدين على السيف آنا ومستغلين مطامع الولاة العباسيين آنا آخر، بأقل أهمية ممـا قام به غيرهم .

ويظهر أن مصر والشام (اذا استثنينا مدينة حلب) لم تدخلا فى طاعة الفاطميين الا بقوة السيف، رغم ما بذله دعاتهم للاعتراف بالمهدى وخلفائه من بعده، وأنهم الأئمة حقا . ولم تكد تسقط دولتهم حتى عادوا جميعا الى المذهب السنى .

كذلك نرى أنه قد زال نفوذ الفاطميين فى بلاد المغرب — وهى مهد الدولة الفاطمية — لمـا تجلى للناس انحلال دولتهم، وأضحى النفوذ الفاطمى فى اليمن والموصل والحجـاز وبلاد ما وراء النهر وبغداد روحيا فقط، وصار لا يتمثل الا فى السكة والخطبة . وكان لهذه السلطة — رغم ضآلتها — قيمة أدبية عظيمة .

يضاف الى ما تقدم ما كان من اعتراف جماعة من رجالات الدولة العباسية بسلطة الفاطميين (انظر الباب الثانى) . وفى نجاح البساسيرى وقتا ما فى تحويل الخطبة من الخليفة العباسى القائم الى المستنصر الفاطمى دليل واضح لذلك . غير ان البساسيرى كان يعمل عن بواعث شخصية حين ساءت العلاقة بينه و بين الخليفة العباسى و بعض رجالات بغداد . وعلى كل فقد أقام الخطبة للخليفة الفاطمى فى حاضرة العباسيين ، وأدخل فى الأذان عبارة "حى على خير العمل" التى كانت من شعائر الفاطميين .

هكذا حاول الفاطميون تأسيس سلطانهم السياسى والدينى ، أو أحدهما على الأقل اذا لم يستطيعوا أن يصلوا اليهما معا ؛ وذلك بالدعاية تارة و بقوة السيف و بذل المال واستغلال مطامع الأفراد تارة أخرى . وقد نجحوا على توالى الأزمان فى بسط نفوذهم على شمال افريقية وصقلية ، ومصر والشام وآسيا الصغرى ، وعلى سواحل البحر الأحمر ، كما اعترف بسلطانهم أيضا أئمة اليمن ، وأمراء الموصل و بلاد ما وراء النهر ، ومكة المكرمة والمدينة المنورة ، بل و بغداد حاضرة العباسيين .

نجح الفاطميون فى تأسيس امبراطورية شاسعة الأرجاء وحضارة باهرة لم يعرفها الشرق من قبل الا نادرا : تلك الحضارة التى اشتهرت بنظمها الادارية المحكمة ، وفنونها وجيوشها وأساطيلها ، وعدالة محاكمها وتسامحها الدينى . وأهم من هذا كله ما عُرفت به من تشجيع العلم والثقافة .

ولا تزال بعض آثار هذه الحضارة العظيمة باقية الى الآن . فقد خلفوا لمصر تُراثا هاما هو الجامعة الأزهرية . ويمكننا أن نقدر المجهودات التى بذلها الفاطميون فى أيامهم من نظم التعليم التى ظلت فى الأزهر حتى الآن .

حقا لقد فقدت هذه الجامعة الى وقت ما شيئا من أهميتها بسقوط الفاطميين . ولا غرو فقد عنى الأيوبيون — وهم السنيون الغلاة — بتخريب ما تركه الفاطميون من آثار لتعليم عقائد الشيعة الفاطمية . وقد مضى على الأزهر نحو من قرن قبل ان يسترد شيئا من عطف الحكومة ورجالات الدولة .

ولما جاء الظاهر بيبرس زاد فيه وشغف بما يدرس هناك من العلوم ، وأعاد اليه الخطبة . ومن هذا الحين ابتدأ الأزهر يدخل فى عهد جديد من التقدم والرقى ، حتى صار الطلاب يُهرَعون اليه الى يومنا هذا من كل أرجاء العالم الاسلامى لاتمام دراساتهم .

أما العلوم التى تدرس فى الأزهر ونظم التعليم فيه ، فمن الممكن أن تقول إنهـا بقيت تقريبا كما كانت عليه فى عهد الفاطميين . فقد كان يدرس فيه التوحيد والفقه واللغة العربية والرياضة والمنطق والنحو والبيان والطب وغيرها من العلوم ، كما بينا ذلك أثناء الكلام عن التعاليم الفاطمية فى الأزهر وفى مكتبة دار العلم ودار الحكمة . ومع أننا لا نعلم الا القليل عن نظم التعليم وأكثر المواد التى ذكرناها آنفا ، فما لا شك فيه أن الفاطميين كانوا أول من أدخل ذلك فى الأزهر .

أما من الناحية الدينية ، فقد أثار ادعاؤهم أنهم يتصفون بالصفات الإلهيـة ، سخط رعاياهم السنيين الذين اعتبروهم لهـذا مارقين من الدين . أما بذخهم واسرافهـم فى الاحتفال بالأعياد الدينية وغيرها ، وولائمهم الفاخرة ، وأعطياتهم وهباتهم وما الى ذلك ، فلم ينجح الا فى التأثير فى الجماهير الذين بهرتهم هذه المظاهر الخلابة ، والقليل من الناس الذين أفادوا لأنفسهم فوائد مادية من ورائهم .

وطالما كانت تثور ثائرة السنيين اذا ما أراد الفاطميون أن يلزموهم باعتناق عقائدهم البغيضة لديهم . لأن هذه العقائد قلما صادفت هوى فى القلوب . ومع هذا نرى بعض السنيين قد اعتنقوا تلك العقائد ، إما لمصالح خاصة أو فرارا من حنق الفاطميين ونقمتهم .

وبعد ، فقد كان من بين العوامل التى أسرعت فى سقوط الفاطميين ، انقسامُ الاسمـاعيليين أنفسهم الى فرق وأحزاب ، كما أن لظهور هذه الفرق الاسماعيلية — كالدروز والحشاشين — أثرا سيئا فى الحضارة الاسلامية وتقدمها .

مصادر الكتاب

نورد فى الثبت الآتى المشتمل على مصادر هذا الكتاب مصادر أخرى لم يرد لها ذكر من قبل ؛ وقد رتبت أسماء المؤلفين فى جميعها حسب أحرف الهجاء :

(١) ابن الأثير (+ ٦٣٠ هـ و ١٢٣٨ م) : علىّ بن أحمد بن أبى الكرم .

(أ) "الكامل فى التاريخ" ١٢ جزء (بولاق سنة ١٢٧٤هـ) .

(ب) أسد الغابة فى معرفة الصحابة ٥ أجزاء (القاهرة سنة ١٢٨٠ هـ) .

(٢) الإدريسى (+ ٦٤٩ هـ و ١٢٥١ م) : محمد بن عبد العزيز الشريف الفاوى .

(أ) "كتاب نزهة المشتاق فى ذكر الأمصار والأقطار والبلدان" وهو مختصر لكتاب الإدريسى "نزهة المشتاق" (روما سنة ١٥٩٢ م) .

(ب) "Mappæ Arabicæ. Arabische Welt und Länderkarten des 9-13 Yahrhunderts, in Arabischer Urschrift, lateinischer Transkription, und Ubertragung in neuzeitliche Kartenskizzen. Mit einleitenden Texten, herausgegeben von Konrad Miller (Stüttgart, 1926).

(٣) أرنولد : المرحوم السير توماس و .

Arnorld: Prof. Sir Thomas W.

(1) "The Preaching of Islam", 2nd ed., (London, 1913)

(2) "The Caliphate" (Oxford, 1924).

(٤) أسامة بن منقذ (+ ٥٨٤ هـ و ١١٨٨ م) : أبو المظفر بن مرشد بن على بن مقلد بن نصر الملقب بمؤيد الدولة نجم الدين .

(أ) "كتاب الاعتبار" أو "حياة أسامة" .

Première Partie, ed. by Hartwig Derenbourg (Paris, 1889).

(ب) "Anthologie de textes arabes, inédits par Ousâma et sur Ousâma", ed. by H. Derenbourg (Paris, 1893).

(٥) الأصفهانى (+ ٣٥٦ هـ و ٩٦٧ م) : أبو الفرج .

"كتاب الأغانى" ٢١ جزءا (القاهرة سنة ١٢٨٥ هـ) .

(٦) ابن أبي أصيبعة (+ ٦٦٧ هـ و ١٢٧٠ م) : ابو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة موفق الدين .

"كتاب عيون الأنباء فى أخبار الأطباء" جزءان (القاهرة سنة ١٢٩٩ — ١٣٠٠ هـ) .

(٧) أوتيخا (+ ٣٢٨ هـ و ٩٤٠ م) : يحيى بن سعيد .

"التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق" (بيروت سنة ١٩٠٩)

(٨) أوليرى : دى ليسى

O'Leary, de Lacy, "A Short History of the Fatimid Khalifate, (London, 1923).

(٩) ابن إياس (+ ٩٣٠ هـ و ١٥٢٣ م) : أبو البركات محمد بن أحمد .

"كتاب تاريخ مصر" المعروف "ببدائع الزهور" ٣ أجزاء (بولاق ١٣١١ — ١٣١٢ هـ) .

(١٠) بديع الزمان (+ ٣٩٨ هـ و ١٠٠٧ — ١٠٠٨ م) : أحمد بن محمد المعروف ببديع الزمان الهمذانى .

"رسائل الهمذانى" (بيروت سنة ١٨٩٠ م) .

(١١) بروكلمان : كارل .

Brockelmann, Carl.

Geschichte der Arabischer Litteratur, 2 vols. (Weimar, 1898–1902).

(١٢) براون : إدوارد ج .

Browne : Edward G.

(1) Literary History of Persia—from the Earliest Times until Firdawsi (London, 1909).

(2) Literary History of Persia—from Firdawsi to Saʿdi (London, 1906).

(3) Persian Literature under Tartar Dominion (1265–1502 A.D.) (Cambridge, 1920).

(١٣) ابن بطوطة (+ ٧٧٩ هـ و ١٣٧٧ م) : أبو عبد الله محمد بن عبد الله .

"تحفة النظار فى غرائب الأمصار" ٤ أجزاء ، طبعه وترجمه الى الفرنسية ديفريميرى (Defrémery) وسانجيتى (Sanguinetti) (باريس ١٨٥٣ — ١٨٥٨ و ١٨٦٩ — ١٨٧٩ م) .

(١٤) البغدادى (+ ٤٢٩ هـ و ١٠٣٧ م) : أبو منصور عبد القاهر بن طاهر .

"الفَرْق بين الفِرَق" (القاهرة ١٣٢٨ هـ و ١٩١٠ م) .

(١٥) البكرى (٤٨٧ هـ و١٠٩٧ م) : أبو عُبَيد عبد الله بن عبد العزيز .

"كتاب المُغْرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب" طبعة دى سلين (De Slane) ، الطبعة الثانية (باريس سنة ١٩١١) .

(١٦) البيرونى (+ ٤٤٠ هـ و١٠٤٨ م) : أبو الريحان محمد بن أحمد .

"الآثار الباقية عن القرون الخالية" ، طبعة إدوارد سخاو (Edward Sachau) (لندن سنة ١٨٧٩) .

(١٧) التَّنُوخى (+ ٣٨٤ هـ و ٩٩٤ م) : أبو على المحسن بن على بن محمد بن أبى الفهم .

"نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة" ، النسخة العربية (القاهرة سنة ١٩١٨ — ١٩٢١) ، وترجمه الى الانجليزية الأستاذ مرجوليوث (Prof. D. S. Margoliouth) (لندن سنة ١٩٢٢).

(١٨) الثعالبى (٤٢٩ هـ و١٠٣٧ م) : أبو منصور عبد الملك .

"يتيمة الدهر" (٤ أجزاء ١٣٠٤ هـ) (دِمَشق سنة ١٣٠٤هـ).

(١٩) جبون : ادوارد .

Gibbon : Edward.

"The History of the Decline and Fall of the Roman Empire", 7 vols ed. by Prof. J. B. Bury.

(٢٠) ابن جبير (+ ٦١٤ هـ و١٢١٧ م) : أبو الحسن محمد بن أحمد الكنانى .

"رحلة ابن جبير" ، طبعة و. رايت (W. Wright) (ليدن سنة ١٨٥٢ م) .

(٢١) ابن الجوْزى (+ ٦٥٤ هـ و١٢٥٧ م) : أبو المظفر بن قيزوغلى سبط بن الجوزى .

"مرآة الزمان" ، وهو مخطوط :

(أ) بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقمى ١٥٠٥ و١٥٠٦ .

(ب) والمكتبة الملكية بالقاهرة تحت رقم ٥٥١

(ج) ومكتبة بودليان (Bodleian) بأكسفورد، مجموعة پوكوك (Pocock, Oxford, Or. 370)

(٢٢) جولد زيهر : أ.

Goldziher : Ignaz.

"Vorlesungen über den Islam", 2nd ed. (Heidelberg, 1910), translated into French by Felix Arin (Paris, 1920).

(٢٣) جويار : س .
Guyard, S.
Fragments relatifs à la Doctrine des Ismaélis (Paris, 1874).

(٢٤) حاجى خليفة (+ ١٠٦٧ هـ و ١٦٥٧ م) : مصطفى المسمى كاتب شلبى .

"كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون" .

طبع النسخة العربية وترجمها الى الألمانية ج . فلوجل G. Flügel (ليبسك ولندن ١٨٣٥—١٨٥٨) .

(٢٥) ابن حجر العسقلانى (+ ٨٥٣ هـ و ١٤٤٩ م) : شهاب الدين بن على .

(أ) "الإصابة فى تمييز الصحابة" .

طبعة سپرنجر (Sprenger) وغيره (كلكتا سنة ١٨٥٦—١٨٧٣) .

(ب) "رفع الإصر عن قضاة مصر" .

(مخطوط بالمكتبة الملكية بالقاهرة تحت رقم ٢١١٥) .

(٢٦) ابن حزم (٤٥٦ هـ و ١٠٦٤ م) : أبو محمد على بن أحمد .

"الفِصَل فى الملل والأهواء والنحل" .

٣ أجزاء (القاهرة سنة ١٣١٧ هـ) .

(٢٧) ابن خلدون (+ ٨٠٨ هـ و ١٤٠٥—١٤٠٦ م) : عبد الرحمن بن محمد .

(أ) مقدمة ابن خلدون (بيروت سنة ١٩٠٠) .

(ب) "العبر وديوان المبتدا والخبر" ٧ أجزاء (القاهرة سنة ١٢٨٤ هـ) .

(٢٨) ابن خَلِّكان (+ ٦٨١ هـ و ١٢٨١ م) : شمس الدين أبو العباس أحمد بن ابراهيم بن أبى بكر الشافعى .

"وفَيَات الأعيان" جزءان (بولاق سنة ١٢٨٣هـ) ، ترجمه الى الانجليزية دى سلين De Slane (باريس ١٨٤٢—١٨٤٨) .

(٢٩) الخوارزمى (+ ٣٨٣ هـ و ٩٩٣ م) : أبو بكر محمد بن العباس .

"رسائل الخوارزمى" (القسطنطينية سنة ١٢٩٧ هـ) .

(٣٠) ابن دُقْماق (+ ٨٠٩ هـ و١٤٠٦—١٤٠٧ م) : ابراهيم بن محمد المصرى .

" الانتصار لواسطة عقد الأمصار " .

لم يظهر منه الا الجزءان الرابع والخامس (القاهرة ١٣٠٩ هـ و ١٨٩٣ م) .

(٣١) دوزى : ر . ب . أ .

Dozy : R. P. A.

(1) Dictionnaire des Noms des Vêtements chez les Arabes (Amsterdam, 1845).
(2) Supplément aux Dictionnaires Arabes, 2 vols. (Leyden, 1881).
(3) Histoire des Musulmans d'Espagne (Leyden, 1861).

(٣٢) ابن أبى دينار (+ ١١١٠ هـ و١٦٩٨ م) : محمد بن أبى القاسم بن عمر القيروانى .

" كتاب المونس فى أخبار إفريقية وتونس " .

(تونس سنة ١٢٨٦ هـ) .

(٣٣) الدِّينورى (+ ٢٨٢ هـ و٨٩٥ م) : أحمد بن داود أبو حنيفة .

" الأخبـار الطوال " جزءان ، طبعة ج . كراتشوفسكى J. Kratchkovsky (ليدن سنة ١٨٩٢) .

(٣٤) ديسو : رينى .

Dussaud, René,

"Histoire et Religion des Nosairis" (Paris, 1900).

(٣٥) الذهبى (+ ٧٤٨ هـ و١٣٤٧—١٣٤٨) : شمس الدين محمد بن أحمد .

" تاريخ الاسلام " ، وهو مخطوط :

(أ) بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ١٥٨١

(ب) والمكتبة الملكية بالقاهرة تحت رقم ٤٢ (تاريخ) .

(ج) ومكتبة بودليان بأكسفورد (Bodleian, Laud., Or., 304)

(٣٦) الرَّضى (+ ٤٠٦ هـ و١٠١٥ م) : الشريف أبو الحسن محمد بن الحسين بن موسى ... ابن الحسين بن على بن أبى طالب .

" ديوان الشريف الرضى " (بيروت سنة ١٣٠٧ هـ) .

(٣٧) راڤيس : پول

Ravaisse, Paul

"Essai sur l'histoire, la Topographie du Caire d'après Makrisi, Memoires publiés par les membres de la Mission Archéologique française au Caire", Tome III. (Paris, 1887).

(٣٨) "رسائل الحاكم بأمر الله" .

كتبها كثير من الدعاة الفاطميين فى سنة ٤٠٨ هـ . وهى مخطوطة بالمكتبة الملكية بالقاهرة تحت رقم ٢٠ (مذهب الشيعة) .

(٣٩) ابن زولاق (+ ٣٨٧ هـ و ٩٩٧ م) : أبو محمد الحسن بن ابراهيم .

"كتاب فضائل مصر وأخبارها وخواصها" .

(مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ١٨١٧) .

(٤٠) دى ساسى : س .

De Sacy : Silvestre,

(1) Exposé de la Religion des Druzes......précédé d'une Introduction et de la Vie du Khalife Hakim—Biamr-allah", 2 vols. (Paris, 1838).

(2) "Crestomathie Arabe", 3 vols., 2nd ed. (Paris, 1826-1827).

(٤١) ابن سعد (+ ٢٣٠ هـ و ٨٤٥ م) : محمد بن سعد كاتب الواقدى .

"كتاب الطبقات الكبير" طبعة إدوارد سخاو (Edward Sachau) ، ٨ أجزاء (ليدن سنة ١٣٢٥ هـ) .

(٤٢) ابن سعيد (+ ٦٧٣ هـ و ١٢٧٥ م) : على بن موسى المغربى .

"كتاب المُغرب فى حلى المَغرب" (ليدن سنة ١٨٩٨ — ١٨٩٩ م) .

(٤٣) السمعانى (+ ٥٦٢ هـ و ١١٦٦ — ١١٦٧ م) : القاضى أبو سعيد عبد الكريم .

"كتاب الأنساب" .

Gibb Memorial Series, No. XX. (London, 1912).

(٤٤) السيوطى (+ ٩١١ هـ و ١٥٠٥ م) : عبد الرحمن بن أبى بكر جمال الدين .

(ا) "حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة" جزءان ، (القاهرة سنة ١٣٢٧ هـ) ترجمه الى الانجليزية الميجر هـ . س . چاريت Major H. S. Jarrett (كلكتا سنة ١٨٨١ م) .

(ب) "تفسير الجلالين" ، ٨ أجزاء فى ٤ مجلدات .

(٤٥) الشابُشْتى (+ ٣٨٨ هـ و٩٩٨ م) : أبو الحسن على بن محمد .

"كتاب الديارات" (Berlin, We. 1100)

(٤٦) أبو شامة (+ ٦٦٥ هـ و ١٢٦٧ — ١٢٦٨ م) : عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم ابن عثمان شهاب الدين الملقب بأبى شامة ، شافعى من أهالى دمشق .

"كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين" .

Recueil des Histoires des Croisades, Historiens Orientaux, Tome IV; another edition, 2 vols. (Cairo, 1287 A. H.)

(٤٧) أبو شجاع (+ ٤٨٨ هـ و١٠٩٥ م) : محمد بن الحسين بن عبد الله بن ابراهيم الوزير ظهير الدين أبو شجاع الرُّوذراوَرى .

"ذيل كتاب تجارب الأمم" .

طبعة هـ . ف . أمدروز (H. F. Amedroz) وترجمه الى الانجليزية الأستاذ مرجوليوث (Prof. D. S. Margoliouth) (أكسفورد سنة ١٩٢١)

(٤٨) ابن شداد (+ ٦٣٢ هـ و ١٢٣٤م) : القاضى بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم .

"النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية" .

(Recueil des Histoires des Croisades, Historiens Orientaux, Tome III).

(٤٩) الشهرستانى (+ ٥٤٨ هـ و١١٥٣ م) : أبو الفتح محمد بن عبد الكريم .

"الملل والنحل" ٥ أجزاء (القاهرة سنة ١٣١٧ هـ) .

(٥٠) أبو صالح (+ ٦٠٥ — ٦٠٦ هـ و١٢٠٨ م) : الأرمنى .

"تاريخ الشيخ أبى صالح الأرمنى" المعروف بكتاب كنائس وأديرة مصر .

طبعة وترجمة إيفتس (B. T. A. Evetts) (أكسفورد سنة ١٨٩٥ م) .

(٥١) الطبرى (+ ٣١٠ هـ و٩٢٢ م) : أبو جعفر محمد بن جرير .

"تاريخ الأمم والملوك" :

طبعة دى غويه (De Goeje) ، Series (B) ٧ أجزاء (ليدن سنة ١٨٨١ — ١٨٨٣ م)

(٥٢) الطوسى (+ ٤٦٠ هـ و ١٠٦٧—١٠٦٨ م) : محمد بن الحسن .

"فهرست كتب الشيعة" (كلكتا سنة ١٨٥٥ م) .

(٥٣) طيفور (+ ٢٨٠ هـ و ٨٩٣—٨٩٤ م) : أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر .
"تاريخ بغداد" الجزء السادس ، طبعة هـ . كلر (H. Keller) ، (لايبسك سنة ١٩٠٨م) .

(٥٤) ابن عبد ربه (+ ٣٤٩ هـ و ٩٤٠ م) : شهاب الدين أحمد .
"العقد الفريد" ٣ أجزاء (بولاق سنة ١٢٩٣ هـ) .

(٥٥) عبد اللطيف البغدادى (٦٢٩ هـ و ١٢٣١ م) : موفق الدين عبد اللطيف .
(١) "مختصر تاريخ مصر" Ed. by J. White (Oxford, 1800)
(٢) Rélation de l'Egypte, translated with historical notes by De Sacy (Paris, 1810).

(٥٦) عريب بن سعد (+ ٣٦٦ هـ و ٩٧٦ — ٩٧٧ م) : القرطبي .
"صلة تاريخ الطبرى" ، طبعة دى غويه De Goeje (ليدن سنة ١٨٩٧ م) .

(٥٧) ابن عساكر (+ ٥٧١ هـ و ١١٧٥ م) : الحافظ أبو القاسم على بن الحسن .
"التاريخ الكبير" ٥ أجزاء (دمشق سنة ١٣٢٩ — ١٣٣٢ هـ) ، ويوجد منه مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ٢١٣٧ .

(٥٨) على مبارك باشا :
"الخطط التوفيقية" ٢٠ جزءا . (بولاق سنة ١٣٠٦ هـ) .

(٥٩) عماد الدين الأصفهانى (+ ٥٩٧ هـ و ١٢٠١ م) : أبو عبد الله محمد بن أبي الرجاء .
"خريدة القصر وجريدة العصر" (مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس رقم ٣٣٢٦ — ٣٣٣١) .

(٦٠) عمارة اليمنى (+ ٥٦٩ هـ و ١١٧٤ م) : أبو الحسن نجم الدين اليمنى .
(١) "كتاب النكت العصرية فى أخبار الوزراء المصرية" طبعة هارتوج ديرنبورج (Hartwig Derenbourg) (باريس سنة ١٨٩٧ م) .
(٢) Tome Second (*a*) partie arabe. Poésies, Epitres (Tarassulât), Biographies, Notices en arabe par ʿOumâra et sur ʿOumâra. (Paris, 1909).

(٦١) دى غويه : م . ج . De Goeje, M. J.
Mémoire sur les Carmathes du Bahraïn et les Fatimides (Leyden, 1886).

(٦٢) فاسيل إف : Vasil, Ev., A.A.
Cambridge Medieval History, Vol. IV.

(٦٣) أبو الفدا (+ ٧٣٢ هـ و ١٣٣١ م) : اسماعيل بن على عماد الدين صاحب حماة .
المختصر فى أخبار البشر ٤ أجزاء (القسطنطينية سنة ١٢٨٦ هـ) .

(٦٤) أبو الفرج الملطى (+ ٦٨٥ هـ و ١٢٨٦ م) : جريجورى المسمى بار هبرايس .
"مختصر الدول" ٣ أجزاء (أكسفورد سنة ١٦٧٣ م) .

(٦٥) فريد لبندر : اسرائيل . Friedlænder, Israël.
"The Heterodoxies of the Shi'ites in the Presentation of Ibn Hazm", Journal of the American Oriental Society, vols. 28 and 29 (New Haven, 1907 and 1909).

(٦٦) فان فلوتن : ج . Vloten, J. van.
"Recherches sur La Domination Arabe, Le Chiitisme et les Croyances Messianiques, sous le Khalifat des Omayades." (Amsterdam, 1894).

(٦٧) القُضَاعى (+ ٤٥٤ هـ و ١٠٦٢ م) : القاضى أبو عبد الله محمد بن سلامة بن خضر الشافعى المذهب .
"عيون المعارف وفنون أخبار الخلايف" (مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس رقم ١٤٩١) .

(٦٨) القفطى (+ ٦٤٦ هـ و ١٢٤٨ م) : جمال الدين على بن يوسف بن ابراهيم بن عبد الوهاب .
"إخبار العلماء بأخبار الحكماء" (لايبسك ١٣٢٠ هـ ١٩٠٣ م) .

(٦٩) ابن القلانسى (+ ٥٥٥ و ١١٦٠ م) : أبو يعلى حمزة .
" تاريخ ابن القلانسى " المسمى " ذيل تاريخ دمشق " مصحوب بشذرات من تواريخ ابن الفارق وسبط بن الجوزى والذهبى (بيروت سنة ١٩٠٨ م) .

(٧٠) القلقشندى (+ ٨٢١ هـ و ١٤١٨ م) : أبو العباس أحمد .
"صبح الأعشى فى صناعة الانشا" ١٤ جزءًا (القاهرة سنة ١٩١٣ — ١٩١٧ م) .

(٧١) الكتبى (٧٦٤ هـ و ١٣٦٢ — ١٣٦٣م) : محمد بن شاكر بن أحمد الحلبى "فوات الوفيات" . جزءان (بولاق سنة ١٢٩٩ هـ) .

(٧٢) كترمير : إتيين مارك . Quatremère, Etienne Marc.
"Mémoires Historiques sur la dynastie des Khalifes Fatimites." (Journal Asiatique, Août, 1836).

(٧٣) كريمر : ألفرد فون . Kremer, Alfred von.
"Culturgeschichte des Orients unter den chalifen." 2 vols. (Vienna, 1875), translated by Khuda Bukhsh. (Calcutta, 1920-1927).

(٧٤) الكندى (٣٥٠ هـ و ٩٦١ م) : أبو عمر محمد بن يوسف .
"كتاب الولاة والقضاة"، به ذيل مأخوذ معظمه من كتاب "رفع الإصر" لابن حجر العسقلانى، طبعة روفن جست (Rhuvon Guest)
(E. J. W. Gibb Memorial Series, Vol. XIX, 1912).

(٧٥) لين پول : ستانلى . Lane-Poole, Stanley.

(1) "The Story of Cairo" (London, 1912).

(2) "History of Egypt in the Middle Ages." (London, 1901).

(3) "Coins and Medals." (London, 1892).

(4) "Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem." (London, 1893).

(5) The Muhammadan Dynasties, chronological and geneological tables with historical introductions. (Paris, 1925).

(٧٦) مان : ج . Mann, J.

"The Jews in Egypt and in Palestine under the Fatimid Caliphs." (Oxford, 1920).

(٧٧) الماوردى (+ ٤٥٠ هـ و ١٠٥٨ م) : أبو الحسن على بن محمد بن حبيب البصرى .
"الأحكام السلطانية" (القاهرة سنة ١٢٩٨ هـ و لندن سنة ١٩٠١ م) .

(٧٨) أبو المحاسن (+ ٨٧٤ هـ و ١٤٦٩م) : جمال الدين بن يوسف بن تغرى بردى "النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة" جزء ١ و٢ طبعة جوينبول (Juynboll) (ليدن سنة ١٨٥١ — ١٨٥٥ م) ووليم پوپر (William Popper)

(٧٩) المحلى (+ ٦٥٢ هـ و ١٢٥٤ م) : حسام الدين "الحدائق الوردية" (مكتبة المتحف البريطانى القسم الشرقى رقم ٣٧٨٦) .

(٨٠) المراكشى (+ ٦٦٩هـ و ١٢٧٠ — ١٢٧١ م) : محيي الدين أبو محمد عبد الواحد بن على التميمى "كتاب المعجب فى تلخيص أخبار المغرب" طبعة ر . دوزى (R. Dozy) الطبعة الثانية (ليدن سنة ١٨٨١م) ، وترجمه وشرحه أ . فانيان (E. Fagnan) (الجزائر سنة ١٨٩٣ م) .

(٨١) ابن المرتضى (+ ٣٢٥ هـ و ٩٣٦ — ٩٣٧ م) : المهدى لدين الله أحمد بن يحيي
"المنية والأمل" مكتبة المتحف البريطانى ، القسم الشرقى ، رقم (٣٧٧٢) ؛ وهو أول شرح لكتاب "غايات الأفكار" (مكتبة المتحف البريطانى القسم الشرقى رقم (٣٩٨٦) . والنسخة الثانية من الشروح مجموعة تحت عنوان "غايات الأفكار" .

(٨٢) مرجوليوث : د.س . Margoliouth, Prof. D. S.

"Cairo, Jerusalem and Damascus." (Oxford, 1907).

(٨٣) المسعودى (+ ٣٤٦ هـ و ٩٥٦ م) : أبو الحسن على بن الحسين بن على .

(١) "كتاب التنبيه والإشراف" طبعة دى غويه (De Goeje)

(Bibliotheca Geographoram Arabicorum, Vol. VIII. (Leyden, 1893).

(٢) "مروج الذهب ومعادن الجوهر" جزءان (القاهرة سنة ١٣٠٣هـ و ١٨٨٥م) ، ٩ أجزاء ترجمه الى الفرنسية س . باربيه دى مينار (C. Barbier de Meynard) (باريس سنة ١٨٦١ — ١٨٧٧) .

(٨٤) مسكويه (+ ٤٢١ هـ و ١٠٣٠ م) : أبو على أحمد بن محمد ، "كتاب تجارب الأمم" النسخة العربية جزءان . طبعة هـ . ف . أمدروز (H. F. Amedroz) وترجمه الأستاذ مرجوليوث (Prof. D. S. Margolioth) (أكسفورد سنة ١٩٢١ م) .

(٨٥) مسلم (+ ٢٦١ هـ و ٨٧٥ م) : أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيرى "الجامع الصحيح" ٨ أجزاء فى ٤ مجلدات (القاهرة سنة ١٣٢٩ — ١٣٣٢ هـ) .

(٨٦) المعرى (+ ٤٤٩ هـ و ١٠٥٧ م) : أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان :

(١) "سقط الزند" (القاهرة ١٣١٩ هـ) .

(٢) "لزوم مالا يلزم" (القاهرة سنة ١٨٩١ م) .

(٨٧) المقدسى (+ ٣٨٧ هـ و ٩٩٧ م) : شمس الدين أبو عبد الله محمد .

"أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم" طبعة دى غويه (De Goeje) Bib. Geog. Arab. (ليدن سنة ١٩٠٦م) .

(٨٨) المقرى (+ ١٠٤١ هـ و ١٦٣٣ م) : أحمد بن محمد .

"نفح الطيب فى غصن الأندلس الرطيب" ٤ أجزاء (بولاق سنة ١٢٧٩ هـ و ١٨٦٢ م) .

(٨٩) المقريزى (+ ٨٤٥ هـ و ١٤٤١ م) : تقى الدين أحمد بن على :

(١) "المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار" جزءان (بولاق سنة ١٢٧٠ هـ) .

(٢) "اتعاظ الحنفا بأخبار الخلفا" (بيت المقدس سنة ١٩٠٨ م) .

(٣) "السلوك فى معرفة دول الملوك" مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس رقم ٢٠٦٩ . ترجمه كترمير (Quatremère) الى الفرنسية (Histoire des Sultans Mamluks de l'Egypte) وذيله بمذكرات فيلولوجية وتاريخية وجغرافية ، وهو جزءان (باريس سنة ١٨٣٧ م) .

(٤) " التاريخ الكبير المقفى " .

(ا) مخطوط بمكتبة الجامعة بليدن رقم ٢٣٦٦ ، ٣ أجزاء .

(ب) مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس رقم ٢١٤٤

(٩٠) ملر : كنراد فون .

Miller, Konrad von.

Mappæ Arabicæ, drawn after Idrisi, 4 parts (Stüuttgart ; 1926-1927).

(٩١) ابن منجب (+ ٥٤٢ هـ و ١١٤٧ م) : أمين الدين تاج الرياسة أبو القاسم على ، ويسمى أيضا الصيرفى المصرى " الإشارة الى من نال الوزارة " (القاهرة سنة ١٩٢٤ م) .

(٩٢) ابن ميسر (+ ٦٧٧ هـ و ١٢٧٨ م) : محمد بن على بن يوسف بن جلب .

"تاريخ مصر" طبعة هنرى ماسيه (Henri Massé) (القاهرة سنة ١٩١٩ م) .

(٩٣) ناصرى خسرو (+ ٤٨١ هـ و ١٠٨٨ م) :

" سفرنامه " .

(Rélation du voyage de Nasiri Khosrau en Syrie, en Palestine, en Egypte, en Arabie et en Perse), Persian Text and Translation by Charles Schefer (Paris, 1881).

(٩٤) ابن النديم (+ ٣٨٣ هـ و ٩٩٣ م) : محمد بن اسحق " كتاب الفهرست " جزءان (لايبسك سنة ١٨٧١ م) .

(٩٥) النويرى (+ ٧٣٢ هـ و ١٣٣٢ م) : أحمد بن عبد الوهاب .

" نهاية الأرب فى فنون الأدب " (مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس رقم ١٥٧٦) . نشرت دار الكتب الملكية بالقاهرة ٧ أجزاء من هذا الكتاب .

(٩٦) نيكلسن : چون .

Nicholson, John.

"An Account of the Establishment of the Fatemite Dynasty in Africa." (Tübingen, 1840).

(٩٧) نيكلسن : الأستاذ رينلد ا :

Nicholson, Prof. Reynold A.

"Literary History of the Arabs." (London, 1914).

(٩٨) ابن هانىء (+ ٣٦٢ هـ و ٩٧٣ م) : أبو القاسم المكنى بأبى الحسن محمد .

"ديوان ابن هانى" (بيروت سنة ١٣٢٦ هـ) .

(٩٩) الهدوى (+ ٦٧٠ هـ و ١٢٧١ — ١٢٧٢ م) : الإمام المنصور بالله شرف الدين الحسين ابن يحيى ، "أنوار اليقين فى فضائل أمير المؤمنين" ، (مكتبة المتحف البريطانى ، القسم الشرقى رقم ٣٨٦٨) .

(١٠٠) ابن هشام (+ ٢١٨ هـ و ٨٣٣ م) : أبو محمد عبد الملك .

"كتاب سيرة رسول الله" ، ٥ أجزاء طبعة ف . وستنفلد (F. Wüstenfeld, Göttingen, 1858-1860).

(١٠١) هلال الصابئ (+ ٤٤٨ هـ و ١٠٥٦ م) : أبو الحسن بن المحسن بن أبى إسحق ابراهيم الكاتب .

(١) "تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء" طبعة هـ . ف . أمدروز (H. F. Amedroz) ، وذيله الناشر بفهرس ومذكرات .

(٢) الجزء الثامن من تاريخه (٣٨٩—٣٩٣هـ) ، طبعة أمدروز (H. F. Amedroz) . وطبعه بعد ذلك وترجمه الأستاذ مرجوليوث (Prof. D. S. Margoliouth) وذيل به كتاب "تجارب الأمم" لمسكويه (القاهرة سنة ١٩١٩ م) .

(١٠٢) الهمْدانى (+ ٣٣٤ هـ و ٩٤٦ م) : أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب بن يوسف ابن داود .

"صفة جزيرة العرب" جزءان ، طبعة داڤيد هينريش ميلر (David Heinrich Müller) (ليدن سنة ١٨٩١) .

(١٠٣) ابن واصل (+ ٦٩٧ هـ و ١٢٩٧—١٢٩٨ م) : جمال الدين بن واصل الشافعى المذهب "مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب" (مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس رقم ١٧٠٢) .

(١٠٤) وستنفلد : ف . فون . Wüstenfeld, F. von.

(1) "Geschichte der Fatimiden Chalifen." (Göttingen, 1881).

(2) "Geschichtschreiber der Araber und ihre Werke." (Göttingen, 1882).

(١٠٥) ياقوت (+ ٦٢٦ هـ و ١٢٢٩ م) : شهاب الدين أبو عبد الله الحموى الرومى .

(١) "معجم البلدان" ، ١٢ جزء (القاهرة سنه ١٣٢٣ هـ و ١٩٠٦ م) .

(٢) "إرشاد الأريب الى معرفة الأديب" .

E. J. W. Gibb Memorial, Series VI. 7 vols. (Cairo, 1907-1911).

(٣) "مراصد الاطلاع على أسماء الأماكن والبقاع" : اختصره عبد المؤمن بن عبد الحق، ٤ أجزاء، طبعة جوينبل T. G. J. Juynboll (لندن سنة ١٨٥٣م).

(١٠٦) يحيى بن الحسين (+ ٣٦٠ هـ و ٩٧١ م) : الإمام يحيى بن الحسين بن هارون بن زيد بن على بن أبى طالب .... "كتاب الإفادة فى تاريخ الأئمة السادة على مذهب الزيدية"، مخطوط بمكتبة الجامعة بليدن رقم ١٩٧٤) .

(١٠٧) يحيى بن سعيد الأنطاكى (+ ٤٥٨ هـ و ١٠٦٦ م) .

"صلة كتاب أوتيخا" المسمى "التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق"، جزءان (بيروت سنة ١٩٠٩ م) .

(١٠٨) اليعقوبى (+ ٢٨٣ هـ و ٨٩٥ م) : أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح .

(١) "تاريخ اليعقوبى"، جزءان، طبعة هوتسما (M. Th. Houtsma) (ليدن سنة ١٨٨٣ م) .

(٢) "كتاب البلدان"، طبعة دى غويه (Bibl. Geog. Arab.) Vol. VII. (De Goeje) (ليدن سنة ١٨٩٢ م) .

فهارس الكتاب

١ — الأعلام

(ا) أسماء الرجال :

(ح)

(خ)

(د)

(ذ)

(ر)

(ص)

(ض)

(ط)

(ظ)

(ع)

غ

ف

ق

(ك)

(ل)

(م)

ن

(ب) اسمـــاء النساء :

٢ — الأماكن

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

٣ — المصادر

(س)

(ش)

(ص)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

ن

و

ى

٤ — النبات والحيوان والمعادن
ويشمل الكلمات التى تدل على حوادث تاريخية هامة

(د)

(ذ)

(ر)

(ز)

(س)

(ن)

(هـ)

(و)

(ى)

٥ ـ الآيات القرآنية

٦ — الخرائط الجغرافية

٧ — الصـــور

ذيل بوصف صور الكتاب

صورة المقدمة :

تمثال للعنقاء من الشبهان :

طوله ١,٠٥ متر وارتفاعه ٠,٨٥ ومحفوظ فى متحف كامبو سانتو (Campo Santo) بمدينة بيزا فى إيطاليا . و يقال إن عمورى ملك بيت المقدس هو الذى أحضره إلى إيطاليا بعد انتصاره فى احدى الحروب الصليبية . وجسم هـذه العنقاء على شكل أسد ، ورأسها كرأس النسر ، يخرج من كتفيها جناحان صغيران . وجسمها عليـه نقوش أسود ونسور وكتابات كوفية تتضمن أدعية التبرك . ومظهر هذه العنقاء يسترعى النظر .

Migeon, 2me ed. Tome I. p. 374, fig. 182

رقم ١ :

جامع عمرو بن العاص :

منظر عام للايوان الشرقى الذى يظهر كأنه غابة قوامها أعمدة من الرخام .

رقم ٢ :

جامع ابن طولون :

ايوان الجامع الغربى وصحنه ، تعلوه المنارة ، وتظهر بالصورة قبة الميضأة التى بوسط الصحن .

رقم ٣ :

الجامع الأزهر :

الباب الخارجى للجامع .

رقم ٤ :

الجامع الأزهر :

صحن الجامع و به القبلة الوسطى .

مجموعة معرض المساحة ٢٩/٦٥١ .

رقم ٥

الجامع الأزهر :

بعض عقود الجامع ، محلاة بالجص ومحلاة بزخارف وكتابات كوفية . وهى من عهد إنشائه

رقم ٦

(أ) جامع الحاكم :

منارة الحاكم

(ب) جامع الأقمر :

واجهة الجامع الذى بناه الآمر بأحكام الله سنة ٥١٩ هـ .

رقم ٧

(أ) محراب كان بمشهد السيدة نفيسة ، إطاره من خشب نبق وهو مكون من مجمع حشوات صغيرة من البقس (نوع من الخشب) والساج الهندى . وبهذه الحشوات زخارف دقيقة الصنع ، نخص بالذكر منها الفواكه العنبية . وكانت هذه الزخرفة رائجة فى القرنين الخامس والسادس الهجرى .

دار الآثار العربية رقم ٤٢١

(ب) محراب من خشب نقل من مشهد السيدة رقية ابنة على بن أبى طالب كرم الله وجهه . عمل بأمر زوجة الخليفة الفاطمى الآمر بأحكام الله سنة ٥٥٦ هـ . وهو تحفة فنية فريدة ؛ وواجهته مكونة من حشوات مجمعة على شكل نجوم ورسوم هندسية ، وجانباه وظهره مكونة من حشوات كبيرة تخللها زخارف متناسقة وأوراق بها حلى دقيقة .

دار الآثار العربية رقم ٤٤٦

رقم ٨

(أ) لوح من الرخام وجد بخانقاه السلطان بيبرس الثانى (الجاشنكير) ، منحوت الجوانب . وجد مقلوبا على وجهه حيث كان مستعملا فى تبليط الأرضية . وبنيت هذه الخانقاه فى مكان دار الوزارة الفاطمية المشيدة فى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) . وبجانبى اللوح كتابة كوفية تهشم نصفها العلوى عند ما أعيد استعمال اللوح فى الخانقاه . والتزيين بصور الأسماك والحمام يوضح ان الزخرفة من العهد الفاطمى .

دار الآثار العربية رقم ٦٩٥٠

(ب) شاهد من الرخام عليه كتابة بالخط الكوفى البارز الجميل الذى بلغ النهاية فى الجودة والإتقان فى عهد الدولة الفاطمية . وهو باسم أبى المكارم بن أبى القاسم المصرى بن عاشور المتوفى فى أوائل القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) . ونص الكتابة كما يأتى :

١ — رب اغفر وارحم .

٢ — بسم الله الرحمن الرحيم .

٣ — يبشرهم ربهم برحمة منه .

٤ — ورضوان وجنات لهم .

٥ — فيها نعيم مقيم خالدين فيها .

٦ — أبدا إن الله عنده أجر عظيم .

٧ — توفا (كذا) أبو المكارم بن أبو (كذا) القاسم .

٨ — المصرى بن عاشور (؟) فى يوم السبت

٩ — الخامس عشر من صفر سنة

١٠ — ....وثلاثين وخمس مائة رحمة الله عليه .

رقم ٩ :

(أ) قطعة نسيج من كتان أبيض مزين بشريط به صور طيور متقابلة . وهى من حرير أبيض على أرضية من حرير أزرق . ويحيط بهــذه الزخارف سطران من كتابة كوفية منسوجة بخيوط بيضاء على أرضيــة من حرير حمراء تتضمن اسم الخليفة الحاكم بأمر الله وابن عمه عبد الرحيم بن الياس الذى ولاه عهده فى سنة ٤٠٤ هـ (١٠١٣ ميلادية) .

دار الآثار العربية رقم ٨٢٦٤

(ب) قطعة نسيج من كتان مزينة بجامات على أرضية حمراء . وصور الطيور التى بالجامات منقوشة بألوان مختلفة : أحمر وأزرق وأصــفر وأخضر . وشكل الحروف التى فى سطرى الكتابة يحمل على الظن بأنها ترجع الى القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) .

دار الآثار العربية رقم ٥٢٦١

رقم ١٠ :

أجزاء من أربعة ألواح من الخشب ، أصلها من أحد قصور الخلفاء الفاطميين ، منقوش عليها :

(أ) مناظر تمثل الرقص والصيد والموسيقى . وبها صور طيور أحدها له رأس آدمى .

دار الآثار العربية رقم ٣٤٦٥ ، ٣٤٦٦

(ب) مناظر منقوشة نقشا متقنا تمثل طيورا وتيوسا وصائدا يقتنص سبعا ، مع جوقة من الموسيقيين .

دار الآثار العربية رقم ٣٤٧١ ، ٤٠٦٣

ويرجع ذلك كله الى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) .

رقم ١١ :

باب ذو مصراعين ، أخذ من مارستان السلطان قلاون . وبالرغم من وجوده فى هــذا المكان ، فان مصدره الحقيق يتبين من صور الأشخاص والحيوانات المحفورة حفرا دقيقا غائرا ، وذلك خاص بزخارف الفاطميين . ويضاف الى ذلك أن حشواته العلوية مقطوعة لتجعله موافقا لارتفاع الفتحة التى ركب عليها أخيرا . وهذا يبين بجلاء أنه كان مركبا على أحد أبواب القصر الفاطمى الغربى الذى بنى مكانه مارستان وقبة ومسجد قلاون .

دار الآثار العربية رقم ٥٥٤

رقم ١٢ :

(أ) باب النصر . بنى سنة ٤٨٠ هـ .

(ب) باب الفتوح . بنى سنة ٤٨٠ هـ .

رقم ١٣ :

جامع الجيوشى :

منظر خارجى لجامع الجيوشى على سفح المقطم . تظهر على يمينه قلعة الجبل ، وعلى يساره قلعة صلاح الدين الايوبى وعليها جامع محمد على بمنارتيه العاليتين .

وقد تم بناء هذا الجامع فى سنة ٤٧٨ هـ (١٠٨٥) ، كما يستدل على ذلك من لوحة الرخام فى أعلى الباب العام ، عليها بالخط الكوفى : " بسم الله الرحمن الرحيم ! وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا (١) . لا يزال بنيانهم الذى بنوا ريبة فى قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم " (٢) .

مما أمر بعمارة هذا المشهد المبارك فتى مولانا وسيدنا الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الأئمة الطاهرين وأبنائه الأكرمين . وسلم الى يوم الدين ، السيد الأجل أمير الجيوش سيف الاسلام ناصر الامام كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين . عضد الله به الدين وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين وأدام قدرته وأعلى كلمته وكبت عدوه وحسدته ابتغاء مرضاة الله . فى المحرم سنة ثمان وسبعين وأربعمائة .

رقم ١٤ :

(ا) طبق من الخزف ذى بريق ذهبى محلى وسطه من الداخل بصورة ديك فى فمه فرع نباتى . أما جدران الطبق فحلاة بزخارف نباتية . ويرجع عهده الى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) .

دار الآثار العربية رقم ٥٥٠٢

(ب) شبابيك قلل من فخار مزينة بزخارف متقنة الصنع تشبه " الدنتلا " . والشباك الأوسط مزين بصورة طاووس ناشرا ذيله مختالا . أما الأربعة الأخرى فثلاثة منها مزينة بزخارف هندسية ، والرابع بكتابات كوفية .

دار الآثار العربية رقم ٣ — ٦٥٣١ ، ٤٢ — ٦٥٣١ ، ٧١٠٢ ، ٨٥٧٦ ، ٨٥٧٧

رقم ١٥ :

(ا) قدر من خزف ذى بريق ذهبى ، مزينة من الخارج بثلاث دوائر ، بكل منها صورة طائر فى منقاره فرع نباتى . وهى من التحف المحفوظة فى متحف فكتوريا وألبرت بلندن .

Victoria and Albert Museum (London).

Sir E. Denison Ross. The Art of Egypt Through the Ages, p. 336.

(ب) قطعتان من خزف ذى بريق ذهبى . على الأولى رسم المسيح عليه السلام يحيط برأسه إكليل من نور ، وقد رفع يده اليسرى بعلامة التبريك . وعلى الثانية صورة ثلاثة أشخاص مكتوب فوق أوسطها أبو طالب (عم النبى صلى الله عليه وسلم) وقد قبض بيده اليمنى على سيف وأمسك بيده اليسرى كيسا به دراهم . ولعلها رمز لسيف المعز وذهبه .

دار الآثار العربية رقم ١ — ٥٣٩٧ ، ٢ — ٥٣٩٦

رقم ١٦ :

(ا) ظهر مرآة من الشبهان ، منقوش عليها نقشا بارزا صورة حيوانين خرافيين ، جسم كل منهما على شكل أسد بوجه إنسان وجناحى طائر ، تحيط بهما كتابة كوفية تتضمن أدعية لصاحبها . عثر عليها أثناء التنقيب على أطلال مدينة الفسطاط .

دار الآثار العربية رقم ٣٩١٥

(ب) شمعدان من الشبهان ، له ثلاثة أرجل تحمل قرصا مسدسا مزينا سطحه بالزخارف النباتية والكتابات الكوفيه المشجرة المتضمنة بعض الأدعية . ومنقوش على القرص العلوى للشمعدان إمضاء صانعه ابن المكى . ويرجع عهده الى القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) .

دار الآثار العربية رقم ٨٤٨٣

---

(١) القرآن الكريم سورة ٧٢ آية ١٨
(٢) شرحه « ٩ « ١٠٩

رقم ١٧ :

(أ) حشوة من خشب تشبه محرابا صغيرا يرتكن عقـــده المدبب على عمودين حلزونيين . وتتضمن الكتابة الكوفية القليلة التشجير اسم النبي صلى الله عليه وسلم وعلى كرم الله وجهه والسبطين (الحسن والحسين) والأئمة من ذريتهم . ويرجع عهدها الى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) .

دار الآثار العربية رقم ٨٤٦٤

(ب) قطع من العاج عثر عليها أثناء الكشف عن أطلال الفسطاط . منقوش عليها بدقة فائقة بين الزخارف النباتية صور أشخاص وباز دار (الصائد بالباز) وبيدق (عسكرى) مسلح برمح ، وصور حيوانات وجمل يحمل هودجا ، وصور أرنب وغزالة وطاووس ، صناعتها من عهد الفاطميين من القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) .

دار الآثار العربية رقم ٥٠١٠ ، ٥٠٢٣ ، ٥٠٢٤ ، ٥٠٢٦ ، ٥٠٢٧

رقم ١٨ :

(أ) قطعة نسيج من حرير أرضيتها صفراء فاتحة مزينة بشريط متعرج لونه أخضر قاتم ، نشأ من تعرجه جامات بيضية الشكل مدببة الأطراف . وبداخل هذه الجامات صـــور طيور جاثمة متقابلة ، ظهور بعضها الى بعض ، ورءوسها متقابلة . وهى من القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) .

دار الآثار العربية رقم ٢١٣٧

(ب) قطعة نسيج من كتان وحرير منتهية من أسفل بشراريب لونها أصفر ذهبى ، مزينة بزخارف على شكل معينات تتخللها كتابة حروفها تارة حمراء وتارة بيضاء على أرضية حمراء أو زرقاء . وهذه الكتابات عبارة عن دعاء بالسعادة . وهى من صناعة مصر فى القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) .

دار الآثار العربية رقم ٣٣١١

رقم ١٩ :

(أ) إبريق من البلور الصخرى مزين سطحه بصور طيور وفروع نباتية وكتابات كوفيـــة تتضمن أدعية لصاحبه . وهو محفوظ بمتحف اللوفر بباريس Musé du Louvre (Paris)

Migeon, 2me édition, Tome II. p. 108.

(ب) إبريق من البلور الصخرى مزين سطحه بصور طيور وحيوانات تتخللها فروع نباتية . وهو محفوظ بمتحف فكتوريا وألبرت بلندن .

Migeon, 2me édition, Tome II. p. 110.

المطبعة [illegible] ١٣٨٤ - ١٩٦٤ م - ١٠٠٠


Bibliotheca Alexandrina
0268415